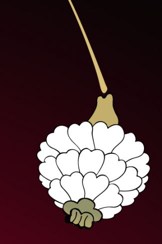
الأمير شكيب أرسلان



الحلل السندسية
في الأخبار والآثار الأندلسية

الجزء الثاني



الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية (الجزء الثاني)

الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية (الجزء الثاني)

تأليف
الأمير شكيب أرسلان



الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية (الجزء الثاني)

الأمير شكيب أرسلان

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٤٩١٤
تدمك: ٠ ٦١ ٥١٧١ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi Foundation for Education and Culture.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

الفصل الأول

من نبغ في طليطلة من الحكماء والفقهاء والأدباء

أحمد بن محمد بن داود التجيبي، يكنى أبا القاسم، توفي سنة ٣٨٣. وأحمد بن سهل بن محسن الأنصاري المقرئ، المكنى بأبي جعفر، المعروف بابن الحداد، له رحلة إلى المشرق، توفي في شهر رمضان سنة ٣٨٩. وأحمد بن محمد بن الحسن المعافري، توفي سنة ٣٩٣، أو في السنة التي بعدها. وأحمد بن محمد بن محمد بن عبيدة الأموي، يعرف بابن ميمون، يكنى أبا جعفر، صاحب أبي إسحاق بن شنظير، ونظيره في الجمع والإكثار والملازمة معًا، والسماع جميعًا، رحل إلى المشرق سنة ٣٨٠ مع صاحبه أبي إسحاق، فحج معه، وسمع بمكة، والمدينة، ووادي القرى، ومدين، والقلزم، وغيرها، ثم عاد إلى طليطلة واستوطنها، ورحل الناس إليه بها، والتزم الرباط بالفهمين[1] منها، وكانت له أخلاق كريمة، وآداب حسنة، من الفضل والزهد والورع، وجمع كثيرًا من الكتب، وكان أكثرها بخط يده. قال ابن بشكوال: وكانت منتخبة، مضبوطة، صحاحًا، أمهات، لا يدع فيها شبهة مهملة. وكانت كتبه وكتب صاحبه إبراهيم بن محمد أصح كتب بطليطلة، وتوفي يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان سنة ٤٠٠ ودفن بحومة باب شاقره[2] بربض طليطلة، وصلى عليه صاحبه أبو إسحاق بن شنظير وكانت ولادته سنة ٣٥٣.

وأبو عمر أحمد بن محمد بن وسيم، كان فقيهًا متفننًا، شاعرًا لغويًّا نحويًّا، غزا مع محمد بن تمام إلى مكّادة، فلما انهزموا هرب إلى قرطبة، فاتبعه أهل طليطلة في ولاية واضح، وظفروا به فصلبوه، فقال حينئذ: كان ذلك في الكتاب مسطورًا وجعل يقرأ سورة ياسين حتى سقط من الخشبة. قال ابن حيان في تاريخه: صلب ابن وسيم في رجب سنة ٤٠١.

وأحمد بن محمد بن فتحون الأموي، كان نبيلًا، توفي سنة ٤٠٧. وأحمد بن خلف بن أحمد المعافري، يكنى أبا عمرة، ويعرف بابن القلاباجة، روى عن عبدوس بن محمد، وعن محمد بن إبراهيم الخشني، وكان من أهل العلم والدين، يستظهر موطأ مالك وأحمد بن سعيد بن كوثر الأنصاري، يكنى أبا عمر، كان فقيهًا متفننًا، كريم النفس، أخذ عن علماء طليطلة، وأجاز له جماعة من شيوخ قرطبة. حدث عبد الله بن سعيد بن أبي عون قال: كنت آتي إليه من قلعة رباح وغيري من الشرق وكنا نيفًا على أربعين تلميذًا، فكنا ندخل في داره في شهر نوفمبر ودوجمبر (ديسمبر) وينّير(يناير)[٣] في مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات والحيطان باللبود ووسائد الصوف، وفي وسطه كانون في طول قامة الإنسان مملوء فحمًا، يأخذ دفئه كل من في المجلس، فإذا فرغ الحزب أمسكهم جميعًا، وقدمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان، بالزيت العذب، وأيام ثرائد اللبان في السمن أو الزبد. فكان ذلك منه كرمًا وجودًا وفخرًا، ولم يسبقه أحد من فقهاء طليطلة إلى تلك المكرمة. وولي أحكام طليطلة مع يعيش بن محمد، ثم استثقله ودبّر على قتله، فذُكر أن الداخل عليه ليقتله ألقاه وهو يقرأ في المصحف، فشعر أنه يريد قتله، فقال له: قد علمتُ الذي تريد، فاصنع ما أُمرت. فقتله، وأشيع في الناس أنه مرض ومات. وذكر ابن حيان غير هذا، وهو أنه مات معتقلًا بشنترين مسمومًا سنة ٤٠٣ رحمه الله.

وأحمد بن عبد الله بن شاكر الأموي، يكنى أبا جعفر، كان معلمًا بالقرآن، توفي سنة ٤٢٤. وأحمد بن يحيى بن حارث الأموي، يكنى أبا عمر، وكان ميله إلى الحديث والزهد والرقائق، وكان ثقة. وأحمد بن إبراهيم بن هشام التميمي أبو عمر، كان معظمًا عند الخاصة والعامة، توفي في سنة ٤٣٠. وأحمد بن حية، كان فاضلًا متواضعًا حافظًا توفي في شعبان سنة ٤٣٩. وأحمد بن عبد الله بن محمد التجيبي، المعروف بابن المشّاط، يكنى أبا جعفر، كان ثقةً زاهدًا، غلبت عليه العبادة. وأحمد بن محمد بن يوسف بن بدر الصدفي، أبو عمر، كان زاهدًا عابدًا، توفي في ذي القعدة سنة ٤٤١. وأحمد بن قاسم بن محمد بن يوسف التجيبي أبو جعفر، يعرف بابن ارفع رأسه، كان رأسًا في الفقه، وشاعرًا مطبوعًا، بصيرًا بالحديث، وكانت له حلقة في الجامع، وتوفي ليلة عاشوراء سنة ٤٤٣. وأحمد بن سعيد بن أحمد بن الحديدي التجيبي، يكنى أبا عباس له رحلة إلى المشرق، حج فيها، وله أخلاق كريمة، توفي سنة ٤٤٦. وأحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد بن وثيق بن عمان التغلبي، قاضي طليطلة، يكنى أبا الوليد، استقصاه المأمون بن ذي النون، وكان مجتهدًا في قضائه صليبًا في الحق، صارمًا في أموره كلها، متبركًا بالصالحين، توفي قاضيًا لخمس باقين من رمضان سنة ٤٤٩.

وأحمد بن يوسف بن حمّاد الصدفي، أبو بكر، يعرف بابن العوّاد، كان معلمًا بالقرآن، حسن الضبط، ورعًا؛ توفي سنة ٤٤٩. وأحمد بن يحيى بن أحمد بن أحمد بن سُميق بن محمد بن عمر بن واصل بن حرب بن اليسر بن محمد بن علي، قال ابن بشكوال: كذا ذكر نسبه رحمه الله، وذكر أن أصلهم من دمشق من إقليم الغدّير(؟) يكنى أبا عمر، من أهل قرطبة، سكن طليطلة وتوفي بها في حدود الخمسين وأربعمائة.

وكان خروجه عن قرطبة في أثناء الفتنة، فولّاه أبو عمر بن الحذّاء قاضي طليطلة أحكام القضاء بطلبيزة، فسار فيهم بأحسن سيرة، وعني بالحديث، وكان مشاركًا في عدة علوم، وكان متهجدًا بالقرآن، له منه حزبٌ بالليل، وحزبٌ بالنهار. وكان ملتزمًا لداره، لا يخرج منها إلا للصلاة أو لحاجة. وكان يختلف إلى غلّة، له بحومة المترب، يعمرها بالعمل ليعيش منها.

وأحمد بن محمد بن عمر الصدفي، المعروف بابن أبي جنادة، المكنى بأبي عمر، كان من أهل العلم والعمل، صوامًا قوامًا، منقبضًا عن الناس، فارًا بدينه، ملازمًا لثغور المسلمين، توفي في شوال سنة ٤٥٠، وصلى عليه تمام بن عفيف، وحضر جنازته المأمون بن ذي النون ملك طليطلة. وأحمد بن مغيث بن أحمد بن مغيث الصدفي، المكنى بأبي جعفر، من جلّة علماء طليطلة، بلغ الرئاسة في العلم والحديث وعلمه، واللغة، والنحو، والتفسير، والفرائض، والحساب، وعقد الشروط. له فيها كتاب سمّاه المقنع، وكان كلفًا بجمع المال، توفي في صفر سنة ٤٥٩.

وأحمد بن محمد بن مغيث الصدفي، له رحلة إلى المشرق، وكان يحفظ صحيح البخاري، ويعرف رجاله، وكان يفضل الفقر على الغنى، مات في منسلخ رمضان سنة ٤٥٩،[٤] وصلى عليه القاضي أبو زيد الحشّا. وأحمد بن سعيد بن غالب الأموي المكنى أبا جعفر، المعروف بابن اللورانكي، كان فقيهًا في المسائل مشاركًا في الحديث والتفسير، أديبًا، فرضيًّا، لغويًّا، توفي في شوال سنة ٤٦٩ وصلى عليه عبد الرحمن بن المغيث.

وأحمد بن محمد بن أيوب بن عدل، المكنى أبا جعفر، كان متوليًا الصلاة والخطبة بجامع طليطلة، وكان من أهل الصلاح والعفاف، توفي في ربيع الآخر سنة ٤٧٨، أي بعد سقوط طليطلة، لأنها سقطت في محرم، وقيل في صفر من تلك السنة. وأحمد بن يوسف بن أصبغ بن خضر الأنصاري، أبو عمر، كان ثقةً بصيرًا بالحديث والتفسير، عالمًا بالفرائض؛ رحل إلى المشرق وحج، ثم تولى القضاء بطليطلة ثم صُرف عنه، وتوفي بقرطبة سنة ٤٨٠. قال ابن بشكوال: إنه وجد على قبره بمقبرة أم سلمة أنه توفي في شعبان سنة ٤٧٩. وأحمد

ابن بشر الأموي، وكان نبيلًا وقورًا، عاقلًا، انتقل من طليطلة إلى سرقسطة وبقي بها إلى أن توفي سنة ٤٨٥. وأحمد بن عبد الرحمن بن مطاهر الأنصاري، أبو جعفر، لقي كثيرًا من الشيوخ وأخذ عنهم وكان بصيرًا بالمسائل، مولعًا بحفظ الآثار، وتقييد الأخبار، وله كتاب في تاريخ فقهاء طليطلة وقضاتها، وقد نقل عنه ابن شكوال أكثر التراجم التي سبقت ونحن هنا نقلناها تلخيصًا عن ابن بشكوال، وتوفي بطليطلة في أيام النصارى سنة ٤٨٩. وأحمد بن إبراهيم بن قزمان المكنى أبا بكر، أخذ عن أبي بكر بن الغرّاب، وأبى عمرو السفاقسي، وحدّث عنه أبو حسن بن الألبيري، وإبراهيم ابن إسحاق الأموي المعروف بابن أبي زود، كنيته أبو إسحاق، توفي في رمضان سنة ٣٨٢. وإبراهيم بن محمد بن أشبح الفهمي، كان متفننًا عارفًا باللغة العربية والفرائض والحساب، وشُووِر في الأحكام، وتوفي في شعبان سنة ٤٤٨، وصلى عليه أحمد بن مغيث، وحضر جنازته المأمون. وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن أبي عمر، كان صالحًا، وقورًا عاقلا، توفي في صفر سنة ٤٥١، نقل ذلك ابن شكوال عن ابن مطاهر. وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن حسين بن شنظير الأموي، صاحب أبي جعفر بن ميمون الذي سبق ذكره، وكانا معًا كفرسي رهان في العناية الكاملة بالعلم والبحث عن الروايات. أخذا العلم معًا عن مشيخة طليطلة، ثم رحلا إلى قرطبة، فأخذا عن مشيختها، وسمعا بسائر بلاد الأندلس، ثم رحلا إلى المشرق، فسمعا معًا وكانا لا يفترقان. وكان السماع عليهما معًا، وكانت إجازتهما بخطهما لمن سألهما ذلك معًا. وكان لهما حلقة في المسجد الجامع. ورحل الناس إليهما من الآفاق، ولما توفي أحمد بن محمد بن ميمون انفرد أبو إسحاق بن شنظير بالمجلس، وكان فاضلًا ناسكًا، صوامًا، قوامًا، ورعًا، كثير التلاوة لكتاب الله، ما رؤي أزهد منه في الدنيا، ولا أوقر مجلسًا. كان لا يُذكر في مجلسه شيء من أمور الدنيا إلا العلم، ولم يكن يجرأ أحد أن يضحك بين يديه.

قال ابن مطاهر: إنه توفي سنة ٤٠١، ودفن بربض طليطلة. ونقل ابن شكوال عن أبي إسحاق إبراهيم بن وثيق أنه سمع أبا إسحاق إبراهيم بن شنظير يقول: ولدتُ سنة ٣٥٢، سنة غزاة الحكم أمير المؤمنين. وكانت وفاته ليلة الخميس من سنة ٤٠٢، وقال: هذا أصح من الذى ذكره ابن مطاهر. وأيضًا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن شنظير الأموي، كان من أهل العلم والدين، اختصر المدونة، والمستخرجة، وكان يحفظها ظاهرًا، ويلقي المسائل من غير أن يمسك كتابًا، قال ابن بشكوال: وكان قد شرب «البلاذر» انتهى.

قلت: ورد في ترجمة أحمد بن يحيي بن جابر البغدادي المؤرخ الشهير بالبلاذري أنه تناول بغير قصد كمية من حب البلاذر، أثرت في فكره تأثيرًا عظيمًا، حتى كانت تقع له نوبات جنون إلى أن مات. وهو صاحب تاريخ فتوح البلدان، من أجلّ التواريخ قدرًا.

وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن وثيق، أخذ عن أبي إسحاق بن شنظير، وصاحبه أبي جعفر بن ميمون، وكان ثقة. وإسماعيل بن إبراهيم بن إسماعيل بن أبي الحارث التجيبي، وكان رجلا صالحًا، توفي سنة ٤٤٤. وأبو إبراهيم إسحاق بن محمد بن مسلمة الفهري، أخذ عن علماء الأندلس، ورحل إلى المشرق، وكان مشاوَرًا في بلده، وتوفي في رجب سنة ٤٦٩ عن تسعين سنة. وأغلب بن عبد الله المقري، كان قارئًا بحرف نافع.

وتمام بن عفيف بن تمام الصدفي الواعظ الزاهد، يكنى أبا محمد، أخذ عن أبي إسحاق بن شنظير، وعن صاحبه أبي جعفر بن ميمون، وعن عبدوس بن محمد، وشهر بالزهد والورع، وكان يعظ الناس، توفي في ذي القعدة سنة ٤٥١، ذكره ابن مطاهر. وأبو أحمد جعفر بن عبد الله بن أحمد التجيبي، من أهل قرطبة، من ساكني ربض الرصافة بها، استوطن طليطلة، وأخذ فيها عن أبي محمد بن عباس الخطيب، وأبي محمد الشنتجالى. وكان ثقة فاضلًا، قُتل في داره بطليطلة ظلمًا ليلة عيد الأضحى سنة ٤٧٥، ومولده سنة ٣٩٣. وجماهر بن عبد الرحمن بن جماهر الحَجْرمي، يكنى أبا بكر، أخذ عن علماء الأندلس، ثم رحل إلى المشرق حاجًّا سنة ٤٥٢، فلقي بمكة كريمة المروزية، وسعد بن على الزنجاني، ولقي بمصر أبا عبد الله القضاعي، وسمع منه تواليفه. ولقي بالإسكندرية أبا علي حسين بن معافى، ولقي شيوخًا كثيرين. وكان حافظًا للفقه على مذهب مالك، عارفًا بالفتوى وعقد الشروط. وكان حسن الخلق متواضعًا، معظمًا عند الناس وكان قصير القامة جدًّا. وتوفي لاثنتي عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ٤٦٦، وهو ابن ثمانين سنة، وصلى عليه يحيى بن سعيد بن الحديدي، وازدحم الناس جدًّا حول نعشه.

وأبو على الحسين بن أبي العافية الجنجيالي، قدم طليطلة مرابطًا، وكان شيخًا صالحًا، توفي سنة ٣٨٣. وخلف بن صالح بن بن عمران بن صالح التميمي، أبو عمر،[٥] كان من أهل الحديث، توفي ليلة الاثنين لسبع خلون من عشر ذي الحجة سنة ٣٧٨. وأبو بكر خلف بن إسحاق، ولد سنة ٣٠٠، وتوفي سنة ٣٨٠. وأبو بكر خلف بن بقّى التجيبي، تولى أحكام السوق ببلده، وكان يجلس لها بالجامع ثم عزل عنها وكان صليبًا في الحق. وأبو بكر خلف بن أحمد خلف الأنصاري المعروف بالرحوي، رحل إلى المشرق، وكان عارفًا بالأحكام، ناهضًا، وقضى أكثر دهره صائمًا، وكان مع ذلك كثير الصدقات، وكان له حظ من قيام الليل، ودعي إلى قضاء طليطلة فأبى، وهرب من ذلك، وتوفي سنة ٤٢٠.

وأبو القاسم خلف بن إبراهيم بن محمد القيسي المقرئ الطليطلي، سكن دانية وأخذ عن أبي عمرو المقرمي، وعن أبي الوليد الباجي، وتوفي يوم الاثنين عقب ربيع الأول سنة ٤٧٧. وأبو القاسم خلف بن سعيد بن محمد بن خير الزاهد الطليطلي، سكن قرطبة، قرأ القرآن على أبي عبد الله المغامي (نسبة إلى مغام، من قرى طليطلة، وقد سبق ذكرها) وتأدب به، وأخذ أيضًا عن أبي بكر عبد الصمد بن سعدون الركاني وكان رجلًا صالحًا ورعًا، متقللًا من الدنيا، يتبرك به الناس، كثير التواضع، وكان صاحب صلاة الفريضة بالمسجد الأعظم بقرطبة. قال ابن بشكوال: توفي رحمه الله يوم الاثنين ودفن عشية الثلاثاء، منتصف ذى القعدة سنة ٥١٥، ودفن بالربض، وصلى عليه القاضي أبو القاسم بن حمدين، وكانت جنازته في غاية من الحفل، ما انصرفنا منها إلا مع المغرب، لكثرة من شهدها من الناس.

وأبو الربيع سليمان بن إبراهيم بن أبي سعد بن يزيد بن أبي يزيد بن سليمان بن أبي جعفر التجيبي، كان مقرئًا أخذ عن عبدوس بن محمد، وعن محمد بن إبراهيم الخشني، وكان من أهل الصلاح، توفي في رمضان سنة ٤٣١. وأيضًا أبو الربيع سليمان بن عمر بن محمد الأموي، يعرف بابن صهبيّة، روى عن محمد بن إبراهيم الخشني، وعن الصاحبين: ابن شنظير وابن ميمون، وكانت له رحلة إلى المشرق، وكان يقرئ القرآن بجامع طليطلة. وكان ابن يعيش يستخلفه علي القضاء فيها، وكان مع هذا شاعرًا نحويًّا، خطاطًا. وأيضًا أبو الربيع سليمان بن محمد المعروف بابن الشيخ، من أهل قرطبة، لكنه مات في طليطلة، في الأربعين وأربعمائة. وكان بارع الخط، أفنى عمره في كتابة المصاحف. وأيضًا أبو الربيع سليمان بن إبراهيم بن هلال القيسي، كان رجلًا صالحًا زاهدًا، فرق جميع ماله، وانقطع إلى الله عز وجل، وكان مشاركًا في الحديث والتفسير، ولزم الثغور، وتوفي بحصن عرماج، وذكروا أن النصارى يزورون قبره ويتبركون به. وأبو عثمان سعيد بن أحمد بن سعيد بن كوثر الأنصاري، وكانت فتيا طليلطة تدور عليه وعلى محمد بن يعيش. وكان من أهل الفطنة والدهاء والثروة، توفي في نحو الأربعمائة. وأبو عثمان سعيد بن رزين ابن خلف الأموي، يعرف بابن دحية، ذكره أبو بكر بن أبيض في شيوخه وأثنى عليه. وأبو الطيب سعيد أحمد بن يحيي بن السعيد بن الحديدي بن التجيبي، روى عن أبيه وعن محمد الخشني، وجمع كتبًا لا تحصى، وكان معظمًا عند الخاصة والعامة، ورحل إلى المشرق حاجًّا، وسمع بمكة وبمصر، وبالقيروان. وكان أهل المشرق يقولون: ما مر علينا مثله. قال ابن مطاهر: توفي يوم الاثنين لخمس خلون من ربيع الأول سنة

٤٢٨. وإبراهيم بن يحيي بن إبراهيم بن إبراهيم بن سعيد، يعرف بابن الأمين، كُنيته أبو إسحاق، سكن قرطبة، وأصله من طليطلة، وكان من جلّة المحدثين، ومن كبار الأدباء، توفي بلبلة في جمادى الآخرة سنة ٥٤٤، قال ابن بشكوال: وأخذت عنه وأخذ عني. وأثنى عليه وعلى دينه وعلمه.

وخلف بن يحيى بن غيث الفهري، من أهل طليطلة، سكن قرطبة، وتوفي بها سنة ٤٠٥، وكان شيخًا فاضلًا عالمًا، ونقل ابن بشكوال عن قاسم الخزرجي أنه توفي في منتصف صفر، ثم قال: وقرأت بخط ابنه محمد بن خلف: توفي والدي رضي الله عنه ليلة السبت، والأذان قد اندفع بالعشاء الآخرة، لأربع خلون من صفر سنة ٤٠٥. وأبو الربيع سليمان بن سماعة بن مروان بن سماعة بن محمد بن الفرج بن عبدالله، نقل ابن بشكوال عن أبي علي الغساني من خط يده أنه قال بحقه: هو شيخ من أهل الأدب، اجتمعتُ به ببطَلْيوس وبقرطبة. وأبو عثمان سعيد بن محمد بن جعفر الأموي، روى عن الصاحبين: ابن شنظير وابن ميمون، وكان فاضلًا، ثقةً، عفيفًا، كثير الصلاة والصيام، نابذًا للدنيا. مات في رمضان سنة ٤٤٨.[٦] وأبو عثمان سعيد بن عيسي الأصغر، كان عالمًا بالعربية، مشاركًا في المنطق، كاتبًا للأخبار، توفي في نحو الستين وأربعمائة.

وأبو طيب سعيد بن يحيي بن سعيد بن الحديدي التجيبي، كان من أهل العلم والذكاء، ولّاه المأمون بن ذي النون قضاء طليطلة، فحسنت سيرته، وكان ثقةً متحريًا مبلوّ السداد، ولم يزل قاضيًا حي توفي المأمون، فامتحن أبو الطيب هذا وقتل أبوه، وسجن هو بسجن «وَبْذَة» فمكث فيه إلى أن توفي في شوال سنة ٤٩٢، وذكر ابن مطاهر أنه عهد قبل موته أن يدفن بكبلة، وأن يكتب في حجر يوضع على قبره: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَومَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلَكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ فامتثل ذلك. وأبو القاسم سلمة بن سليمان المُكَتِّب، وكان شيخًا فاضلًا. وأبو محمد سرواس بن حمّود الضمنهاجي، كان معلمًا للقرآن، توفي في ربيع الأول سنة ٣٩١. وصاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد[٧] التغلبي، يكنى أبا القاسم أصله من قرطبة، روى عن أبي محمد بن حزم، والفتح بن القاسم، وأبي الوليد الوقشي واستقضاه المأمون يحيى بن ذي النون بطليطلة، وكان متحريًا في أموره. واختار القضاء باليمين مع الشاهد الواحد في الحقوق، وبالشهادة على الخط، وقضى بذلك، وكانت ولادته بالمرية سنة ٤٢٠، وتوفي بطليطلة، وهو قاضيها، في شوال سنة ٤٦٢، وصلى عليه يحيى بن سعيد بن الحديدي. وأبو الحسن صادق بن خلف بن صادق بن كتيل الأنصاري، من أهل طليطلة، سكن برغش،[٨] وكان رحل إلى المشرق،

فحج ودخل بيت المقدس، وأخذ عن نصر بن إبراهيم المقدسي، وأخذ عن أبي الخطاب العلاء بن حزم، وذلك في البحر في انصرافهما من الشرق إلى الأندلس، وكتب بخطه علمًا كثيرًا، وكان فاضلًا. دينًا، عفيفًا، متواضعًا، توفي بعد سنة ٤٧٠. وأبو محمد عبد الله بن عبد الله بن ثابت بن عبد الله الأموي، حدث عنه الصاحبان بطليطلة، وقالا إنه ولد سنة ٣٠٦، وتوفي سنة ٣٨٢. وأبو محمد عبد الله بن محمد بن صالح بن عمران التميمي، حدث عنه الصاحبان أيضًا، وقالا كان صاحبنا في السماع، وتوفي سنة ٣٨٤.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أسد الجهيني الطليطلي، سكن قرطبة، وسمع فيها من قاسم بن أصبغ، وصحب القاضي منذر بن سعيد، ورحل إلى المشرق سنة ٣٤٢، وكانت رحلته وسماعه مع أبي جعفر بن عون الله، وأبي عبد الله بن مفرج، فلقوا جلّة العلماء بالمشرق، ولما رجعوا إلى الأندلس رغب الناس إليه أن يحدّث فقال: لا أحدّث ما دام صاحباي أبو جعفر بن عون الله، وأبو عبد الله بن مفرج حيين، فلما ماتا جلس للسماع، وأخذ عنه العلماء الكبار: أبو الوليد بن الفرضي والقاضي أبو المطرف بن فطيس، وأبو عمر بن عبد البرّ، وأبو عمر بن الحذّاء، والخولاني، وغيرهم.

قال ابن الحذّاء: كان أبو محمد هذا شيخًا فاضلًا، رفيع القدر، عالي الذكر، عالمًا بالأدب واللغة ومعاني الشعر، ذاكرًا للأخبار، حسن الإيراد لها، وقورًا، وما رأيت أضبط لكتبه وروايته منه: وقال الخولاني: كان شيخًا ذكيًا، حافظًا لغويًا، رحل إلى المشرق، وسمع جلّة العلماء بمكة وبمصر وبالشام، وأسنّ ونيّف علي الثمانين بثلاثة أعوام، وصحبه الذهن إلى أن مات. قال ابن الحذّاء: ولد سنة ٣١٠، وتوفي يوم الاثنين لسبع بقين من ذي الحجة سنة ٣٩٥، زاد ابن حيان: ودفن بمقبرة مُتعة، وصلى عليه القاضي أبو العباس بن ذكوان. وكان السلطان قد تخير أبا محمد بن أسد هذه لقراءة الكتب الواردة عليه بالفتوح بالمسجد الأعظم بقرطبة، لفصاحته، وجهارة صوته، وحسن إيراده، فتولى ذلك مدة، إلى أن ضعف، وثقل بدنه، فاستعفى السلطان من ذلك فأعفاه، ونصب سواه، فكان يقول: ما وليت لبني أمية قط ولاية غير قراءة كتب الفتوح على المنبر، فكنت أتحمل الكافة دون رزق، ومنذ أُعفيت منها كسلت، وخامرني ذل العزلة. وكان حاضر الجواب، حارّ النادرة، وأخباره كثيرة. وكان يستحسن الاستخارة بالمصحف.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن نصر بن أبيض بن محبوب بن ثابت الأموي النحوي، من طليطلة، سكن قرطبة، أخذ عن جلة العلماء، وكان أديبًا حافظًا، نبيلًا، أخذ الناس عنه، وجمع كتابًا في الرد علي محمد بن عبد الله بن مسرة، أكثر فيه من الحديث

والشواهد، وأخذ عنه الصاحبان ابن شنظير وابن ميمون، وقالا: إن مولده في شعبان سنة ٣٢٩، وسُكناه بزقاق دُحين، وصلاته بمسجد الأمير هشام بن عبد الرحمن، توفي سنة ٣٩٩ أو سنة ٤٠٠. وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن عثمان، المعروف بابن القشاري، من طليطلة، وخطيب جامعها، كان ثقةً دينًا ورعًا، قليل التصنع. وكان الغالب عليه الرأي، وكان مشاورًا في الأحكام، وكان يعقد الوثائق بدون أجرة، وكان من الشعراء. توفي ليلة السبت لليلتين خلتا من شعبان سنة ٤١٧، وصلى عليه أبو الطيب بن الحديدي.

وأبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد بن زنين بن عاصم بن عبد الملك بن إدريس بن بهلول بن أزرق بن عبد الله بن محمد الصدفي، روى ببلده عن أبيه، وعن عبدوس بن محمد، وعن أبي عبد الله بن عيشون وغيرهم، وبقرطبة عن أبي جعفر بن عون الله، وأبي عبد الله بن مفرّج، وخلف بن قاسم وغيرهم، وكتب بمدينة الفرج عن أبي بكر بن يُنُّق، وأبي عمر الزاهد، وأبي زكريا بن مسرة، ورحل إلى المشرق مع أبيه سنة ٣٨١، فحج وسمع بمكة وبمصر وبالقيروان ثم عاد إلى طليطلة بلده، فأخذ عنه أهلها، ورحل الناس إليه من البلدان. وكان فاضلًا عابدًا زاهدًا، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، يتولى ذلك بنفسه، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وله في هذا المعنى كتاب. وكان مع تواضعه مهابًا مطاعًا، يجله جميع الناس، ولا يختلف اثنان في فضله. وكان مواظبًا علي الصلاة بالمسجد الجامع، ومن جملة أوصافه أنه كان يتولى شغل كرمه بيده، وكان كثير الصدقات، وتوفي سنة ٤٢٤، وما رؤي علي جنازة بطليطلة ما رؤي على جنازته من ازدحام الناس لأجل التبرك به. وأبو محمد عبد الله بن بكر بن قاسم القضاعي، روى عن كثير من الشيوخ، ورحل إلى المشرق حاجًا سنة ٤٠٧، وسمع بمكة وبمصر وبالقيروان، وكان فاضلا ورعًا عفيفًا سليم الصدر، منقبضًا عن الناس، توفي سنة ٤٣١. وعبد الله بن سعيد بن أبي عوف العاملي الرباحي، انتقل من قلعة رباح إلى قرطبة، واستوطنها، ورحل حاجًّا، وكان ورعًا، مداومًا علي صلاة العشاء. وكان في رمضان يرابط في حصن وَلْمِش، توفي سنة ٤٣٢.

وعبد الله بن موسى بن سعيد الأنصاري، المعروف بالشارقي، يكنى أبا محمد أخذ عن القاضي بقرطبة، يونس بن عبد الله، وعن أبي عمر الطَّلَمنكي، وعن أبي عمر بن سُميق، وأبي محمد الشنتجالي وغيرهم، وحج وسمع في المشرق من أبي إسحاق الشيرازي ورجع إلى الأندلس واستوطن طليطلة، وانقطع إلى الله تعالى. ورفض الدنيا بلا أهل ولا ولد، إلى أن مات سنة ٤٥٦، واحتفل الناس بجنازته. وكان مع زهده وتنكسه حصيف العقل، نقي

القريحة، جيد الإدراك، ولا عجب في صفاء ذهن من رضي من الطعام بالسير، وكان في آخر أمره عزم علي الحج ثاني مرة، فأرسل إليه القاضي زيد بن الحشا وقال له: قد قمت بالفرض، فهذه المرة الثانية هي نافلة، والذي أنت فيه الآن آكَد. فمنعه من الخروج حرصًا علي وجوده في طليطلة معلمًا مهذبًا للناس. وأبو محمد عبد الله بن سليمان المعافري، يعرف بابن المؤذّن كان من أهل العلم والخير غالبًا عليه الحديث والأدب والقراءة، وكان ملازمًا بيته، لا يخرج إلا لصلاة الجمعة أو لباديته. وكان صَرورةً لم يتزوج قط، وتوفي سنة ٤٦٠. وأبو محمد عبد الله بن محمد بن جماهر الحَجْري، روى عن أبي عبد الله بن الفخّار، ورحل حاجًّا، فروى عن الجلة من العلماء، وكان له حظ وافر من الحساب والفرائض، وتوفي سنة ٤٦٣. وأبو بكر عبد الله بن على بن أبي الأزهر الغافقي الطليطلي، سكن المريّة، وحج، ولقي أبا ذر الهروي، وأبا بكر المطوِّعي، وكان من أهل العلم، أخذ الناس عنه، ومات سنة ٤٦٣. وعبد الله بن محمد بن عمر، يعرف بابن الأديب، كنيته أبو محمد، روى عن الصاحبين ابن شنظير وابن ميمون، وعن عبدوس بن محمد، وعن محمد الخشني، وغيرهم، وعاش طويلًا، ومات بعد الثمانين والأربعمائة.

وعبد الله بن فرج بن غزلون اليحصبي، يعرف بابن العمَّال كنيته أبو محمد، روى عن أبي عمر بن عبد البر، وعن ابن شق الليل، وابن ارفع رأسه، وأخذ عن أبيه فرج بن غزلون، وعن القاضي أبي زيد الحشّا، وكان شاعرًا مفلقًا، ومع الأدب حافظًا للحديث متقنًا للتفسير، له مجلس حفل، يقرأ فيه التفسير، وعاش طويلًا. واستقضى بطلبيرة بعد أبي الوليد الوقشي، وتوفي سنة ٤٨٧ وقد نيّف علي الثمانين. وأبو محمد عبد الله بن يحيى التجيبي، من أهل إقليش، يعرف بابن الوحشي، قرأ بطليلطة وأخذ عن أبي عبد الله المغامي، وعن أبي بكر بن جماهر، وكان من أهل الفضل والنبل والذكاء. اختصر كتاب مُشكل القرآن لابن فورِك، وتوفي سنة ٥٠٢ وهو قاض ببلده إقليش.

وأبو المطرِّف عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد بن ذنين بن عاصم بن إدريس بن بهلول بن أزراق بن عبد الله بن محمد الصدفي، روى عن أبي المطرف بن مدراج وأبي العباس بن تميم، وغيرهما، ورحل إلى المشرق سنة ٣٨١، ولقي بمكة أبا القاسم السقطي وأبا الطاهر العجيفي، ولقي بمصر أبا الطيب بن غلبون، وأبا إسحاق الثمّار، وغيرهما، ولقي بالقيروان أبا محمد ابن أبي زيد، وأبا جعفر بن دحمون. وغيرهما. وكان له عناية كاملة بالحديث، وكان في غاية الورع، تقرأ عليه كتب الزهد والرقائق فيعظ الناس بها، وله تواليف، منها كتاب عشرة النساء في عدة أجزاء. وكتاب المناسك وكتاب الأمراض. ولد

سنة ٣٢٧، ومات سنة ٤٠٣ وله ٧٩ سنة. وأبو بكر عبد الرحمن بن منخّل المعافري، سكن طليطلة، وله رحلة إلى المشرق أخذ فيها عن ابن غلبون المقرئ، وحدث عنه حاتم بن محمد، قرأ عليه بطليطلة سنة ٤١٨. وأبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن خالص الأموي له رحلة إلى المشرق، وكان من أهل الخير والصلاح، حدث عنه جماهر بن عبد الرحمن وغيره.

وأبو محمد عبد الرحمن[٩] بن محمد بن عباس بن جوشن بن إبراهيم بن شعيب بن خالد الأنصاري، يعرف بابن الحصار، صاحب الصلاة والخطبة بالمسجد الجامع بطليطلة، روى عن علماء من أهل بلده، من أهل ثغورها، والقادمين عليها، وسمع أيضًا بقرطبة، ورحل إلى المشرق، وحج وهو حديث السن، وعني بالرواية والجمع، وكانت الرواية أغلب عليه من الدراية، وكان ثقةً صدوقًا، وأخذ عنه حاتم بن محمد وأبو وليد الوقشي، وجماهر بن عبد الرحمن، وأبو عمر بن سُميق وأبو الحسن ابن الألبيري، وغيرهم من المشاهير. وفى آخر عمره ضعف عن إمامة الجامع فلزم داره، وتوفي سنة ٤٣٨، رواه أبو الحسن الألبيري. وأبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن أسد، روى عن الصاحبين في بلدة طليطلة، وله رحلة إلى المشرق، وكان عالمًا، فاضلًا، جوادًا، متواضعًا، توفي في شعبان سنة ٤٤٢. وأبو أحمد عبد الرحمن بن أحمد بن خلف، المعروف بابن الحوات، له رحلة إلى المشرق، حج فيها، ولقي أبا بكر المطوعي، وكان إمامًا. قال الحميدي إنه كان يتكلم في الفقه والاعتقادات بالحجة القوية، وله تواليف، وكان من كبار الأدباء. وتوفي قريبًا من سنة ٤٥٠، وقيل إنه توفي بالمرية في المحرم سنة ٤٤٨، وقد أربى على الخمسين. وأبو محمد عبد الرحمن بن أحمد بن زكريا، يعرف بابن زاها، سمع من عبدوس بن محمد، ومن الخشني، وكان نبيلًا فصيحًا، أنيس المجلس، كثير المثل والحكايات، توفي في صفر سنة ٤٤٩. وعبد الرحمن بن إسماعيل بن عامر بن أبي جوشق، يكنى أبا المطرّف، روى عن عبدوس بن محمد، وعن الخشني وغيرهما في بلده، ثم سمع بقرطبة من خلف بن القاسم، وأبي زيد بن العطار، وأبي مطرف القنازعي، وابن ثبات وغيرهم. وكان معتنيًا بجمع الآثار، وكتب بخطه علمًا كثيرًا. وكان من الثقات. وتوفي بعد سنة ٤٥٠.

وأبو المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى، يعرف بابن البيرولة، سمع من الخشني وأبي بكر بن زهر، وأبي محمد بن ذنين، والتبريزي، وابن سُميق وكان من أهل النباهة والفصاحة،[١٠] واعظًا، متواضعًا، حسن الخلق، سالم الصدر، توفي في أول ربيع الأول سنة ٤٦٥، وصلى عليه يحيى بن الحديدي. وعبد الرحمن بن لب بن أبي عيسي بن

مطرف بن ذي النون، يكنى أبا محمد، روى عن أبي عمر الطلمنكي، وروى عنه أبو حسن الألبيري المقرئ.

وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن عبد الرحمن، المعروف بابن الحشَّا، قاضي طليطلة، أصله من قرطبة، سمع بالمشرق من أبي ذر الهروي، وأبي الحسن محمد بن علي بن صخر، وأحمد بن علي الكسائي، وعبد الحق بن هارون الصقلي، وروى بمصر عن أبي القاسم عبد الملك القمّي وغيره، وبالقيروان عن أبي عمران الفاسي وغيره، وروى بقرطبة عن القاضي يونس بن عبد الله، وعن القنازعي، وأخذ بدانية عن أبي عمر بن عبد البر، وأبي عمر المقري وغيرهما. وكان من أهل العلم والفهم، سري البيت عالي الشأن، استقضاه المأمون يحيى بن ذي النون بطليطلة، بعد أبي الوليد بن صاعد، في الخمسين والأربعمائة، وحمده أهل طليطلة في قضائه، ثم صُرف عن قضائها في الستين، وسار إلى طرطوشة، واستقضي بها، ثم صُرف عن قضاء طرطوشة، فاسُتقضي بدانية، إلى أن توفي بها سنة ٤٧٢، ذكر تاريخ وفاته ابن مدير. وعبد الرحمن بن قاسم بن ما شاء الله المرادي، كنيته أبو القاسم، كان حافظًا للمسائل والرأي، طاهرًا وقورًا، توفي في رجب من سنة ست وسبعين وأربعمائة. وأبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن سلمة الأنصاري، روى عن أبي محمد بن الخطيب، وأبي عمر الطلمنكي، وحماد الزاهد، وأبي بكر بن زهير وغيرهم، وكان حافظًا للمسائل، دريًّا بالفتوى، وقورًا، وسيمًا، حسن الهيئة، قليل التصنع، مواظبًا علي الصلاة في الجامع، وكان ثقة في روايته، وكان الرأي غالبًا عليه. وامتُحن في آخر عمره مع أهل بلده، بحسب عبارة ابن بشكوال، وسار إلى بَطَلْيوس فتوفي بها فجأة، عقب صفر من سنة ٤٧٨، وظاهر من هنا أنه خرج من طليطلة يوم استولى عليها الإسبانيول، لأنهم فتحوها في المحرم، أو في صفر سنة ٤٧٨ كما لا يخفى. وأبو المطرّف عبد الرحمن بن عبد الله بن أسد الجهني، سكن طليطلة، روى عن ابن يعيش، وابن مغيث، وغيرهما، وحج، وأخذ بمكة عن أبي ذر الأموي، وغيره، وكان ثقة، وشوِور في الأحكام، وكان متواضعًا توفي في بلده، في الثمانين والأربعمائة، أي بعد استيلاء الإسبانيول.

وأبو الحسن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله التجيبي، المعروف بابن المشاط أخذ عن علماء طليطلة وغيرهم، وكان حافظًا ذكيًا وأديبًا لغويًا، شاعرًا محسنًا. سكن مدة بأشبيلية، وتولى بها الأحكام، ثم صُرف عنها، وقصد مالقة، إلى أن توفي بها ليلة الجمعة لسبع ليال من رمضان سنة الخمسمائة، وشهد جنازته جمع عظيم. وأبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن يوسف الأموي، من أهل طليطلة سكن قرطبة، المعروف بابن

عفيف، وهو جده لأمه، سمع من علماء طليطلة وغيرهم. وكان شيخًا فاضلا عفيفًا، مشهور العدالة، وكان يعظ الناس، وتولى الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة، قال ابن بشكوال: كان كثير الوهم في الأسانيد، عفا الله عنه، توفي يوم الجمعة ودفن إثر صلاة العصر من يوم السبت الثاني عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٢١ ودفن بمقبرة ابن عباس، وصلى عليه القاضي أبو عبد الله بن الحاج. وأبو مروان عبد الملك محمد بن شق الليل، سمع بطليطلة بلده من الصاحبين، وكان زاهدًا ورعًا، توفي في ربيع الآخرة سنة عشر وأربعمائة. وأبو بكر عبد الصمد بن سعدون الصدفي المعروف بالركّاني أخذ عن علماء طليطلة بلده، ثم رحل إلى المشرق وحج، وتوفي بعد سنة ٤٧٥. وأبو حفص عمر بن سهل بن مسعود اللخمي المقرئ، روى ببلده طليطلة عن علمائها، ورحل إلى المشرق، ولقي كثيرًا من العلماء، وكان إمامًا في كتاب الله حافظًا للحديث الشريف، ولأسماء الرجال وأنسابهم خفيف الحال، قانعًا راضيًا، توفي بعد سنة ٤٤٢ وحدّث عنه ابن البيروله. وأبو حفص عمر بن محمد بن عبد الوهاب بن الشرَّاني الرعيني، كان مفتيًا، توفي في رجب سنة تسع وأربعين بعد الأربعمائة.

وأبو حفص عمر بن عمر بن يونس بن كريب الأصبحي، أصله من سرقسطة، روى عن الجلّة، مثل القاضي أبي الحزم خلف بن هشام العبدري، والقاضي أبي عبد الله بن الحذّاء، والقاضي عبد الرحمن بن جحاف، وأبي عمر الطلمنكي، وأبي بكر بن زهر وغيرهم، وكان فاضلًا ثقة، وأسنّ، وتوفي بطليطلة سنة ست وسبعين وأربعمائة. وأبو بكر عثمان بن عيسى بن يوسف التجيبي، يعرف بابن ارفع رأسه، كان عالمًا فاضلًا، رأسًا في مذهب مالك، تولى قضاء طلبيرة. وأبو بكر عثمان بن محمد المعافري المعروف بابن الحوت، المتوفى سنة ٤٤٩. قال ابن بشكوال: وكان من خيار المسلمين وفضلائهم. وأبو الحسن علي بن فرجون الأنصاري النحوي، كان شيخًا لغويًّا نحويًّا شاعرًا، جوادًا، لا يمسك شيئًا، مؤثرًا على نفسه، رقيق القلب، إذا سمع القرآن خشع وبكى. وأبو الحسن علي بن أبي القاسم بن عبد الله بن علي المقرى، من سرقسطة سكن طليطلة، روى بالمشرق عن أبي ذر الهروى، وأبي الحسن بن صخر، وأخذ عن القاضي الماوردي كتابه في التفسير، وكان رجلًا صالحًا، قدم إلى قرطبة في آخر عمره، وأقام فيها سبعة أشهر في الفندق الذي نزل فيه منقبضًا، لم يتعرض للقاء أحد، إلى أن مات في ربيع الأول سنة ٤٧٢. وأبو الحسن علي بن سعيد بن أحمد بن يحيى بن الحديدي التجيبي، كان فقيهًا في المسائل بصيرًا بالفتيا، توفي في شوال سنة ٤٧٤.

وأبو الإصبغ عيسى بن حجاج بن أحمد بن حجاج بن فرقد الأنصاري؛ أصله من طليطلة؛ وسكن قرطبة، حدث عنه الصاحبان؛ وقالا: مولده سنة ٣١٨، وله رحلة إلى

المشرق. وأبو الإصبغ عيسى بن علي بن سعيد الأموي، روى عن أبيه، وعن أبي زيد العطار، والخشني، وتوفي سنة ٤٣٥، وله رحلة إلى المشرق. وأبو الإصبغ عيسى بن فرج بن أبي العباس التجيبي، المغامي أخذ عنه ابنه أبو عبد الله المغامي وتوفي في مستهل جمادى الأولى عام أربع وخمسين وأربعمائة. وأبو عبيدة عامر بن إبراهيم بن عامر بن عمروس الحجري من أهل قرطبة سكن طليطلة روى عنه أبو الحسن ابن الألبيري المقرئ، كان حليمًا وقورًا خادمًا للعلم، وأخذ عنه أبو المطرّف ابن البيروله. وقال: شيخًا فاضلًا حاسبًا كاتبًا. إمام مسجد ابن ذُني القاضي بالحزام[١١] من طليطلة سمع الناس منه ومات بعد سنة ٤٣٣. وأبو الإصبغ عسلون بن أحمد بن عسلون، حدث عنه الصاحبان. وقالا: كان رجلًا صالحًا مستورًا. جالسناه وصحبناه، ولزم الانقباض، ولم تزل أحواله صالحة إلى أن توفي. وكان مولده عام ٣٢٠.

وأبو النصر فتح بن إبراهيم الأموي، يعرف بابن القشّاوي، رحل إلى المشرق، وسمع بالقيروان، وبمصر، وبمكة المكرمة. وكان شيخًا صالحًا، فاضلًا، مجاهدًا، صوامًا قوّامًا متصدقًا. بنى بطليطلة مسجدين أحدهما بالجبل البارد، والآخر بالدباغين وكان يلزم الصلاة في المسجد الجامع. وبنى حصن «وقّش»، وحصن «مكّادة»، في زمن المنصور بن أبي عامر. توفي أول ليلة من رجب سنة ٤٠٣، وكانت وفاته ليلة الجمعة، ودفن نهار الجمعة بعد صلاة العصر، وصلى عليه عبد الله بن ماطور. وفرج بن غزلون بن العسال اليحصبي الطليطلي، روى عن شيوخها، وحدث عنه ابنه أبو محمد عبد الله بن فرج الواعظ. وأبو الحسن فرج بن أبي الحكم بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم اليحصبي، وكان من العلماء المعدودين، وكان حفيل المجلس، توفي في ١٠ ذي الحجة سنة ٤٤٨، وحبس داره علي طلبة السنة. وفرج بن غزلون بن خالد الأنصاري، حدث عن فتح بن إبراهيم وغيره، وكان حسن الخط. وفرج مولى سيد بن أحمد بن محمد الغانقي، يكنى أبا سعيد، رحل إلى المشرق، وفي حجة لقي أبا ذر الهروي، وأجاز له، وكان رجلًا صالحًا ثقة. قال ابن بشكوال: أخبرنا عنه أبو الحسن عبد الرحمن بن عبد الله العدل، وأثنى عليه وغيره من شيوخنا، وتوفي بعد سنة ست وسبعين وأربعمائة. وأبو سعيد الفرج بن أبي الفرج بن يعلى التجيبي، تولى أحكام القضاء بطليطلة، وكان دينًا فاضلًا، عالمًا عاقلًا، حسن السيرة في قضائه، محببًا إلى الناس، معظمًا عندهم. توفي سنة ٤٧٠ في شهر رجب. وأبو نصر فتحون بن محمد بن عبد الوارث بن فتحون التجيبى، حدث عنه الصاحبان توفي ليلة الثلاثاء لست خلون من ربيع الأول سنة ٣٩٣، وصلى عليه ابن سائق. وأبو نصر

فتحون بن عبد الرحمن بن فتحون القيسي، روى عن علماء بلده، وكان رجلًا معدّلًا حسن الأخلاق، توفي سنة ٤٦٤ في رجب. وفيرُّه بن خلف بن فيرُّه اليحصبي، من أهل طليطلة كان من أهل المعرفة بالقراءات، حسن الصوت، تولى الصلاة والخطبة بجامع طليطلة. وكان يكنى بأبي جديدة، فأشار عليه ابن يعيش بأن يتكنى بغيرها، فأبى وقال: الكنية القديمة أولى بنا.

وأبو محمد قاسم بن محمد بن عبد الله الأموي، يعرف بابن طال ليلُه، روى عن الحسن بن رشيق، وابن زياد اللؤلؤي، وتميم بن محمد، وحدث عنه أبو عبد الله بن عبد السلام الحافظ، وغيره، توفي بعد سنة سبع وأربعمائة.

وأبو محمد قاسم بن محمد بن سليمان الهلالي القيسي، روى عن الصاحبين، وعن عبدوس بن محمد، وعن أبي عمر الطلمنكي، ويونس بن عبد الله القاضي، ومحمد بن نبات، وابن الفرضي، وابن العطار، وابن الهندي، وجماعة كثيرة من علماء الأندلس. ورحل إلى الشرق للحج، وأخذ عن أبي ذر الهروي وغيره. وكان عظيم الاجتهاد في العلم، مع الصلاح والانقباض، وكانت جل كتبه بخط يده، وكان ثقة في روايته، حسن الخط، وكانت له حلقة في الجامع، يعظ فيها الناس، ولم يكن يذكر عنه من أمر الدنيا شيء. وكان سيفًا علي أهل الأهواء، صليبًا في الحق، وروى بعضهم أنه كانت به سلاسة بول لا تفارقه، فإذا جلس في الجامع ارتفع ذلك عنه إلى أن ينقضي مجلسه، فإذا تقوض المجلس وعاد إلى منزله عاد إليه المرض وكانت وفاته سنة ٤٥٨ في رجب.

وأبو محمد قاسم بن عبد الله بن ينَّج، له رواية عن أبي جعفر بن مغيث وغيره. كان من أهل العلم والفهم، توفي بقرطبة في رمضان سنة ٤٩٨، ودفن بالربض. وأبو عبد الله محمد بن تمام بن عبد الله بن تمام، روى عن أبيه تمام بن عبد الله وغيره، ورحل إلى المشرق مع أبي عبد الله بن عابد، وكان عالمًا متفننًا، شاعرًا، حسن الخط، مهيبًا، إلا أنه كان جشعًا في الأكل. وقتله أهل طليطلة سنة أربعمائة، أو إحدى وأربعمائة. وأبو عبد الله محمد بن يبقى بن يوسف بن أرمليوث بن عبدري الصيدلاني سكن بجّانة، وأصله من طليطلة. له رحلة إلى المشرق، سمع فيها من العلماء، ثم في طريقه إلى الأندلس أسرته الروم، ثم تخلص وسكن المرية. وأبو عبد الله محمد[١٢] بن إبراهيم بن أبي عمرو المعافري، روى بطليطلة عن ابن عيشون وغيره، وله رحلة سمع فيها من أبي قتيبة سلم بن الفضل، ومن أبي بكر بن خروف، وتوفي في نحو الأربعمائة. وأبو عبد الله محمد بن قاسم بن مسعود القيسي، روى عن أبي عبد الله بن الفخّار، وابن القشّاري، وكان من أهل العناية

بالعلم والفقه، مشاورًا في الأحكام، كتب لقضاة طليطلة. وتوفي في رمضان سنة ٤٦٦. وأبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن حفص ابن الشرَّاني، وكان يروي عن صهره محمد بن مغيث، وعن أبي بكر بن زهر. وكان الغالب عليه الورع. وترك الرئاسة ولزم الانقباض عن الناس، لا يخرج من بيته إلا لما لا بد له منه، ولا ينبسط مع أحد في الكلام، وكان مع ذلك إذا قصده قاصد يحسن لقاءه، وتوفي سنة ٤٧١ في صفر. وأبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن سليمان بن هلال القيسي، روى عن أبيه، وعن أبي عمر الطلمنكي وغيرهما، وكان له حظ في الفقه والأدب توفي سنة ٤٧٢ في جمادى الآخرة. وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن حزم الأنصاري، من طليطلة، تولى قضاء طلبيرة، وتوفي سنة ٤٧٨، أي سنة سقوط طليطلة، وله رحلة إلى المشرق. وأبو عبد الله محمد بن عيسى بن فرج بن أبي العباس بن إسحاق التجيبي المغامي[١٣] المقري، روى عن أبي عمرو المقري، وعن أبي محمد مكي بن أبي طالب المقري، وعن أبي الربيع سليمان بن إبراهيم. وكان إمامًا في القراءات، ومن أهل الصلاح توفي في أشبيلية في منتصف ذي القعدة سنة ٤٨٥، وحبس كتبه على طلبة العلم الذين بالعدوة.

وأبو بكر محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن جماهر الحجري، روى ببلده طليطلة عن عمه أبي بكر جماهر بن عبد الرحمن، وأبي محمد قاسم بن هلال، وأبي بكر ابن العواد وغيرهم، ورحل إلى المشرق مع عمه أبي بكر سنة ٤٥٢، وأدى الفريضة وسمع بمكة من أبي معشر الطبرى وكريمة المروذيّة وغيرهما، وبمصر من أبي عبد الله القضاعي وأبي نصر الشيرازي وغيرهما، وبالإسكندرية من أبي علي بن معافى، قال ابن بشكوال: كان معتنيًا بالجمع والإكثار والرواية عن الشيوخ، لا كبير علم عنده. وقال: توفي بمدينة طليطلة، أعادها الله، في أيام النصارى، دمّرهم الله، سنة ٤٨٨، انتهى، أي بعد سقوط طليطلة بعشر سنوات.

وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن قاسم البكري، روى ببلده عن أبي بكر جماهر بن عبد الرحمن، وأبي الحسن بن الألبيري، وابن ما شاء الله وغيرهم، وأجاز له أبو عمر بن عبد البر، ورحل إلى المشرق وحج، وأخذ بمكة والإسكندرية، وقدم قرطبة في شعبان سنة ٤٨١، وسكن باجه وغيرها من بلاد الغرب، وتوفي بباجة. وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن مزاحم الأنصاري الخزرجي، أصله من لشبونة، سكن طليطلة، وله رحلة إلى المشرق، وكان النهاية في علم العربية، ومن تآليفه كتاب الناهج للقراءات بأشهر الروايات أخذ عنه أبو الحسن العبسي المقرئ، وابن مطاهر توفي سنة ٥٠٢ في بدايتها.

وأبو عبد الله محمد بن على بن محمد الطليطلي، يعرف بابن الديوطي، سمع من أبي الوليد الباجي وقاسم بن هلال وغيرهما، وبعد أن استولى الإسبانيول على طليطلة خرج إلى بر العدوة، فسكن فاس ثم سبتة، وولي خطابة الموضعين. وكان ضريرًا صالحًا، وتوفي وهو خطيب سبتة سنة ٥٠٣ في محرم.

وأبو عامر محمد بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم،[١٤] من أهل طليطلة سكن قرطبة، روى عن علماء طليطلة، وأجاز له أبو بكر جماهر بن عبد الرحمن، والقاضي أبو الوليد الباجي، وأبو العباس العذري، وأبو الوليد الوقْشي وكانت عنده جملة كثيرة من أصول علماء طليطلة وفوائدهم، وكان ذاكرًا لأخبارهم وأزمانهم، فكان يُحتاج إليه بسببها. قال ابن بشكوال في الصلة: ترك بعضهم التحديث عنه لأشياء اضطرب فيها من روايته، شاهدتها منه مع غيري، وتوقفنا عن الرواية عنه، وكنت قد أخذت عنه كثيرًا، ثم زهدت فيه لأشياء أوجبت ذلك غفر الله له، وتوفي رحمة الله عشي يوم الجمعة، ودفن بعد صلاة العصر من يوم السبت السابع عشر من ربيع الأول سنة ٥٢٣، ودفن بالربض، وصلى عليه أبو جعفر بن حمدين.

وأبو الفضل محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان التميمي البغدادي، سكن طليطلة، وهو من بيت علمٍ وأدب، خرج إلى القيروان في أيام المعز بن باديس فدعاه إلى دولة بني العباس فاستجاب لذلك، ثم وقعت الفتن هناك، فخرج إلى الأندلس، ولقي ملوكها وحظي عندهم بأدبه وعلمه واستقر بطليطلة، في كنف المأمون بن ذي النون، وتوفي بها ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شوال سنة ٤٥٥ قال ابن بشكوال: وذُكر أن أبا الفضل هذا كان يتهم بالكذب، عفا الله عنه. وأبو عمران موسى بن عبد الرحمن يعرف بالزاهد، من أهل الثغر، قدم طليطلة مجاهدًا، كانت له رحلة إلى المشرق حدث عنه الصاحبان بطليطلة وقالا: قتل في ربيع الآخر سنة ٣٧٨. وموسى بن قاسم بن خضر كان الغالب عليه قراءة الآثار، وكان فاضلا أصيب في إحدى الغزوات سنة ٤٤٣.

وموسى بن عبد الرحمن يعرف بابن جوشن كان فاضلًا له أخلاق حسان، وآداب لطيفة، حسن اللقاء لا يمر بأحد إلا سلم عليه، توفي سنة ٤٤٨، ذكره ابن مطاهر. وأبو عبد الرحمن معاوية بن مُنتيل بن معاوية، رحل إلى المشرق وحج، وحدث عنه الصاحبان في طليطلة وقالا: إنه توفي سنة ٣٧٥ في جمادى الآخرة. وأبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن مروان التجيبي يعرف بابن الباليُه رحل إلى المشرق وانصرف وكان زاهدًا فاضلًا ورعًا، منقبضًا عن الناس، بهي المنظر دعي ليتولى الأحباس فرفض واعتذر. ذكره ابن طاهر.

وأبو بكر مفرج بن خلف بن مغيث الهاشمي المعروف بابن الحصّار. كان فقيهًا عارفًا بالفتوى، يعقدها باختصار وإيعاب لفقهها؛ وتأثل منها مالًا عظيمًا، وكان معتصمًا بالسنة مبغضًا لأهل البدع. وأبو القاسم محسن بن يوسف روى عن مشيخة بلده طليطلة، وحدث عنه الصاحبان وقالا: توفي سنة ٣٧٤.

وأبو القاسم محبوب بن محبوب بن محمد الخشني، روى عن محمد بن إبراهيم الخشني، وعن الصاحبين، وكان من أعلم أهل زمانه باللغة العربية بصيرًا بالحديث وعلمه، فهمًا ذكيًّا، وكان فهمه أكثر من حفظه، مع صلاح وفضل، ومات سنة ٤٤٦ في المحرم. ومفرج الخرّاز، يكنى أبا الخليل، كان من الفقهاء العباد الزهاد، روى عن أبي عمر بن عبد البر وغيره، وكان صائمًا مدة ستين سنة، وسكن بناحية طليطلة، وتوفي عند السبعين وأربعمائة، ذكره ابن مدير. وأبو سعيد ميمون بن بدر القروي ذكره ابن بشكوال في الغرباء، وهو من أهل بغداد، قدم الأندلس، وسكن طليطلة مرابطًا بها، حدث عنه أبو محمد بن ذنين الزاهد، وقال هذا في خبره إنه ولد سنة ٣١٣. وأبو القاسم نعم الخلف بن يوسف، حدث عن عبد الرحمن بن عيسى بن مدراج، وعن محمد بن فتح الحجاري، وحدث عنه الصاحبان بطليطلة وقالا إنه توفي سنة ثلاث أو أربع وتسعين وثلاثمائة. ووهب بن إبراهيم بن وهب القيسي، وكان خيّرًا فاضلًا ثقة، ورحل إلى المشرق، وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٥٣، ودفن يوم الأضحى.

وأبو الوليد هشام بن إبراهيم بن هشام التميمي، وكان له حظ وافر من الأدب، وشووِر في الأحكام، وكان فارسًا شجاعًا استشهد سنة تسع عشر وأربعمائة.

وأبو الوليد هشام بن عمر بن محمد بن أصبغ الأموي، المعروف بابن الحنشي، كان نبيلًا، ورحل إلى المشرق حاجًّا، ولقي بها جماعة من العلماء، وعاد إلى الأندلس بكتب كثيرة، وكان من أهل الخير والانقباض والثورة. وأبو الوليد هشام بن محمد بن سليمان بن إسحاق بن هلال القيسي السايح، روى عن عبدوس بن محمد، وعن محمد الخشني، وعن تمام بن عيشون، وعبد الرحمن بن ذنين من مشيخة طليطلة، وروى بقرطبة عن القاضي يونس بن عبد الله، وعبد الوارث بن سفيان، وابن نبات وابن العطار، وابن الهندي، وغيرهم، ورحل إلى المشرق حاجًّا، فلقي بمكة أبا يعقوب ابن الدخيل وأبا الحسن بن جهضم، وأبا القاسم السقطي، وسمع بالقيروان من أبي حسن القابسي وأبي عمران الفاسي، وكان زاهدًا، فاضلًا، متبتلًا منقطعًا عن الدنيا صوامًا قوامًا، حسن الخط، جيد الضبط، كتب بخطه علمًا كثيرًا، وكان يصوم رمضان في الفهمين[١٥] ويصنع في عيد الفطر

طعامًا كثيرًا لأهل الحصن ولمن هناك من المرابطين، وينفق المال الكثير، وكان يرابط بنفسه في الثغور، ويلبس الخشن من الثياب، وتوفي في العشرين والأربعمائة. وهشام بن محمد بن حفص الرعيني المعروف بابن الشرّاني قرأ علي ابن يعيش وكان يجله ويكرمه، وكان حافظًا لمذهب مالك عاقلًا حسن السمت وتوفي بطليطلة وصلى عليه ابن الفخار.

وهشام بن قاسم الأموي، ويكنى أبا الوليد، قرأ علي محمد بن يعيش، وعُني بالعلم وكان متمولًا. وأبو الوليد هشام بن محمد بن أحمد الأنصاري، قرأ علي يوسف بن أصبغ، وامتحن في آخر عمره، ومات مقتولًا سنة ٤٣٤ في آخر ذي الحجة. وأيضًا أبو الوليد هشام بن محمد بن مسلمة الفهري، له رحلة في المشرق، استفاد فيها علمًا، وكان مشاورًا في الأحكام ووقعت عليه محنة عظيمة، وتوفي سنة ٤٦٩ في صفر. وأيضًا أبو الوليد هشام بن أحمد بن خالد بن هشام النكتاني المعروف بالوقشي، أخذ العلم عن أبي عمر الطلمنكي، وأبي محمد بن عباس الخطيب، وأبي عمر السفاقسي، وأبي عمر بن الحذّاء، وأبي محمد الشنتجالي، وغيرهم، قال القاضي صاعد[١٦] بن أحمد: أبو الوليد الوقشي أحد رجال الكمال في وقته، باحتوائه علي فنون المعارف، وجمعه لكليات العلوم، وهو من أعلم الناس بالنحو واللغة، ومعاني الأشعار، وعلم الفروض وصناعة البلاغة، وهو شاعر مجيد متقدم، حافظ للسنن، ولأسماء نَقَلة الأخبار، بصير بأصول الاعتقادات وأصول الفقه، واقف علي كثير من فتاوى فقهاء الأمصار نافذ في علم الشروط والفرائض، متحقق بعلم الحساب والهندسة، مشرف علي جميع آراء الحكماء، حسن النقد للمذاهب، ثاقب الذهن في تمييز الصواب، يجمع ذلك إلى آداب الأخلاق، وحسن المعاشرة، وصدق اللهجة.ا.هـ.

قال أبو بكر عبد الباقي بن محمد الحجاري: وكان شيخنا أبو محمد الريولي يقول: وكان من العلوم بحيث يُقضى له في كل علم بالجميع، توفي بدانية يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء لليلة بقيت لجمادى الآخرة من سنة ٤٨٩، وقد نيف على الثمانين. ويظهر أنه ممن رحل عن طليطلة بعد استيلاء النصارى عليها.

ويحيى بن عبد الله بن ثابت الفهري النحوي، المكنى بأبي بكر، كان من علماء العربية والفقه، وكان لسنًا شاعرًا، وتوفي سنة ٤٢٦ في صفر. وأبو بكر يحيى بن محمد بن يحيى الأموي، كان أديبًا شاعرًا، حسن الخط، وقورًا، حسن السمت توفي في الواحدة والستين والأربعمائة.

وأبو بكر يحيى بن سعيد بن أحمد بن يحيى بن الحديدي، سمع من علماء طليطلة، وكان نبيلًا، فصيحًا، فطنًا، مقدمًا في الشورى، كانت له مكانة عظيمة عند المأمون يحيى

بن ذي النون، الذي لم يكن يقطع في شيء إلا بمشورته، ودخل مع المأمون قرطبة لما ملكها، وكان مستوليًا علي أمره، فلما توفي المأمون استثقله حفيده القادر بالله، حتى قتل بقصره يوم الجمعة في المحرم سنة ٤٦٨.اهـ. ملخصًا عن ابن بشكوال والقادر ابن ذي النون هو الذي بحمقه وسوء تدبيره أضاع طليطلة، وكان السبب في هذا الخرق الذي عجز المسلمون عن سده، حتى أدى إلى ضياع جميع الأندلس. وأبو عمر يوسف بن أصبغ بن خضر الأنصاري، أخذ عن الخشني، وابن ذنين، وغيرهما واعتنى بالعلم إلى الغاية، وكانت وفاته سنة ٤٣١ في صفر.[١٧] وأبو عمر يوسف بن عمر الجهني، يعرف بابن أبي ثلة، كان عالمًا بالفرائض والآداب، وعلم النجوم واستبحر في ذلك وتوفي في الخامسة والثلاثين والأربعمائة. وأبو عثمان سعيد بن عثمان البنا الشيخ الصالح المرابط بالفهمين من قرى طليطلة. ويوسف بن موسى بن يوسف الأسدي، يعرف بابن البابش أخذ عن ابن مغيث وشوور في الأحكام وولد ببلدة ولُمْش ودفن بها سنة ٤٧٥ في ذي القعدة.

وأبو عبد الله يوسف بن محمد بن بكير الكناني، سمع من أبيه القاضي محمد بن بكير، كان عالمًا بالفقه والحديث والفرائض، رحل إلى الشرق وحج، ثم رجع إلى الأندلس، وتولى قضاء قلعة رباح، فحسنت سيرته، وكان حسن الرأي والهيئة، مات سنة ٤٧٥ في ذي الحجة.

وأبو الوليد يونس بن محمد من أهل قرطبة، سكن طليطلة. وأبو الوليد أيضًا يونس بن أحمد بن يونس الأزدي، يعرف بابن شوقُه، روى عن أبي محمد بن هلال وجماهر بن عبد الرحمن، وأبي عمر بن عبد البر، وأبي عمر بن سميق القاضي، وغيرهم كان فاضلًا، بارًّا بإخوانه، من أحسن الناس خلقًا، وأكثرهم بشاشة، لا يخرج من منزله إلا لأمر مؤكد، وكان الغالب عليه من الحديث ما فيه الزهد والرقائق. وهو من أهل طليطلة، لكنه مات في مجريط سنة ٤٧٤، في ربيع الأول. وأبو الوليد أيضًا يونس بن محمد بن عام الأنصاري، كان فقيهًا مفتيًا، صالحًا، منقبضًا عن الناس، توفي في جمادى الآخرة سنة ٤٧٨، أي بعد سقوط طليطلة بأشهر قلائل.

وأبو بكر بعيش بن محمد بن يعيش الأسدي، له رحلة إلى المشرق، وكانت له عناية كثيرة بالعلم، وكان فقيهًا. تولى الأحكام ببلده طليطلة، ثم صار إليه تدبير الرئاسة فيه. ونفع الله به أهل موضعه. ثم خُلع عن ذلك وسار إلى قلعة أيوب، وتوفي بها سنة ٤١٨، على رواية ابن مطاهر، أو في التي بعدها علي رواية ابن حيّان.

وفاطمة بنت يحيى بن يوسف المغامي، أخت الفقيه يوسف بن يحيى المغامي، من إحدى قرى طليطلة، كانت عالمة، فاضلة، فقيهة، استوطنت قرطبة، وبها توفيت سنة ٣١٩

ودفنت بالربض، ولم ير على نعش امرأة قط ما رؤي علي نعشها، وصلى عليها محمد بن أبي زيد. ومحمد بن أحمد بن عدل الفقيه المحدث، قرأ كتاب مسلم على أبي محمد الشنتجالي بطليطلة. ومحمد بن أحمد بن محمد بن غالب، يروي أيضًا عن الشنتجالي.

وأبو عبد الله محمد بن عيشون، يعرف بابن السلاخ. قال ابن عَميرة في بغية الملتمس: غلب عليه الفقه، وله فيه كتاب، وهو من المشهورين. وأبو عبد الله محمد بن الفرج بن عبد الولي الأنصاري، رحل إلى الشرق، وسمع بالقيروان، وبمصر، وبمكة، وكان رجلًا صالحًا، ثقةً، ضابطًا، كانت وفاته بعد الخمسين وأربعمائة. وأبو عبد الله محمد بن موسى بن مغلّس. قال ابن عميرة في بغية الملتمس: فقيه موثق متفنن محدِّث. وأحمد بن سهل بن الحداد، قال ابن عميرة: فقيه مقرئ توفي سنة ٣٨٧. وإسماعيل بن أمية، كان محدثًا، ومات سنة ٣٠٣. وإسحاق بن إبراهيم بن مسرة، مات بطليطلة، لثمان بقين من رجب سنة ٣٥٢، قاله ابن عَميرة. وإسحاق بن إبراهيم، غير الأول، قال ابن عميرة: فقيه، توفي بطليطلة سنة ٣٦٤، قاله ابن عميرة أيضًا. وإسحاق بن ذقابا، بالذال، وقيل بالزاي محدِّث، ولِي القضاء بطليطلة ومات بها سنة ٣٠٣.

وزكريا بن عيسى بن عبد الواحد، توفي ببلده طليطلة، سنة ٢٩٤، عن بغية الملتمس. وسليمان بن هارون الرعيني، أبو أيوب من محدثي طليطلة مات سنة ٢٧٩ عن بغية الملتمس أيضًا.

وسعيد بن أبي هند، من قدماء الأندلسيين، أصله من طليطلة، وسكن قرطبة وقيل في اسمه: عبد الوهاب، يروي عن مالك بن أنس رضي الله عنه، ذكره محمد بن حارث الخشنى في كتابه، وزعم أن مالكًا كان يقول لأهل الأندلس، إذا قدموا عليه: ما فعل حكيمكم ابن أبي هند؟ توفي سعيد المذكور في أيام عبد الرحمن بن معاوية أمير الأندلس. وقد ترجم صاحب بغية الملتمس شخصًا يقال له عبد الرحمن بن محمد بن عباس، ويكنى أبا محمد، غير الأول، وقال إنه صاحب الصلاة بجامع طليطلة، وإنه فقيه مشهور، وذكر مشايخه، مثل أبي غالب ابن تمام، ومحمد بن خليفة البلوي، وعبد الله بن عبد الوارث، وخطاب بن سلمة ابن بُترى، وغيرهم، ولكن لم يذكر سنة وفاته. وأبو الحسن عبد الرحمن بن عبد الله بن يوسف، المعروف بابن عفيف، قال في بغية الأندلس: فقيه فاضل، يروي عنه ابن النعمة، وأبو عبد الله بن سعادة، كتب إليه سنة ٥١٤، وهو يروي عن جماهر بن عبد الرحمن بن جماهر، وأبو هند عبد الرحمن بن هند الأصبحي، روى عن مالك بن أنس ومات ببلده طليطلة بعد المائتين.

وكليب بن محمد بن عبد الكريم، كنيته أبو حفص، وقيل أبو جعفر، طليطلي، رحل إلى مكة فأقام بها مدة، ثم رجع إلى مصر فمات بها سنة ٣٠٠. وكان فقيهًا محدثًا، ترجمه ابن عميرة في بغية الملتمس. وعيسى بن محمد بن دينار، سمع من محمد بن أحمد العتبي، مات بالأندلس، في أيام الأمير عبد الله بن محمد الأموي ترجمه أيضًا ابن عميرة في بغية الملتمس. ثم ترجم رجلًا آخر اسمه عيسى بن دينار ابن وافد الغافقى صحب عبد الرحمن بن القاسم العتقي صاحب مالك ابن أنس وكان إمامًا في الفقه على مذهب مالك وعلى طريقة عالية من الزهد والعبادة. ويقال إنه صلى الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة وكان يعجبه ترك الرأي والأخذ بالحديث توفي سنة ٢١٢. وعلي بن محمد بن مغاور، فقيه طليطلي، يروي عن أبي علي الصدفي. وعلي بن عيسى بن عبيد الطليطلي صاحب المختصر في الفقه، فقيه مشهور ترجمه ابن عميرة في بغية الملتمس. وعبدوس بن محمد بن عبدوس، يكنى أبا الفرج، فقيه محدث مشهور، توفي سنة تسعين وثلاثمائة. وهشام بن حسين من علماء طليطلة، رحل إلى مصر، وسمع من عبد الرحمن بن القاسم، وأشهب بن عبد العزيز، مات قريبًا من سنة عشرين ومائتين. وأبو عمر يوسف بن يحيى الأزدي المغامي، قال ابن عميرة في البغية: قال بعضهم: هو من ولد أبي هريرة، رحل إلى المشرق، وسمع بمصر من يوسف بن يزيد القراطيسي وغيره، وكانت له رحلة إلى مكة واليمن، ومات بالقيروان سنة ٢٨٣. وقيل ٢٨٥. وأبو الحسن بن فرجون، وكان من الأدباء. وابن فضيل الطليطلي، وكان من الشعراء. وجودي بن عثمان النحوي العبسي، من أهل مورور، أصله من طليطلة، رحل إلى المشرق، فلقي الكسائي والفراء وغيرهما، وهو أول من أدخل إلى الأندلس كتاب الكسائي وله تأليف في النحو يسمى «منبّه الحجارة» ترجمه ابن الأبّار، وقال: كانت له حلقة، وأدّب أولاد الخلفاء، وظهر على من تقدمه، توفي سنة ١٩٨، وصلى عليه الفرج بن كنانة القاضي.

وجرير بن غلاب الرعيني، تولى قضاء طليطلة أيام ثورتها على الأمير الحكم بن هشام، وهى الثورة التي تقدم ذكرها، وانتهت بقتل عدة مئات من أعيان طليطلة في قصر البلدة، وردت ترجمة جرير المذكور في التكملة لابن الأبّار. وحريز بن سلمة الأنصاري، من أهل طليطلة، سكن بطليوس، وهو ابن عم القاضي أبي المطرّف بن سلمة، كان من الفقهاء المشاورين. ومن الأدباء. ترجمة ابن الأبّار في التكملة. وخلف ابن تمام، يكنى أبا بكر، من أهل قلعة عبد السلام، من عمل طليطلة، حدث عنه أبو محمد بن ذُنين. وخليفة بن إبراهيم، أبو بكر، طليطلي، حدّث عنه أبو الأصبغ عسلون بن أحمد، من شيوخ

الصاحبين. ومحمد الأسدي، المعروف بابن بُنْكَلِش من علماء طليطلة، وصفه الصاحبان بالفقه والزهد. ومحمد بن حزم بن بكر التنوخي، من طليطلة سكن قرطبة، يعرف بابن المديني، صحب محمد بن مسرة الجبلي قديمًا، واختص بمرافقته في طريق الحج، ولازمه بعد انصرافه، وكان من أهل الورع، ولما كان في المدينة المنورة كان يتتبع آثار النبي ﷺ، ليستدل على أمكنة سكناه، وجلوسه. ويتبرك بذلك. ومحمد بن يحيى بن آدم التنوخي، من أهل طليطلة، كتب إلى الصاحبين بمعلومات عن رجاله. ومحمد بن رضا بن أحمد بن محمد، من أهل طليطلة، كان هو وأخوه أحمد من أهل الرواية والعناية بالفقه، وقد سمعا جميعًا المدونة من خلف بن أحمد المعروف بالرحوي في سنة ٤٢٣، قال ابن الأبار: وقفت على ذلك. ومحمد بن قاسم بن محمد بن إسماعيل بن هشام بن محمد بن هشام بن الوليد بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية القرشي المرواني، من أهل قرطبة، يعرف بالشبانسي، سكن طليطلة، وكان ممن ترك قرطبة بعد الفتنة فيها وصار في طليطلة كاتبًا للرسائل لأنه كان متقدمًا في البلاغة بارع الكتابة. قال ابن الأبّار: وكان آخر من بقي من أكابر أهل صناعته، توفي سنة ٤٤٧، ذكره ابن حيان. ومحمد بن أحمد بن سعدون، يكنى أبا بكر، له رحلة إلى الشرق، سمع فيها من أبي ذر الهروي، حدّث عنه القاضي أبو عامر بن إسماعيل الطليطلي، ترجمه ابن الأبّار. ومحمد بن شداد، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن الحداد، يروي عن الحافظ ابن عبد السلام المعروف بابن شق الليل. وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعيد بن عيسى الكناني من طليطلة، سكن بلنسية، روى عن أبي بكر أحمد بن يوسف بن حماد سمع منه مختصر الطليطلي في الفقه، وروى عنه أبو الحسن بن هذيل المقرئ، وكان فقيهًا أديبًا، أصوليًا، متكلمًا، ووقعت عليه محنة في بلنسية من أبي أحمد بن جحاف الأخيف فخرج إلى المرية وتوفي قبل الخمسمائة. ذكره ابن الأبّار.

وأبو عبيد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري المقري من أهل طليطلة نزل مدينة فاس يعرف بابن فُرقاشش، أخذ القراءات بطليطلة عن المغامي، وأبي الحسن بن الألبيري وكان مقرئًا جليلًا. له تأليف في اختلاف القراء السبعة. أخذ عنه أبو إسحاق الغرناطي في مقدمة غرناطة وإقرائه منها بمسجد حمزة سنة ٥١٢. وأبو محمد بن محمد بن عبد الله الطليطلي، روى عن عبد الله بن سعيد بن رافع الأندلسي، وزياد بن عبد الرحمن القيرواني، والحسن بن رشيق المصري. وحدث عنه الصاحبان بطليطلة ونصر المصحفي النقّاط، كان يقرئ القرآن، وينقّط المصاحف، أخذ عنه محمد بن عبد الجبار الطليطلي،

فلما قرأ على إبراهيم النحاس أعجبته قراءته. ونصر بن سيد بونُه بن خلف الطائي، له رحلة إلى المشرق حاجًّا، وسمع بدانية من الفقيه أبي عبد الله بن الصايغ، الذي أجاز له سنة ٤٦٦.

ونجدة بن سليم بن نجدة الفهري الضرير من أهل قلعة رباح، سكن طليطلة، يكنى أبا سهل، روى عن أبي عمرو المقري، وأبى محمد الشنتجالي، وأبى محمد بن عباس الطليطلي وغيرهم، وتصدر بطليطلة لإقراء القرآن وتعليم العربية، وتوفي بعد سنة ٤٧٥ ذكره ابن الأبّار. وأبو محمد عبد الله بن يونس، كان من أهل العلم والعبادة والجهاد وترك الدنيا، والتهجد بالقرآن. وقد حج بيت الله، وعاد إلى الأندلس، ولحقته سعاية من قِبَل عامل طليطلة، في أيام المنصور بن أبي عامر، فأسكنه قرطبة مدة سنتين، ولكن لم يمد يده إلى شيء من نعمته ونشبه، وكان ذا ثروة طائلة، ولما أقام بقرطبة لم يلق فيها أحدًا، ولا طلب إلى سلطانة شفيعًا، إلى أن صرفه مكرمًا إلى وطنه، وتوفي بعد قليل من تسريحه، سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وسنه نحو الثمانين. وكان مع تقواه من أهل الأدب، والبصر بالعربية، ترجمه ابن الأبّار. وأبو محمد عبد الله بن محمد المعروف بالأشهب، حدّث عنه أبو الحسن عبد الرحمن بن عبد الله بن عفيف ترجمه ابن الأبّار أيضًا في التكملة.

وعبد الله بن محمد بن علي بن عبيد الله بن سعيد بن محمد بن ذي النون الحَجْري (بسكون الجيم بعد فتح الحاء) من حَجْر ذي رُعين، أصله من طليطلة، سكن المرية وهم في الأصل من بني ذي النون، أمراء طليطلة، كما كان يقول. ولما تحولوا من طليطلة نزلوا حصنًا اسمه قَنْجَايَر بينه وبين المرية ثلاثون ميلًا على الجادة إلى مالقة. سمع صحيح مسلم من أبي عبد الله بن زغيبة، وروى عن أبي القاسم بن ورد، وأبي الحجاج بن يسعون، وأبي عبد الله ابن أبي أحد عشر، وأبي محمد الرشاطي وغيرهم، وذلك في المرية. ثم رحل إلى قرطبة، فروى عن أبي القاسم بن بقي، وأبي الحسن ابن مغيث، وأبي بكر بن العربي وغيرهم، ولقي بأشبيلية شُريح بن محمد، وقرأ عليه صحيح البخارى في رمضان سنة ٥٣٤، وكان شُريح بطول العمر قد انفرد بعلو الإسناد في صحيح البخاري لسماعه إياه من أبيه وأبي عبد الله بن منظور، عن أبي ذر (الهروي) فكان الناس يرحلون إليه بسببه، وكان قد عيَّن لقراءته شهر رمضان، فيكثر الازدحام عليه في هذا الشهر من كل سنة، قال ابن الأبّار في التكملة: إن عبد الله المذكور كان الغاية في الصلاح والورع والعدالة، وكان أبو القاسم بن حبيش يقول: إنه لم يخرج على قوس المرية أفضل منه. قال ابن الأبّار: وأشبه أبا القاسم ابن بشكوال في إكثاره وتولي الصلاة والخطبة بجامع المرية، ودعي إلى القضاء

فأبى. ولما تغلب العدو على المرية أول مرة خرج إلى مرسية، فدعي إلى ولاياتٍ أباها، ثم خرج إلى مالقة، ثم أجاز البحر قاصدًا إلى فاس، ثم عاد إلى سبته وأقام يُقرئ القرآن، ويُسمع الحديث ويرحل إليه الناس، لعلو إسناده وحسن ضبطه، وكان له خط حسن، وكانت ولادته بِقَنْجَايَر سنة ٥٠٥، وتوفي ليلة الأحد من صفر سنة ٥٩١، بسبتة، وهو ابن خمس وثمانين سنة، ودفن بالموضع المعروف بالمنارة، وكانت له جنازة مشهودة، روى ذلك ابن الأبّار في التكملة، ونحن ننقله ملخصًا.

وأبو الحسن عبد الرحمن بن أبي بكر محمد بن محمد بن مغيث الصدفي، أخذ مشيخة بلدة طليطلة، وقدم بلنسية في وجوه أهل طليطلة، للعقد على ابنة المأمون بن ذي النون، مع المظفّر عبد الملك بن المنصور، عبد العزيز بن أبي عامر، فسمع معهم من أبي عمر بن عبد البر سنة ٤٥١، وكان هذا الرجل من بيتٍ شهير بالعلم والفقه في طليطلة، وهو الذي صلى على أبي جعفر أحمد بن سعيد اللورانكي عند وفاته في طليطلة سنة ٤٦٩.

وأبو المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن مهند اللخمي، رحل إلى قرطبة، فتعلم فيها الطب على أبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي وكان مع تقدمه في علم الطب فقيهًا أديبًا متفننًا، وله في الطب كتاب الأدوية المفردة استعمله الناس، وكتاب الوساد. وله في الفلاحة مجموع مفيد، وكان عارفًا بوجوهها وهو الذي تولى غرس جنة المأمون بن ذي النون الشهيرة بطليطلة ولد سنة ٣٨٩، توفي منتصف يوم الجمعة، لعشر بقين من رمضان سنة سبع وستين وأربعمائة.

وأبو زيد عبد الرحمن بن سعيد الأنصاري، لقي أبا الحسن بن الألبيري المقري وأخذ عنه، وحدّث عنه أبو بكر بن الخلوف، بكتاب الاستذكار، لمذاهب القراء السبعة المشهورين في الأمطار، لابن الألبيري المذكور، قال ابن الأبّار: وقد تقدم ذكر محمد بن عبد الرحمن الأنصاري الطليطلي المقري، وروايته عن أبي عبد الله المغامي، ولعله ابن هذا. وعبد الجبار بن قيس بن عبد الرحمن بن قتيبة بن مسلم الباهلي، من أهل طليطلة، وُلِي قضاءها من قِبَل الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل.

وأبو الحسن على بن عبد الرحمن بن يوسف الأنصاري من ولد سعد بن عبادة يعرف بابن اللونقة، روى عن أبي عمر بن عبد البر، وأبى العباس العذري وغيرهما وكان فقيهًا ورعًا، وأخذ علم الطب عن أبي المطرّف بن واقد، وكان خرج من طليطلة قبل تغلب الروم عليها، وأقام بقرطبة، ومات فيها سنة ثمان أو تسع وتسعين وأربعمائة. ترجمة ابن الأبّار. وأبو الحسن علي بن أحمد بن أبي بكر الكناني، يعرف بابن حنين الطليطلي،

ثم القرطبي، نزيل فاس، سمع بقرطبة، وبجيتان، وحج سنة خمسمائة وبعدها مرتين، ولقي أبا حامد الغزالي، وصحبه، وسمع منه أكثر الموطّأ وأقام ببيت المقدس تسعة أشهر يُقرئ القرآن، وفي سنة ٥٠٣ كان في مدينة فاس، توفي سنة ٥٦٩ معمّرًا، لأنه ولد سنة ٤٧٦، ترجمه ابن الأبّار. وسعيد بن محمد المعروف بابن البغونش، يكنى أبا عثمان، قرأ بقرطبة علم العدد والهندسة، وأخذ عن أبي محمد بن عبدون الحلبي، وسليمان بن جلجل، علم الطب. واتصل بأمير طليطلة الظافر إسماعيل بن ذي النون، ثم انقبض عن الناس، ومال إلى العبادة في دولة ابنه المأمون يحيى بن ذي النون، وتوفي في رجب سنة ٤٤٤، عن خمس وسبعين سنة. وأبو عثمان سعيد بن عيسى بن أحمد بن لب الرعيني، يعرف بالأصفر، وبالقصيري لولادته بقصير عطية، ولد سنة ٣٨١، ورحل إلى قرطبة في طلب العلم سنة ٣٩٩، وقرأ بقرطبة وبمالقة على أبي الحسن الزهراوى، وعلى أبي عثمان نافع، وكان مقدمًا في علم العربية، وتوفي سنة اثنتين وستين وأربعمائة. وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأنصاري المقرئ الضرير، يعرف بالمُجُنقْوني، سكن قرطبة، وأصله من طليطلة كان من جلّة أصحاب أبي عمر المقرئ، وسمع الحديث على أبي بكر جماهر بن عبد الرحمن الحجرى، وكان ثقةً فاضلًا عفيفًا منقبضًا، وكان إمام مسجد طَرفة بالمرية، وكانت وفاته عقب شعبان سنة سبع عشرة وخمسمائة. وأبو بكر يحيى بن أحمد من طليطلة، نزل أشبيلية بعد تغلب الروم على وطنه. قال ابن الأبّار: إنه كان يتقدم أدباء عصره تفننًا في الآداب، وتصرفًا في النظم توفي سنة ٥٤٥.

وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن موسى بن عبد السلام الأنصاري، يعرف بابن شق الليل، سمع بمصر أبا الفرج الصوفي، وأبا القاسم الطحَّان، وأبا محمد بن النحاس، وغيرهم، وكان قد قرأ على علماء طليطلة، وكان غالبًا عليه علم الحديث، مع معرفة أسماء رجاله. وكان مليح الخط، جيد الضبط، شاعرًا مجيدًا، لغويًّا، صالحًا فاضلًا، توفي بطلبيرة يوم الجمعة منتصف شعبان سنة ٤٥٥، ترجمة ابن بشكوال، وذكره المقري في من رحل من أهل الأندلس إلى الشرق. وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن سهل الأموي الطليطلي، المعروف بالنقاش، نزل مصر، وقعد للإقراء بجامع عمرو بن العاص، وأخذ عنه جماعة، وتوفي بمصر سنة ٥٢٩، ورد ذكره في نفح الطيب. وأبو زكريا يحيى بن سليمان، قدم إلى الإسكندرية، ثم رحل إلى الشام، وأقام بحلب، وله ديوان شعر أكثر فيه من المديح والهجاء، قال بعض من طالعه: ما رأيته مدح أحدًا إلا وهجاه. عن نفح الطيب. وأبو محمد عبد الله بن العسال الطليطلي، له شعر قرأته في صفحة ١٤٨ من الجزء الثاني

من نفح الطيب. وعبد الله بن المعلم الطليطلي. ومحمد بن خيرة العطار كان متقنًا لعلم العدد والفرائض علم بذلك في قرطبة، ذكره القاضي صاعد، ترجمة ابن الأبّار في التكملة. وأحمد بن محمد بن الحسن الطليطلي، من شيوخ الصاحبين.

وأبو جعفر أحمد بن خميس بن عامر بن منيح من أهل طليطلة، قال القاضي صاعد بن أحمد عنه: أحد المعتنين بعلم الهندسة والنجوم والطب، وله مشاركة في علوم اللسان، وحظٌّ صالح في الشعر، وهو من أقران أبي الوليد هشام بن أحمد ابن هشام، وأبي إسحاق إبراهيم بن لب إدريس التجيبي، المعروف بالقويدس. كان من أهل قلعة أيوب، ثم أخرج عنها، واستوطن طليطلة، وتأدب فيها، وبرع في علوم العدد والهندسة والفرائض، وقعد للتعليم بذلك زمانًا طويلًا وكان له بصر بعلم هيئة الأفلاك، وحركات النجوم، وعنه أخذت كثيرًا من ذلك، وكان له مع ذلك نفوذ في العربية، وقد أدَّب بها زمانًا بطليطلة، وتوفي رحمه الله ليلة الأربعاء، لثلاث بقين من رجب سنة أربع وخمسين وأربعمائة. انتهى.

ثم ذكر القاضي صاعد بعض من عني بالفلسفة من أهل الأندلس فقال: وفي زماننا هذا أفراد من الأحداث منتدبون بعلم الفلسفة، ذوو أفهام صحيحة، وهمم رفيعة قد أحرزوا من أجزائها، فمنهم من سكان طليطلة وجهاتها: أبو الحسن علي بن خلف بن أحمر. وأبو إسحاق إبراهيم بن يحيى النقاش المعروف بوليد الزرقيال. وأبو مروان عبد الله بن خلف الأستجي. وأبو جعفر أحمد بن يوسف بن غالب التهلاكي. وعيسى بن أحمد بن العالم. وإبراهيم بن سعيد السهلي الإسطرلابي. (ثم قال): وأعلمهم بحركات النجوم، وهيئة الأفلاك، أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى النقاش، والمعروف بولد الزرقيال، فإنه أبصر أهل زماننا بأرصاد الكواكب، وهيئة الأفلاك وحساب حركاتها، وأعلمهم بعلم الأزياج، واستنباط الآلات النجومية.ا.هـ.

ثم ذكر القاضي صاعد غير هذا من الحكماء وعلماء الفلك والرياضيين، من أهل الأندلس، ممن سنذكرهم عند الوصول إلى ذكر بلدانهم. ثم ذكر علماء الطب فقال ما يلي: وكان بعد هؤلاء إلى هذا جماعة من أشهرهم: أبو عثمان سعيد بن محمد بن البغونش، وكان من أهل طليطلة، رحل إلى قرطبة بطلب العلم، فأخذ عن مسلمة بن أحمد علم العدد والهندسة، وعن محمد بن عبدون الجبلي وسليمان بن جلجل، وابن الشناعة، ونظرائهم، علم الطب. ثم انصرف إلى طليطلة، واتصل بأميرها الظافر إسماعيل بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن عامر بن مطرف بن ذي النون، وحظي عنده وكان أحد مديري دولته، ولقيته فيها بعد ذلك، في صدر دولة المأمون ذي المجد يحيى بن الظافر بن إسماعيل بن ذي النون،

وقد ترك قراءة العلم، وأقبل على قراءة القرآن. ولزوم داره، والانقباض عن الناس، فلقيت منه رجلًا عالمًا، جميل الذكر والمذهب، حسن السيرة، نظيف الثياب، ذا كتب جليلة، في أنواع الفلسفة وضروب الحكمة. وتبينت منه أنه قد قرأ الهندسة وفهمها، والمنطق وضبط كثيرًا منه. ثم أعرض عن ذلك، وتشاغل بكتب جالينوس وجمعها، وتناولها بتصحيحه ومعاناته، فحصل له بتلك العناية فهم كثير منها. ولم يكن له دربة في علاج المرضى، ولا طبيعة نافذة في فهم الأمراض. وتوفي عند صلاة الصبح يوم الثلاثاء أول رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة، وعمره خمس وسبعون سنة. ا.هـ.

ثم ترجم القاضي صاعد الوزير أبا المعارف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن مهند اللخمي، قال عنه: أحد أشراف أهل الأندلس وذوي السلف الصالح منهم، والسالفة القديمة فيهم، عني عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وتفهمها، ومطالعة كتب أرسطاطاليس، وغيره من الفلاسفة، وتمهّر في علوم الأدوية المفردة، حتى ضبط منها ما لم يضبط أحد في عصره. وألف فيها كتابًا جليلًا لا نظير له جمع فيه ما تضمنه كتاب ديوسفوريدوس، وكتاب جالينوس المؤلفين في الأدوية المفردة، ورتبه أحسن ترتيب. وهو مشتمل على قريب من خمسمائة ورقة، وأخبرني عنه أنه عانى جمعه، وحاول ترتيبه، وتصحيح ما ضمنه من أسماء الأدوية وصفاتها، وأودعه إياه من تفصيل قواها، وتحديد درجاتها، من عشرين سنة، حتى كمل موافقًا لغرضه، مطابقًا لبغيته. وله في الطب منزع لطيف، ومذهب نبيل. وذلك أنه لا يرى التداوي بالأدوية، ما أمكن التداوي بالأغذية، أو ما كان قريبًا منها، فإذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوي بمركبها، ما وصل إلى التداوي بمفردها. فإن اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب. بل اقتصر على أقل ما يمكن منه. وله نوادر محفوظة، وغرائب مشهورة، في الإبراء من العلل الصعبة، والأمراض المخوفة، بأيسر العلاج وأقربه، وهو في وقتنا هذا حي مستوطن مدينة طليطلة وأخبرني أنه ولد في سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة. ا.هـ.

ثم ذكر القاضي صاعد علماء آخرين من بلده، اشتهروا بالفلسفة والطب والفلك والهندسة فقال: ثم من أحداث عصرنا، ممن يعتني بطلب الفلسفة: أبو الحسن عبد الرحمن بن خلف بن عساكر، اعتنى بكتب جالينوس عناية صالحة، وقرأ كثيرًا منها على أبي عثمان سعيد بن محمد بن بفونش، واشتغل أيضًا بصناعة الهندسة والمنطق، كانت له عبارة بالغة، وطبع فاضل في المعاناة، ومنزع حسن في الفلاح، وهو مع ذلك صنع[١٨] اليدين، متصرف في ضروب من الأعمال اللطيفة، والصناعات، ساع في نيلها، وله من جودة

القريحة، وصحة الفهم، ما يمكنه من بلوغ إلى المراتب الراقية من الفلسفة، إن أعانه جد، وساعده حال.

وأما صناعة أحكام النجوم فلم تزل نافعة بالأندلس قديمًا وحديثًا، واشتهر بتقليدها جماعة في كل عصر إلى وقتنا هذا. فكان من مشاهيرهم في زماننا هذا، وزمان بني أمية: أبو بكر يحيى بن أحمد، المعروف بابن الخياط، كان أحد تلاميذ أبي القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي في علم العدد والهندسة. ثم مال إلى أحكام النجوم، فبرع فيها، واشتهر في علمها، وخدم بها سليمان بن الحكم بن الناصر لدين الله أمير المؤمنين في زمان الفتنة، وغيره من الأمراء. وكان آخر من خدم بذلك معتنيًا بصناعة الطب دقيق العلاج، وكان حصيفًا، حليمًا، دمثًا، حسن السيرة، كريم المذهب، توفي بطليطلة سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وقد قارب ثمانين سنة. ا.هـ.

(ثم قال): ومنهم من أحداث عصرنا أبو مروان عبيد الله بن خلف، أحد المتحققين بعلم الأحكام، والمشرفين على كتب الأوائل، فلا أعلم أحدًا في الأندلس في وقتنا هذا ولا قبله، وقف من أسرار هذه الصناعة وغرائبها على ما وقف عليه. وله في التسيرات، ومطارح الشعاعات، وتعليل بعض أصول الصناعة، رسالة فاضلة، لم يتقدمه أحد إليها. كتب بها إليّ من مدينة قونكة. ا.هـ.

هؤلاء هم علماء العرب المنسوبون إلى طليطلة، من فقهاء، ومحدثين، وحكماء، ومتكلمين، وشعراء، ومنشئين، وأطباء، ومهندسين، وحكماء ورياضيين، ممن وقفنا على أخبارهم. ولا شك في أنه ند منهم من لم نقف على خبره، أو من وقع منا سهو عن تقييد ترجمته، والإحاطة غير ممكنة، كما لا يخفى. وإن فاتنا شيء ووقفنا على فوته قيدناه ليلحق بالطبعة الآتية إن شاء الله.

فأما الذين ينسبون إلى طليطلة من كبار الرجال في دور النصرانية، فأشهرهم الكردينال «بادرو غونزالز دو مندوزا»[١٩] الذي كان أكبر موقد لنار الحرب على غرناطة، توفي سنة ١٤٩٥. والكردينال «شيمينيس دوسيزناروس»[٢٠] المتوفى سنة ١٥١٧، وهو صاحب ديوان التفتيش الشهير، الذي كان يحرق بالنار المسلمين واليهود الذين يأبون التنصر، أو يتنصرون ظاهرًا، ثم يأتي من يخبر عنهم بأنهم لا يزالون يدينون بدينهم سرًا. والكرادلة «رودريقو»،[٢١] و«فونسيكا»،[٢٢] و«تينوريو»،[٢٣] باني قنطرة طليطلة الأخيرة. و«تافيرَه»،[٢٤] و«لورانزانه»،[٢٥] وكلهم كانوا رؤساء أساقفة أسبانية. وفي طليطلة مات الشاعر أغسطين كابانيا،[٢٦] سنة ١٦٦٩ وولد فرنسيسكو روجاس زورلّا[٢٧] سنة ١٦٠٧.

هوامش

(١) تقدم ذكر هذه القصبة التي نزل فيها بنوقهم فنسبت إليهم وهي من أعمال طليطلة.

(٢) وهو الباب الذي يقول له الأسبان Visagra.

(٣) Novembre, Décembre et Janvier.

(٤) وجدت كتابة كوفية محفوظة اليوم في المتحف الأثري بمجريط كانت على قبر محمد بن أحمد بن محمد بن مغيث وقد نقلناها في محل آخر بمناسبة ما وجد في أرباط طليطلة من قبور المسلمين، وصورتها: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِالله الْغَرُورُ﴾. هذا قبر محمد بن أحمد بن محمد بن مغيث كان يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. توفي رحمه الله ليلة الأحد لثمان بقين من ربيع الآخر سنة سبع وأربعين وأربعمائة. ونظن أن صاحب هذا القبر هو ابن المترجم.

(٥) وجدت كتابة في طليطلة نصها بعد البسملة: «هذا قبر محمد بن عبد الله بن عمران توفي رحمة الله عليه ورضوانه ليلة الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة فرحم الله من ترحم عليه ودعا له وصلى الله على محمد.»

روى لاوي بروفنسال أن المستشرق الأسباني قديرة Codera الذي هو من أصل عربي قال: إن هذا الرجل هو من عائلة خلف بن صالح بن عمران التميمي المتوفى سنة ٣٧٨، وعبد الله بن محمد بن صالح بن عمران التميمي المتوفى سنة ٣٨٤ وكلاهما قد ترجمه ابن بشكوال في الصلة. بل نظن أن محمد بن عبد الله بن عمران هذا هو ابن أبي محمد عبد الله بن محمد بن صالح بن عمران التميمي الذي سيأتي ذكره بين المترجمين من علماء طليطلة.

(٦) يذهب المستشرق قديرة إلى أن الكتابة التي وجدت في طليطلة سنة ١٨٨٨ في أثناء تسوية طريق المقبرة وهي محفوظة في المتحف الأثري بتلك البلدة ونصها بعد البسملة: «يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. هذا قبر الفقيه أبي عثمان بن جعفر توفي رحمه الله يوم السبت لعشر بقين لشهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة، هي على قبر أبي عثمان سعيد بن محمد بن جعفر الأموي الطليطلي الذي ترجمه ابن بشكوال في الصلة ولكن في كتاب ابن بشكوال تعيين تاريخ

وفاة هذا الرجل رمضان سنة ثمان وأربعين وأربعمائة وليس ثلاثًا وأربعين وأربعمائة. قلنا إن توجيه هذا الفرق سهل فقد يجوز أن يكون ابن بشكوال أخطأ في تعيين السنة كما أنه يجوز أن يكون وقع سهو من أحد نساخ كتاب الصلة فبدلًا من أن يكتب ثلاث وأربعين كتب ثمان وأربعين وهذا يقع كثيرًا. والأصلح هو التاريخ المزبور على الحجر كما لا يخفى.

(٧) القاضي صاعد بن أحمد الطليطلي الأندلسي هو من أعظم من أنجبته طليطلة بل الأندلس كلها، وهو من الحكماء الفقهاء الذين جمعوا بين الفقه والحكمة على نسق القاضي ابن رشد ومن كتابه «طبقات الأمم» في تاريخ العلوم والعلماء والأمم التي عنيت بالعلم والمدنية يستدل على علو طبقته، وقد نقلنا عنه في هذا الكتاب بعض شذرات في القسم الجغرافي وأخرى في تراجم علماء الأندلس ولكننا لم نطلع من تآليفه إلا على هذا الكتاب.

(٨) برغش هذه المشار إليها هنا ليست فيما يترجح مدينة برغش التي كانت قاعدة قشتالة، بل هي قرية من قرى طليطلة وقد ضبطها ياقوت في المعجم بعين مهملة والشين معجمة فقال: قرية قرب طليطلة بالأندلس قال ابن بشكوال: سكنها صادق بن خلف ابن صادق بن كتيل الأنصاري الطليطلي له رحلة إلى المشرق وسمع وروى، ومات بعد سنة ٤٧٠.

(٩) ورد ذكر هذا في الصلة وفي بغية الملتمس أيضًا.

(١٠) وجدت في طليطلة كتابة بالخط الكوفي بأعلى قوس كان مبنيًا من فوقه فلم ينكشف إلا في أثناء ترميم وقع في كنيسة صغيرة في محلة «سنتا أورسوله» وقد ترجم هذه الكتابة المستشرق قديرة وقد نقلها لاوي بروفنسال إلى مجموعته ونصها بعد البسملة: «قام هذا البلاط بحمد الله وعونه على يدي صاحبي الأحباس الأمينين عبد الرحمن بن محمد بن البيرولة وقاسم بن كهلان في شهر رجب سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة فرحم الله المحبس عليه والساعي في شأنه والمصلي فيه والقارئ له آمين يارب العالمين فصلى الله على محمد خاتم النبيين وسلم» هذا الرجل ترجمه ابن بشكوال والضبي وذكرا أنه توفي سنة ٤٦٥ وقال ابن بشكوال إن له كتابًا يشتمل على تراجم فقهاء طليطلة وقد أخذ صاحب «الصلة» عنه وقال لاوي بروفنسال إن البيرولة لفظة إسبانيولية تكتب بالأسباني هكذا "Alberole".

(١١) من أحياء طليطلة، مر ذكره في بعض الصكوك.

(١٢) في التكملة لابن الأبار يروي ترجمة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن يحيى بن عبد الملك بن عبد الرحمن بن محمد المعافري ويقول: إنه رحل إلى المشرق وروى عن أبي قتيبة سلم بن الفضل وأبي بكر محمد بن خروف وإنه حدث عنه أبو عبد الله بن عبد السلام الطليطلي وإنه حدث عنه أيضًا الصاحبان، وقالا إنه توفي سنة ٣٩٩ وزاد ابن بشكوال في رجب وذكره في زيادته ولم يستوف خبره.

(١٣) الذي يتأمل في أنساب هؤلاء العلماء المنسوبين إلى طليطلة يرى أكثرهم يقال له التجيبي والأموي والأنصاري مما يدل على أن عرب طليطلة كان أكثرهم من بني أمية ومن الأنصار الأوس أو الخزرج ومن تجيب، وأما المغامي فمغامة قرية تقدم وصفها من قرى طليطلة.

(١٤) نقلنا هذه الترجمة عن كتاب الصلة لأبي القاسم خلف بن بشكوال ووجدنا هذا الرجل مترجمًا أيضًا في بغية الملتمس لأحمد بن عميرة الضبي يقول فيه: محمد بن أحمد بن إسماعيل أبو عامر القاضي الطليطلي فقيه عارف مشهور يروي عن أبي المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن البيروله وأبي بكر جماهر بن عبد الرحمن بن جماهر ومحمد بن خلف المعروف بابن السقاط ويروي عنه أبو الحسن بن النعمة.

(١٥) تقدم ذكر قرية الفهمين أو الفهميين وهي من قرى طليطلة.

(١٦) الذي قرأناه من كلام القاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد الطليطلي الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٤ في كتابه «طبقات الأمم» بشأن أبي الوليد الرقشي هو هذا بحرفه: ومنهم أبو الوليد هشام بن أحمد بن خالد الكتاني المعروف بابن الوقشي من أهل طليطلة أحمد المتفننين في العلوم المتوسعين في ضروب المعارف من أهل الفكر الصحيح والنظر الناقد والتحقق بصناعة الهندسة والمنطق والرسوخ في علم النحو واللغة والشعر والخطابة والأحكام بعلم الفقه والأثر والكلام، وهو مع ذلك شاعر بليغ ليس بفضله شاعر عالم بالأنساب والأخبار والسير مشرف على جمل سائر العلوم، لقيته بطليطلة سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، وقد تقلد القضاء بين أهل طلبيرة من ثغور طليطلة قاعدة الأمير المأمون يحيى بن الظافر إسماعيل بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن عامر بن مطرف بن موسى بن ذي النون. انتهى هذا نقلًا عن طبقات الأمم النسخة المطبوعة بمصر.

(١٧) وجدت في المكان المسمى برادوسان ايزيدور في طليطلة كتابة محفوظة اليوم في المتحف الأثري بمجريط وهي ثمانية أسطر بالكوفي قد أصبح أكثرها طامسًا ونصها: بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر يوسف بن الأصبغ بن الخضر توفي رحمه الله عليه عشي يوم السبت..... من جمادى.... و..... و...... وأربعمائة.

(١٨) صنع اليدين بكسر الصد وسكون النون ويجوز بتحريك الصاد والنون.

(١٩) Pedro Gonzalez de Meudoza.

(٢٠) Ximénes de Cisneros.

(٢١) Rodrigo.

(٢٢) Fonseca.

(٢٣) Tenorio.

(٢٤) Tavera.

(٢٥) Loranzana.

(٢٦) Cabana.

(٢٧) Rojes-Zorrilla.

الفصل الثاني

طلبيرة

ومن الأعمال الشهيرة التي كانت مضافة إلى طليطلة في زمان العرب طَلَبيرة،[1] وهى على مسافة ١٣٥ كيلومترًا من مجريط، وسكانها اليوم أحد عشر ألف نسمة، واقعة على ضفة نهر تاجُه، ولها جسر ٢٥ قوسًا باق من القرن الخامس عشر، وفيها باب روماني قديم، وأبراج عربية من زمن بني أمية. وفى هذه البلدة هزم الإنكليز جيش بونابرت في ٢٨ يوليو سنة ١٨٠٩. ويوجد ثلاث بلاد باسم طَلَبيرة في أسبانية: طلبيرة على ضفة وادي يانه، من عمل بطَلْيوس في غرب الأندلس وهى قرية صغيرة، وطلبيرة هذه ذات الشأن، وكانت تعد من أعمال طليطلة. وطلبيرة يبجة على ٣٠ كيلومترًا من طلبيرة الكبرى.

قال ياقوت الحموي: طلبيرة بفتح أوله وثانيه، وكسر الباء الموحدة، ثم ياء مثناة من تحت ساكنة، وراء مهملة: مدينة بالأندلس، من أعمال طليطلة، كبيرة، قديمة البناء، على نهر تاجه بضم الجيم. وكانت حاجزًا بين المسلمين والإفرنج، إلى أن استولى الإفرنج عليها فهي في أيديهم الآن، فيما أحسب. وكان قد استولى عليها الخراب، فاستجدها عبد الرحمن الناصر الأموي، ولطلبيرة حصون ونواح عدة. ا.هـ.

وينتسب إلى طلبيرة عدد كبير من أهل العلم، مما يدل على عمرانها العظيم في أيام العرب، منهم: أبو الحسن عبد الرحمن بن سعيد بن شماخ، روى ببلده عن أبي الوليد مرزوق بن فتح، وروى عن أبي عبد الله المغامي، وكان من أهل الذكاء والمعرفة، توفي في شوال سنة ٥٢٠. وأبو الوليد عبد ربه بن جهور القيسي، روى عن أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد السلام الحافظ وغيره، وروى عن ابنه إبراهيم بن عبد ربه. وأبو القاسم عيسى بن إبراهيم بن عبد ربه المذكور، سكن شريش، ورحل إلى المشرق ودخل بغداد، وأخذ عن الحريري صاحب المقامات، وكان أديبًا بارعًا صالحًا ثقة، مات بأشبيلية وسط سنة ٥٢٧.

وأبو الحسن علي بن موسى بن إبراهيم بن حزب الله، من أهل طلبيرة سكن سرقسطة، روى عن أبي عمر المديوني، ورحل إلى المشرق وحج، وأدرك الجلة من الرجال، وحدث عنه أبو عمرو المقرئ وأبو حفص بن كُريب، وكان كثير الرواية، غير أن العبادة غلبت عليه، فامتنع عن الرواية إلا يسيرًا، واعتزل الناس، وكان يختم القرآن في ثلاث ليال. قال ابن بشكوال: ولم ألقَ مثله في الزهد والتبتل رحمه الله. وأبو نصر فتوح بن عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، روى عنه أبو الوليد مرزوق بن فتح، وقال: كان الغالب عليه الرأي.

وأبو عبد الله محمد بن فتوح بن علي بن وليد بن محمد بن علي الأنصاري، روى عن أبي جعفر بن مغيث وثائقه، وأخذ عن أبي عمر بن عبد البر، وأبي عمر بن سُميق، وأبي عمر الطلمنكي، وعن التبريزي. وكان عالمًا بالرأي والوثائق، تولى أحكام القضاء بغرناطة وتوفي بمالقة، أول يوم من صفر سنة ٤٩٨. وأبو الوليد مرزوق بن فتح بن صالح القيسي، روى عن أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الحافظ، وعن أبي العباس بن فتوح وعن التبريزي، والسافقسي، وعن أبي محمد الشنتجياني، وأبى محمد بن عباس الخطيب، ورحل إلى المشرق حاجًا، ولقي بمكة أبا ذر الهروي في موسم سنة ٤٢٨، وكان من أهل المعرفة والنباهة، توفي في جمادى الآخرة سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة. وأبو الفتوح نصر بن عامر بن أنس الأنصاري، روى عن عبد الرحمن بن مدراج وروى عنه ابن عبد السلام الحافظ، وأبو محمد بن خزرج. وقال هذا عنه: كان من أهل العلم، ثقةً ثبتًا، مشهورًا بالعناية والسماع، وذكر أنه أجاز له سنة ٤١٦. وأبو العباس وليد بن محمد بن فتوح الأنصاري، روى عن عبدوس بن محمد، وله رحلة إلى المشرق، وكان يغلب عليه الرأي.

وأبو العباس أحمد بن عمر المعافري المرسي، أصله من طَلَبيرة، يعرف بابن إفرند. وخلف المقري مولى جعفر الفتي، يكنى أبا القاسم، له رحلة إلى المشرق، سمع فيها بالقيروان من أبي محمد بن أبي زيد، ولازمه سنين عدة، وأقام بالمشرق سبعة عشر عامًا، وحج ثلاث حجج، وقرأ القرآن بمصر على ابن غلبون المقرئ، ودخل بغداد والبصرة والكوفة، قال ابن بشكوال: قرأت خبره كله بخط أبي بكر المصحفي، وذكر أنه لقيه بطلبيرة، وقال: كان رجلًا صالحًا متبتلًا، دائم الصيام، عابدًا، يسكن المسجد، ويحاول عجن خبزه بيده، وكان قصيرًا مفرط القصر، وكان فقيهًا يقظًا، وذكر أنه أخذ عنه سنة ثمان وأربعمائة. وأبو بكر خلف بن يوسف بن نصر المعروف بالمُغيلي، أخذ عن أبي عبد الله بن عيشون مختصره في الفقه، وحدث عنه الصاحبان في طليطلة، وقالا: توفي في شعبان سنة ست وتسعين وثلاثمائة.

هوامش

(١) Telavera de la Reina.

الفصل الثالث

قشبرة

ومن أعمال طليطلة بلدة يقال لها قُشُبْرَة، بضم أوله وثانيه، وسكون الباء. قال ياقوت الحموي: وجدت بعض المغاربة كتبه بالواو (قشوبره). وهى من إقليم شنتلة ينسب إليها أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد الأنصاري القُشُبْري، سمع بالحديث بأصبهان من أبي الفتوح بن محمود بن خلف العجلي، ومحمد بن زيد الكراني، وحدّث فيما وراء النهر ببخارى وسمرقند، وكان عالمًا بالهندسة، وتوفي بسمرقند.

الفصل الرابع

أُقليش

ومن أعمال طليطلة أيام العرب أُقليش، ذكرها ياقوت في المعجم فقال: بضم الهمزة، وسكون القاف، وكسر اللام وياء ساكنة، وشين معجمة: مدينة بالأندلس من أعمال شنت برية، وهى اليوم للإفرنج. وقال الحميدي: أقليش بليدة من أعمال طليطلة، ينسب إليها أبو العباس أحمد بن القاسم المقري الأقليشي.وأبو العباس أحمد بن معروف بن عيسى بن وكيل التجيبي الأقليشي. قال أحمد بن سِلفة.[١] في معجم السفر: كان من أهل المعرفة باللغات، والأنحاء والعلوم الشرعية. ومن جملة أساتيذه أبو محمد بن السيد البطليوسي، وأبو الحسن بن سبيطة الداني، وأبو محمد القَلَنّي، وله شعر، وكان قد قدم علينا الإسكندرية سنة ٥٤٦، وقرأ علي كثيرًا، وتوجه إلى الحجاز، وبلغنا أنه توفي بمكة. ا.هـ.

وعبد الله بن يحيى التجيبي الأقليشي، أبو محمد، يعرف بابن الوحشي، أخذ بطليطلة عن المغامي المقرئ القراءة، وسمع بها الحديث، وله كتاب حسن في شرح الشهاب واختصر كتاب مشكل القرآن، لابن فورك. وتولى أحكام بلده في آخر عمره وتوفي سنة اثنتين وخمسمائة. ا.هـ.

قلنا: وممن ينسب إلى أقليش من العلماء خلف بن مسلمة بن عبد الغفور، كان قاضيًا في أقليش يكنى أبا القاسم روى بقرطبة عن أبي عمر بن الهندي، وأبي عبد الله ابن العطار، وأخذ عنها كتاب الوثائق من تأليفهما، وجمع كتابًا في الفقه سماه بالاستغناء. وأبو القاسم خلف بن مسعود بن أبي سرور، روى بقرطبة عن شيوخها وحدث عنه القاضي محمد بن خلف بن السقاط. وأبو محمد عبد الله بن يحيى التجيبي المعروف بابن الوحشي، الذي ذكره ياقوت في المعجم كما تقدم. وأبو الربيع هشام بن سليمان المقري، له كتاب في القراءات. وأبو العباس أحمد بن قاسم بن عيسى بن فرج بن عيسى اللخمي المقري الأقليشي سكن قرطبة.[٢] وأبو العباس الأقليشي أحمد بن معد

بن عيسى التجيبي الأندلس الداني. قال الحنبلي في شذرات الذهب. إنه مات سنة ٥٠٥، وسمع أبا الوليد ابن الدبَّاغ، وأخذ بمكة عن الكروخي، وكان زاهدًا عارفًا، وله شعر في الزهد، وتصانيف من جملتها كتاب المعجم. انتهى.

وكان والده أبو بكر معد بن عيسى بن وكيل التجيبي، نزيل دانية، من العلماء أيضًا، وقد حدث عنه ابنه المذكور، ذكر ذلك ابن الأبّار في التكملة. وأبو المطرف عبد الرحمن بن خلف التجيبي، روى عن أبي عثمان سعيد بن سالم المجريطي، ورحل حاجًّا سنة ٣٤٦. وبهلول بن فتح من أهل أقليش، له رحلة إلى المشرق حج فيها، وكان رجلا صالحًا. وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سليمان بن فتحون من أهل أقليش وقاضيها رحل إلى المشرق وحج، وسمع بمكة، من كريمة المروزية، وسمع بمصر من أبي إسحاق الحبّال، وأبي نصر الشيرازي، وأبي الحسن محمد بن مكي الأزدي، وكان سماعه منهم مع أبي عبد الله الحميدي سنة ٤٥٠، وكان خطيبًا محسنًا، استقضى بأقليش بلده، ثم أُعفي من القضاء، ثم دُعي إلى قضاء وَبذَى فأبى وعزم عليه في ذلك وجاءه أهل وَبذَى لهذا الغرض، وباتوا ليلتهم في أقليش، وتوفي أبو إسحاق في صبيحة تلك الليلة. وأبو إسحاق إبراهيم بن ثابت بن أخطل من أهل أقليش، سكن مصر، وكان دخوله إليها بعد سنة ٣٩٠ واستوطنها، وكان مقرئًا، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين بعد الأربعمائة. ا.هـ.

وينسب إلى بعض قرى أقليش حلالة بن حسن الفهري، ذو الوزارتين، يعرف بابن المديوني سكن سرقسطة وقونكة، ثم سكن غرناطة، وعلّم فيها النحو والأدب.

هوامش

(١) المراد بابن سلفة أبو طاهر السلفي الحافظ الشهير المحدث المنقطع النظير أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأصبهاني الحرواني، وحوران محلة بأصبهان. وسلفة بكسر المهملة لقب جده أحمد، ومعناه غليظ الشفة، أخذ عن أبي عبد الله الثقفي وأحمد بن عبد الغفار بن أشته، ومكي السلار، وخلق كثير بأصبهان، وحدث في بلده وهو ابن سبع عشرة سنة، ثم رحل إلى بغداد، وتفقه فيها بالكيا الهراسي، وأبي بكر الشاشي، ثم طاف في البلدان، فسمع من علمائها في زنجان وهمذان والري والدينور وقزوين وأذريبجان، هذا من بلاد العجم، وسمع بالحرمين والكوفة وبصرة والشام ومصر من بلاد العرب، وأتقن مذهب الشافعي، وبرع في الأدب، وجود القرآن بالروايات واستوطن الإسكندرية بضعًا وستين سنة، مكبًّا على المطالعة والنسخ وإقراء

الحديث، وإذا قرأت تراجم الأندلس فلا تكاد تجد راحلًا من الأندلسيين إلى الشرق إلا وقد قيل عنه إنه سمع من أبي طاهر السلفي في الإسكندرية. ومما لا جدال فيه أنه لم يوجد من قضى عمرًا يساوي عمره في خدمة الحديث حتى كانوا يقولون عنه إنه مسند الدنيا، وقد جاء في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي أن أبا طاهر السلفي مكث نيفًا وثمانين سنة يسمع عليه، قال الذهبي: ولا أعلم أحدًا مثله في هذا. وقال ابن عساكر: سمع السلفي ممن لا يحصى قلت: وسمع منه عدد لا يحصى. وله كتاب ترجم فيه من لقيه. وأما من جهة سنه فيقول في شذرات الذهب إنه جاوز المائة بلا ريب. وإنما النزاع على مقدار الزيادة، وتزوج بالإسكندرية امرأة ذات يسار، وحصلت له ثروة بعد فقر، وصارت له بالإسكندرية وجاهة. وبنى له العادل علي بن إسحاق بن السلار أمير مصر مدرسة بالإسكندرية وكانت وفاته رحمه الله يوم الجمعة بكرة خامس ربيع الآخر سنة ٥٧٦.

(٢) لأبي العباس هذا رحلة إلى المشرق دخل فيها بغداد، وسمع من أبي القاسم عبيد الله بن محمد بن حبابة، وأبي حفص الكتاني، وسمع بمصر أبا الطيب بن غلبون، وطاهر بن غلبون، ورجع إلى الأندلس يقرأ بقرطبة في مسجد الغازي، وألف كتابًا في معاني القراءات، وحدث عنه أبو عمر بن عبد البر، والخولاني، والصاحبان، وأبو عبد الله بن عبد السلام، وكان رجلًا صالحًا فاضلًا، وانتقل في الفتنة من قرطبة إلى طليطلة، وأقرأ الناس بها إلى أن توفي في رجب سنة ٤١٠ عن سبع وأربعين سنة.

الفصل الخامس

قونكة

وغير بعيد عن طليطلة «مدينة قونكة Ceuenca» وهى مركز مقاطعة، وسكانها اليوم بضعة عشر ألفًا. وهى الآن قسمان: البلدة القديمة وهى جنينة على قمة شاهقة، عليها حسن، وأمامها وادي شقر[1] وإلى الشمال الغربي من المدينة تقع البلدة الجديدة وفي قونكة كنيسة قديمة من القرن السادس عشر، فيها مقابر عائلة البرنس Albornoz ويسير الراكب من أرانجويش إلى قونكة. شرقًا مسافة ١٥٢ كيلومترًا، وقد كان العرب عمروا قونكة، وكانت تابعة لشنترية، فأخذها منهم الأزفونش الثامن سنة ١١٧٧. قال ياقوت في المعجم: قونكة مدينة بالأندلس من أعمال شنترية ينسب إليها إبراهيم بن محمد بن خيرة أبو إسحاق القونكي، روى ببلدته عن قاضيها أبي عبد الله بن محمد بن خلف بن السقاط، وسكن قرطبة وأخذ بها عن أبي علي العسالي وعن عبد الله بن كرج وكان حافظًا للحديث ومات في شوال سنة ٥١٧. قاله ابن بشكوال.

هوامش

(١) Jucar.

الفصل السادس

البسيطة

ومن المدن التي تقع في الجانب الشرقي من طليطلة مدينة البسيطة وهى كاسمها في بسيط من الأرض وسكانها اليوم خمسة عشر ألفًا، وهى قسمان: المدينة القديمة، والمدينة الجديدة، وهى في أسفل القديمة، ويمر بها الطريق الحديدي الذاهب من مجريط إلى القنت والسواحل الشرقية.

الفصل السابع

شنتجالة

وعلى مقربة من البسيطة مدينة شنتجالة، وهى بلدة معروفة جدًّا في أيام العرب وموقعها على مسافة ٢٩٨ كيلومترًا من مجريط، ولها حصن مرتفع علي راية تعلو مائتي متر. وبجانب هذا الحصن كهوف كثيرة مسكونة. وشنتجالة هي ملتقى خطي الحديد: خط مرسية، وخط قرطاجنة، وقد ورد ذكرها في ما نقلناه عن جغرافي العرب، عندما تكلموا على تقسيمات الأندلس. ولنذكر الآن ما قاله ياقوت في معجمه:

شنتجالة بالأندلس. وبخط الأشتري: شنتجيل، بالياء ينسب إليها سعيد بن سعيد الشنتجالي أبو عثمان، حدث عن أبي المطرف بن مدرج وابن مفرج وغيرهما. وحدث عنه أبو عبد الله محمد بن سعيد بن بنان. قال ابن بشكوال: وعبد الله بن سعيد بن لباج الأموي الشنتجالي المجاور بمكة، وكان من أهل الدين والورع والزهد. وأبو محمد رجل مشهور لقي كثيرًا من المشايخ، وأخذ عنهم وروى، وصحب أبا ذر عبد الله بن أحمد الهروي الحافظ، ولقي أبا سعيد السجزى، وسمع منه صحيح مسلم، ولقي أبا سعد الواعظ، صاحب كتاب شرف المصطفى، فسمعه منه، وأبا الحسين يحيى بن نجاح، صاحب كتاب سبل الخيرات، وسمعه منه. وأقام بالحرم أربعين عامًا لم يقض فيه حاجة الإنسان، تعظيمًا له، بل كان يخرج عنه إذا أراد بذلك، ورجع إلى الأندلس في سنة ٤٣٠. وكانت رحلته سنة ٣٩١، وأقام بقرطبة إلى أن مات في رجب سنة ٤٣٦.ا.هـ.

قلنا: ويقال إن أبا محمد عبد الله بن لباج المذكور حج خمسًا وثلاثين حجة.

هذا وممن ينسب من العلماء إلى شنجالة أبو الوليد يونس بن أبي سهولة بن فرج بن بنج اللخمي، سكن دانية، وتوفي بها سنة ٥١٤. وأبو الحسن مفرّج بن فيرُّة الشنجالي. وخديجة بنت أبي محمد عبد الله بن سعيد الشنجالى، وكانت من الفاضلات المحدّثات.

وأما أبو الحسن مفرج بن فيرُّة فكان قد أخذ عن أبي الوليد الوقشي، وأبى عبد الله بن خلصة الكفيف. وتوفي حول ٤٨٠.

وبالقرب من شنجالة بلدة يقال لها ألبيرة Alpera يوجد بجانبها كهفان فيهما نقوش من العصر الجليدي، من رسوم حيوانات ورجال.

وهناك أيضًا قرية المنصة Almansa وأصل هذه اللفظة «المصنع» وذلك أنه يوجد فيها بركة ماء كبيرة طولها ألفا متر، في عرض ألفين، في عمق ثمانين مترًا، وهذا المصنع مبني على واد، والسد ينخفض كلما ذهب صُعُدا. ويوجد في قرية المصنع حصن من زمن العرب مشرف علي تلك السهول. وقد مررت في سياحتي إلى أسبانية بهذه الأمكنة كلها.

الفصل الثامن

مكّادة

ومن أعمال طليطلة المعروفة في أيام العرب «مكّادة» بفتح أوله وتشديد ثانيه وبعد الألف دال مهملة. قال ياقوت: مدينة بالأندلس من نواحي طليطلة هي الآن للإفرنج (ياقوت توفي سنة ٦٢٦) قال ابن بشكوال: سعيد بن يمن بن محمد بن عدل بن رضا بن صالح بن عبد الجبار المرادي، من أهل مكّادة، يكنى أبا عثمان، روى عن وهب بن مسرة وعبد الرحمن بن عيسى وغيرهما وتوفي في ذي القعدة سنة ٤٣٧. وأخوه محمد بن يمن بن محمد بن عدل، رحل إلى المشرق روى عن الحسن بن رشيق وعمر بن المؤمل. وأبو محمد بن أبي زيد، وكان رجلًا صالحًا خطيبًا بجامع مكّادة حدث عنه جماعة، ومات بعد سنة ٤٥٠ ا.هـ.

وممن ينسب إلى مكّادة أبو عثمان سعيد بن عثمان، وكان معتنيًا بالحديث وسماعه وحدَّث، قال ابن بشكوال: ورأيت السماع عليه مقيدًا في كتابه سنة ٤٢١ بطَلَمنكة في جامعها.

الفصل التاسع

قلعة عبد السلام

ومن أعمال طليلطة قلعة عبد السلام، وإليها ينسب من أهل العلم أبو بكر خلف بن تمام، حدّث عنه أبو محمد بن ذنين. وإبراهيم بن سعيد بن سالم بن أبي عصام القلعي، يروي عن محمد بن القاسم بن مسعدة، وعن عبد الرحمن بن عيسى بن مدراج وغيرهما روى عنه الصاحبان وقالا: قدم علينا طليطلة مجاهدًا، وتوفي في التسعين وثلاثمائة. وأبو عمر يوسف بن عمر بن يوسف الأنصاري الخزرجي، يعرف بابن الفخار، يحدث عن مسعود بن سعيد بن عبد الرحمن، حدث عنه أبو محمد بن ذنين.

الفصل العاشر

بالنسية

هذا ومن المدن المعدودة في قشتالة بالنسية، غير بلنسية الشرقية، وهى مدينة أيبيرية قديمة، استولى عليها الرومان بعد مقاومة شديدة. وفى القرن الثاني عشر صارت مقرًّا لملوك قشتالة، وفى أيام شارلكان ثار أهلها في جملة من ثار به فأفحش الإمبراطور فيها النكاية، وأسقطها عن عظمتها، وفيها كنيسة عظيمة بديعة الصنعة، هي الكنيسة الكبرى، وفيها كنائس أخرى أيضًا، وسكانها اليوم بضعة عشر ألفًا.

الفصل الحادي عشر

ليون

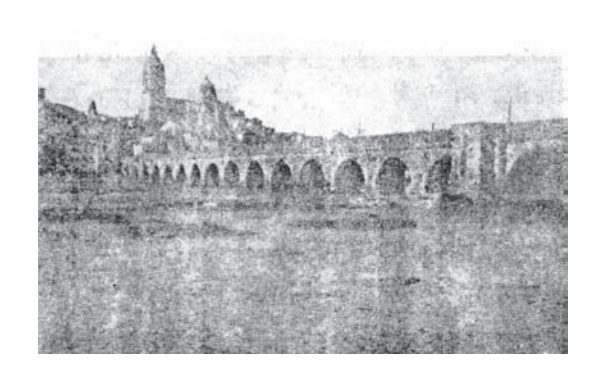
ومدينة ليون وهى من المدن الشهيرة، ولها مقاطعة يقال لها مقاطعة ليون، ولكنها اليوم قد نزلت عن درجتها الأولي، ولا يزيد سكانها علي خمسة عشر ألفًا، وهى من المدن القديمة التي استولى عليها الرومان، وجعلوا فيها مركز قيادة عسكرية. ثم استولى عليها القوط، ولبثت في أيديهم إلى أن فتحها العرب سنة ٩٨٣، ثم استرجعها الإسبانيول، وعظم أمرها في القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر، ثم انضمت إلى قشتالة مملكة واحدة، وكنيستها الجامعة من أبدع محدثات الأسلوب القوطي في البناء، وأول حجر وضع فيها كان سنة ١٢٠٠، وفيها كنائس وأديار متعددة، وآثار تدل على عظمتها السالفة. ثم مدينة

الفصل الثاني عشر

طلمنكة

فالعرب يلفظونها بالطاء، وأما الأسبان فيلفظونها بالسين، وهي بلدة متوسطة، سكانها ٢٥ ألفًا، واقعة على نهر طورمس، وهى مركز مقاطعة وأسقفية، وإنما اشتهرت من القديم بمدرستها الجامعة، وهى في بسيط من الأرض، وهواؤها شديد الاختلاف أشبه بهواء برغش، ففي الشتاء يشتد فيها البرد، كما في برغش وآبلة، وفى الصيف حرّها لا يطاق. وكان اسمها في القديم سالامانتيكا. واستولى عليها أنيبال القرطاجني سنة ٢١٧ قبل المسيح، ثم كانت في زمن الرومان تابعة لولاية لوزيطانية، ولما جاء العرب وقعت عليها الوقائع الشداد بينهم وبين الأسبان، لكونها واقعة على الطريق السلطاني الروماني، المؤدي من ماردة إلى أسترقه. وقد استردها الأسبان من أيدي العرب في جملة ما استردوه من شمالي أسبانية، وصارت قاعدة مملكة ليون، وحصنها الأذفونش السادس الذي استولى علي طليطلة، ولأجل أن يجعل الأذفونش فيها حامية كثيفة استجلب إليها كثيرًا من الغرباء، لا سيما من الإفرنجة، ولكن عظمة طَلَمنْكة لم تبدأ حقًّا إلا بالمدرسة الجامعة التي بناها أذفونش التاسع سنة ١٢٣٠،[١] وقد قارن النجاح هذه المدرسة، فازدهرت، وشاع ذكرها، وصارت تعد من أكبر جامعات أوربة، نظير جامعة باريزوا كسفورد. وكان فيها سبعة آلاف طالب[٢] في القرن السادس عشر، وكانوا من جميع أقطار الأرض. وجاء في دليل بديكر أن هذه المدرسة كانت هي التي تنشر معارف العرب في بقية أوربة.

ولم تبدأ طلمنكة بالانحطاط إلا في زمن فيليب الثاني عند ما نقل كرسيه من طليطلة، وجعل مركز الأسقفية في بلد الوليد بدلًا من طلمنكة. وأهم من ذلك أنه كان فيها عدد كبير من الموريسك، أي بقايا العرب، فلما أجبرهم على الجلاء سنة ١٦١٠ تناقص بذلك جدًّا عمران المدينة. وفى زمن بونابرت عندما استولى الفرنسيس على أسبانية، جعلوا طلمنكة قاعدة حربية، فهدموا كثيرًا من حاراتها. وفى طلمكنة ساحة



شكل ١٢-١: نهر طورمس وجسر روماني في طلمنكة.

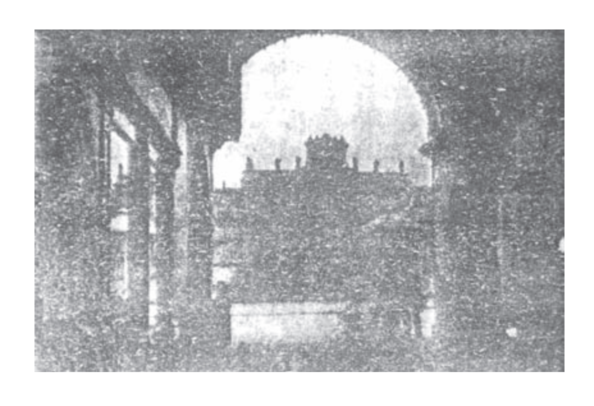


شكل ١٢-٢: من مباني طلمنكة.

عمومية مربعة، هي من أجل ساحات أسبانية، وفيها جسر روماني قديم، وفيها كنائس متقنة كسائر كنائس أسبانية. وفيها خزانة خاصة بالمدرسة الجامعة، إلا أن المدرسة ليست اليوم على شيء من أهميتها الماضية، وعدد الطلبة فيها لا يتجاوز ثلاثمائة. وكم في طَلَمنكة من أثر قديم، وبناء فخم، ودور مرخَّمة، وأحجار مخرَّمة.

وقد ذكر ياقوت الحموي طَلَمْنكة فقال: بفتح أوله وثانيه، وبعد الميم نون ساكنة، وكاف: مدينة بالأندلس من أعمال الإفرنج اختطّها محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك. خرج منها جماعة منهم أبو عمرو، وقيل أبو جعفر، أحمد بن محمد بن عبد الله بن لب بن يحيى بن محمد المعافري المقري الطلمنكي، وكان من المجودين في القراءة، وله تصانيف في القراءة روى الحديث وعمّر حتى جاوز التسعين، يروي عنه محمد بن عبد الله الخولاني. ا.هـ.

ثم قلت: وكان أبو عمرو الطلمنكي من أشهر علماء الأندلس، من أخذ عنه عد نفسه قد رزق حظًّا كبيرًا، وكثيرًا ما يدور ذكره في تراجم العلماء، وقد سار على أثره ابنه أبو بكر عبد الله بن أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد الله بن لب المعافري الطلمنكي.[٣]



شكل ١٢-٣: ميدان ميور بطلمنكة.

هوامش

(١) ويقال إنه كان يعيش من جامعة طلمنكة ٥٠ طباعًا و٨٠ كتيبًا و١٨ ألف تاجر وصانع.

(٢) كانوا يبحثون عن أشهر المدرسين في جامعات أوربة وينتدبونهم للتعليم في جامعة طلمنكة وكذلك في جامعة قلعة رباح التي كان فيها ٤٢ منبرًا لتدريس اللاهوت

والقانون وأربعة منابر للطب واثنان للتشريح والجراحة و١٤ لتعليم اللغات والنحو والبيان وكانوا يقرءون التوراة اليهودية. وكان عدد تلاميذ جامعة القلعة ثمانية آلاف. وفي ذلك الوقت كان نبلاء أسبانيةأسبانية والمترفون فيها يتنافسون في تشييد الجامعات العلمية فأنشئت عشرون جامعة فأكثر في سرقسطة وآيلة وبلنسية وشنت ياقب ولوسَنة وطليطلة وغرناطة وأشبيلية وبسطة وأوريولة وطركونة وغيرها ولكن لم يطل الأمر حتى فترت الهمم وقلت الرغبة في تحصيل العلم ولم تزل في التقلص إلى هذا العصر الذي استأنفت فيه الأمة أسبانيةالأسبانية نشاطها مقتدية بغيرها من الأمم.

(٣) إن المسلمين كانوا غلبوا على الجهات الشمالية كلها من أسبانيةأسبانية، وندر أن توجد بلدة لم يستولوا عليها، عدا صخرة بيلاي التي التجأ إليها بقية السيف من الإسبانيول، ولم يزالوا يقلون حتى لم يبق منه إلا ثلاثون علجًا، فمل المسلمون حصارهم في الكهف الذي أحجروهم فيه، وتركوهم قائلين: ثلاثون علجًا. ماذا يمكن أن يكون منهم؟ فتركوهم احتقارًا لشأنهم، وانصرفوا عنهم، وقد ارتفع العلم الإسلامي على جميع تلك البلاد، وعم حكم العرب السهل والوعر. ولكن لم يلبث العرب أن وقع بعضهم في بعض، وتوالت الملاحم بين القيسية واليمينية. وأهم من ذلك ما وقع بين العرب والبربر وكان البربر قد ثاروا في أفريقية، وجرت بينهم وبين العرب وقائع يطول شرحها وملاحم يعجز القلم عن وصفها، وسنأتي على ذكرها في التاريخ. وكان البربر في أول الأمر قد ظهروا على العرب في أفريقية، فجاء الخبر إلى بربر الأندلس، بأن بربر العدوة ظهروا على عربها، وأهل الطاعة فيها، قال في أخبار مجموعة: فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم وأخرجوا عرب استورقة والمدائن التي خلف الدروب، فلم يرع ابن قطن إلا فلهم قد قدم عليه، وانضم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس. إلا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم فإنهم كانوا أكثر من البربر. فلم يهج عليهم البربر، فأخرج عليهم عبد الملك بن قطن جيوشًا فهزموها، وقتلوا العرب في الآفاق. فلما رأى ذلك وخاف أن يلقى ما لقي أهل طنجة، وبلغه إعداد البربر له، لم ير أعز له من الاستمداد بأهل الشام، فبعث إليهم السفن فأدخلهم أرسالا، في سنة ثلاث وعشرين ومائة (إلى أن يقول عن البربر). وحشدوا من جليقية واستورقة ومادرة وقورية وطلبيرة، فأقبلوا في شيء لا يحصيه عدد حتى أجازوا نهرًا يقال له تاجه، يريدون عبد الملك بن قطن، وأخرج إليهم عبد الملك ابنيه قطنا وأمية في عرب الشام، أصحاب بلج، وعرب البلد (إلى أن يقول): فالتقوا في أرض طليطلة: على وادي سليط، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، وأقبل أهل الشام عليهم حنقين،

فمنحهم الله أكتاف البربر، فقتلوهم قتلًا ذريعًا، أفنوهم به. فلم ينج منهم إلا الشريد، فركب أهل الشام ولبسوا السلاح، ثم فرقوا الجيوش في أرض الأندلس، فقتلوا البربر حتى أطفئوا جمرتهم، (ثم ذكر في أخبار مجموعة) كيف أن عبد الملك بن قطن عاد فاقتتل مع أهل الشام، فظفروا به وقتلوه، وصلبوه على رأس القنطرة بقرطبة، فلما بلغ ابنيه الخبر حشدا من أقسى أربونة (ناربون في فرنسة) وراجعا أهل البلد والبربر وسيوفهم تقطر من دماء البربر فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشام، فإذا فرغوا كان لهم من أهل البلد رأي. وذكر المعركة الثانية ومعارك أخرى من جملتها معركة شقندة، بين القيسية واليمانية وقال عنها إنها كانت وقيعة قاطعة للأرحام وكانت قبل سنة إحدى وثلاثين ومائة. وعقبها الجوع والقحط (قال): فثار أهل جليقية على المسلمين، وغلظ أمر علج يقال له بلاي، قد ذكرناه في أول كتابنا، فخرج من الصخرة، وغلب على كورة وستوريس (Asturies) ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل استورقة زمانًا طويلًا، حتى كانت فتنة أبي الخطار وثوابة. فلما كان في سنة ثلاث وثلاثين ومائة هزمهم بلاي، وأخرجهم عن جليقية كلها وتنصر كل مذبذب في دينه، وقتل من قتل، وصار فلهم إلى خلف الجبل، إلى استورقة، حتى استحكم الجوع، فأخرجوا أيضًا المسلمين عن استورقة وغيرها، وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر، وإلى قورية، وماردة، في سنة ست وثلاثين. انتهى ما قاله في أخبار مجموعة في هذا الصدد. وقال دوزي: إن ثورة الجلالقة وقعت سنة ٧٥١، فأخرجوا المسلمين من بلادهم، وبايعوا أذفونش ملكًا عليهم، وقتلوا عددًا كبيرًا من المسلمين، وانكفأ البقية من هؤلاء إلى استورقة، والذين كانوا قد أسلموا من أهل جليقية، وكان إيمانهم لا يزال ضعيفًا، رجعوا إلى الكنيسة بمجرد ما رأوا راية الصليب منتصرة. وهذا ما أشار إليه صاحب أخبار مجموعة بقوله: وتنصر كل مذبذب في دينه. ثم اضطر البربر أيضًا أن ينزلوا إلى الجنوب، وأخلوا افراغه وبورتو وقيزو، وجميع الساحل إلى ما وراء مصب الوادي الجوفي، ثم تقهقروا أيضًا ولم يبق مسلمون في استورقة وليون وزاموره وليدسمه Ledesma وطلمنكة، وانكفئوا إلى قورية، وإلى ماردة، وبقيت لهم بقايا في ضواحي ليون واستورقة. وأما من الجهة الشرقية فقد أخلو سلدانية، وسيمتقاس، وشقوبية، وآبلة، وأوقة Oca وأوسمة Osma، وميراندة. على وادي أبره، وسنيسره Cenicero، وأليزانكو Alesanco، ومن ذلك الوقت صارت المدن الثغرية بيد المسلمين والمسيحيين من جهة الغرب ذاهبًا إلى الشرق، قويمره، على نهر منديق Mondego، فقورية، فطلبيرة فطليطلة. فوادي الحجارة، فتطيلة، فبنبلونة، قال

دوزي: وكان سبب جلاء الإسلام عن تلك النواحي فتن المسلمين الداخلية، ومجاعة سنة ٧٥٠، ولم يكن السبب سيف الأذفونش كما يزعم مؤرخو الإسبانيول.

الفصل الثالث عشر

زمورة

وعلى مسافة ستين كيلومترًا من طلمنكة، مدينة زمورة، مبنية فوق صخرة عالية يجري تحتها الوادي الجوفي، وكانت من قديم الزمان قلعة منيعة تتصادم أمامها الجيوش وطالما وقعت عندها الملاحم، بين العرب والإفرنج، ولا تزال آثار حصونها مائلة، وفيها كنائس مذكورة، أبدع فيها الصناع، ولها جسر أنيق المنظر على واديها وليست في يومنا هذا من المدن المعدودة، وينسب إليها رئيس جمهورية أسبانية السابق، الذي يقال له «قلعة زمورة» Alcala-Zamora، الذي ترأس جمهورية أسبانية في السنوات الأخيرة بعد سقوط الملكية فيها. وقد كانت العرب استولت على زمورة، ثم استرجعها الأسبان في زمن الملك فرويلة بن أذفونش بن بطره، أيام عبد الرحمن الداخل بسبب فتن العرب بعضهم مع بعض، إلا أن عبد الرحمن الناصر استرجعها وأنزل بها المسلمين. ثم بعد وفاة الحكم المستنصر استرجع النصارى تلك المدن، فزحف عليهم المنصور سنة ٣٧٨، وافتتح ليون وحاصر زمورة، وأخذها عنوة، وأوطن المسلمين زمورة سنة ٣٨٩، إلى أن كانت الفتنة في قرطبة، فرجعت إلى النصارى، وكان عامل المنصور على زمورة أبو الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي.

الفصل الرابع عشر

أشتوريش وجليقية

إن مقاطعة أشتوريش القديمة هي اليوم ولاية أوفيدو Oviedo ويقول لها العرب أوبيط وهذه الولاية عدد سكانها يناهز سبعمائة ألف، واقعة إلى الغرب من بلاد الباشكونس، وجبال قنتبرية، إلى خليج بسقاية أو غشقونية Biscaye ou Gascogne وأما مدينة أوبيط فأصل اسمها أوبيطوم، وسكانها ٢٥ ألفًا وفيها كرسي أسقفية ومدرسة جامعة.

وأصل بناء هذه المدينة أن الملك فرويلة الأول بني هناك ديرًا في القرن الثامن للمسيح، ثم جعل الأذفونش الثاني هناك مقره فتكونت بجانب هذا الدير بلدة ولم يقدر العرب ولا النورمنديون أن يستولوا على أوبيط. وموقع هذه البلدة هو على رابية مشرفة على نهر «نورَه» وأرضها منبسطة موصوفة بالخصب وفيها كنيسة جامعة تشتمل على كثير من بدائع التصاوير وليست بالكنيسة الوحيدة.

وغير بعيد عن أوبيط مدينة جيجون وفيها ثلاثون ألف نسمة، ولها مرسى عظيم على خليج بناها الرومانيون. ولما جاء العرب استولوا عليها مدة قصيرة من سنة ٧١٥ إلى سنة ٧٢٢ لأن الأمير بيلاي، وهو أول أمير أسباني مستقل بعد مجيء العرب كما سيأتي الكلام عليه، عاد فاسترجعها وصارت مركزًا لملوك أشتوريش وتعاقبت عليها من ذلك الوقت أدوار مختلفة. وقد استفادت جدًّا من مد السكة الحديدية إليها سنة ١٨٨٤. وفيها مدرسة للتجارة والملاحة. وفى هذه المدرسة خزانة كتب فيها ٥٥٠٠ مجلد وعدد كبير من التصاوير. وفى ساحة جيجون تمثال لبيلاي البادئ بتحرير أسبانية. ومن مدن أشتوريش بلدة أستورقة Astorga وهى رومانية كانت في القديم عامرة ومركزًا لجنوبي أشتوريش. وقد وصل إليها العرب وهدموا حصونها ولعل استورقة[1] هذه هي التي يسميها ياقوت باستوريس ويقول عنه: حصن من أعمال وادي الحجارة بالأندلس، أحدثه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموي، عمّره في نحر العدو. ولا

تزال أسوار استورقة ماثلة، والحكومة تحافظ عليها خدمة للتاريخ. وحول استورقة جبال يسكنها جيل من الناس يقال لهم المغاراتوس Magaratos يظن أنهم سلالة للأمة الأيبيرية وهم أهل جد ونشاط ذوو زراعة وصناعة ولكنهم على أشد ما يكون من المحافظة على عاداتهم القديمة ولهم أزياء خاصة بهم، ولا يتزوج بعضهم إلا من بعض. ثم مدينة لوغو Lugo وهى من زمن الرومانيين، ولها سور لا يزال قائمًا، وعليه أبراج كثيرة، وقد استولى على هذه البلدة العرب، فيما استولوا عليه. وهناك بلدة يقال لها بيتنزوس Betanzos سكانها عشرة آلاف، واقعة على نهير بين كروم وأعناب، وهي من البلاد التي استولى عليها العرب، وفيها حصن باق من أيامهم.

هوامش

(١) نازل المنصور بن أبي عامر أستورقة قاعدة غليسية فملكها وهلك صاحبها غرسية فتولى ابنه شانجة وضرب المنصور عليهم الجزية وصار أهل جليقية جميعًا في طاعته وكانوا كالعمال إلا برمند بن أرزون ومتند بن غندشلب قومس غليسية فإنهما كانا أملك لأمرهما. على أن برمند Bermund بعث بنته إلى المنصور سنة ٣٨٣ وصيرها جارية له فأعتقها وتزوجها. ثم انتفض برمند وغزاه المنصور فبلغ شنت ياقب موضع حج النصرانية ومدفن يعقوب الحواري من أقصى غليسية وأصابها خالية فهدمها ونقل أبوابها إلى قرطبة فجعلها في سقف الزيادة التي أضافها إلى المسجد الأعظم. ثم تطارح برمند بن أرزون في السلم وأنفذ ابنه بيلابو مع معن بن عبد العزيز صاحب جليقية فوصل به إلى قرطبة وعقد له في السلم وانصرف إلى أبيه وألح المنصور على أهل غومس وكانوا في طرف جليقية بين زمورة وقشتيلة وقاعدتهم شنتمرية فافتتحها سنة ٨٥ انتهى. عن ابن خلدون.

الفصل الخامس عشر

كورونية

وهناك مدينة كورونية، فيها أربعون إلى خمسين ألفًا من السكان، مركز لمقاطعة بهذا الاسم، واقعة على لسان من الأرض، بين جونين من البحر، أحدهما إلى الشرق اسمه «الباهية» والآخر إلى الغرب اسمه «أورزان»، وكان للبلد حصون هي مهملة الآن، وهى مدينة أيبيرية قديمة. وكان يقال لها في زمن الرومان «بريفانتيوم»، ثم أطلق عليها اسم «كورنيوم»، في القرون الوسطى. وقد استولى عليها العرب في ما استولوا عليه، وصارت تابعة لقرطبة. ومن مرسى هذه البلدة ذهب أسطول فيليب الثاني سنة ١٥٨٨، المؤلف من ١٣٠ سفينة حربية، عليها ثلاثون ألف مقاتل، لغزو إنجلترا، انتقامًا عن قتل مارية ستوارت، ولكن الإنجليز عادوا فأحرقوا كورونية سنة ١٥٩٨، وكذلك بقرب كورونية في ٤ يونيو سنة ١٧٤٧ تغلب الأسطول الإنكليزي على الأسطول الإفرنسي، ثم في ٢٢ يوليو ١٨٠٥ أحرق الإنكليز أسطولًا فرنسيًّا إسبانيوليًّا متحدًا.

والبلدة قسمان: أعلى وأسفل. فالقسم الأعلى هو القديم منها، والقسم الأدنى هو الجديد. وكان في الماضي حارة لصيادي السمك، فاليوم صارت فيه مساكن المترفين، وشوارعه على الطراز الجديد، بخلاف القسم الأعلى الذي شوارعه ضيقة، وبيوته قديمة. وفى تلك البلدة إلى الشمال الغربي، على لسان داخل في البحر، فوق جندل كبير علوه ٥٦ مترًا؛ منارة للسفن من زمان الرومانيين.

وعلى مقربة من كورونية بلدة الفرّول Ferrol وهو المرسى الحربي الوحيد لأسبانية على الإقيانوس الأطلانتيكي، وسكان هذا المرسى ٢٥ ألفًا وفيه مسلحة ودار صنعة للمراكب، ومدرسة بحرية.

ومدينة أورنس Orense سكانها عشرة آلاف واقعة على ضفة نهر مينيو Mino وهى مركز مقاطعة، وكانت في زمان الرومانيين يقال لها أوريوم Aurium لوجود الذهب

في نواحيها؛ مما يدل عليه اسمها، وقد غزاها العرب سنة ٧١٦، ثم عاد الأذفونش الثالث فبناها وأحكم أسوارها سنة ٨٨٤، ولها جسر على نهر مينو بسبع أقواس.

ثم مدينة فيغو Vigo وسكانها ثلاثون ألفًا، وهى مرسى حربي وتجاري، مبنية على منحدر رابية، عليها حصن سان سابستيان. وقد وقعت فيها واقعة بحرية سنة ١٧٠٢ بين الإنجليز والهولنديين من جهة، والفرنسيس والأسبان من جهة أخرى، وفي هذه البلدة أيضًا حارة بشوارع ضيقة، وحارة عصرية جديدة.

ثم مدينة بونت فيدرا Ponte Vedra وهى صغيرة سكانها عشرة الآلاف ولها مرسى على البحر.

الفصل السادس عشر

شنت ياقب

وهى بلدة سكانها ١٥ ألف نسمة، وكانت قاعدة مملكة جليقية. وكان لها الشأن الأول، فنزلت عن معاليها السالفة، ورجعت مركز مقاطعة، وكرسي رئاسة أساقفة. وفيها مدرسة جامعة بناها المطران فونسيكا سنة ١٥٣٢، وهى قديمًا وحديثًا مدينة أسبانية المقدسة، يحج إليها الأحامس في الدين الكاثوليكي من جميع أسبانية والبلدان المجاورة، وذلك لأنه يوجد حكاية متواترة عند الإسبانيول بأن أحد الحواريين وهو يعقوب بن زَبَدَة، قد ذهب إلى أسبانية، ونشر فيها العقيدة المسيحية، وهذه الحكاية لها رَضْخ يرجع إلى القرن الرابع للمسيح، إلا أنها بدأت ترسخ في أذهانهم في القرن السابع، ثم بمرور الأيام صارت هذه القصة تجر ذيولًا. منها: أن عظام الحواري يعقوب كانت مدفونة في ذلك المحل الذي استشهد فيه، ولم يكن أحد يهتدي إلى مكانها إلى أن كشفها المطران تدمير الإيري Tbeodemir D'lria فبنيت الكنيسة الحاضرة على القبر، وأما لفظة كومبوستالا، أي حقل النجمة، فقد قالوا فيها إنها جاءت من جهة أن المطران اهتدى إلى القبر بنجمة أضاءت له وقد فند دليل بديكر هذا القول، وذهب إلى أن الاسم سابق لقصة الحواريّ يعقوب، وكيف كان الأمر فالإسبانيول يعدون القديس يعقوب، دفين شنت ياقب، بزعمهم، حامي أسبانية وشفيعها، وبه كانوا يستغيثون في حروبهم مع المسلمين، وطالما رأوه بزعمهم متقلدًا سلاحه، يقاتل في صفوفهم، وأول من بنى على هذا القبر هو الأذفونش الأول، ولكن الكنيسة التي بناها هذا الأذفونش هدمها الغازي الكبير المنصور بن أبي عامر المعافري سنة ٩٩٧ للمسيح ثم جددوا بناءها، ومازالوا يزيدون في شنت ياقب الأديار والكنائس حتى أصبح فيها ٤٦ بيعة و٢٨٨ مذبحًا و١١٤ جرسًا و٣٦ رهبانية، وفى هذا ما يكفى لإثبات قدسيتها التامة عند الإسبانيول، وكونها لهم الحرم الأعظم.

وقد كان الابتداء ببناء الكنيسة العظمى سنة ١٠٧٨، ومازال الأساقفة يشتغلون ببنائها إلى سنة ١٢١١، ولها رتاج كبير، على جانبه برجان، ارتفاع الواحد منهما سبعون مترًا وفى أعلى الحائط تمثال للقديس يعقوب. وداخل الكنيسة له منظر مؤثر بكثرة الأساطين والمماشي والقباب، والمذبح الأعظم واقع على القبر، ويقال إن فيه خمسمائة كيلو جرام من الفضة، وفى محراب يعلو المذبح تمثال ليعقوب الحواريّ مزين بالفضة والذهب والحجارة الكريمة، وينزلون إلى القبر بدرج أمام المذبح الأكبر، وهناك مرقد يعقوب واثنين من رفاقه، وفى هذه الكنيسة قبور لا تكاد تحصى لأعاظم الإسبانيول وملوكهم مثل فرديناند الثاني، وأذفونش التاسع، ملك ليون، وامرأة أذفونش السادس، وامرأة بطرس الغاشم وغيرهم. وفيها تصاوير وتهاويل وتماثيل لأشهر المصورين والنحاتين. ولا يسع الكاتب أن يصف جميع ما في شنت ياقب من المعاهد الدينية، والآثار الفنية لكثرتها، وتنافس الملوك والأخبار في البذل والإنفاق عليها. أما غزوة المنصور بن أبي عامر لهذه البلدة فقد ذكر المقري في نفح الطيب ما يلي: ومن ذلك غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب، قاصية غليسية، وأعظم مشهد للنصارى في بلاد الأندلس، وما يتصل بها من الأرض الكبيرة، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا، وللكعبة المثل الأعلى، فيها يحلفون، وإليها يحجون، من أقصى بلاد رومة وما وراءها، ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقب الحواري أحد الاثني عشر، وكان أخصهم بعيسى، على نبينا وعليه الصلاة والسلام وهم يسمونه أخاه، للزومه إياه، وياقب بلسانهم: يعقوب، وكان أسقفًا ببيت المقدس، فجعل يستقري الأرضين، داعيًا لمن فيها حتى انتهى إلى هذه القاصية. ثم عاد إلى أرض الشام فمات بها، وله مائة وعشرون سنة شمسية، فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة، التي كانت أقصى أثره، ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام في قصدها. ولا الوصول إليها لصعوبة مداخلها، وخشونة مكانها، وبعد شقتها، فخرج المنصور إليها من قرطبة غازيًا بالصائفة، يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وهى غزوته الثامنة والأربعون. ودخل على مدينة «قورية»[١] فلما وصل إلى مدينة غليسية، وإياه عدد عظيم من القوامس[٢] المتمسكين بالطاعة في رجالهم، وعلى أتم احتفالهم، فصاروا في عسكر المسلمين، وركبوا في المغاورة سبيلهم.

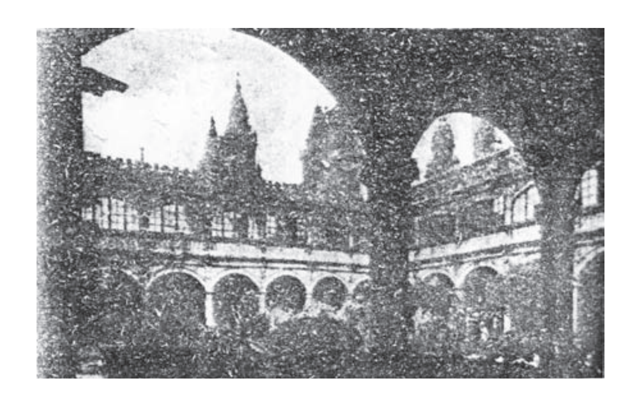
وكان المنصور تقدم في إنشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي دانس من ساحل غرب الأندلس، وجهز برجاله البحريين، وصنوف المترجلين، وحمل الأقوات والأطعمة، والعدة والأسلحة، استظهارًا على نفوذ العزيمة، إلى أن خرج لموضع برتقال،



شكل ١٦-١: كنيسة شنت ياقب المشهورة.

على نهر «دويرة» فدخل في النهر إلى المكان الذي عمل المنصور على العبور منه، فعقد هناك من هذا الأسطول جسرًا بقرب الحصن الذي هناك، ووجه المنصور ما كان فيه من الميرة إلى الجند، فتوسعوا في التزود منه إلى أرض العدوّ، ثم نهض منه يريد شنت ياقب، فقطع أرضين متباعدة الأقطار، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار، وخلجان يمدها البحر الأخضر[٣] ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فرطارس وما يتصل بها، ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعورة لا مسلك فيه ولا طريق، لم يهتد الأدلاء إلى سواه، فقدم المنصور الفعلة بالحديد. لتوسعة شعابه، وتسهيل مسالكه، فقطعه العسكر، وعبروا بعده وادي «مُنْية»[٤] وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين، وانتهت مغيرتهم إلى دير فشان،[٥] وبسيط بَلَنْبُه على البحر المحيط، وفتحوا حصن شنت بيلايه، وغنموه وعبروا بساحته إلى جزيرة من البحر المحيط، لجأ إليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي فسبوا من فيها ممن لجأ إليها، وانتهى العسكر إلى جبل مراسية،[٦] المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط، فتخللوا أقطاره، واستخرجوا من كان

فيه، وحازوا غنائمه، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجًا في معبرين. أرشد الأدلاء إليهما. ثم إلى نهر آبلة، ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة، كثيرة الفائدة، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر، تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل، يقصد نساكهم له من أقاصي بلادهم، ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما، فغادره المسلمون قاعًا، وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب البائسة، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان فوجدها المسلمون خالية من أهلها، فحاز المسلمون غنائمها، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفّوا آثارها، ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه، وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيمًا، كأن لم تغن بالأمس.



شكل ١٦-٢: مدرسة الطب في شنت ياقب.

وانتسفت بعد ذلك سائر البسائط، وانتهت الجيوش إلى مدينة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط، وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم، ولا وطئها لغير أهلها قدم، فلم يكن بعدها للخيل مجال، ولا وراءها انتقال.

وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب، وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله،[٧] فجعل في طريقه القصد على عمل برمند بن أردون، يستقريه عائثًا، حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين، الذين في عسكره، فأمر بالكف عنها، ومر مجتازًا حتى خرج على حصن بيليقية من افتتاحه، فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم، وكساهم وكسا رجالهم، وصرفهم إلى بلادهم، وكتب بالفتح من بيليقية، وكان مبلغ ما كساه في غزاته

هذه لملوك الروم، ومن حسن غناؤه من المسلمين، ألفين ومائتين وخمسًا وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازي، وواحدًا وعشرين كساء من صوف البحر، وكساءين عنبريين، وأحد عشر سقلاطونًا، وخمسة عشر مريشًا، وسبعة أنماط ديباج، وثوبي ديباج رومي، وفروَيْ فنك.

ووافى جميع العسكر قرطبة غانمًا، وعظمت النعمة والمنة على المسلمين، ولم يجد بشنت ياقب إلا شيخًا من الرهبان جالسًا على القبر، فسأله عن مقامه، فقال: أونس يعقوب فأمر بالكف عنه.ا.هـ.



شكل ١٦-٣: الراهب الذي يؤنس يعقوب الحواري عندما وصل المنصور بن أبي عامر إلى شنت ياقب وفر جميع الرهبان.

هوامش

(١) Goria.
(٢) جمع قومس وهو كونت أو كند كما كان العرب يقولون في زمن الصليبيين.
(٣) المراد بالبحر الأخضر الأوقيانوس الأطلانتيكي.
(٤) لعلها Minho لأنه من أنهر ناحية شنت ياقب.
(٥) نظنها محرفة أو مصحفة وأن صحتها دير فنسان أو فيانست.
(٦) موراسيا إلى الشمال من اشبونة.

(٧) قال أبو جعفر الوقشي البلنسي نزيل مالقة، يحث على الجهاد في الأندلس:

ألا ليت شعري هل يمد لي المدى فأبصر شمل المشركين طريدا
وهل بعد يقضي في النصارى بنصرة تغادرهم للمرهفات حصيدا؟
ويغزو أبو يعقوب في شنت ياقب يعيد عميد الكافرين عمدا
ويلقي على إفرنجهم عبء كلكل فيتركهم فوق الصعيد هجودا
يغادرهم جرحى وقتلى مبرحًا ركوعًا على وجه الفلا وسجودا
ويفتك من أيدي الطغاة نواعمًا تبدلن من نظم الحجول قيودا
وأقبلن في خشن المسوح وطالما سحبن من الوشي الرقيق برودا
وغبرن منهن التراب ترائبًا وخدد منهن الهجير خدودا
فحق لدمعي أن يفيض لأزرق تملكها دعج النواظر سودا
ويا لهف نفسي من معاصم طفلة تجاور بالقد الأليم نهودا
ويا أسفي من إن يزال مرددًا على شمل أعياد أعيد بديدا
وآهًا بمد الصوت منتحبًا على خلو ديار لو يكون مفيدا

وهي من قصيدة قالها الوقشي لأمير المؤمنين يوسف بن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي مطلعها:

أبت غير ماء بالنخيل ورودا وهامت به عذب الحمام برودا

وكان يوسف بن عبد المؤمن دخل الأندلس سنة ٥٦٦ وفى صحبته مائة ألف فارس من الموحدين ورجال المغرب وشرع يسترجع من بلاد المسلمين التي كان قد استولى عليها الإفرنج وأغارت سراياه على طليطلة قاعدة ملكهم ثم إنه حاصرها فاجتمع الإفرنج للدفاع عنها واشتد الغلاء في عسكره فقفل إلى المغرب ولكنه لم يقم بعده مثله ومثل أبيه في الجهاد ولكن جاءت في أواخر دولة الموحدين واقعة العقاب التي لم تقم بعدها للإسلام في الأندلس قائمة تحمد.

الفصل السابع عشر

أراغون ونبارة

هاتان المملكتان هما متجاورتان، يسقي كلًّا منهما نهر أبرُه، وهذا النهر له منبعان أحدهما يقال له «هيجار Higar» يتفجر من جبل يقال له «كورد» Cardel عليه الثلج صيفًا وشتاء، وتنحدر منه مياه إلى الوادي الجوفي، منحدرة إلى الغرب ومن مياهه ما ينحدر إلى الشرق، وهى مياه هيجار التي تجري مسافة ١٦ كيلومترًا، ثم تلتقي مع مياه أبرُه، التي تنبع من غربي مكان يقال له «رينوزه» Reinosa وهذا الوادي يخرج من بحيرات صغيرة بين تلك الجبال المتفرعة من البرانس، ثم يمد أبره عدة أنهار، حتى يعدّل ماؤه، عندما يصل إلى ميرانده، بعشرين ألف متر مكعب في الثانية. وعندما يصل إلى لوكروني، بواحد وثلاثين ألف متر مكعب. فإذا وصل إلى تطيلة صار يصب ٤٥٢٠٠ متر مكعب في الثانية. وهو يسقي عند تطيلة جانبًا من بسيط أراغون الذي لولا أبرُه لكان أشبه بصحراء أفريقية.

ولكن لا يستفيد من مياه أبره وفروعه إلا جزء قليل من هذه الصحراء، بحيث إن بعض أهالي الأماكن المأهولة من أطرافها هم في غناء شديد من جهة الماء، فقد صح في أهلها المثل القائل: أيا عطشي والماء يجري. قيل إن عامل بلدة تاردياناته Tardienta جمع أهالي بلدته ليوزع عليهم الماء الباقي في الصهريج العمومي، فكان نصيب العائلة الواحدة عشرة ليترات من الماء، وهو ماء من كدورته يؤكل ولا يشرب.

فلو كان هناك جداول من أبره لتحولت تلك الصحراء جِنانًا غناء. والسائح يرى البلاد هناك على طرفي نقيض، فبينما صحراء «فيولاده» Violada هي كفيافي بني أسد، إذا ضواحي سرقسطة غير بعيدة عنها، هي كغوطة دمشق. وقد شق الإسبانيول جدولين من أبرُه عند سرقسطة وتطيلة، وسقوا بهما أراضى واسعة، ولا يزالون يشقون منها

جداول إلى يومنا هذا في أراغون وكتلونية. وبالإجمال فلولا إبرُه لكانت الحياة متعذرة في أكثر مملكة أراغون، وفى قسم كبير من كتلونية.

مملكة نبارة القديمة هي اليوم مقاطعة بهذا الاسم، مساحتها ١٠٥٠٠ كيلومتر مربع، وعدد سكانها ثلاثمائة وخمسة عشر ألف نسمة. أما أراغون فهي عبارة عن مقاطعة سرقسطة، ومساحتها ١٧٤٢٤ كيلومترًا مربعًا، وسكانها ٤٤٨٩٩٥ نسمة. ومقاطعة وشقة، ومساحتها ١٥١٤٩ كيلومترًا مربعًا، وأهلها ٢٤٨٢٥٧ نسمة. ومقاطعة ترول Teruel، ومساحتها ١٤٨١٨ كيلومترًا مربعًا، وسكانها ٢٥٥٤٩١ نسمة.

وإذا توجه الراكب بالسكة الحديدية من مجريط قاصدًا إلى سرقسطة، فإن أهم ما يمر به من البلاد هو القلعة المسماة بقلعة هينارس، على مسافة ٣٤ كيلومترًا من مجريط. وهذه البلدة هي رومانية، كانوا يقولون لها «كومبلوتوم» ولما جاء العرب استولوا عليها، وبعد خروجهم من هناك أسس الكردينال شيميناس رئيس أساقفة طليطلة فيها مدرسة جامعة، تضاهي مدرسة طلمنكة، وبقيت فيها إلى سنة ١٨٣٦ فنقلوها إلى مجريط. وإلى هذه البلدة ينسب الكاتب الشهير سرفنتس Cervantes صاحب كتاب الدون كيشوط، وعدد سكان البلدة اليوم اثنا عشر ألف نسمة. وفي هذه البلدة بقايا حصون عربية. وضواحي هذه البلدة ناضرة بهيجة.

الفصل الثامن عشر

وادي الحجارة[1]

ثم على مسافة ٥٧ كيلومترًا من مجريط تقع وادي الحجارة، وسكانها اليوم بقدر سكان القلعة، وهى مبنية على الضفة اليمنى من نهر هينارس. وفى هذه البلدة تزوج فيليب الثاني بالملكة إيزابلا، من آل فالوا، وفيها مات الكاردينال بادرو مندوزه، وفيها مدفن الكونت طانديلّا، أول قائد عسكرى لغرناطة بعد استيلاء الإسبانيول عليها.



شكل ١٨-١: أحد مناظر وادي الحجارة اليوم.

وقد كانت مدة بقاء العرب في وادي الحجارة ٣٦٧ سنة. قال ياقوت الحموي في المعجم فَرَج بالتحريك والجنم، مدينة بالأندلس تعرف بوادي الحجارة، وهى بين الجوف والشرق من قرطبة، ولها مدن بينها وبين طليطلة. وينسب إليها أيوب بن الحسين بن محمد بن أحمد بن عوف بن حميد بن تميم، يكنى أبا سليمان، ويعرف بابن الطويل، رحل إلى المشرق، ثم استقضاه الحكم المستنصر ببلده، وكان أديبًا حكيمًا،

قدم قرطبة، وروى عنه ابن الفرضي، وتوفي سنة ٣٨٣ بوادي الحجارة ذكر ذلك ابن الفرضي. انتهى.

وقال ابن حوقل عن وادي الحجارة: مدينة كبيرة، ثغر مشهور الحال، مسور بحجارة، وهى ذات أسواق، وفنادق، وحمامات، وحاكم، ومحلف، وبها تسكن ولاة الثغور، كأحمد بن يعلى وغالب، وعليها أكثر جهاد جليقية، ومنها إلى شعراء القوارير، وبها منهل تنزله الرفاق مرحلة، ومنها إلى مدينة سالم مرحلة. انتهى.

وجاء في الانسيكلوبيدية الإسلامية: أن وادي الحجارة يقال لها أيضًا مدينة الفرج، نسبة إلى عائلة من البربر يقال لهم بنو فرَج كما روى اليعقوبي. وكان فتح العرب لهذه البلدة سنة ٧١٤، زحف إليها موسى بن نصير وطارق بن زياد معًا، وبقيت في أرض العرب إلى سنة ١٠٦٠، إذ استرجعها منهم الملك فرديناند القشتالي، ولكن عاد العرب ففتحوها مرة ثانية، وبقيت في أيديهم إلى سنة ١٠٨١، فافتتحها ألفاريانس دومينية Alvar Ganes de Minaya من أبناء عم القمبيدور، الملقب بالسيد، ومن قواد الأذفونش السادس، وكانت معدودة من القلاع العربية الحصينة وخرج منها كثير من أهل العلم، كما يظهر من المكتبة العربية الأسبانية. أي مطبوعات قديرة،[٢] والنسبة إلى هذه البلدة حجاري، وهناك مؤرخ معروف اسمه الحجاري، أصله من وادي الحجارة. ولما كانت في أيدي العرب كان قد بقي فيها عدد غير قليل من المسحيين. انتهى.

هوامش

(١) وتسمى مدينة الفرج، قال في صبح الأعشى: مدينة الفرج بفتح الفاء والراء المهملة ثم جيم وهي مدينة شرقي طليطلة وشرقيها مدينة سالم. قال ابن سعيد: ويقال لنهرها وادي الحجارة.

(٢) مستشرق إسبانيولي من عائلة عربية الأصل نشر عدة تآليف عربية طبعها في مجريط وهو أستاذ أبسن بلاسيوس المستشرق الإسبانيولي المشهور كما أخبرنيه هو بنفسه يوم تلاقيت معه في خزانة كتب الإسكوريال سنة سياحتي إلى الأندلس.

الفصل التاسع عشر

من انتسب من العلماء إلى وادي الحجارة

منهم أبو بكر يحيى بن الفتح بن حنش الأنصاري الحجاري، يروي عنه محمد بن عبد الرحيم. ومحمد بن عذرة الحجاري، سمع من محمد بن وضّاح وغيره، ومات بالأندلس سنة ٣١٣. وأبو عبد الله محمد بن يونس الحجاري، روى عن أبي عمر الطلمنكي، وأبي محمد بن الأسلمي وغيرهما، وكان مقدمًا بالمعرفة والنحو واللغة، وكتب الأشعار والأخبار، واستأدبه المظفر بن الأفطس، صاحب بطليوس لنفسه ولبنيه، وسكن بطليوس، وتوفي بها سنة اثنتين أو ثلاث وستين وأربعمائة. وأبو عثمان سعيد بن علي ابن يعيش بن أحمد بن خلف الأموي، حدث عنه ابن أبيض، وكان من أهل السنة والخير، مولده سنة ٣١٦. ومحمد بن إبراهيم بن حيون الحجاري، كان إمامًا في الحديث حافظًا لعلله، بصيرًا بطرقه، لم يكن في الأندلس في وقته أبصر به منه، سمع من أبي عبد الله الخشني، وابن وضّاح، وابن مسرّة.

ثم رحل إلى المشرق، فتردد هناك نحوًا من خمس عشرة سنة، سمع فيها بصنعاء من أبي يعقوب الدبري وعبيد بن محمد الكشوري، وسمع بمكة من علي بن عبد العزيز وأبى مسلم الكّشي، ومحمد بن علي الصايغ، وغيرهم، وببغداد من جماعة، منهم عبد الله بن أحمد بن حنبل، وروى عن القاضي أبي عبد الرحمن أحمد بن حماد بن صفيان الكوفي، لقيه بالمصّيصة سنة ٢٩٤، وسمع بمصر من عبد الله بن أحمد بن عبد السلام الخفَّاني، وإبراهيم بن يعقوب الجوزجاني، سمع من ابن قتيبة بعض كتبه، ورجع إلى الأندلس، وأخذ عنه الكثيرون، وكان من الشعراء وتوفي بقرطبة عقب ذي العقدة سنة ٣٠٥.[١] ومفرّج بن يونس بن مفرّج بن محمود بن فتح بن نصر بن هلال الحجاري المكتب، سكن قرطبة، وكان يعلم بمسجد سرور، وكان شيخًا صالحًا. وأبو بكر محمد بن القاسم بن مسعدة البكري الحجاري، المكنى أبا عبد الله، سمع بقرطبة من الحسن

بن سعد، وحدث عنه بالناسخ والمنسوخ، وسمع من غيره بقرطبة، ورحل إلى المشرق، سمع فيها من ابن الأعرابي بمكة، ومن محمد ابن أيوب الصموت بمصر.

وأبو بكر محمد بن القاسم الكاتب، يعرف باسكنهادة، سكن قرطبة، وهو من وادي الحجارة، وارتحل إلى المشرق بعد الفتن التي جرت بقرطبة، وحولت أحوالها فجال في العراق والشام وحلب، ثم عاد إلى الأندلس واستقر بدانية،[2] وطاب مقامه بها. وأبو بكر عبد الباقى بن محمد ابن سعيد الأنصاري، المعروف بن برّال ومحمد ابن إبراهيم بن إسحاق الحجاري.

وأبو عبد الله محمد بن يوسف، الورَّاق التاريخي الحجاري، أَلَّف للخليفة الحكم المستنصر كتابًا ضخمًا في ممالك أفريقية ومسالكها، وألف أيضًا كتبًا جمة في أخبار ملوكها وحروبهم، وفي أخبار تيهرت، ووهران، وسجلماسة، ونكور إلخ. قال أبو محمد بن حزم: ومحمد هذا أندلسي الأصل والفرع، آباؤه من وادي الحجارة، ومدفنه قرطبة، وهجرته إليها، وإن كانت نشأته بالقيروان.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن لب بن صالح بن ميمون بن حرب الأموي الحجاري المقرئ، سكن قرطبة، يعرف بالريوله، ولد سنة ٣٤٤، وكان في قرطبة إمامًا لمسجد ابن حيويه، وله رحلة إلى المشرق، روى فيها عن أبي بحر الشيرازي، وروى عن الحسن بن رشيق، وكان من أهل الفضل والخير، حسن الصوت، مجوّدًا للقرآن. وأبو بكر عبد الله بن محمد بن فتح، روى عن أبيه محمد بن فتح، كتاب جهاد النفس من تأليفه، حدّث عنه أبو الفرج بن فتح السالمي، من شيوخ المنذر بن المنذر الحجاري وأبو محمد عبد الله بن محمد الأنصاري، يعرف بابن بيبر، سمع من أبي عيسى الليثي، حدّث عنه بالموطأ، وأبى عمرو أحمد بن ثابت التغلبي، وغيرهما. روى عنه أبو عبد الله بن شق الليل الطليطلي، ذكره ابن الدباغ، ترجمه ابن الأبّار في التكملة. وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عيسى بن وليد النحوي، يعرف بابن الأسلمي، ويقال فيه أيضًا ابن الأسلمية. روى بوادي الحجارة عن أبي الحسن بن معاوية بن مصلح، وأبى عبد الله بن مسعدة، وأبى عمر المديوني، وأبى بكر بن ينّق، وأبى عبد الله بن خلف بن سعيد الشولة، وروى بقرطبة عن أبي جعفر بن عون الله. سمع منه صحيح البخاري، وعن القاضي عبد الله بن مفرج، وسمع بقلعة أيوب عن أبي محمد بن قاسم، وبقلعة عبد السلام عن أبي عمر بن عمران الفخار، وروى أيضًا عن أبي حفص عمر بن علي الحجاري، وأخذ عن أبي إسحاق بن شنظير، وأبى محمد بن ذنين، من علماء طليطلة،

وأخذ عن أبي عمر الطلمنكي، وأجاز له الحسن بن رشيق، مع جاره أبي الحكم المنذر بن المنذر الحجاري. قال ابن الأبار: أحد الأئمة المتفننين في العلوم، المتقدمين في معرفة لسان العرب، والإحاطة به، المشار إليهم بالكمال، مع النزاهة والاعتدال، وله تواليف منها كتاب تفقيه الطالبين، وكتاب الإرشاد إلى إصابة الصواب في الأشربة، وتوفي بعد العشرين وأربعمائة، وقيل إنه كان يختم كتاب سيبويه كل خمسة عشر يومًا، وكان عفيف النفس وقورًا.

وأبو محمد عبد الله بن محمد، المعروف بابن الأثرم، كان من أهل المعرفة بالنحو والأدب معلمًا بذلك، أخذ عنه أبو حاتم الحجاري وغيره، ذكره ابن عزير. وأبو محمد عبد الله بن على بن المنذر بن المنذر بن على بن يوسف الكنانى، كان من أصحاب أبي العيش معمر بن معذل الحجاري، وكان راوية فقيهًا، له وقوف على النحو والأدب، ذكره ابن عُزير. وأبو الحسن إسماعيل بن عيسى بن محمد بن بقي. وإسماعيل بن أحمد الحجاري، كان من أهل الفضل محدثًا. وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن مطرف الحجاري، المعروف بابن الموره. يروي عن أبي محمد الشنتجالي، وكان محدثًا، وقال ابن الأبّار: وقفت على إجازته لبعض رواته في سنة ٤٦٥. ومحمد بن الدباغ أخذ عن إبراهيم بن حفص، وصحب القاسم بن فتح، وسَفِر بينه وبين أبي محمد بن حزم في مسائل وجوابات كانت بينهما، وكان أبرع أهل وقته في النحو والأدب. ذكره ابن عزير. وأبو عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن بقاء الأنصاري، من أهل بُلْغِي وسيأتي ذكرها. وكان يسكن في وادي الحجارة، ويقرئ فيها بالمسجد الجامع، ولد في الثاني والعشرين من شعبان سنة ٤٥٤، وأخذ القراءات عن أبي داود بن نجاح، ورحل إلى الشرق حاجًّا، وقدم دمشق، وأقرأ بها القرآن بالسبع. وتوفي يوم الأربعاء عند صلاة العصر، ودفن يوم الخميس، عند صلاة الظهر، الثاني من ذي الحجة سنة ٥١٢، ودفن في مقبرة الصحابة، بالقرب من قبر أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال ابن عساكر: وشهدت أنا غسله والصلاة عليه ودفنه.

وأبو العيش معمّر بن عبد الله بن معذّل الباهلي، أخذ عن إبراهيم بن حفص الحجاري، وكان من كبار أصحابه، عارفًا بالعربية، مع الفقه والحديث، والمشاركة في سائر العلوم، حدث عنه إسماعيل بن عيسي الحجاري، وأبو بكر البلجاني وغيرهما. وأبو عبد الله بن محمد بن عثمان بن حسين البكري الحجاري، روى بوادي الحجارة عن أبي بكر عبد الباقي بن برّال، وأبى الربيع سليمان بن خلف الطحان، وأجاز له أبو عبد

الله بن الموره الحجاري، وأبو الوليد الوقشي، كتب إليه من بلنسية سنة ٤٨٥ قال ابن الأبّار: ورأيت السماع عليه في سنة ٥١٩. وأبو الحسن عبد الرحيم بن قاسم بن محمد بن النحوي، كان عالمًا، فاضلا، صالحًا، كثير البكاء والعبادة توفي سنة ٥٤٣ في قرطبة. وأبو الحسن علي بن المنذر بن المنذر بن علي الكناني. روى عن أبي عمر الطّلَمنكي، وأبي عمر بن عبد البر، وله رحلة إلى المشرق، توفي في نحو الثمانين وأربعمائة. وابن أمنية الحجاري الفقيه الشافعي، ذكره ابن حزم وأثنى عليه. وأبو الحسن سعيد بن محمد بن سعيد الجُمحي المقرئ، المعروف بابن قوطة له رحلة قرأ فيها على جماعة، وأخذ أيضًا عن أبي الوليد الباجي، وأقرأ القرآن بوادي الحجارة، وتوفي ببلدة طرسونة من الثغر سنة ثمان أو تسع وخمسمائة.

وسعيد بن عمر، من أهل وادي الحجارة، روى عن وهب بن مسرَّة، وسمع بقرطبة من أبي بكر بن الأحمر، وحدَّث عنه الصاحبان وقالا: توفي بالمشرق في نيف وثمانين وثلاثمائة. وسعيد بن مسعدة الحجَّاري المحدّث، مات سنة ٢٧٣، وقيل سنة ٢٨٨، وذكر ذلك ابن عُميرة في بغية الملتمس. وأبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن لب الأنصاري، روى عن وهب بن مسرة، وابن الأحمر، وأبي ميمونة، ومحمد ابن فتح الحجاري، وحدّث عنه الخولاني، وأبو عبد الله بن عبد السلام الحافظ.

وأبو القاسم عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، يعرف بابن غرسيّة، روى بوادي الحجارة عن محمد بن فتح، وعن محمد بن عبد الرحمن الزبادي، وغيرهما، حدّث عنه الصاحبان وقالا: كان رجلًا صالحًا، وتوفي سنة إحدى أو اثنتين وثمانين وثلاثمائة. وأبو بكر عبد الباقي بن محمد بن سعيد بن أصبغ بن قُرَّيال الأنصاري، روى عن المنذر بن المنذر، وأبي الوليد هشام الكناني، وأبي محمد بن الفتح، وأبي عمر الطَّلَمنكي. قال ابن بشكوال: وكان نبيلًا، حافظًا، ذكيًّا، أديبًا، شاعرًا، محسنًا، سكن في آخر عمره بالمرية، وأخبرنا عنه غير واحد من شيوخنا، وتوفي في مستهل رمضان سنة ٥٠٢ ببلنسية، وكان مولده سنة ٤١٦.

وأبو الحكم منذر بن منذر بن علي بن يوسف الكناني، روى ببلده عن أبي الحسن علي بن معاوية بن مصلح، وأبي بكر بن موسى، وأحمد بن خلف المديون وعبد الله بن القاسم بن مسعدة، وأبي سليمان أيوب بن حسين، قاضي مدينة الفرج، أي وادي الحجارة، وروى أيضًا عن عبد الله بن قاسم بن محمد القلعي، ورحل إلى المشرق فحج، وأخذ عن أبي بكر أحمد بن محمد الطرسوسي، وأبي عبد الله محمد بن أحمد البلخي،

وأخذ بمصر عن الحسن بن رشيق وغيره، وأخذ بالقيروان عن أبي محمد بن أبي زيد، وأبى الحسن القابسي، وكان رجلًا صالحًا، قديم الطلب للعلم، وكثير الكتب، موثوقًا فيما يرويه، قال ابن بشكوال: وكان ينسب إلى غفلة كثيرة، وتوفي سنة ٤٢٣. وأبو بكر أحمد بن موسي بن ينّق، سمع من وهب بن مسرَّة معظم ماعنده، وكان رجلًا صالحًا، ثقة، حدث عنه الصاحبان، وأبو محمد بن ذُنين من علماء طليطلة، وقالوا: توفي في ذي القعدة سنة ٣٧٩، وكان مولده سنة ٣٠٦. وأبو عمر أحمد بن خلف بن محمد بن فرتون المديوني الزاهد الراوية، سمع ببلده وادي الحجارة من وهب بن مسرة، وسمع بطليطلة من عبد الرحمن بن مدراج، ورحل إلى المشرق، وروى عن أبي الفضل محمد بن إبراهيم الديبلي المكي، والحسن بن رشيق المصري، وأبى محمد بن الورد، وأبى الحسم النيسابوري، وأبي علي الأفيوطي، وأبي حفص الجرجيري، وحدث عنه أبو عمر الطلمنكي، والمنذر بن المنذر الكناني، وأبو محمد بن أبيض. وكان زاهدًا، ثقة فيما يرويه. ومن روايته عن وهب بن مسرَّة قال: دخلت على محمد بن وضّاح بين المغرب والعشاء مودعًا، فقلت له: أوصني رحمك الله، فقال: أوصيك بتقوى الله عز وجل، وبر الوالدين، وحزبك من القرآن فلا تنسه، وفرّ من الناس، فإن الحسد بين اثنين، والنميمة بين اثنين، والواحد من هذا سليم. وروى عن النيسابوري عن أبي عبد الرحمن النسائي قال: ما نعلم في عصر ابن مبارك رجل أجل من ابن المبارك، ولا أعلى منه، ولا أجمع لكل خصلة محمودة، هذا، وممن روى عن أحمد بن فرتون المديوني الصاحبان، أبو إسحاق بن شنظير، وأبو جعفر بن ميمون، وكذلك أبو محمد بن ذُنين، وقالوا جميعًا: توفي سنة ٣٧٧، وقال أبو محمد: يوم الخميس في المحرم، وهو ابن ثمان وأربعين سنة، وصلى عليه أبو بكر أحمد بن موسى.

وعلي بن معاوية بن مصلح، يكنّي أبا الحسن، رحل إلى المشرق وسمع بمكة من عمر بن أحمد الجمحي، وأبى الحسن الخزاعي، وأبى إسحاق الديبلي، وأبى بكر الآجرّي وسمع بالمدينة من قاضيها عبد الملك المرواني، وسمع بمصر من الحسن بن رشيق، والحسن بن الخضير، وأبي محمد بن الورد، وغيرهم، وسمع بالإسكندرية من أبي العباس بن سهل العطار وغيره. وسمع بقرطبة من أبي بكر القرشي، وإسماعيل بن بدر وغيرهما، وسمع بطليطلة من ابن مدراج وغيره، وبوادي الحجارة من وهب بن مسرّة ومحمد بن القاسم بن مسعدة، وحدث عنه الصاحبان وغيرهما، وكان شيخًا فاضلًا ثقة توفي في رجب سنة ٣٩٧، ومولده سنة ٣١٣، وذكر مولده ووفاته الحافظ

بن عبد السلام. وأبو زكريا يحيى بن محمد بن وهب بن مسرة بن حكم بن مفرّج التميمي سمع ببلده، وادي الحجارة، من جده وهب بن مسرة وغيره، ورحل إلى المشرق، وروى عن أبي بكر الطرسوسي، والحسن بن رشيق، وأبي الطيب الحريري، وعبد الغني بن سعيد الحافظ، واختصر كتاب الأسماء والكُنَى للنسائي، وأخذ عنه الناس كثيرًا قال ابن شنطير: توفي يوم الجمعة عقب ذي القعدة سنة ٣٩٤، ومولده سنة ٣٣٤. وأبو الحسن عبد الرحيم بن قاسم بن محمد بن النحوي المقرئ، كان من أهل المعرفة والفضل والذكاء والحفظ، قوي الأدب، ومع ذلك كان ديّنًا، عابدًا، كثير الصلاة قوام الليل متهجدًا، كثير البكاء، حتى أثر ذلك بعينيه، توفي عقب شعبان من سنة ٥٤٣ ذكر ذلك ابن بشكوال، وكانت وفاته بقرطبة. وأبو محمد عبد الله بن علي بن المنذر بن المنذر بن علي بن يوسف الكناني، وقد تقدمت ترجمة أبيه أبي الحسن علي بن المنذر، وكان عبد الله هذا راوية، فقيهًا عالمًا بالنحو، أديبًا، وصحب أبا العيش معتز بن معذل الحجاري.

وأبو مروان عبد الملك بن غصن الخشني الشاعر، وكان من الأدباء المعدودين، وامتحنه المأمون بن ذي النون، صاحب طليطلة، وسجنه في وبذة مع جماعة غضب عليهم، فألّف حينئذ كتابه المعروف بكتاب «السجن والمسجون والحزن والمحزون». ضمنه ألف بيت من شعره وروايته، ثم أطلق سبيله، فسار إلى بلنسية، ثم إلى قرطبة وتوفي سنة ٤٥٤ في غرناطة. وأبو نصر الفتح بن يوسف بن محمد المعروف بابن الريول والد الحافظ أبي محمد قاسم، من وادي الحجارة، روى ببلده عن القاضي أيوب بن حسين، وبقرطبة عن أحمد بن ثابت وغيره، وحدث عنه ابنه أبو محمد بن الفتح، وأخذ عنه أحمد بن بدر سنة ٤٠٨.

ثم ابنه أبو محمد قاسم بن الفتح، روى عن أبيه، وعن أبي عمر الطلمنكي، وأبى محمد الشنتجيالي، ورحل إلى المشرق وأدى الفريضة، وروى عن أبي عمران الفاسي وغيره وكان عالمًا بالحديث عارفًا باختلاف الأئمة، قارئًا بالقراءات السبع، مفسرًا، متكلمًا شاعرًا، أديبًا زاهدًا، ورعًا، صادق اللهجة، وكان لا يرى التقليد، وله تآليف حسنة ومن شعره:

يا طالبًا للعلاء مهلًا ما سَهمك اليوم بالمعلّى
كم أمل دونه اخترامٌ وكم عزيز يذوق ذُلّا

أبعد خمسين قد تولَت تطلب ما قد نأى وولى
في الشيب، إما نظَرْت وعظٌ قد كان بعضًا فصار كُلا

قال أبو القاسم بن صاعد: كان أبو محمد القاسم بن الفتح واحد الناس في وقته في العلم والعمل، سالكًا سبيل السلف في الورع والصدق، والبعد عن الهزل، متقدمًا في علم اللسان والقرآن، وأصول الفقه وفروعه، ذا حظ جليل من البلاغة، ونصيب صالح من قرض الشعر. وتوفي رحمه الله على ذلك جميل المذهب، سديد الطريقة، عديم النظير، وذكره الحميدي، ووصفه بالعلم والزهد، وأنشد له من زهدياته:

يا معجبًا بعلائِهِ وغَنَائِهِ ومطولًا في الدَّهر حبل رجائه
كم ضاحك أكفَانه منشورةٌ ومُؤَمَلٍ والموت من تلقائه

قال أبو بكر عبد الباقي بن بريَّال الحجاري: إنه كان إمامًا مختارًا، ولم يكن مقلدًا، وكان يقول بالعلة المنصوص عليها والمعقولة، ولا يقول بالمستنبطة، ومضى عليه دهر وهو يقول بدليل الخطاب، ثم ظهر له فساد هذا القول، فنبذه. وتوفي في بلده، بعد مطالبة جرت عليه من جهة القضاة بها، رحمه الله، وكانت وفاته سنة ٤٥١، قاله ابن صاعد.

وأبو حفص عمر بن علي الحجاري، روى عن أبي جعفر بن عون الله، وابن مفرج وغيرهما، وله رحلة إلى المشرق سمع فيها من علماء جلة، وحدث عنه الخولاني وأجاز له سنة ٣٩٧، رواه ابن بشكوال. وطاهر بن أحمد بن عطية المري القاضي، أصله من وادي الحجارة، يكنى أبا محمد، روى عن أبي بكر بن بشر، وأجاز له ولابنه عبد الله بن طاهر في سنة ٥٣٧، يحدّث عنه أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي، ذكره ابن بشكوال. وأبو محمد عبد الله بن إبراهيم الحجاري، المؤرخ الشهير، صاحب المسهب، وولداه أحمد ومحمد، وحفيداه موسى وعلي وكلهم من أهل العلم. وسعد بن عمر. وأحمد بن سعيد بن مسعدة، ذكره صاحب بغية الملتمس.

ومن المدن القريبة من وادي الحجارة على ضفة نهر هناوس «سيفوانه» Siguenza وكان اسمها عند الرومانيين «سيغونطية Segontia»، وقد استولى عليها العرب، وفيها من آثارهم قصر لا يزال معروفًا، وفيها كنيسة قديمة، بنيت سنة ١١٠٢ وسكان هذه البلدة خمسة آلاف نسمة، وغير بعيد عنها بلدة يقال لها «الكنيسة» Alconeza.

والسكة الحديدية بين مجريط وسرقسطة ترتفع إلى علو ١١٩١ مترًا عن سطح البحر، و٥٥١ مترًا عن مجريط، وتدخل في نفق يقال له «هورنه» ثم ينحدر الخط الحديدي، ولا يزال ينحدر حتى يصل إلى سرقسطة، وعلى هذا الخط، بين البلدتين بلاد كثيرة منها «ترالبه» Tarrlb و«المازان» Alamazan و«صوريه» Soria. والعرب يقولون لها شورية، وهي بلدة قديمة، سكانها سبعة آلاف نسمة وموقعها على الضفة اليمنى من نهر دوروه، ولكن الأراضي حولها قليلة الجداء، وفي هذه البلدة أيضًا أديار وكنائس قديمة، ومتحف فيه آثار أيبيرية وأخرى رومانية عثروا عليها في أخربة بلدة «نومنسه» Numance.

وهي بلدة أيبيرية قديمة، عندما زحف الرومان إلى أسبانية، كانت من أشدها مقاومة. فحاصرها هؤلاء مدة سنوات إلى أن فتحوها عنوة سنة ١٣٣ قبل المسيح وجعلوها دكًا. وبقيت خاوية على عروشها. وفي سنة ١٩٠٥، إلى ١٩١٢، قام الأستاذ المسمى «شولتن» Sculthen بأعمال حفر مهمة للكشف عن بقايا هذه المدينة الأيبيرية، التي دمرها سيبون الروماني، فكشف منها جانبًا. وانكشفت له أيضًا مستعمرة رومانية، وأماكن المعسكرات التي كانت لسيبون عندما أحاط بالبلدة، ثم كشف الإسبانيول بعد شولتن مساكن أيبيرية قديمة.

ومن شورية يذهبون بالعربات إلى «كستيجون» Cesijon و«كالهرة» Celaharo و«خرسونه».

هوامش

(١) هذه الترجمة منقولة عن بغية الملتمس وقد رأيتها في نفح الطيب وإنما ثمة بالنفح زيادة وهي: قال خالد بن سعيد: لو كان الصدق لسانًا لكان ابن حيون وكان يزن بالتشيع لشيء كان يظهر منه بحق معاوية رضي الله عنه.

(٢) لمحمد بن قاسم المذكور أورده المقري في النفح وهو قوله عندما دخل حلب:

أين أقصى الغرب من أرض حلب	أمل في الغرب موصول التعب
حن من شوق إلى أوطانه	من جفاه صبره لما اغترب
يا أحباي اسمعوا بعض الذي	يتلقاه الطريد المغترب

وليكن زجرًا لكم عن غربة   يرجع الرأس إليها كالذنب

واجتاز بدمشق فقال عفا الله عنه:

دمشق جنة الدنيا حقيقا   ولكن ليس تصلح للغريب
بها قوم لهم عدد ومجد   وصحبتهم نزول إلى حروب

وقال بعد حلوله بدانية قائلا إلى الأندلس:

وكم قد لقيت الجهد قبل مجاهد   وكم أبصرت عيني وكم سمعت أذني
ولأتيت من دهري وصرف خطوبه   كما جدت النكباء في معطف الفصل
فلا تسألوني عن فراق جهنم   ولكن سلوني عن دخولي إلى عدن

الفصل العشرون

مدينة سالم

ثم مدينة سالم، والإسبانيول يقولون لها مدينة «سالي» ويلفظونها بالثاء لا بالسين، وهي في موضع رفيع منيع، وقد كان للعرب فيها قلعة شهيرة، جعلوها من أهم الثغور في وجه الإسبانيول والبلدة المعروفة من قبل العرب ولا تزال فيها آثار رومانية من القرن الأول بعد المسيح إلا أن العرب حصنوها واعتنوا بها وكانت مركزًا عسكريًّا عظيمًا. وكان يقال لمدينة سالم «الثغر الأوسط»، فقد كانوا يقسمون الثغور إلى كور منها: الثغر الأعلى، ويقال له أيضًا الثغر الأقصى، وهذا الثغر هو سرقسطة وكورتها، ثم الثغر الأوسط ويقال له أحيانًا الأدنى، وهو مدينة سالم وكورتها وطليطلة، وكان يوجد ثغر ثالث، وهو ثغر «قويمرة» وربما أضيف إلى الثغر الأوسط بعض الأحيان.

وكان ولاة هذه الثغور قوادًا، وكان أكثرهم من أبناء البيوتات، سواء من العرب، أو من البربر، أو من المولدين، وذلك مثل التجبيين، وبني هود، وبني رزين، وبني ذي النون، وبني قسي، وهؤلاء أسبانيون دانوا بالإسلام، وكان من أشهر قواد الثغور في زمن بني أمية غالب بن عبد الرحمن، فهو الذي في سنة ٣٣٥ هجرية رمم حصون مدينة سالم، بعد أن خربت، وهو الذي في سنة ٣٤٢ زحف على قشتالة، وأوقع بأهلها، وبقي في قيادة الثغر الأوسط إلى زمن الحكم المستنصر، فانتدبه لإمارة الجيوش في أفريقية، عندما عزم على محاربة الأدارسة. وفي إحدى غزواته بين العدوة استصحب معه القاضي محمد بن أبي عامر، فاتصل به، وانعقدت بينهما مودة أكيدة، انتهت بأن غالبًا أزوج محمد بن أبي عامر ابنته، وبواسطة هذه المصاهرة ترقى ابن أبي عامر. وحاز رتبة ذي الوزارتين، ومازال يترقى في الدولة حتى صار هو الحاجب الكبير، وحتى غلب على الدولة كلها، وحجر الخليفة هشام، ولم يبق له إلا اسم الخلافة، وأخيرًا وقعت الوحشة بين القائد الكبير غالب بن عبد الرحمن وصهره محمد بن أبي عامر، الذي

تلقب بالمنصور، وذلك بعد أن استفحل أمره، ورأى فيه غالب خطرًا على الدولة، فأدى ذلك إلى الحرب بينهما، وجرح غالب بن عبد الرحمن في الواقعة ومات، وفقدت الدولة الأموية بموته ركنًا من أعظم أركانها.

وفي مدينة سالم هذه دفن المنصور بن أبي عامر، كما هو معروف في التاريخ، وكان قد توفي في الغزوة الأخيرة[1] فاحتملوه إلى مدينة سالم، ودفن فيها. قال ابن خلدون: هلك المنصور أعظم ما كان ملكًا، وأشد استيلاءً، سنة أربع وتسعين وثلاثمائة بمدينة سالم، منصرفه من بعض غزواته، ودفن هناك. وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه. ا.هـ. وزاد المقري على ذلك في النفح الطيب: مما حكى أنه مكتوب على قبر المنصور رحمه الله تعالى:

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبدًا ولا يحمي الثغور سواه

قال: وعن شجاع مولى المستعين بن هود: لما توجهت إلى أذفونش، وجدته في مدينة سالم، وقد نصب على قبر المنصور بن أبي عامر سريره، وامرأته متكئة إلى جانبه، فقال لي: يا شجاع أما تراني قد ملكت بلاد المسلمين، وجلست على قبر ملكهم؟ قال: فحملتني الغيرة أن قلت له: لو تنفس صاحب هذا القبر وأنت عليه، ما سمع منك ما يكره سماعه، ولا استقر بك قرار! فهمّ بي، فحالت امرأته بيني وبينه وقالت له: قد صدقك فيما قال، أيفخر مثلك بمثل هذا؟ وقال في موضع آخر: وتوفي رحمه الله في غزاته للإفرنج بصفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، وحمل في سريره على دولته ستًا وعشرين سنة، غزا فيها اثنتين وخمسين غزوة. قال انتهى كلام ابن سعيد وفي بعضه مخالفة لبعض كلام ابن خلدون. ثم نعود إلى الكلام على مدينة سالم فنقول: إن ياقوت الحموي يذكرها في المعجم تحت اسم «سالم» ويقول: مدينة الأندلس، تتصل بأعمال باورشة،[2] وكانت من أعظم المدن وأشرفها، وأكثرها شجرًا وماءً، وكان طارق لما افتتح الأندلس ألفاها خرابًا، فعمرت في الإسلام، وهي الآن بيد الإفرنج.ا.هـ.

وجاء في صبح الأعشى: مدينة سالم قال ابن سعيد: وهي بالجهة المشهورة بالثغر من شرقي الأندلس (والحقيقة أنها من شماليها إلى الشرق أو من جوفيها على رأي الأندلسيين) قال: وهي مدينة جليلة. قال في تقويم البلدان: وبها قبر المنصور بن أبي عامر.



شكل ٢٠-١: المنصور بن أبي عامر يجود بنفسه بين أيدي ابنه وقواده وأطبائه.

وفي مدينة سالم قبور عائلة إسبانيولية نبيلة يقال لها عائلة دوق مدينة سالم Duc du Medinaceli. وكورة مدينة سالم قاحلة، قليلة الزرع والضرع، ويكثر في أرضها الجفصين.

وعلى مسافة ثلاثين كيلومترًا من مدينة سالم بلدة شنتا مرية Santa Maria de Huerta. وبالقرب من شنتا مرية هذه، بينها وبين «أديزه» Ariza خرابات مدينة أيبيرية قديمة يظن أنها مدينة أركوبريقه Arcobriga. ثم تمر ببلدة أريزة، وهي داخلة في حدود أراغون، وحول هذه المدينة الصغيرة كهوف ومغاور كانت مسكونة في القديم. والغالب على أرض هذه البلدة الصخور والجنادل، ولون التراب أحمر إلى السواد، ويمر بها نهر شلون[٣] وماؤه يميل إلى الحمرة، وكانت من ملحقات مدينة سالم في أيام العرب بلدة يقال لها «شمّونت» قال ياقوت: شمّونت بالفتح والتشديد وسكون الواو وفتح النون، قرية من أعمال مدينة سالم بالأندلس، لها ذكر في أخبارهم، انتهى. وقال أبو الفداء: إن مدينة سالم كانت قاعدة الثغر الأوسط، وقال الإدريسي إنها مدينة عامرة ذات بساتين ورياض. وجاء في الإنسيكلوبيدية الإسلامية ما معناه إن مدينة سالم واقعة في نصف الطريق بين مجريط وسرقسطة، وارتفاعها عن سطح البحر ألف متر. وليست هي مدينة ابن السالم، التي هي من ملحقات أشبيلية، وكانت في زمان العرب مركز الجيوش المرابطة في الثغور، ومنها تخرج إلى قتال العدو، وإليها تتراجع، وبها تعتصم في حال الفشل. وكانت قد سقطت مكانتها حينًا من الدهر، إلى أن تولى الخليفة الناصر،

فأعاد عمرانها في سنة ٣٣٥ للهجرة، عن يد القائد غالب، وبقيت في أيدي المسلمين إلى أن استرجعها المسيحيون. ثم المسلمون فاسترجعوها. ثم عاد المسيحيون فأجلوهم عنها، عندما أخذ الإسلام في الأندلس بالتقهقر.[٤]

هوامش

(١) هذه الغزاة يسميها العرب بغزاة قنالش والدير، لأن المنصور وصل فيها إلى قنالش، وهي على مقربة من ناجرة ولوكروني من مقاطعة ريوجه Rioja. وأما الدير فالمرجح أنه دير سان ميلان، شفيع قشتالة. وقد هدمه المنصور بتلك الغزاة فيما هدم من الأديار، ووجدت كتابة من شانجه الكبير ملك نبارة مؤرخة في ١٠٢٧ تدل على هذا الحادث، وكان المنصور عندما قام رحمه الله بهذه الغزاة يشكو المرض، ولم يقعده ذلك عن الزحف بنفسه، وعبثًا حاول الأطباء أن يمنعوه من الخروج، فإنه أصر وصمم على الغزو، وكان معتقدًا أن مرضه غير قابل للشفاء. فلما خرج للغزو اشتدت به الآلام وأصبح غير قادر على الاستقلال بجواده، حملوه في محفة على أكتاف الرجال وبقي يحمل في المحفة أربعة عشر يومًا، ولما وصل إلى مدينة سالم استدعى ولده الأكبر عبد الملك، وأمره بالرجوع إلى قرطبة، وتسليم قيادة الجيش إلى أخيه عبد الرحمن وذلك لأن المنصور كان يتوجس عند موته خيفة الانتقاض في قرطبة على الدولة العامرية، وكان يحتاط لأجل توطيد الحكم لأولاده، فلما ذهب عبد الملك راجعًا إلى قرطبة أفاق المنصور بعض الشيء، واستدعى كبار القواد، وودعهم، وأوصاهم بما يجب على مثله أن يوصي به في وقت كهذا، ثم أسلم الروح في ليلة الاثنين ١٠ أغسطس عام ١٠٠٢ من التاريخ المسيحي، وكانت تلك الغزاة مقرونة بالنصر لغيرها من غزوات المنصور التي قيل إنها بلغت أربعًا وخمسين غزوة، وقيل ستًا وخمسين، وقيل سبعين غزوة.

قال لسان الدين بن الخطيب: واصل رحمه الله الغزو بنفسه فيما يناهز سبعين غزوة، وفتح فيها البلاد، وخضد شوكة الكفر، وأذل الطواغيت، وفض مصاف الكفار، وكسر الصلبان، وبلغ الأعماق، وضرب على العدو الضرائب، إلى أن تلقاه عظيم الروم نفسه ببنته، وأتحفه بها في سبيل الرغبة في مهره، فكانت أحظى عقائله، وأبرت في الدين والفضل على سائر أزواجه. انتهى. نقل هذا دوزي في كتابه «المباحث عن تاريخ أسبانية وآدابها في القرون الوسطى» وقد سمى المؤرخون غزاة المنصور الأخيرة التي توفي على أثرها بغزاة قلعة أنيازور Calatanazor وزعم مؤرخو الإسبانيول مثل لوكاس

دوتوي Lucas de Tuy ولذريق الطليطلي Rodrigue de Tolède أن المنصور انكسر في تلك الغزاة، وقد فند دوزي زعمهم بما سنذكره في القسم التاريخي من هذا الكتاب، عند الوصول إلى أخبار الدولة العامرية.

وجاء في نفح الطيب نقلًا عن ابن حيان: ثم خرج المنصور لآخر غزواته، وقد مرض المرض الذي مات فيه، وواصل شن الغارات، وقويت عليه العلة، فاتخذ له سرير خشب، ووطئ عليه ما يقعد عليه، وجعلت عليه ستارة، وكان يحمل على أعناق الرجال، والعساكر تحف به، وكان هجر الأطباء في تلك العلة، لاختلافهم فيها، وأيقن بالموت، وكان يقول: إن زماني يشتمل على عشرين ألف مرتزق، ما أصبح فيهم أسوأ حالة مني. ولعله يعني من حضر معه تلك الغزاة وإلا فعساكر الأندلس ذلك الزمان أكثر من ذلك العدد، واشتغل ذهنه بأمر قرطبة، وهو في مدينة سالم، فلما أيقن بالوفاة أوصى ابنه عبد الملك وجماعته، وخلا بولده، وكان يكرر وصياته، وكلما أراد أن ينصر يرده، وعبد الملك يبكي، وهو ينكر عليه بكاءه، ويقول: وهذا من أول العجز. وأمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر، وخرج عبد الملك إلى قرطبة، ومعه القاضي أبو زكوان، فدخلها أول شوال، وسكن الأرجاف بموت والده، وعرف الخليفة كيف تركه، ووجد المنصور خفة فأحضر جماعة بين يديه، وهو كالخيال لا يبين الكلام، وأكثر كلامه بالإشارة كالمسلم المودع، وخرجوا من عنده، فكان آخر العهد به. ومات لثلاث بقين من شهر رمضان، وأوصى أن يدفن حيث يقبض، فدفن في قصره بمدينة سالم، واضطرب العسكر، وتلوم ولده أيامًا، وفارقه بعض العسكر إلى هشام، وقفل هو إلى قرطبة، فيمن بقي معه، ولبس فتيان المنصور المسوح والأكسية، بعد الوشي والحبر والخز، وقام ولده عبد الملك المظفر بالأمر، وأجراه هشام الخليفة على عادة أبيه، وخلع عليه، وكتب له السجل بولاية الحجابة. وكان الفتيان قد اضطربوا، فقوم المائل، وأصلح الفاسد، وجرت الأمور على السداد، وانشرحت الصدور بما شرع فيه من عمارة البلاد. انتهى.

(٢) أظن باروشة هذه تصحيف أروشة وأن هذه البلدة هي أريزة عند الإسبانيول وقد سألت الأستاذ المحقق السيد علال الفاسي الجد الفهري رأيه في هذه المسألة فأجابني بما يلي: «أما أريزة أو أريسة فأنا لا أرى بعيدًا أن تكون هي المسماة «باروشة» فقد جاء في دائرة المعارف للبستاني: أريزة بلدة في إسبانيا تبعد سبعين ميلًا عن سرقسطة إلى الجنوب الغربي. وفي معجم البلدان يقول ياقوت الحموي عن باروشة: بلد من غربي سرقسطة، من نواحي الأندلس شرقي قرطبة، تقرب من أرض الإفرنج. فأنتم ترون

التقارب في التحديد بينها وبين سرقسطة. ومع ذلك فأرى أن أريسة — وإن لم أستطع تعيينها — كانت تعرف كذلك عند العرب، أي لم يلحقها تحريف، إذ حفظ لنا التاريخ اسم شخصين يدعيان بالأريسي، أحدهما أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الأريسي، المعروف بالجزائري، الشاعر الشهير، المترجم له في «عنوان الدراية» في علماء بجاية، صفحة ١٣٤٤، والثاني جده محمد بن أحمد الأريسي، مترجم له أيضًا في هذا الكتاب صفحة ١٤٤. فيغلب على ظني أن هذه العائلة منسوبة إلى بلدة أريسة. والله أعلم. ا.هـ.

(٣) Jalon.

(٤) شنتامرية التي تقدم ذكرها في الكلام على مدينة سالم قد ورد ذكرها في معجم البلدان قال ياقوت: شنت مرية بفتح الميم وكسر الراء وتشديد الياء، وأظنه يراد به مريم بلغة الإفرنج: حصن من أعمال شنتبرية، وبها كنيسة عظيمة عندهم، ذكر أن فيها سواري فضة، لم ير الراءون مثلها، لا يحرم الإنسان واحدة منها، مع طول مفرط، قال أبو محمد عبد الله ابن السيد البطليوسي النحوي:

تنكرت الدنيا لنا بعد بعدكم ... وحفت بنا من معضل الخطب ألوان
أناخت بنا في أرض شنت مرية ... هواجس ظن خان والظن خوان
رحلنا سوام الحمد عنا لغيرنا ... فلا ماؤها صدى ولا النبت سعدان

قلنا جاء في دليل بديكر أن في شنت مرية هذه ديرًا فيه مكان مائدة صنعة بنائه فرنسية، ولم يحدث عن سواري فضة، ولا شيء مما رواه ياقوت بدون تحقيق.

الفصل الحادي والعشرون

من انتسب من أهل العلم إلى مدينة سالم

إن العرب لم يحلوا في محل، ولو مدة قصيرة إلا وحلّت مدنيتهم معهم فيه. واشتغلوا هنا بالعلم والأدب، وعكفوا على الإقراء، والتدريس، وتصنيف الكتب.

فمن المنسوبين إلى مدينة سالم من أهل العلم أبو الحسن علي بن يوسف القيسي السالمي، سكن جيان. وأخذ القراءات عن محمد بن أحمد بن الفرّا، وتصدر للإقراء. ذكره ابن الأبار في التكملة. وأبو الحسن علي بن موسى بن علي بن موسى بن محمد بن خلف الأنصاري السالمي الجياني، المعروف بابن النَقَرات. كان من القراء، ونزل مدينة فاس، وإليه ينسب الكتاب الموسوم بشذور الذهب في الكيمياء، ذكره التجيبي وأثنى عليه بالصلاح والورع وقال: سألته عن مولده فقال: سنة ٥١٥، وبقي إلى سنة ٩٣. وأبو الأصبغ عيسى بن أبي يونس بن أسد اللخمي، قرأ على أبي العباس بن هاشم المقرئ، وعلى غيره، وتوفي ببلده سنة ٤٨٢، على رواية ابن بشكوال. ومنه يفهم أن الإسبانيول افتتحوا طليطلة نهائيًا قبل مدينة سالم، لأن الروايات متفقة تقريبًا على أنهم استولوا على طليطلة سنة ٤٧٨، ومدينة سالم هي إلى الشمال من طليطلة بمسافة بعيدة، فما كذب الذي قال:

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولًا من الوسط

هذا إلا إذا كان هذا الرجل أقام بمدينة سالم من بعد استيلاء الأسبان عليها.

ثم أبو الحسن علي بن إبراهيم بن فتح، يعرف بابن الإمام، أخذ عن أبي عمر بن عبد البر وأبي الوليد الباجي وغيرهما، وكان من أهل النبل والأدب، توفي سنة ٤٧٩، وله ثلاث وستون سنة. ذكره ابن مدير، وعنه قال ابن بشكوال. وأبو الأصبغ عيسى بن

عبد الرحمن بن سعيد الأموي المقرئ، سمع من القاضي ابن السقاط، وكان من أهل العلم، وتوفي بمصر سنة ثمان وتسعين بعد الأربعمائة. وأبو العاص حكم بن محمد بن إسماعيل بن داود القيسي السالمي، من ساكني سرقسطة، أخذ عن جماعة من علماء الأندلس، ثم رحل إلى المشرق، فأخذ عن ابن رشيق وغيره، وكان صالحًا ورعًا تولى الصلاة بجامع سرقسطة، وحدّث عنه الصاحبان، وذكر وضّاح بن محمد السرقسطي أنه توفي سنة ٣٩٩، نقلًا عن ابن بشكوال. وأبو عامر محمد بن أحمد بن عامر البلوي، من أهل طرطوشة وسكن مرسية، وأصله من مدينة سالم، كان من أهل العلم والأدب مؤرخًا، له كتاب اسمه «درر القلائد وغرر الفوائد» وله في اللغة العربية كتاب حسن، وله كتاب في الطب سماه «الشفاء» وكتاب في التشبيهات، وكان له حظ من قرض الشعر، وتوفي سنة ٥٩٩. ترجمه ابن الأبار في التكملة. ومحمد بن أحمد البلوي السالمي، قال في بغية الملتمس: إنه فقيه أديب، له كتاب جمع فيه علومًا، وجدّد من الدهر آثارًا ورسومًا، سماه «كتاب السلك المنظوم والمسك المختوم» ولم يذكر ابن عميرة في البغية أين سكن محمد بن أحمد البلوي، ولم نعلم هل هو أبو عامر محمد ابن أحمد البلوي، الذي سكن طرطوشة، وترجمه ابن الأبار، وله كتاب «درر القلائد وغرر الفوائد» أم هو غيره. كما أن ابن عميرة لم يذكر سنة وفاته، بحيث يترجح عندنا أن هذا البلوي محمد بن أحمد هو واحد، لا اثنان تشابه اسماهما؟

وأبو زيد خالد بن أحمد بن أبي زيد الرصافي، ولي قضاء مدينة سالم وامتحن بالنهب عند قتل واليها ذي الوزارتين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن باق، الكاتب القرطبي سنة ٤١٩، وكان يلقب بجبل الثلج. من خط ابن حبيش. قاله ابن الأبار في التكملة. وخلف بن يامين، من أهل مدينة سالم وقاضيها. قال ابن الأبار حضر مع غالب مولى الناصر، ووثوبه على محمد بن أبي عامر، إذ حاول الفتك به فقبض على أسفل كمه لما أهوى إليه بالسيف، فنثر خربته، وجعل يناشده الله حتى أدهشه، وأفلت ابن أبي عامر، وعدا غالب عليه (أي على خلف) بعد ذلك، فقتله أفظع قتلة، لخروج مدينة سالم عن يده. وذلك في منسلخ شهر رمضان سنة ٣٦٩ انتهى. ومن هنا يُعلم أن مدينة سالم تداولها المسلمون والنصارى مرارًا لأن بعد هذا التاريخ دفن فيها محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور، وكانت يومئذ في أيدي المسلمين. وخلف بن محمد بن خلف المقرئ، روى عن أبي عمرو المقرئ، وأخذ عنه أبو الحسن بن قوطة الحجاري، سمع منه في شعبان سنة ٤٧٦. وأبو الوليد يونس بن عيسى بن خلف الأنصاري، سمع من أبي

عبد الله بن السقاط، وقرأ على أصحاب أبي عمرو المقرئ، قال ابن بشكوال: أخذ عنه أصحابنا، وقرأ بخط بعضهم أنه توفي سنة ٥٠٨. ويعيش بن خلف الأنصاري، روى عن أبي عمرو المقرئ، وكان عنده علم وخير. وقد حدث، وأخذ عنه، عن ابن بشكوال. ونصر بن عيسى بن نصر بن سحابة من أهل مدينة سالم، سكن سرقسطة، كان من أهل الأدب والمعرفة بالعروض، وله في العروض كتاب، صنعه للمؤتمن بن المقتدر بن هود. قال ابن الأبار في التكملة: وكان له خط من النظم ضعيف، وله رواية عن أبي الحسن بن سيده. وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم شاس القيسي، من أهل مدينة سالم، سكن سرقسطة، كان أديبًا كتب عنه ابن سيدراي. وأبو القلعي كامل السالمي الحكيم، حكى عنه أبو داود المؤيدي في حفظ أبي عمرو المقرئ، وذكر أنه كان رفيقًا له.

وأبو محمد الغالب بن يوسف السالمي، كان عالمًا بالأصول، سكن سبتة، ثم مراكش وتوفي فيها سنة ٥٧٦.

وأبو عبد الله محد بن موسى الأنصاري، كان من القراء أخذ عن المغامي.

وأبو مروان عبد الله بن خلف بن محمد الخولاني المكتّب، أصله من مدينة سالم، سكن غرناطة وتصدر للإقراء بها. وكان من جلة القراء مع الصلاح والزهد، أخذ عنه أبو بكر بن الخلوف وأبو الحسن بن ثابت، ترجمه ابن الأبار في التكملة.

الفصل الثاني والعشرون

الحمة

وعلى مسافة ٢١٩ كيلومترًا من مجريط إلى الشرق وعلى مقربة من أريزة توجد بلدة الحمة Alhama حمة أراغون، فيها مياه معدنية سخنة، ومن ذلك اسمها «الحمة» وأينما وجد العرب مياهها حارة تنبع من الأرض، سموها حمة[1] وبقرب هذه المياه الحارة يجري نهر شلون[2] بين الصخور، وضواحي هذه البلدة هي في غاية النضارة وينحدر من نهر «بيبدره» Piepra هناك اثنا عشر خلالًا، إحداها ينصب من علو ٤٤ مترًا، وفي تلك النواحي كهوف تستحق الفرجة.



شكل ٢٢-١: الحامة في أراغون.



شكل ٢٢-٢: شلال الحمة.



شكل ٢٢-٣: شلال أخر.

ثم بلدة «بوبيرقة» وعندها جسر على نهر شلون. ثم بلدة «عتيقة» Ateca وهي بلدة قديمة وسكانها ٣١٠٠ نسمة كان لها قلعة في زمن العرب افتتحها القمبيذور سنة ١٠٧٣ وأخرج منها، ولا تزال فيها أبراج من أيام العرب.

وعلى مسافة ٢٤٥ كيلومترًا من مجريط إلى الشرق.

هوامش

(١) قال ياقوت في المعجم: الحمة العين الحارة يستشفى بها الأعلاء والمرضى، وفي الحديث: العالم كالحمة تأتيها البعداء ويتركها القرباء. فبينما هي كذلك إذ غار ماؤها وقد انتفع بها قوم وبقي أقوام يتفكنون أي يتندمون. قال: وفي بلاد العرب حمات كثيرة منها حمة أكيمة وحمتا الثوير، وحمة البرقة، وحمة خنزر، وحمة المنتضى، وحمة الهودرا هذه الست في بلاد كلاب. قال: والحمة جبل بين ثور وسميراء. وحمة ماكسين في ديار ربيعة. والحمة قرية في صعيد مصر. والحمة مدينة بأفريقية من عمل قسطنطينية من بلاد الجريد. والحمة قرية من أودية العلاة من أرض اليمامة. والحمة عين حارة بين أسعرت وجزيرة ابن عمر على دجلة، تقصد من النواحي البعيدة، يستشفى بها، ولها موسم ا.هـ. بتصرف.

قلنا: وقد فات ياقوت حمة اليرموك في فلسطين، وهي من أهم الحمات وأنفعها ماءً وكان عندها أبنية من قديم الدهر. ولما كنا في اليمن مررنا بحمة عظيمة من بلاد آنس لها موسم كل سنة يستمر شهرًا. أما حمات الأندلس فأشهرها حمة غرناطة إلى الجنوب الغربي منها، بحذاء شارة الحمة، وكانت بلدة ذات بال. وحمة أراغون التي نحن بصددها وحمة بين مرسية ولورقة.

(٢) الإسبانيول يقولون لهذا النهر جالون Jalon، وقد ورد ذكره في معجم ياقوت قال: شلون بفتح أوله وبضم، وسكون الواو، وآخره نون: ناحية الأندلس من نواحي سرقسطة، نهرها يسقي أربعين ميلًا طولًا، ينسب إليها إبراهيم بن خلف بن معاوية العبدري المقرئ الشلوني، يكنى أبا إسحاق، من جملة أصحاب أبي عمر المقرئ، وكان حسن الحفظ والضبط.

الفصل الثالث والعشرون

قلعة أيوب

والأسبان يقولون كلاتايود

وهي الآن بليدة لا يزيد عدد سكانها على عشرة آلاف نسمة، لكنها في موضع من أبدع المواقع منظرًا، على وادي جالون يشرف عليها قلعة تسمى قلعة أيوب، يقال إن بانيها هو أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير ولذلك انتسبت إليه. ومباني هذه البلدة من الطين المجفف في الشمس، وعليها علامة الفقر. وفيها كنيسة يقال لها كنيسة سانتامرية، كانت في الأصل جامعة، ولها منارة للجرس كانت في أصلها مئذنة، وكنيسة أخرى يقال لها كنيسة القبر المقدس، لها برجان، وكانت في الماضي أعظم مركز لفرسان الهيكلين في أسبانية. وقد بنيت هذه الكنيسة سنة ١١٤١ أي بعد إجلاء العرب عن قلعة أيوب باثنتين وعشرين سنة، لأن الأذفونش الأول ملك أراغون انتزع قلعة أيوب من أيدي العرب سنة ١١١٩.

وفي جوار قلعة أيوب كهوف وغيران يسكن فيها البشر، أشهرها الكهف الذي يقال له المُرَريَة Moreria، وكذلك المغاور التي يقال لها «كامينوسوليداد» Camino de Soledad. وإلى الشرق من قلعة أيوب على الطريق السلطاني المؤدي من ماردة إلى سرقسطة، كانت مدينة «بيلبيليس» Bilbilis. وهي بلدة بناها بعض الجالية الإيطالية في أثناء المائة الأولى من التاريخ المسيحي، وكانت موصوفة بحسن الصياغة، وبإتقان صنعة الأسلحة، وبتربية الخيل المسومة. ومن قلعة أيوب إلى بلنسية ٢٩٤ كيلومترًا بالقطار الحديدي، الذي يسير كل يوم، ومنها إلى يِرْوَل Teuel يسير عليه القطار أيضًا ثم إن السكة الحديدية تمتد من قلعة أيوب في وادي جلق Giloca فلا يسير القطار أكثر

من خمسة كيلومترات حتى يصل إلى بلدة يقال لها «باراكولوس» paracuellos، وبعد خمسة كيلومترات أخرى إلى بلدة يقال لها «مالونده فيلية» Maluenda Velilla، وفيها عدد من الكنائس، وبعد ثلاثة كيلومترات لا غير إلى موراته Morata، ثم على مسافة تقرب منها إلى قرية يقال لها «فنت جلق» في أرضها معدن من الجفصين والمرمر. ثم على مسافة قريبة من هذه بلدة «فيلا فليش» Villa Feliche، واقعة بين أكمتين وفيها آثار مساجد إسلامية. والسكة الحديدية في هذه المسافة تخترق الجبل في عدة أماكن. وعلى ٣٥ كيلومترًا من قلعة أيوب مدينة دورقة، وليس فيها الآن إلا أربعة آلاف نسمة، لكنها في موقع بديع خفيف على الروح، ضمن واد عميق من جلق. وقد كانت هذه البلدة من زمان الأيبيريين، ولكنها عمرت كثيرًا في أيام العرب، إلى أن فتحها الأذفونش الأول صاحب أراغون سنة ١١٢١ وأجلى العرب عنها، ولها قلعة من بناء العرب معروفة بقلعة دورقه، وسور عظيم طوله ثلاثة كيلومترات، وعليه ١١٤ برجًا.

وإلى الشمال الشرقي من دورقة، وهناك منظر من أبدع المناظر، سرداب طويل، يزيد على خمسمائة متر، ويعلو على ستة أمطار، لأجل تصريف المياه، في وقت الفيضان، نحو وادي جلق. وعلى مقربة من دورقة بلدة في سهل مريع تسمى «باغنه» Bagiena، وبلدة أخرى اسمها كلموشه Calamocha ثم بلدة تسمى كاميرال Caminreal على نهير يقال له «ريجه» واقع على الطريق السلطاني بين قاعدتي سرقسطة وبلنسيه.

الفصل الرابع والعشرون

من نبغ من أهل العلم من أهل قلعة أيوب

ولنذكر الآن بعض ما جاء في كتب العرب وغيرها عن قلعة أيوب. قال ياقوت: مدينة عظيمة جليلة القدر بالأندلس بالثغر، وكذا ينسب إليها، فيقال: ثغري، من أعمال سرقسطة، بقعتها كثيرة الأشجار، والأنهار، والمزارع، ولها عدة حصون. وبالقرب منها مدينة لبلة. ينسب إليها جماعة من أهل العلم، منهم محمد بن قاسم بن خُرَّة، من أهل قلعة أيوب، يكنى أبا عبد الله، رحل سنة ٣٣٨، سمع بالقيروان من محمد بن أحمد بن نادر، ومحمد بن نصر الثغري، يكنى أبا عبد الله، أصله من سرقسطة، كان حافظًا للأخبار والأشعار، عالمًا باللغة والنحو خطيبًا بليغًا، وكان صاحب صلاة قلعة أيوب. قال ابن الفرضي: أحسب أن وفاته كانت في نحو سنة ٣٤٥. انتهى.

قلنا: لم يذكر ياقوت استيلاء النصارى على قلعة أيوب، ونظن ذلك قد فاته سهوًا، لأنه في أيام ياقوت الحموي المتوفى في ٦٢٦ للهجرة، كان مضى على قلعة أيوب نحو مائة وعشرين سنة وهي في يد الإسبانيول. وقد ذكر ياقوت تحت لفظة الثغر ترجمة أبي محمد بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن حزم بن خلف الثغري، من أهل قلعة أيوب، سمع بتطيلة من ابن شبل، وأحمد بن يوسف بن عباس، وبمدينة الفرج من وهب بن مسرة، ورحل إلى الشرق سنة ٣٥٠، فسمع ببغداد من أبي علي الصواف، وأبي بكر بن حمدان، سمع منه مسند أحمد بن حنبل والتاريخ، دخل البصرة والكوفة، وسمع بها، وسمع بالشام ومصر وغيرهما، من جماعة يكثر تعدادهم، وانصرف إلى الأندلس، ولزم العبادة والجهاد، واستقضاه الحكم المستنصر بموضعه، ثم استعفاه منه فأعفاه، وقدم قرطبة في سنة ٣٧٥، وقرأ عليه الناس. قال ابن الفرضي: وقرأت عليه علمًا كثيرًا، فعاد إلى الثغر، فأقام إلى أن مات. وكان يعد من الفرسان وتوفي سنة ٣٨٣ بالثغر من مشرق الأندلس. ا.هـ.

قلنا: وممن ينسب إلى قلعة أيوب من أهل العلم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن عبد الحميد التجيبي، ويعرف بالقبريري، كان فقيهًا مالكيًّا جليلًا، بصيرًا بالمذهب، حافظًا للرأي، وله مسائل في الآذان، وفي الحضانة وكتاب سماه «بالانتصار لابن العطار فيما رده عليه أبو عبد الله بن الفخار» وقد روى عنه أبو عبد الله بن سيدراي القلعي، ذكره القنطري، وقال في نسبه: محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد بن عبد الحميد، وذكر أنه كان من كبار الفقهاء الحفاظ وكان شاعرًا، روى هذا ابن الأبار في التكملة. أبو عبد الله محمد بن أحمد الكفيف يعرف بابن الحاج، حدث عنه ابن عبد السلام الحافظ وقال: أجاز لنا كتاب الشريعة لأبي بكر الآجري، وكان قد كف بصره. وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن سعيد بن مطرف التجيبي القلعي، يعرف بالبيراني، روى عن أبي محمد بن عتاب، وكان من أهل العلم والفضل، حدث عنه ابنه أبو حفص عمر، وتوفي بعد الأربعين والخمسمائة. ذكره ابن الأبار. وأبو عبد الله محمد بن سليمان بن سيدراي الكلابي الوراق القلعي، سكن ببلنسية، كان يروي عن أبي الحسن بن واجب وأبي بكر بن العربي وأبي الأصبغ المنزلي، وأبي عبد الله القبريري، سمع منه المدونة ثلاث مرات، وخرج من بلده لما تغلب العدو عليه، بعد وقيعة كتندة في سنة ٥١٤، فكان يبيع الكتب في دكان له، وكان أبوه من قبله وراقًا، توفي ببلنسية في رجب سنة ٥٤٨، وقد نيف على السبعين، وقيل بلغ الثمانين.

وأبو عمر يوسف بن يونس الأموي، يعرف بالمروي، له رحلة إلى المشرق أخذ فيها عن أبي الوشا، وأبي حفص بن عراق، ورايق الصقلي وغيرهم، وأخذ ببلدة قلعة أيوب عن القاضي أبي محمد عبد الله بن قاسم، وأخذ عنه الصاحبان وأبو عمر المقري.

وأبو الطيب سعيد بن فتح الأنصاري، من قلعة أيوب، أخذ القراءات عن أبي داود، وابن الدوش، وابن البياز وغيرهم، وتصدر للإقراء بمرسية، وكان متفننًا أديبًا، أخذ عنه أبو عبد الله بن فرج المكناسي وغيره، توفي بقرطبة سنة خمس عشرة أو ست عشرة وخمسمائة. وذكره ابن الأبار. وأبو محمد يحيى بن محمد بن حسان القلعي، أخذ القراءات عن أبي جعفر بن حكم، ورحل، فلقي بالمهدية أبا عبد الله بن الحداد الأقطع، وأخذ عن أبي عبد الله الطرابلسي، وتصدر للإقراء في قلعة أيوب، وأخذ عنه أبو عمرو عثمان البلجيطي،[1] وكانت وفاته سنة ٥١٢، ذكره ابن الأبار. وأبو القاسم إسماعيل بن أبي الفتح، قال ابن بشكوال: كان فقيه جهته، من أهل العلم والتقدم في الفتوى، توفي في نحو الخمسمائة. أفادنيه ابن عياض. وأبو القاسم إسماعيل بن يونس الموري، حدّث

عن أبي محمد عبد الله بن محمد بن قاسم الثغري وغيره، حدث عنه أبو عمرو المقري وأبو حفص بن كريب وغيرهما. وأبو عثمان سعيد بن يوسف بن يونس الأموي، له رحلة إلى المشرق روى فيها عن أبي بكر بن عمار الدمياطي، وأبي إسحاق إبراهيم بن أبي غالب المصري، وأبي محمد بن النحاس وغيرهم، حدّث عنه الصاحبان، وأبو عبد الله بن عبد السلام، وقال: توفي في عقب ذي الحجة سنة ٣٩٧. وأبو يونس عبد العزيز بن عبد الله بن هذيل العبدي القلعي، يروي عن أبي الوليد الباجي، سمع منه صحيح البخاري بسرقسطة في جيئته رسولًا إليها سنة ٤٧٠، روى عنه أبو الحسين بن حفصيل السرقسطي. وأبو مروان بن الصيقل الوشقي، وكان أديبًا فقيهًا مشاورًا. وأبو محمد عبد الرحيم بن عبد الجبار بن يوسف بن عبد الرحيم بن أحمد الشعنتي، وشعنت حصن في قلعة أيوب، خرج من بلده سنة ٥١١، نزل بمرسية سنة ٥٢٦، وتصدر بها للإقراء. وأبو يونس عبد الله بن هذيل العبدري، والد عبد العزيز بن عبد الله بن هذيل. وأبو محمد عبد الله بن عبد الله بن عبد الله (ثلاثًا) بن محمد بن قاسم القلعي، تولى قضاء قلعة أيوب بعد أبيه، وتوفي سنة ٤٨٧.

وأبو بكر عبد الله بن عبد الله بن محمد بن قاسم بن حزم يعرف بالبطروري نسبة إلى قرية منها بوادي جلق، وهو والد القاضي أبي محمد القلعي، توفي سنة ٤٢٥.

هوامش

(١) نسبة إلى بلجيط Belchile من عمل سرقسطة.

الفصل الخامس والعشرون

من نبغ من أهل العلم من مدينة دورقة

أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعيد بن عبد الله بن سعيد الدورقي، يعرف بابن زرياب، لقي أبا بكر بن العربي، وكان من أهل العلم والزهد، فقيهًا مشاورًا، توفي ببلنسية ليلة الخميس منتصف رمضان سنة ٥٢٢. ذكره ابن الأبّار في التكملة. وأبو القاسم محمد بن عبد العزيز بن محمد بن سعيد بن معاوية بن داود الأنصاري، أصله من دورقة، وسكن أبوه قرطبة، وكان يقال له الدروقي، روى عن أبيه عبد العزيز وعن أبي علي الصدفي، وعن أبي بكر بن العربي، وكان من أهل الحفظ للحديث. قاله ابن الدباغ، وتوفي في حياة أبيه قبل العشرين وخمسمائة، ذكره ابن الأبار. وأبو محمد عبد العزيز بن محمد بن معاوية الأنصاري. يعرف بالدروقي الأطروش، قال ابن بشكوال: روى عن أبي بكر محمد بن مفوز، وأبي علي حسين الصدفي، وأبي عبد الله الخولاني، وسمع من جماعة من شيوخنا بقرطبة وغيرها. وكان معتنيًا بالحديث وكتبه وتقييده، حافظًا له، عارفًا بعلله وطرقه، وصحيحه وسقيمه، وأسماء رجاله، مقدمًا في جميع ذلك على أهل وقته، سمعنا منه، وأجاز لنا بلفظه ما رواه وجمعه، وكان حرج الصدر، نكد الخلق، توفي رحمه الله في ربيع الآخر سنة ٥٢٤. انتهى. قلنا: وجاء في معجم البلدان تحت اسم «دورقة» بالدال قبل الواو، ترجمة عبد العزيز هذا ولكنه كناه بأبي الأصبغ لا أبي محمد، عبد العزيز بن محمد بن سعيد بن معاوية بن داود الأنصاري الدروقي الأطروشي. وقال ياقوت: كان من أهل المعرفة بالحديث والحفظ وله تآليف، وكان عسرًا سيئ الأخلاق، قلما يصبر على خدمة أحد، وكان له ولد من أهل الفقه والمعرفة يقال له محمد بن عبد العزيز، مات قبل أبيه. قال ياقوت: وأبو زكريا يحيى بن عبد الله بن خيرة الدورقي المقري، بلغ الإسكندرية، وحضر عند أبي طاهر السلفي، وكتب عنه. انتهى ملخصًا.

ومن الغريب أن ياقوت الحموي ذكر في معجمه دروقة، بفتح أوله وثانيه، وسكون الواو. وهنا قدّم الراء على الواو، وقال إنها بلدة أو قرية بالأندلس، ينسب إليها أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن خيرة الدروقي المقري، قال السلفي: قدم علينا الإسكندرية سنة ٥٢٩، وسألته عن مولده فقال: سنة ٤٦٤ بدروقة، وقرأت القرآن على أبي الحسين يحيى بن إبراهيم اليسّار القرطبي بمرسية، وسمعت الحديث على أبي محمد عبد الله بن محمد بن إسماعيل القاضي بسرقسطة. انتهى، ثم قال: ومات بقفط من الصعيد سنة ٥٣٠ انتهى. ثم رجع ياقوت فذكر بلدة اسمها دورقة، بتقديم الواو على الراء، وقال إنها مدينة من بطن سرقسطة، ينسب إليها جماعة، منهم أبو محمد عبد الله بن جوشن الدروقي المقرئ النحوي، كان آية في النحو، وتعليل القراءات، وله شعر حسن، وسكن شاطبة وبها توفي سنة ٥١٢. ثم ذكر ياقوت ترجمة أبي الأصبغ عبد العزيز الأطروشي، وأبي زكريا يحيى بن خيرة الدروقي، وذلك بعد أن كان ذكر ترجمة ابن خيرة المذكورة تحت اسم دروقة، لا دورقة. والحقيقة أنه لا يوجد بلدتان إحداهما دروقة، والأخرى دورقة. وإنما هي بلدة واحدة يتلفظ بعضهم باسمها بتقديم الراء على الواو، والآخرون بتقديم الواو على الراء.

والذي في الصلة لابن بشكوال، وفي التكملة لابن الأبار، هو دروقة بتقديم الراء على الواو، وهكذا يتلفظ بها الإسبانيول. وممن ينسب إليها، عدا من تقدم ذكرهم، أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن أبي العافية الأنصاري الدروقي، روى عن أبي القاسم بن حبيش، وأبي القاسم السهيلي، وأحمد بن إبراهيم الدروقي. وأما محمد بن عبد الله بن جوشن المقرئ النحوي، فقد أخذ القراءات بسرقسطة عن أبي زيد بن الوراق، وأبي جعفر بن الحكم، وأخذ العربية عن أبي جعفر بن باق. وكان له معرفة بعلم الكلام، ومشاركة في الطب، وكانت وفاته سنة ٥١٤، وهو دون الأربعين، هذا ما قرأناه عنه، وياقوت يقول: إن وفاته كانت سنة ٥١٢.

الفصل السادس والعشرون

ترول

وعلى مسافة ١٣١ كيلومترًا من قلعة أيوب إلى الجنوب، بلدة ترول Teruel، وسكانها ١٢ ألفًا، وهي مركز جنوبي أراغون، وموقعها على وادي الأبيار،، وفيها آثار أسوار من القرون الوسطى، وفيها قناة معلقة، وهي إلى الشرق من مملكة بلنسية القديمة، ومنها يقطعون النهر الذي يقال له المجر، وعليه جسر علوه ٤٢ مترًا، وفي تلك الناحية بلدة يقال لها «جريقة» Gerica، وفي هذه البلدة آثار حصن عربي قديم استولى عليه جقُّوم الأول، ملك أراغون سنة ١٢٣٥، والخط الحديدي ينحدر من هناك إلى بسائط مملكة بلنسية القديمة، وفي مقاطعة ترول هذه يضع الجغرافيون مدينة شنتمرية الشرق.

الفصل السابع والعشرون

شنتمرية ابن رزين

جاء في الأنسيكلوبيدية الإسلامية أن شنتمرية الشرق، ويقال لها شنتمرية ابن رزين، هي مدينة على نهر «تُريه» Turia الذي يقول له العرب وادي الأبيار المنحدر من مقاطعة ترول في جنوبي أراغون. وقد ورد ذكر هذه البلدة في تاريخ ابن عذاري، عند كلامه على ذهاب أمير شنتمرية، الذي هو ابن رزين من البربر وذلك إلى قرطبة، لأجل حلف يمين الأمانة للخليفة عبد الرحمن الناصر. وقد سموا هذه البلدة شنتمرية ابن رزين، ومنها جاء اسم «البراسين» الذي هو اليوم اسم تلك المقاطعة Albarracin ويقال لها شنتمرية الشرق، تمييزًا لها عن شنتمرية الغرب، التي هي اليوم في البرتغال، ومركزها قريب من مرسى «فارو» Faro.

جاء في الأنسيكلوبيدية المذكورة أنه بعد سقوط بني أمية في قرطبة، ومجيء ملوك الطوائف، استقل بشنتمرية الشرق أبو محمد هذيل بن خلف بن لب بن رزين، ثم جاء بعده أخوه أبو مروان عبد الملك بن خلف، ثم خلفه ابنه أبو محمد هذيل الثاني الملقب بعز الدولة، وجاء بعده ابنه مروان عبد الله الثاني الملقب بحسام الدولة، وذلك سنة ٤٩٦ للهجرة، وفق ١١٠٢ للميلاد. وفي سنة ١٠٨٧ انضم ابن رزين إلى القسيذور الملقب بالسيد، وزحف معه لحصار بلنسية سنة ١٠٩٤ ثم إن شنتمرية ابن رزين انتهى أمرها باستيلاء الدون بتره رويز الصخرة Raiz de Azagra عليها، فخرجت من يد الإسلام، وفي سنة ١٢٣١ اندمجت في مملكة أراغون. انتهى.

وقد اطلعنا على ذيل لكتاب «البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب» لأبي العباس بن عذارى المراكشي طبعه الأستاذ لاوي بروفنسال مع الجزء الثالث من كتاب ابن عذارى، وفيه نتف من أخبار ملوك الطوائف. ومن الجملة ذكر دولة بني رزين هؤلاء. قال الكاتب: ذكر دولة بني رزين ملوك شنتمرية الشرق، وهي مدينة عظيمة

في شرقي الأندلس، ويعرفون ببني الأصلع، لما اشتعلت الفتنة بالأندلس في ثورة ابن عبد الجبار، وثار كل رئيس بموضع، ثار ابن الأصلع بشنتمرية ويقال لها السهلة، واسمه هذيل بن خلف بن لب بن رزين البربري، وكنيته أبو محمد بويع لها بها سنة ثلاث وأربعمائة، وكان من أكابر ناس الثغر، وكان بارع الجمال، حسن الخلق، جميل العشرة، ظاهر المروءة، لم ير في الأمراء أبهى منه منظرًا مع طلاقة لسانه، وإدراك حوائجه ببيانه، وكان أرفع الملوك همة في اكتساب الآلات، واقتناء القينات، اشترى جارية الطبيب أبي عبد الله الكناني بثلاثة آلاف دينار.

قال ابن حيان في تاريخه: لم ير في زمانها أخف منها روحًا، ولا أسرع حركة ولا ألين أعطافًا، ولا أطيب صوتا، ولا أحسن غناءً، ولا أجود كتابةً، ولا خطًّا، ولا أبدع أدبًا، ولا أحضر شاهدًا، مع السلامة من اللحن في كتابها وغنائها، لمعرفتها بالنحو واللغة والعروض، إلى المعرفة بالطب، وعلم الطبائع، ومعرفة بالتشريح، وغير ذلك مما يقصر عنه علماء الزمان. وكانت محسنة في صناعة الثقاف، والمجاولة بالتراس واللعب بالرماح والسيوف والخناجر المرهفة، لم يسمع لها في ذلك بنظير ولا مثل ولا عديل[١]

ثم إن الأمير هذيل اشترى كثيرًا من الجواري الحسنات المشهورات بالتجويد، طلبهن في كل جهة، فكانت ستارته أحسن ستائر ملوك الأندلس. وكان مع هذه الأوصاف كنفًا للقصاد، ومنهلًا عذبًا معينًا للورّاد، سهل المأخذ، لم يزل على أحسن حالاته إلى أن أدركته منيته، فمات بالسهلة، سنة ست وثلاثين وأربعمائة، فكانت دولته ثلاثًا وثلاثين سنة كاملة آمنة هادئة.

وولي بعده ابنه عبد الله بن هذيل بن خلف بن لب بن رزين، بويع له يوم موت أبيه سنة ست وثلاثين وأربعمائة، وكان في أيام أبيه يسمى حسام الدولة، وكان بالعكس من أبيه. قال ابن حيان: وكان سيئة الدهر، وعار العصر، جاهلًا لا متجاهلًا، وخاملًا لا متخاملًا، قليل النباهة، شديد الإعجاب بنفسه، بعيد الذهبة بأمره، زاريًا على أهل عصره، إن ذكرت الخيل فزيدها، أو الدهاة فسعدها وسميدها، أو الشمراء فجرولها وأسيدها، أو الأمراء فزيادها ويزيدها، أو الكتاب فبديع همذان، أو الخطابة فقس وسحبان، أو النقد فقدامة، والعلم ليس منه ولا كرامة، خِلِي من المعارف، وشعره أهتف من كال هاتف، ومنه قوله الذي هو جسم بلا روح، وليل بلا صبوح:

أدرها مدامًا كالغزالة مزة   تَلين لرائيها وتأبى عن اللمس

وتبدو إلى الأبصار دون تجسم على أنها أشفى على الذهن والحس

وقوله أيضا:

يا رب ليل أطال الهجر مدته فأيأس العمر من إدراك منتصفه
ليل تطاول حتى ما تبين لي عند التأمل أن الدهر من صدفه

وقوله:

أنا ملك تجمعت في خمس هي للأنام محيي ومميت
هي ذهب وحكمة ومضاء وكلام في وقته وسكوت

إلى غير هذا من سخفه. انتهى كلام ابن حيان. ومن لعمري لا يوافقه عليه؟

وذكره الفتح بن خاقان في كتابه «قلائد العقبان» فأثنى عليه بما ليس فيه من المحاسن، ووصفه بصفات ليس هو بأهل لها، ثم قال بعدها: إلا أنه كان يتشطط على ندامة، ولا يرتبط في مجلس مدامة، فربما عاد إنعامه بؤسًا، وانقلب ابتسامه عبوسًا، فلم تتم معه سلوة، ولا فقدت في ميدانه كبوة، وقليلًا ما كان يقبل، ولا يناجي المذنب عنده إلا الحسام الصقيل.

ففهم من هذا الوصف هوره وحماقته، وسرعته إلى القتل، ولم يزل على ذلك من أفعاله إلى أن مات بحصن السهلة، غدوة الاثنين التاسع من شعبان سنة ست وتسعين وأربعمائة، فكانت دولته ستين سنة. انتهى.

قلنا: فما كان أصبر رعيته على نار هذه المحنة، التي استمرت ستين سنة! ثم جاء في هذا الذيل ذكر ولده يحيى بن عبد الملك بن هذيل بن خلف بن لب بن رزين، بويع له يوم موت أبيه، بعهده ووصيته، وسلك في التخلف مسلك أبيه، مدمنًا للخمر، مكثرًا من الغثيان، ضعيف العقل، وممن ضعف عقله أن الفنش (يعني به الأذفونش السادس) لما أخذ الثغور وتملكها، أهدى إليه كل ملك من ملوك الطوائف الهدايا الجليلة، فلم يلتفت إلى أحد منهم، ولا كافأه على هديته. فأهدى إليه حسام الدولة يحيى هذا هدية جليلة، من الحلي والحلل، والخيل والبغال، وتحف الملوك، يعجز عنها الوصف، فأعجب الفنش هديته، فكافأه عليها بقرد. فكان من ضعف عقله يفخر بذلك القرد على ملوك الأندلس. فانظر إلى هذا السخف وهذا الخذلان! ولم يزل على سخفه وخذلانه إلى أن

خلعه المرابطون بيوم الاثنين الثامن من رجب سنة سبع وتسعين وأربعمائة، فكانت دولته سنة واحدة. وانقرضت دولتهم. ا.هـ.

ولما كانت شنتمرية ابن رزين معمورة بالعرب، خرج منها عدد من أهل العلم لأنهم أينما حلوا كانوا يقيمون سوق المعارف على ساقها.

هوامش

(١) هذه المرأة هي ريحانة وقهرمانة معًا.

الفصل الثامن والعشرون

من نبغ من أهل العلم في شنتمرية ابن رزين

أبو عيسى لب بن عبد الجبار بن عبد الرحمن يعرف بابن ورهزن، سمع من أبيه ومن القاضي أبي بكر بن العربي، لقيه بكولية من الثغور الشرقية حتى غزاها مع الأمير أبي بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين في جمادى الآخرة سنة ٥٢٢، وسمع أيضًا من أبي مروان بن غردي، وولي الأحكام بشاطبة، ثم ولي قضاء بلدة شنتمرية بآخرة من عمره مضافة إلى البونت من أعمال بلنسية. وتوفي سنة ٥٣٨ وقد نيف على الستين. ترجمة ابن الأبار في التكملة. وأبو عيسى لب بن عبد الملك بن أحمد بن محمد بن نذير الفهري من أهل شنتمرية الشرق، سكن بلنسية، روى عن أبيه أبي مروان، وتولى قضاء بلدة وراثة عن أبيه، ثم سعى إلى السلطان فغربه عن وطنه وأسكنه حضرته بلنسية إلى أن توفي بها بعد سنة ٥٤٠، حدّث عنه ابنه أبو العطاء وهب بن لب. وأبو عبد الله محمد بن مسعود بن خلف بن عثمان العبدري من شنتمرية الشرق، سكن مرسية ورحل حاجًّا، وسمع من أبي علي الصدفي. وأبو مروان عبد الملك بن أحمد بن محمد بن نذير بن وهب بن نذير الفهري، سمع ببلدة شنتمرية الشرق من أبيه، وبمدينة سالم من أبي الحسن علي بن الحسن صاحب الصلاة فيها، وتولى القضاء ببلده، وتوفي بعد التسعين والأربعمائة. وأبو الوكيل عبد الجبار بن عبد الرحمن بن ورهون من أهل شنتمرية الشرق وقاضيها، روى عن أبي مروان بن نذير في شنتمرية سنة ٤٨٩. وأبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز بن قيروه بن وهب بن غردي من أهل مرسية، أصله من شنتمرية الشرق، له رحلة إلى المشرق، ذكر ابن بشكوال أنه توفي سنة ٤٢٥. وأبو مروان عبد الملك بن مسرة بن فرج بن خلف بن عزير اليحصبي من أهل قرطبة، أصله من شنتمرية الشرق، ومن مفاخرها وأعلامها، اختص بالقاضي أبي الوليد بن رشد وجمع بين الحديث والفقه، وكان على منهاج السلف الصالح، وتوفي سنة ٥٥٢.

وأبو الخيار مسعود بن عثمان بن خلف العبدري، والد أبي عبد الله محمد بن مسعود بن عثمان العبدري. وأبو جعفر أحمد بن بقاء بن مروان بن مميل اليحصبي، من أهل شنتمرية الشرق، نزل مرسية، وتوفي سنة ٥٤٤. وأبو العطاء وهب بن لب بن عبد الملك بن أحمد بن محمد بن وهب بن نذير الفهري من شنتمرية الشرق، سكن بلنسية، وتولى قضاءها مع الخطابة، وتوفي سنة ٥٩٥، ترجمه ابن الأبار، وترجم والده أبا عيسى لب بن عبد الملك. وأبو عبد الله محمد بن وهب بن نذير بن وهب بن نذير الفهري، له ولأهل بيته نباهة، وبسماع العلم عناية، توفي صفر سنة ٤٣٣ قاله ابن الأبار.

ثم إن ابن عذارى في البيان المغرب في أخبار بني رزين، بدأ بذكر أبي مروان عبد الملك الملقب بحسام الدولة، فنقل عن ابن حيان ما يلي: كان جده هذيل بن خلف بن لب بن رزين، المعروف بابن الأصلع صاحب السهلة، موسطة ما بين الثغر الأقصى والأدنى من قرطبة، فإنه كان من أكابر برابر الثغر، ورث ذلك عن سلفه، ثم سما لأول الفتنة (أي فتنة قرطبة الكبرى) إلى اقتطاع عمله، والإمارة لجماعته، والتقبل لجاره إسماعيل بن ذي النون، في الشروع عن سلطان قرطبة، فاستولى له من ذلك ما أراد هو وغيره من جميع من انتزى في الأطراف، شرقًا وغربًا، وقبلة وجوفًا. إلا أن هذيلًا هذا مع تعزز على المخلوع هشام (أي ابن الحكم المستنصر) لم يخرج عن طاعته، ولا وافق الحاجب منذرًا، ولا جماعة المتمالثين على هشام، في شأن سليمان عدوه (سليمان بن الحكم بن الناصر، وكان يسمى بالمستعين)، إلى أن ظفر بهشام، فسلك هذيل مسكله، فرضي منه سليمان بذلك، وعقد له على ما في يده هنالك لعجزه عنه، فزاد ذلك بعادًا منه، وتمرس به الحاجب منذر بن يحيى، مدرجًا له في طي من استعمله، واشتمل عليه من سائر أمراء الثغر النازلين في ضبته، فأبت له نفسه الخنوع له، والانضمام إليه، فرد أمره وحاده، وأجاره منعة معقله، وظاهر أعداء منذر، حتى حالف الموالي السامريين، واستمر معهم على دعوة هشام المخلوع. وقطع دعوة سليمان. وكانت واقية الله له كونه موسطة الثغر، فصار ذلك أرد الأشياء عنه، فسلم من معرة الفتنة أكثر وقته، وتخطته الحوادث لقوة سعده، واقتصر مع ذلك على ضبط بلده، الرسوم بولاية عهده، وترك التجاوز لحده، والامتداد إلى شيء من ولاية غيره، فاستقام أمره، وعمر بلده، وقطع بعد جمهور الثوار بالأندلس شأو الحياة.

وليس في بلد الثغر أخصب بقعة من سهلته المنسوبة إلى بني رزين سلفه في اتصال عمارتها. فكثر ماله. إذ ناغى جاره وشبيهه في جمع المال، إسماعيل بن ذي

النون، ونافسه في خلال البخل، وفرط القسوة. وكان مع ذلك شابًّا جميل الوجه حامي الأنف، غليظ العقاب، جبارًا، مستكبرًا، صار إليه أمر والده منبعث الفتنة، وهو فتى في العشرين من سنه، فأنجده الصباء على الجهالة، وقواه الشباب على البطالة، فبعد في الشرور شأوه، فلم يحالف أحدًا من الأمراء على أ داء الإتاوة، ولا حظي أمراء الفتنة منه بسوى إقامة الدعوى فقط، دون معونة بدرهم، ولا إمداد بفارس، ولا شارك الجماعة في حلو ولا مر، على كثرة ما طرق الحضرة من خطوب دهم، استخفت البطاء، وقربت البعداء، فضلًا عن الأولياء، إلا ما كان من هذه الحية الصماء، فإنه لم يزل على تصامه عن كل نداء، إلى أن مضى لسبيله، والأخبار متتابعة عن جهله وفظاظته، حتى زعموا أنه سطا بوالدته، وتولى قتلها بيده، لتهمة لحقتها عنده، وكانت أشنع ما كان من كبائره.

ثم ذكر ابن حيان ما تقدم نقله عن هذيل هذا من مغالاته في شراء القيان[1] ثم ذكر ابن عذارى عن حسام الدولة أبي مروان ابنه خلاف ما جاء في الذيل المتقدم ذكره، فإنه قال عنه: كان له طبع يدعوه فيجيب، ويرمي بغرة الصواب على قومه فيصيب، على ازدراء كان منه بالأمة، وقلة استجداء لمن عني بالأخذ من الأئمة وربما جالسهم مباحثًا، بين مغالطة وأنفة، وبالجملة فلو جرى ذو الرئاستين على عفوه، لبلغ منتهى شأوه. قال: وكان شاعرًا مجيدًا، ومن شعره:

يا رب ليل أطال الهجر مدته إلخ. وقد تقدم هذان البيتان.

ولنعد إلى قلعة أيوب متوجهين صوب سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى فنقول:

إن الخط الحديد يمر بينها وبين سرقسطة على ثمانية جسور، معقودًا أكثرها على نهر شالون، وهو يخترق جبال بيكور،[2] وإن منظر ضفاف نهر شالون هو من أبدع مناظر الأندلس، بما فيه من خضرة ناضرة، وجنان زاهرة، تحاذي القفار اليابسة التي بإزائها، أشبه شيء بغوطة دمشق، بحذاء جبل الصالحية الموجود، ولا تزال القرى والقصاب منتظمة بلبة نهر شالون إلى أن تبلغ سرقسطة، ومن جملتها بلدة «كالاتوراو»[3] وهي مدينة قديمة رومانية، حصنها العرب وأقاموا بها، وبالقرب منها بلدة «ساليلاس»[4] وفيها بيوت منحوتة في الجبل، ثم بلدة أبيلة، ولعلها التي يقول العرب لبلة، من عمل سرقسطة، وهي بحذاء سلسلة جبال يقال لها شارات «مولا»[5] وبحذاء تلك الجبال بلدة «روطة» وفيها حصن قديم من بناء العرب. قال ياقوت في معجم البلدان: روطة بضم أوله وسكون ثانيه وطاه مهملة، حصن من أعمال سرقسطة بالأندلس، وهو حصين جدًّا على وادي شلون. ثم بلدة يقال لها «بلازنسيا» على شالون،

ثم «كازيتاس» على مقربة من سرقسطة، ومن الصقلب مسافة ٣٤١ كيلومترًا من مجريط تقع مدينة سرقسطة عاصمة مملكة أراغون في القديم، ومركز ولاية أراغون اليوم.

وقبل أن ندخل في مبحث أراغون وسرقسطة، نرى مناسبًا أن نتكلم عن:

هوامش

(١) وفي نسخة أخرى من كتاب ابن عذارى ورد عند ذكر شراء هذيل بن رزين جارية ابن عبد الله المتطبب بثلاثة آلاف دينار قوله: لم ير أخف روحًا منها ولا أملح حركة ولا أليق إشارة ولا أطيب غناءً ولا أجود كتابةً ولا أملح خطًّا ولا أبدع أدبًا ولا أحضر شاهدًا على سائر ما تحسنه وتدعيه مع السلامة من اللحن فيما تكتبه وتغنيه إلى الشروع في علم صالح من الطب ينبسط بها القول في المدخل إلى علم الطبيعة وهيئة تشريح الأعضاء الباطنة وغير ذلك مما يقصر عنه أكثر منتحلي الصناعة، إلى حركة بديعة في معالجة صناعة الثقاف والمجاولة بالحجفة واللعب بالسيوف والأسنة والخناجر المرهفة وغير ذلك من أنواع اللعب المطربة، لم يسمع لها بنظير ولا مثيل، وابتاع إليها كثيرًا من المحسنات المشهورات بالتجويد، طلبهن في كل جهة. فكانت ستارته في ذلك أرفع ستائر الملوك بالأندلس. وحدثت عنه أنه اجتمع عنده مائة وخمسون حظية، ومن الصقلب المجابيب (الخصيان) ستون وصيفا لم تجتمع عند أحد من نظرائه. قلت: قوله كانت ستائره أرفع ستائر الملوك بالأندلس معناه كانت حرمه أرفع حرم الملوك بالأندلس.

(٢) Seirra de Vicor.

(٣) Calalorao أو قلعة أوراو.

(٤) Salillas.

(٥) Muela.

الفصل التاسع والعشرون

سلسلة جبال البرانس

هذه هي الجبال الفاصلة بين فرنسة وأسبانية. ولما انتخب الأسبان حفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسة ملكًا عليهم قال له جده: يا ولدي لم يبق برانس. وذلك إشارة إلى أن هذه الجبال هي الحد الحاجز بين المملكتين.

وهي ممتدة من البحر المتوسط الاطلانطيكى، وبدايتها من جهة البحر المتوسط رأس «كريوس» Créus في أرض أسبانية، وهو متصل «برأس سربار» Cerbére من أرض فرنسة شمالي مرسى «بو» Port-Bou ونهايتها عند الأطلانتيكي نهر «بيداسوا» Bidassoua الذي يصب ماؤه في خليج غشقونية Gascogne وفي وسط هذا النهر جزيرة الحجال التي اصطلحت المملكتان أن تجعلها منطقة متحايدة بينهما.

عرض هذه الجبال هو من الغرب ٣٠ و٤٢ إلى ٢٠ و٤٣، ومن الشرق من ٢٠ و٤١ إلى ٤٣، فهي مائلة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. وكلما تقدمت نحو البحر الرومي يزداد عرضها. وثخانة هذه السلسلة الجبلية هي ٥٥٣٨٠ كيلومترًا مربعًا، من أصلها ٣٨٥٦٥ كيلومترًا مربعًا في المنحدر الإسبانيولي، و١٦٨١٥ في المنحدر الفرنسي، فمنها إذن الثلثان في أرض أسبانية، والثلث في أرض فرنسة. وهذه السلسلة حفظت في الجنوب هيئتها الأصلية أكثر مما حفظت في الشمال، وذلك بسبب كون الجنوب أصفى أفقًا، وأكثر شعاع شمس، بحيث إن المياه تتبخر فيه بسرعة. فأما في الشمال فالرطوبة الزائدة، والرياح الشديدة الهابة من الشمال، أحدثت في هذه الجبال بكرور الدهارير تغييرات عظيمة. وكثيرًا ما تبددت النجود لاحقة بالسهول. ويزداد هذا التفكك في البرانس الشمالية، كلما قربت من الأوقيانوس. وارتفاع البرانس يتدرج من المكان الذي يقال له «رون» Rhune وعلوه تسعمائة مترًا مقابلًا للأوقيانوس إلى قمة «أنيتو» Anto، وعلوها ٣٤٠٤ أمتار، وهي أعلى قمة في الجبال المسماة بالجبال الملعونة Maidits

وفي جميع السلسلة. وهناك قمم أقل ارتفاعًا، مثل قمة «آني» Anie التي علوها ٢٥٠٤ أمتار، وقمة «أوساو» Ossau وعلوها ٢٨٨٥ مترًا، وقمة «بلايطس» Balaitous وعلوها ٣١٤٦ مترًا، وذروة «فينمال» Vignemale، وعلوها ٣٢٩٨ مترًا، وذروة الجبل الضائع Mont Perdin وعلوها ٣٣٥٢ مترًا، وقمة «بوزالس» Posels وعلوها ٣٣٦٧ مترًا.

وإلى الشرق من الجبال الملعونة، ومن قمة أنيتو، تهبط الارتفاعات إلى ٢٧٥٨ مترًا، ولكن يبقى ارتفاع كبير لا يهبط، فإن جبل كانيفو Canigou المشرف على البحر المتوسط لا يقل ارتفاعه عن ٢٧٨٥ مترًا.

أما المعابر التي في جبال البرانس، والتي يقال لها عند العرب أنفسهم «البرتات» فهي تعلو بحسب علو الجبال، وتكثر عقابها، ويمر السائر فيها بكثير من مناسب الثلج. وفيها طرق معبدة أحيانًا، تمر عليها العربات إلا أنه يوجد أماكن ليست فيها طرق صالحة للعربات، وإنما هي شعاب يصعب حتى على البغال العبور منها. ومن هذه المعابر أو البرتات،، معبر مركادو Marcadau ارتفاعه ٢٥٥٦ مترًا، وهو يفضي من المكان الذي يسمى كونريه Cauterets إلى حمامات بانتيكوزه Panticosa التي علوها ١٦٧٣ مترًا في جوف نهر كالدارس Caldares وهو من الأنهر التي تنصب في جلق، نهر سرقسطة. وقبل الوصول إلى بنتيكوز يمر السائح ببحيرات ماشيماسة Machi Massa ويرى شلالًا عظيمًا يقال له ليفازه Levaza وكثيرًا ما يذهب السياح إلى هناك لمشاهدة جمال الطبيعة.

وكل شيء يراه الإنسان هناك يراه صغيرًا بالنظر لعظمة الجبال الشماء، فالبشر أشبه بالنمل، والمباني التي لو كانت في أماكن أخرى لكانت شاهقة، لا يكاد الرائي يبصرها. وفي أوسط جبال البرانس نقطة يقال لها غافارني Gavarnie علوها ١٣٤٦ مترًا، منها ينفذون من مضيق يقال له مضيق رولان Breche de Roland علوه ٢٨٠٤ أمتار، وهو مضيق وعر، يمرون منه على مثلجة لا تخلو من خطر، لأنها أبدًا تقذف بالصخور، وبقطع الثلج الكبار، وقد سبق هلاك المارة من هناك.

ومن المعابر المشهورة البروت المسمى فينسك Venasque علوه ٢٤٤٨ مترًا، ويذهبون إليه من لوشون، وفي أيام الصيف تكثر القوافل المارة منه بالسياح أو بالتجار، وهناك معبر يقال له البرش La Peereche بين سردانية Cerdagne وكابسير Capcir وكانت تمر به بينهما طرق رومانية قديمة، وعلوه ١٦٠٠ متر، ثم معبر برتوس Perthus يفيض الناس منه على سهول أمبوردانية Ampurdan ومن هنا يقع المرور

بين باربينيان Perpignan في فرنسة، وجيرونة Girona في أسبانية. وهذا المعبر هو البورت الأعظم، والأقدم، وطالما مرت به جيوش العرب في غزواتها للأرض الكبيرة.

أما الحدود هناك بين فرنسة وأسبانية فلا تسل عنها، بل هي مما يصح أن يقال فيه: كيفما اتفق. فأية هيئة سياسية تقدر أن تسير أشهر في تلك الجبال الشامخة في جوار المثالج الهائلة، حتى تعين حدودًا معقولة بين المملكتين؟ فلذلك تجد أنهارًا إسبانيولية منابعها فرنسية، وأخرى فرنسية منابعها إسبانيولية، وترى كثيرًا من الجبال والوهاد متشابكة بين فرنسة وأسبانية تشابكًا فظيعًا. ولجميع أقسام أسبانية حظ من البرانس، ولكن أوفرها حظًّا منها مملكة أراغون، فإن الجبل الضائع، وجبل مالاديتا Maladeta، هما أراغونيان. والفاصل بين برانس أراغون وبرانس كتلونية واد يقال له ريباغورزانة Ribagorzana.

أما الجبال المسماة بالجبال الملعونة، فهي تابعة لبلاد أراغون، وأعالي ذراها تبلغ ثلاثة ألاف متر، فهي من شواهق جبال أوربة. ولو كانت هذه الجبال في آسية أو أمريكا لما كانت بهذه الجلالة، لأن جبال حملايا في آسية ترعى فيها الغنم إلى ارتفاع ستة آلاف متر. وفي أمريكا الجنوبية توجد بلاد مسكونة في الجبال على ارتفاع أربعة آلاف متر. وفي جزيرة العرب تجد قرى وقصبات عامرة على ارتفاع ثلاثة آلاف متر. فكوكبان من اليمن بلدة تعلو عن سطح البحر ثلاثة آلاف متر، وصنعاء اليمن تعلو ٢٣٤٢ مترًا. وصعدة مدينة تعلو ٢٢١٦ مترًا، والروضة ٢٣٠٦ أمتار، وتلا ٢٨٦١ مترًا، وزمرمر ٢٦٩٨ مترًا. وشبام ٢٦٣٥ مترًا. وذمار ٢٤٣١ مترًا وبوعان ٢٩٣٦ مترًا. وسوق الخميس ٢٣٧٢ مترًا، ومناخة ٢٣٢١ مترًا. وعمران ٢٣٠٢ أمتار. وأبها من عسير ٢٢٧٥ مترًا. وغامد من عسير ٢١١٠ أمتار.

والسبب في كون ارتفاعات كهذه توجد عليها المساكن، هو قربها من خط الاستواء،[١] وعدم نزول الثلوج عليها إلا النادر الأندر. فلو كانت هذه الجبال في سورية لما استطعت سكناها أصلًا، لأنها تكون مغمورة بالثلج أكثر أشهر السنة. هذا وإن غلظ جبال البرانس هو أعظم من غلظ جبال الألب، فمسافاتها بعيدة، والسفر فيها متعذر جدًّا، لعدم وجود مراكز يمكن استمداد الغذاء ولوازم المعيشة منها. فمن أراد أن يتوقل جبال البيرانس، لزمه أن يحمل معه جميع اللوازم إلى مدة مديدة، وليس هذا بالأمر السهل. لهذا بقيت أكثر أراضي البيرانس مجهولة طول الدهر، ولم يبدأ الناس أن يعرفوا عنها ما يجب العلم به إلا من خمسين سنة. وأعلى قمم الجبال الملعونة من الشمال الغربي إلى

الجنوب الشرقي هي قمة ألب، علوها ٣١١٩ مترًا، وقمة روسل Russel وعلوها ٣١٩٨ مترًا. والقمة المسماة «مالديتا» علوها ٢٣١٢ مترًا. وأكثر ما يتراكم الثلج ويستمر هو في نواحي قمة مالديتا. وأما القمة العليا على الجميع وهي أنيتو، فإن الثلج المحيط بها من كل الجهات، وقد وصل إليها السياح بشق الأنفس، ومن جملتهم الكونت روسل Russel الذي كتب عن سياحته هذه تذكرة بديعة.

أما الجبل الضائع فعلوه ٣٣٥٢ مترًا، ومكانه متوسط بين حرارة الجنوب، وبرد الشمال، وبين أشعة الشمس المحرقة من جهة أسبانية، والضباب الكثيف المطبق من جهة فرنسة. وفي حذاء الجبل الضائع يوجد مزارع لفلاحي الأراغون، ويبدأ العمران، وهناك نهر يقال له «آره» Ara عليه بلدة يقال لها بروتو Broto وحولها قرى، وتجد قرى وقصابًا، وهناك مكان غربي شاردة بارسيز Berciz يقال له «بارنكومسكون» Berranco de Mascum وفيه بلدة يقال لها القصر Alquezar وسواء كان القصر أو المسكون فلفظه عربي، ولا تزال في هذه البلدة آثار من زمن العرب، وقد قرأت أنه في القرن التاسع كان للعرب مسلحة في هذه البلدة، ومنها كانوا يحرسون معابر جبال البيرانس، وكانوا قد جعلوا محارس على القمم المشرفة على تلك المعابر، وهي أبراج، كل برج منها يقابل أخاه، فإذا أحسوا عدوًّا أوقدوا النيران من برج إلى برج، فكانوا دائمًا على حذر وأهبة. ومن هذه الأبراج برج مديانو Mediano المشرف على وادي انترمون Eutremon وأبراج أبيزنده Abizanda وأرتازونه Artasona واستاديلا Estadilla على وادي الغراده Elgrado وأبراج أولفينا Olvena وبينابار Benebarre والساموره Alsamora وهي في وادي «ريبا وغورزانه» المتقدم ذكرها، وكانت على وادي بلاريزا Pallaresa قلاع للعرب لأن هؤلاء طاردوا الإسبانيول، لأوائل الفتح، إلى أن أقبعوهم في الكهوف والمغاور. وسيأتيك خبر صخرة بيلاي التي آوى إليها بيلاي، ولم يبق معه سوى ثلاثين علجًا، والإسبانيول يقولون لهذه الصخرة صخرة «كوفا دونقه» Covalouga وكان بطل آخر يسمى غرسي شيمنيس Gerci-Jimenez قد لجأ بجماعة إلى أعالي بلاد أراغون، فطاردهم عبد الرحمن الأموي، وأرسل جيشًا، فاستولى على بلدة جاقة Jaca واكتسح وادي أراغون، ودمر قصبة أنسة Ainsa عند ملتقى نهري «آره» و«سنكه».

ولكن إلى الغرب من جاقة، في بربة عاصية، اجتمع فل المشردين، على رأسهم جوان أتارس Alares وكان من رفاق لذريق آخر من ملوك القوط، وصار كل من انهزم ينضم إلى هؤلاء الشذاذ.

ثم زحف غرسي المذكور ومعه خمسمائة مقاتل، فاجتاز وادي جلق إلى وادي آره، وهجم على العرب بغتة بقرب «أنسة» فهزمهم، وانتعش بذلك أصحابه، وبايعوه باسم ملك سوبراربه Sobrarbe وجعلوا أنسة قاعدة للمملكة الجديدة. ولما كان عددهم قليلًا لم يكونوا في بادئ الأمر يجرءون على الخروج من جبالهم التي كانت تقاتل معهم، ولكن بفتن العرب بعضهم مع بعض بصورة مستمرة، وكانت تلوح للأراغونيين كل يوم غرة فينتهزونها، وينحدرون إلى الأمام، ويأخذون قلعة بعد قلعة، ويدمرون حصنًا بعد حصن، إلى أن بلغوا مدينة وشقة Huesca، وجعلوها قاعدة مملكة سوبراربه، ثم صارت بعد ذلك تسمى مملكة أراغون، وكان استرجاع الإسبانيول لوشقة سنة ١٠٩٦ بعد حصار شهير قتل فيه ملك أراغون شانجه راميريس. وفي وشقة آثار قديمة كثيرة.

هوامش

(١) في نفس أسبانية قد صعدت إلى ارتفاعات ٢٥٠٠ متر في جبال غرناطة المشرفة على البحر المتوسط وذلك في شهر أغسطس، فوجدتني كأنني أسير في ارتفاعات لا تزيد على ألف وثلاثمائة متر من سورية مثل عين صوفر مثلا، ووجدت هناك قرى معمورة ونباتات لا تنبت عندنا في الشام في جبال بهذا العلو، ونحن في جبال الشام لا نعلم عمرانًا دائمًا في ارتفاع يزيد على ١٥٠٠ متر إذ لو زاد على ذلك لتعذر السكن فيه أيام الشتاء. والذي يلوح لي والله أعلم أن مهب الرياح الحارة الجنوبية من جهة القطب الجنوبي على جبال أسبانية وجبال أمريكا هو الذي يخفف صقيعها ويجعل السكن فيها ممكنا على ارتفاعات لا تمكن السكنى عليها في أماكن أخرى.

الفصل الثلاثون

سرقسطة أو الثغر الأعلى وبنبلونة

قد تقدم لنا ذكر منبع وادي أبره، وقول الناس إن أصله راشح من وادي «هيجار» حتى قالوا إنه إذا جرت سيول بسبب الزوابع اضطرب لها وتعكر ماء هيجار بتعكر أيضًا ماء أبره. وعلى كل حال فأبره يمده وادي «هيجار» ومنبع «رينوزة» وهو حياة مملكة أراغون، وقسم من كتلونية. وكلما تقدم إلى الشرق تنضم إليه أنهر من الشمال ومن اليمين، ولا سيما الأنهر التي تأتيه من الشمال، فهي ذات بال، وينحدر إلى أراغون من البيرانس مياه لا تحصى أنهارها.

ومن المدن المعدودة في تلك الناحية مدينة بنبلونة،[١] يقال إن الرومانيين أحدثوها، ثم استولى عليها القوط، ثم العرب سنة ٧٣٨، ولكن العرب لم تطل مدة استيلائهم عليها، قيل إنهم لم يلبثوا فيها إلا بضعة عشرة سنة، وإن النباريين استرجعوها، ثم استغاثوا بشارلمان الذي جاء من فرنسة، وحاصر سرقسطة، فرده العرب عنها، ففي أثناء رجوعه، كان النباريون والبشكونس قد رأوا من جيشه ما أثار حفائظهم، فمكنوا له في الجبال وأوقعوا به.

ولا تزال بنبلونة[٢] حافظة حصونها وآثارها القديمة، وهي أهم مدينة في تلك الجبال. وموقعها من نره آرغه Arag وتأتي بعدها مدينة جاقة، وفيها أيضًا قلاع وحصون وأبراج. ومن تلك الجبال يخرج نهرًا جلق Gallego الذي يمر بأراضي سرقسطة، ويتصل بأبره. فأما سرقسطة فهي على الضفة اليمنى من أبره، ولها ربض على الضفة اليسرى منه. ويقال لهذا الربض الطاباس Altavas، وبين البلدة والربض جسر حجر.

وسرقسطة بلدة كبيرة سكانها يناهزون ١٢٠ ألف نسمة، وفيها مدرسة جامعة، ودار أسقفية، وهي مركز قيادة جيش أراغون، وضواحيها تشرب من القناة التي يقال

لها القناة السلطانية التي شقها رجل يقال لها بينياتلي Pignatelli، وله بسرقسطة تمثال. وكل من نهر هورفه Huerva وأبره وجلق يمر بأرض سرقسطة. ومن سرقسطة يسرح النظر في بسائط أراغون.

وسرقسطة مدينة جيدة الهواء، معتدلة لا يشتد الحر فيها ولا البرد. ومنها قسم جدي، وقسم لا يزال على قدمه. وكان العرب يبالغون بمحاسنها، وقد مر بنا قولهم إلى الحيات لا تعيش فيها، وإنه إذا جيء إليها بأفعى لا تلبث أن تموت حالًا. وقالوا إن الفواكه فيها تبقى مدة طويلة لا تتعفن، ولكننا لم نجد لها هذه الأوصاف في كتب الإفرنج. وفيها من الكنائس الشيء الكثير، وأعظمها كنيسة سيو Seo وقد بنيت على أنقاض المسجد الأعظم الذي كان للمسلمين، ويقال إن باني هذا المسجد هو التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني رضي الله عنه، وإنه توفي سنة ١٠٠ للهجرة، ودفن مع أحد أصحابه بإزاء المحراب. ثم إن هذا المسجد ضاق عن جماعة المسلمين، فوسعوه سنة ٣٤٢، في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموي. ولما استرجع النصارى سرقسطة هدموا المسجد، ولم يبقوا من بنائه إلا القليل، وبنوا الكنيسة العظمى سيو على مقتضى الفن القوطي، وأتقنوا بناءها إلى النهاية. ومن الغريب أن فيها رواقًا من النحاس الأصفر، هو أبدع شيء فيها، قد رأيته عندما زرت سرقسطة، وشاهدت هذه الكنيسة. والبناء الذي بنى هذا الرواق هو مهندس عربي اسمه الرامي Alrami، صنعه سنة ١٤٩٨ على ما في دليل بديكر.

وفي هذه الكنيسة قبر فرنندو حفيد الملك فرديناند الكاثوليكي. والكنيسة وإن كانت على طرز البناء القوطي، ففيها كثير من الزليج والصنعة العربية، وذلك أن سرقسطة لا تزال حافظة مسحة عربية قوية، بقي كثير من صناع العرب ساكنين في المدينة لأجل أسباب معيشتهم، وكانت لهم علاقات وطيدة مع المسيحيين من أهل سرقسطة. وكذلك بقي فيها اليهود الذين كانت ثقافتهم عربية، فلم يبرحوا المدينة. ثم استولى فرديناند وإيزابلا على غرناطة، وضيّقوا على مسلمي الجنوب ذلك التضييق الفاحش، لم يجدوا لزومًا لمثل هذا التضييق في الجهات الشمالية، حيث المسلمون مبعثرون في مدن متعددة، ولم تكن لهم أدنى قوة سياسية هناك، فمن أجل هذا بقي مسلمون كثيرون، ويهود كثيرون، في سرقسطة وبرشلونة. وكان منهم صناع كثيرون متمسكون بتقاليدهم الشرقية. وكانت لهم آثار كثيرة لا تزال محفوظة إلى الآن. ومن أهم هذه الآثار هو حائط القرميد الذي في كنيسة السيو، وكذلك برج الساعة الذي بني في زمن

الملك فرديناند، وثبت نحو من أربعمائة سنة، ثم تداعى إلى الخراب، فهدموه خوفًا من خطر سقوطه[٣] وهناك برج آخر لكنيسة سان ميشال المعروفة بسان ميشال النباريين، فهو أيضًا مصنوع بالقرميد والزليج. وقبة الجرس في كنيسة المجدلية أصلًا منارة جامع، وهي مزينة بالزليج والفسيفساء.

ومن مباني العرب المشهورة في سرقسطة، المحفوظ منها جانب إلى اليوم، قصر الجعفرية، شرقي البلدة، على ضفة أبره. وهو الآن ثكنة عسكرية. قرأت في دليل بديكر أن بانيه هو أبو جعفر أحمد، بناه في القرن الحادي عشر للمسيح، ولم أطلع على ترجمة لأبي جعفر أحمد هذا، ويغلب على ظني أن باني هذا القصر هو المقتدر بالله بن هود، ملك سرقسطة، وقد كان يكنى بأبي جعفر فقيل لقصره الجعفرية، نسبة إليه. وكذلك كان يقال للمستعين الثاني ابن هود «أبو جعفر».

وقد زرت هذا القصر في شهر يونيو سنة ١٩٣٠، فلم أجد فيه من آثار العرب المحفوظة سوى جامع صغير ومقصورة. وفي هذا القصر الغرفة التي ولدت فيها سنة ١٢٧٠ القديسة اليصابات ملكة البرتغال. وبالاختصار فمن جهة الصنعة تتلاقى في سرقسطة أوربة وآسية. وفي قصر الجعفرية مثال بارز لهذا الأمر. وقد كان ملوك أراغون بعد أن استولوا على سرقسطة، جعلوا إقامتهم في هذا القصر، ثم صار مركزًا لديوان التفتيش. وسنة ١٨٠٩ في أثناء الحرب بين الفرنسيس والإسبانيول، تهدم الجانب الأعظم من الجعفرية، ثم رمموه، وجعلوه ثكنة للعساكر.

ومن المباني المشهورة في سرقسطة كنيسة سيدة بيلار Pilar وهي الكنيسة الثانية بعد كنيسة السيو في تلك البلدة، وقبابها مزخرفة بالزليج العربي، وفيها العمود الذي يزعمون أنه تجلت عليه السيدة العذراء للحواري يعقوب، عندما كان ذاهبًا إلى شنت ياقب، وفي هذه الكنيسة من الصنعة والزخرف، وفي خزانتها من الكنوز ما يعجز القلم عن وصفه. وهناك كنيسة ثالثة شهيرة يقال لها سان بابلو، ولها برج مبني على الطراز العربي، وفيه كثير من الزليج الأخضر والأبيض.

وفي سرقسطة حارات جديدة بشوارع واسعة، على الطراز الحديث، ولكن لا يزال فيها أيضًا حارات قديمة، ذات شوارع ضيقة، وأما القناة الإمبراطورية المشتقة من أبره فإنما سميت بذلك نسبة للإمبراطور شارلكان، وكان الابتداء بشقها سنة ١٥٢٨، وهي تتبع الضفة اليمنى من أبره، وطولها ٨٨ كيلومترًا.

وبساتين سرقسطة غاية في البداعة، فيها التين والزيتون واللوز والكرم وأصناف الفواكه، وأما نهر جلق فأصل اسمه عند الأسبان غالبقو Gallego ولكن العرب قالوا له

جلق لأنه كاسم دمشق التي يقال لها جلق. وجاء في نفح الطيب أن موسى بن نصير لما وصل إلى سرقسطة وشرب من مائها، استعذبه جدًّا، وقال إنه لم يشرب بالأندلس أعذب منه، وسأل عن اسم النهر الذي منه هذا الماء، فذكروا له اسمه، فقال: إذن هذا نهر جلق، وهذه غوطة دمشق، لأن البساتين التي تحدق بسرقسطة تشبه غوطة الشام.

وجاء في معجم البلدان لياقوت الحموي عن سرقسطة ما يلي:

سرقسطة، بفتح أوله وثانيه، ثم قاف مضمومة، وسين مهملة ساكنة، وطاء مهملة: بلدة مشهورة بالأندلس، تتصل أعمالها بأعمال تطيلة، ذات فواكه عذبة لها فضل على سائر فواكه الأندلس، مبنية على نهر كبير، وهو نهر منبعث من جبال القلاع، وقد انفردت بصنعة السمور، ولطف تدبيره، يقوم في طرزها بكمالها، منفردًا بالنسج في منوالها، وهي الثياب الرقيقة المعروفة بالسرقسطية. هذه خصوصية لأهل هذا الصقع. هذا السمور المذكور هنا لا أتحقق ما هو، ولا أي شيء يعني به: إن كان نباتًا عندهم، أو وبر الدابة المعروفة؟ فإن كانت الدابة المعروفة فيقال لها الجندبادستر أيضًا، وهي دابة تكون في البحر، وتخرج إلى البر وعندها قوة ميز. وقال الأطباء: الجندبادستر حيوان يكون في بحر الروم، ولا يحتاج منه إلا إلى خصاه، فيخرج ذلك الحيوان من البحر، ويسرح في البر، فيؤخذ ويقطع منه خصاه، ويطلق، فربما عرض له الصيادون مرة أخرى، فإذا علم أنهم ماسكوه استلقى على ظهره، وفرج بين فخذيه، ليريهم موضع خصيته خاليًا، فيتركونه حينئذ.

وفي سرقسطة معدن الملح الذراني، وهو أبيض صافي اللون، أملس خالص، ولا يكون في غيرها من بلاد الأندلس.

قال: ولها مدن ومعاقل، وهي الآن بيد الإفرنج، صارت بأيديهم منذ سنة ٥١٢ انتهى.

ثم ذكر من ينسب إلى سرقسطة من العلماء، وسنأتي على هذا البحث. وقد تقدم فيما نقلناه عن نفح الطيب ما ذكره العرب بين مزايا هذه المدينة، وقالوا إنها هي أم تلك الكورة التي يقال لها الثغر الأعلى، وكانت تسمى بالبيضاء. ونقلوا عن الحجاري في كتابه «المسهب» أن السمور الذي يعمل من وبره الفراء الرفيعة، يوجد في البحر المحيط بالأندلس، من جهة جزيرة برطانية، ويجلب إلى سرقسطة، ويصنع بها. جاء في نفح الطيب: ولما ذكر ابن غالب وبر السمور الذي يصنع بقرطبة قال: هذا السمور المذكور هنا لم أتحقق ما هو، ولا ما عني به إن كان هو نباتًا عندهم، أو وبر الدابة المعروفة،

فإن كانت الدابة المعروفة، فهي دابة تكون في البحر، وتخرج إلى البر، وعندها قوة ميز. وقال حامد بن سمحون الطبيب، صاحب كتاب «الأدوية المفردة»: هو حيوان يكون في بحر الروم، ولا يحتاج منه إلا إلى خصاه، فيخرج الحيوان من البحر في البر، فيؤخذ، وتقطع خصاه ويطلق، فربما عرض للقناصين مرة أخرى، فإذا أحس بهم، وخشي أن لا يفوتهم، استلقى على ظهره، وفرّج بين فخذيه، ليرى موضع خصيته خاليًا، فإذا رآه القناصون كذلك تركوه. قال ابن غالب: ويسمى هذا الحيوان أيضًا الجند باستر، والدواء الذي يصنع من خصيته هو من الأدوية الرفيعة، ومنافعه كثيرة. إلخ.

قلنا: أنت ترى أن هذه العبارات هي عبارات ابن غالب في وصف هذا الحيوان، وهو الذي قال: وهذا السمور المذكور هنا لا أتحقق ما هو، ولا أي شيء يعنى به. والحال أن ياقوت الحموي يذكر هذه العبارة بدون أن يرويها عن ابن غالب، بل يسوقها كأنها منه، وإنما تصرف في بعض جملها، وزاد ونقص. وبدلًا من قول ابن سعيد: قال حامد بن سمحون الطبيب، جعل: قال الأطباء. فأخل ياقوت هنا بأمانة النقل.

وأما أن سرقسطة لا تدخلها عقرب ولا حية، وإذا جيء إليها بشيء من ذلك مات لحينه، وأن القمح لا يتعفن ولو بقي مائة سنة، وأن العنب يؤكل فيها ولو تعلق ستة أعوام، وأنه لا يسوس فيها الخشب، ولا يدخل العث على أثوابها، صوفًا كان أو حريرًا أو كتانًا، إلى غير ذلك مما جاء في كتب العرب، فلم أجد شيئا من هذه الأوصاف في كتاب الأوربيين عن سرقسطة. وسألت عن ذلك بعض أدباء الإسبانيول فلم يجيبوني بأجوبة شافية.

وجاء في الأنسيكلوبيدية الإسلامية ما ملخصه: سرقسطة مدينة من أسبانية هي مركز مقاطعة سرقسطة اليوم، وقاعدة مملكة أراغون في القديم، واقعة على يمين نهر أبره، ارتفاعها عن البحر ١٨٤ مترًا، وهي في وسط بقعة خضراء بديعة، واسمها سرقسطة هو الاسم الذي أعطاه إياها أغسطس الروماني، مشتق من سيزارية أوغسطة Caesarea Ongusla فالعرب قالوا لها سرقسطة، والنسبة إليها عندهم سرقسطي، ومنذ فتحها العرب إلى أن استرجعها المسيحيون كانت تعد من قواعد المملكة الإسلامية الكبرى، وبسببب موقعها الجغرافي كانت مركز الثغر الأعلى. وفي أيام الإدريسي، أي القرن الثاني عشر، كانت معمورة جدًّا، وكان يقال لها المدينة البيضاء، نظرًا لبياض أسوارها، وكانت فواكهها معدودة من أحسن فواكه الأندلس، وكان فرو السمور الذي يصنع بها مشهورًا في كل العالم الإسلامي.

وقد استولى العرب على سرقسطة سنة ٩٤ للهجرة، وفق ٧١٢، بعد أخذهم طليطلة بقليل. زحف إليها موسى بن نصير ففتحها، وفتح القصاب، والحصون التي حولها. وروى ايزيدور الباجي[٤] أن العرب عاثوا فيها، وعاملوا أهلها بأقصى الشدة. وفي أيام يوسف بن عبد الرحمن الفهري أمير الأندلس كانت من القواعد الكبار، وتولى عليها الصميل بن حاتم، وكان ذلك سنة ١٣٢. ولما جاء شارلمان يحاول فتحها سنة ٧٧٨ مسيحية، كان فيها واليًا الحسين بن يحيى الخزرجي، فحاصرها شارلمان، فامتنعت عليه، وإذ ذاك جاء الخبر إلى شارلمان من بلاد الرين بخطب أوجب انصرافه إلى بلاده، فقفل بعساكره، ولما صار إلى مضيق رونسفو Rancevaux[٥] كمن له هناك البشكنس وأوقعوا بجيشه، وكانت وقيعة شنيعة تخلد ذكرها بأنشودة رولان.

وفي سنة ١٦٤ زحف إليها عبد الرحمن الداخل ففتحها، ولكنها عادت فخرجت من أيدي الأمويين، فسرح إليها هشام سنة ١٧٥ جيشًا عقد لواءه لعبيد الله بن عثمان، فاستولى عليها، ثم عادت فانتقضت سنة ١٨١، وكان خلائف قرطبة يسرحون إليها الزحف بعد الزحف، فتارة ينجحون وتارة يفشلون، وفي أواخر القرن الثامن عظم أمر عائلة يقال لها بنو قصيّ، فاستولت على أراغون، وهي عائلة إسبانيولية دانت بالإسلام، وأحد رؤساء هذه العائلة موسى بن فورتونيو Fortinio[٦] صهر إينيقوار يستة Inigo Arista، أول ملك على بنبلونة، انحاز إلى الأمير هشام الأموي، وساعده على استرجاع سرقسطة. ثم إن موسى الثاني من أفراد هذه العائلة كان واليًا على تطيلة وقائدًا لجيوش عبد الرحمن الثاني التي كانت تغير على حدود الإفرنجة، وقد كان لموسى هذا مواقف جهاد في رد عادية النورمانديين الذين كانوا نزلوا في البرتغال.

وسنة ٨٥٢ لما تولى الأمير محمد الأموي كان موسى بن قصيّ عاملًا له على سرقسطة وتطيلة ووشقة، وكان أشبه بأمير مستقل، وطالما تبادل الهدايا مع ملوك النصارى، مثل شارل الأصلع، ملك فرنسة، إلا أنه في سنة ٨٦٠ تغلب أوردونة الأول ملك ليون على موسى، ولم يلبث أن قُتل بعد ذلك بسنتين، وبعد موته انتقض بنو قصي على خلائف قرطبة. فعول الأمير محمد الأموي على التجيبيين لإدخال بني قصيّ في الطاعة، وولى عبد الرحمن التجيبي على الثغر الأعلى.

والتجيبيون عائلة عربية استقرت في سرقسطة من أول الفتح (وكان أهالي سرقسطة ونواحيها عربًا صراحًا كما هو معلوم في التاريخ). وفي سنة ٨٨٨ بلغ الأمير عبد الله الأموي خبر مكيدة تدبّر عليه في سرقسطة، فولى محمد بن عبد الرحمن التجيبي الملقب

بالأنقر، وأمره بالفتك بعامل سرقسطة، فأنفذ الأمر، ولكنه استبد بالإمارة، وقتل محمد بن لب زعيم بني قصيّ، وتوارث الإمارة عقبه إلى زمن عبد الرحمن الناصر، الذي أحسن إلى التجيبيين، ولكن أحدهم محمد بن هاشم خلع الطاعة سنة ٩٣٤، وانضم إلى روميروه الثاني ملك ليون، وإلى ملك نبارة، وأثار جميع أهالي الثغر الأعلى على الخليفة، فزحف الخليفة بنفسه، وأخذ قلعة أيوب عنوة، وحاصر سرقسطة وضيق عليها، إلى أن لاذ محمد بن هاشم بطلب العفو، فعفا الناصر عنه، وأقره على إمارته، وخلفه ابنه يحيى التجيبي، الذي صار من قواد الناصر، وابنه الحكم المستنصر. وتولى سرقسطة سنة ٩٧٥.

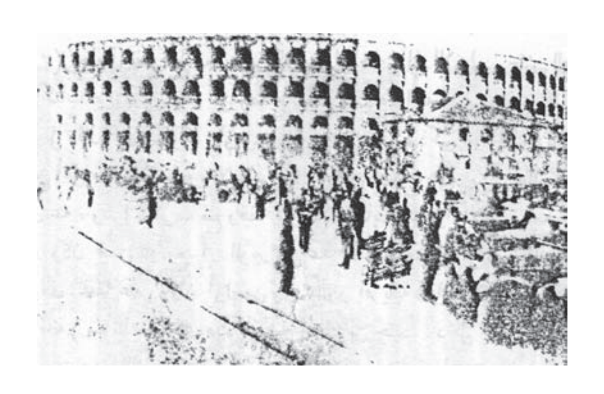
وفي أيام حجابة المنصور بن أبي عامر أراد عامل سرقسطة عبد الرحمن بن مطرف بن محمد بن هاشم التجيبي أن يشق عصا الطاعة. فتغلب عليه المنصور وقتله سنة ٩٨٩. ولما سقطت الخلافة في قرطبة كان الوالي على سرقسطة أحد أحفاد يحيى المذكور، وخلفه ولده المنذر، الذي اتفق مع الصقالبة على البربر، وأعلن نفسه ملكًا على سرقسطة، وتعاهد مع ملوك قشتالة وبرشلونة، وفي أيامه استتبت الراحة في سرقسطة وازداد عمران البلدة، وبلغت أوج مجدها.

وكان للمنذر التجيبي هذا أبهة ملك، ونعمة عيش، تغنت بهما الشعراء. ومن جملتهم ابن درّاج القسطلي. واستمر حكم المنذر إلى سنة ١٠٢٣ مسيحية، فخلفه ابنه المظفر، ولم تطل مدته، فخلفه ابنه المنذر الثاني، معز الدولة، فاستمرت إمارته عشر سنوات. ثم خرج عن طاعة الخليفة هشام الثاني، فقتله، فقتله ابن عمه عبد الله بن الحكم، وكاد يستولى على الإمارة، فثار به الأهالي، واشتعلت الفتنة بينهم، حتى جاء عامل لاردة، أبو أيوب سلمان بن محمد بن هود، فدخل البلدة، ومهد الأمور، واستأثر بالإمارة لنفسه، ثم اتخذ لقب المستعين، وهو مبدأ دولة بني هود، التي كان مركزها سرقسطة، وكان يتبعها لاردة وطليطلة، وقلعة أيوب، وكانت وفاة المستعين هذا سنة ٤٣٨، وفق ١٠٤٦، وخلفه أحمد المقتدر سيف الدولة إلى سنة ٤٧٤، ثم يوسف المؤتمن إلى سنة ٤٧٨، ثم أحمد المستعين الثاني. وقتل في معركة بينه وبين النصارى اسمها معركة فلتيرة Valtierra، وخلفه ابنه عبد الملك عماد الدولة، وفي أيامه انتزع النصارى سرقسطة من أيدي المسلمين في ٤ رمضان سنة ٥١٢.

قال لاوي بروفنسال: إنه لا يوجد عندنا معلومات كافية عن أيام دولة بني هود، وإن أرقام التواريخ المتعلقة بهم يناقض بعضها بعضًا. وقد ثبت أنه قبل استيلاء



شكل ٣٠-١: سرقسطة.

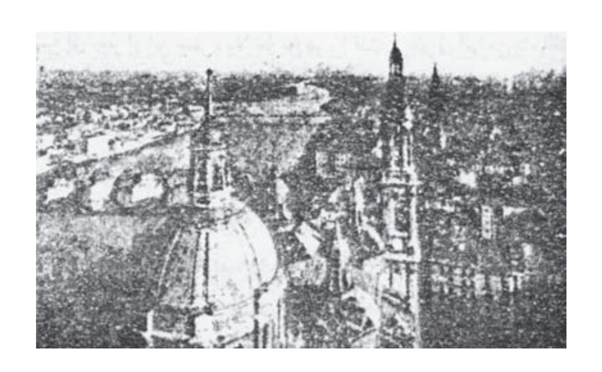


شكل ٣٠-٢: ملعب الثيران في سرقسطة.

النصارى على سرقسطة بتسع سنوات كان جيش المرابطين قد احتلها، وأدخلها تحت حكم علي بن يوسف بن تاشفين، وذلك في أول ذي القعدة سنة ٥٠٣.

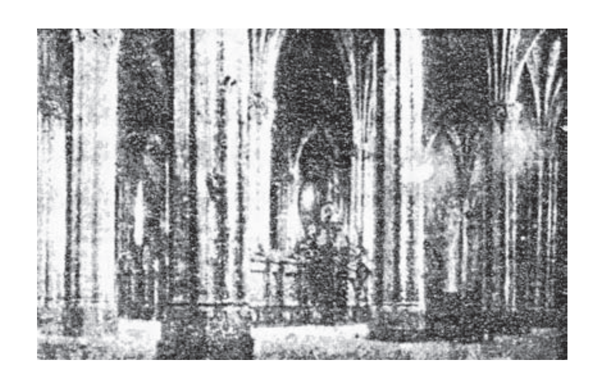
ولم يبق من آثار المسلمين في سرقسطة شيء كثير، لأنها بمرور الأعصر تهدمت مرارًا، وبنيت مرارًا، بكثرة ما وقع عليها من المحاصرات الشديدة، أما كنيسة السيو

المبنية مكان الجامع الأعظم ففي الشمال الشرقي منها حائط مزين بالزليج، يظهر أنه من أيام العرب.[٧] وروى بعض المؤرخين والجغرافيين أن باني المسجد الأعظم الذي في محله بنيت كنيسة السيو هو التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني[٨] المتوفى سنة مائة للهجرة. والآن لا يوجد بناء عربي جدير بالذكر في سرقسطة سوى الجعفرية نسبة إلى جعفر أو ابن جعفر، ولا نعلم من هو (قلت: يظهر لي أنها من بناء المقتدر أو المستعين الثاني ابن المؤتمن بن هود وكان يقال لكل منهما أبو جعفر. والله أعلم). فهذا البناء حصلت فيه تغييرات كثيرة، وتهدم جانب منه سنة ١٨٠٩، ولم يبق منه سوى مسجد صغير: ٢٢ مترًا مربعًا، فوقه قبة بديعة علوها ١٤ مترًا قائمة على أعمدة من المرمر، لها قواعد بديعة، وله محراب بحفر وتنزيل. ويغلب على الظن أن الجعفرية هي من جملة أبنية بني هود التي لم تحفظ منها إلا اسم قصر السرور.



شكل ٣٠-٣: نهر أبرة في سرقسطة.

وممن ينتسبون إلى سرقسطة من العلماء المحدّث الكبير أبو علي الحسين بن محمد بن قيرة بن حبون الصدفي، المعروف بابن سكرة، ولد سنة ٤٥٢، وقتل شهيدًا في واقعة كتندة سنة ٥١٤، ولأجل تراجم تلاميذه جمع ابن الأبار المعجم الذي نشره قديرة في المجلد الرابع من المكتبة العربية الأسبانية. ا.هـ.



شكل ٣٠-٤: كنيسة السيو في سرقسطة.

قلنا: وكان لبني هود في سرقسطة قصور متعددة لم يبق لها أثر، منها دار السرور ومنها قصر الذهب، اللذان يقول فيها ابن هود:

قصر السرور ومجلس الذهب بكما بلغت نهاية الطرب

وجاء في صبح الأعشى ذكر سرقسطة قال: قال في تقويم البلدان: سرقسطة بفتح السين والراء المهملتين، وضم القاف، وسكون السين الثانية، وفتح الطاء المهملة، وهاء في الآخر: مدينة من شرقي الأندلس، موقعها في أواخر الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة، قال ابن سعيد: حيث الطول إحدى وعشرون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض اثنتان وأربعون درجة وثلاثون دقيقة، قال في تقويم البلدان: وهي قاعدة الثغر الأعلى، وهي مدينة أزلية بيضاء في أرض طيبة، قد أحدقت بها من بساتينها زمردة خضراء، والتف عليها أربعة أنهار، فأضحت بها مرصعة مجزعة، ولها متنزهات، منها قصر السرور، ومجلس الذهب.

ثم قال في محل آخر: وأما سرقسطة والثغر فاستولى عليهما بقية بني هود، إذ كان منذر بن يحيى بن مطرق بن عبد الرحمن بن محمد بن هاشم التجيبي، صاحب الثغر الأعلى بالأندلس، وكانت دار إمارته سرقسطة. ولما وقعت فتنة البربر آخر أيام بني أمية، استقل منذر هذا بسرقسطة والثغر، وتلقب بالمنصور، ومات سنة أربع عشرة

وأربعمائة، وولي مكانه ابنه يحيى. وتلقب بالمظفر، وكان أبو أيوب سليمان مستقلًّا بمدينة تطيلة ومدينة لاردة، من أول الفتنة، وجدهم هود هو الداخل إلى الأندلس، فتغلب سليمان المذكور على المظفر يحيى بن المنذر، وقتله سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وملك سرقسطة والثغر من أيديهم، وتحول إليها، وتلقب بالمستعين واستفحل ملكه. ثم ملك بلنسية ودانية، وولى على لاردة ابنه أحمد المقتدر، ومات سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، فولي ابنه أحمد الملقب بالمقتدر سرقسطة وسائر الثغر الأعلى، وولي ابنه يوسف الملقب بالمظفر لاردة، ومات أحمد المقتدر سنة أربع وسبعين لتسع وثلاثين سنة من ملكه. فولي بعده ابنه يوسف المؤتمن، وكان له اليد الطولى في العلوم الرياضية، وألّف فيها التآليف الفائقة، مثل «المناظر» و«الاستكمال» وغيرهما، ومات سنة ثمان وسبعين وأربعمائة. وولي بعده ابنه أحمد الملقب بالمستعين، ولم يزل أميرًا بسرقسطة إلى أن مات شهيدًا سنة ثلاث وخمسمائة، في زحف ملك الفرنج إليها. وولي بعد ابنه عبد الملك، وتلقب عماد الدولة، وزحف إليه الطاغية أذفنش ملك الفرنج، فملك منه سرقسطة، وأخرجه منها واستولى عليها سنة ثنتي عشرة وخمسمائة، ومات سنة ثلاث عشرة. وولي ابنه أحمد، وتلقب سيف الدولة والمستنصر، وبالغ في النكاية في الطاغية ملك الفرنج، ومات سنة ست وثلاثين وخمسمائة. وكان من ممالك بني هود هؤلاء طرطوشة، وقد كان ملكها مقاتل أحد الموالي العامريين سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، ومات سنة خمس وأربعين. وملكها بعده يعلى العامري، ولم تطل مدته، وملكها بعده نبيل أحدهم، إلى أن نزل عنها لعماد الدولة أحمد بن المستعين بن هود سنة ثنتين وخمسين وأربعمائة، فلم تزل في يده ويد بنيه بعده إلى أن غلب عليها العدو المخذول فيما غلب عليه من شرق الأندلس. انتهى

وجاء في كتاب «أخبار مجموعة» أقدم كتاب في تاريخ الأندلس — كتب فيما يظهر لعهد المستنصر بن الناصر الأموي — كلام عن مدينة سرقسطة وما جرى بها من الحوادث، لأول الفتح الأموي، قال: ثار سليمان الأعرابي بسرقسطة، وثار معه حسين بن يحيى الأنصاري، من ولد سعد بن عبادة، فبعث إليه الأمير (عبد الرحمن الداخل) ثعلبة بن عبد، في جيش، فنازل أهل المدينة وقاتلهم أيامًا. ثم إن الأعرابي طلب الفرصة من العسكر، فلما وضع الناس عن أنفسهم الحرب، وقالوا قد أمسك عن الحرب، وأغلق أبواب المدينة، لم يشعر الناس حتى هجم على ثعلبة فأخذه في المظلة، فصار عنده أسيرًا، وانهزم الجيش، فبعث به الأعرابي إلى قارلة[٩] فلما صار عنده، طمع قارلة في مدينة



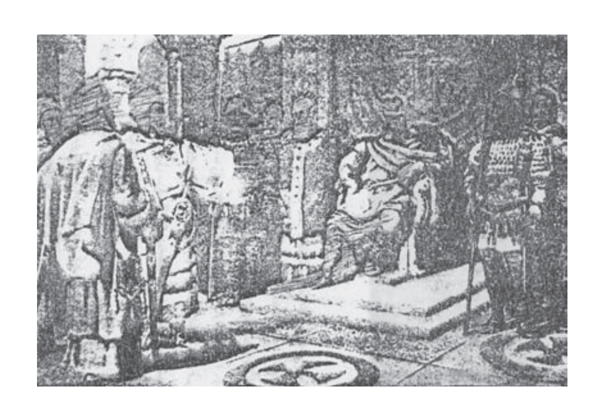
شكل ٣٠-٥: صورة بنبلونة.



شكل ٣٠-٦: صورة بنبلونة (منظر عمومي).

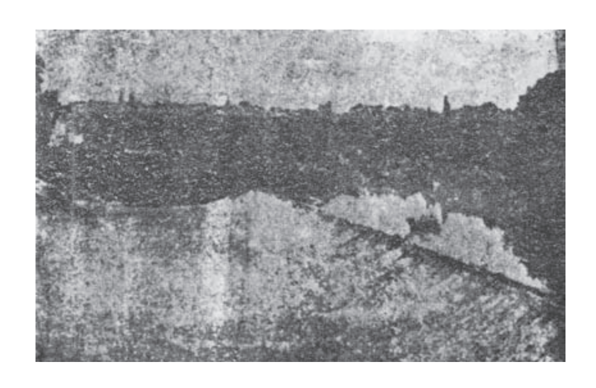
سرقسطة من أجل ذلك، فخرج حتى حل بها، فقاتله أهلها ودافعوه أشد الدفع، فرجع إلى بلده. وخرج الأمير غازيًا إلى سرقسطة، فقبل أن يبلغ الأمير سرقسطة عدا حسين بن يحيى الأنصاري على الأعرابي يوم جمعة، فقتله في المسجد الجامع، وصار الأمر لحسين وحده فنزل به الأمير، وكان عيسون بن سليمان الأعرابي قد هرب إلى أربونة. فلما بلغه نزول الأمير بسرقسطة أقبل فنزل خلف النهر، فنظر يومًا إلى قاتل أبيه قد خرج عن المدينة، وصار على جرف الوادي، فأقحم عيسون فرسًا له كان يسميه الناهد، وقتله،

ثم رجع إلى أصحابه، فسمى ذلك الموضع إلى اليوم مخاضة عيسون، ثم استدعاه الأمير حتى صار في عسكره، وحارب سرقسطة معه، فلما ضاق أهل المدينة من الحصار طلب حسين الصلح، وأعطى ابنه رهينة، فقبل ذلك الأمير منه، ورجع عنه. وكان اسم ابنه ذلك سعيدًا، وكان نجدًا، فلم يقم في عسكر الأمير إلا يومًا، حتى أعمل الحيلة فهرب إلى أطيان له بأرض بليارش، ومضى الأمير فدوّخ بنبلونة، وقلنيرة، وكر على البشكنس، ثم على بلاد الشرطانيس، فحل بابن بلاسكوط، فأخذ ولده رهينة، وصالحه على الجزية. (إلى أن يقول): إن حسين بن يحيى الأنصاري متولي سرقسطة، عاد إلى نفاقه، قال: فخرج إليه الأمير غازيًا، ونصب على سرقسطة المجانيق، فيقال إنه حفها بستة وثلاثين منجنيقًا، وضيق على أهلها أشد الضيق. فترامى القوم إليه، وأسلموا إليه حسينًا، فلم يقتل من أهل المدينة غيره، وغير رجل من أهلها يقال له رزق من البرانس. انتهى



شكل ٣٠-٧: ملاقاة سليمان الأعرابي مع شارلمان.

وقد اشتهرت سرقسطة من قديم الدهر بشدة المقاومة لمن يحاصرها، فقبل الفتح العربي كان قد غزاها سنة ٥٣٣ شيلد برت Childeberte، ملك الإفرنج، وكذلك كلوتار الثاني Clotaire، وقاومتهما مقاومة خارقة للعادة. ولما جاءها شارلمان بنفسه عجز عنها، وكثيرًا ما زحف إليها بنو أمية بجيوشهم فلم ينالوا منها وطرًا. ولما استرجعها أذفنش الأول ملك أراغون من أيدي العرب، واستمرت الحرب عليها خمس سنوات، وما دخل الإسبانيول سرقسطة إلا بعد حصار شديد اتصل تسعة أشهر.



شكل ٣٠-٨: صورة نهر أرقا في بنبلونة.

ومن أشد مدافعاتها المشهورة الدفاع الذي دافعت به الفرنسيس سنة ١٨٠٨ و١٨٠٩، وذلك في حرب الاستقلال، فقد زحف إليها الفرنسيس بجيش جرار، يقوده أربعة قواد، كل منهم برتبة مارشال، وكان الذين تولوا كبر المقاومة: شابًّا من أهلها اسمه بلافوكس Plafox وقسيسًا اسمه سنت ياغوساس وجلًا كان يقال له العم واسمه جورج إيبور Ibort، وانضم إليهم اثنان من الفلاحين، أحدهما ماريانو سيريزو Cerezo، والآخر مارين، فهؤلاء أثاروا حمية الأهالي، ووقفت البلدة كلها وقفة الرجل الواحد في وجه الفرنسيس، وبعد حصار شهرين اضطر المارشال لففر Lefepvre أن يرفع الحصار. ثم عاد إليها الفرنسيس بجيش عدده ثلاثون ألفًا، وكان السرقسطيون قد زادوا تأهبهم للدفاع، ولكن لم يكن سور بلدتهم يعلو أكثر من ثلاثة إلى أربعة أمتار، فترك السرقسطيون الدفاع عن دير يسوع، على ضفة أبره من اليمين، وتركوا أيضًا الدفاع عن دير «طوريروه» وجمعوا أنفسهم إلى داخل المدينة، وبدأ القتال بشدة لم يسبق لها مثيل، فوضع الفرنسيس خمسين مدفعًا تقذف بالنار الدائمة، إلى أن خرقوا السور من ثلاث جهات. وفي ٢٢ يناير سنة ١٨٠٩ دخل المارشال «لان» إلى البلدة من جهة دير سنتا الغراسيه. ولكن الأهالي استمروا يقاومون عن بيت بيت، ويقاتلون في شارع شارع، فقتل وجرع من الفريقين أربعة وخمسون ألف نسمة في مدة ستين يومًا. ولم تعول البلدة على الاستسلام إلا بعد أن فتكت بأهلها المجاعة والأمراض. وقد

لقبت سرقسطة من أجل ذلك الدفاع بالخالدة Inmorial وكذلك كان لها موقف شديد في الحرب الكارولسية ضد الكارلوسيين.



شكل ٣٠-٩: صورة بنبلونة.

أما تاريخها القديم قبل العرب فالمعلوم منه أن السويفيين Sueves استولوا عليها سنة ٤٥٢، وأن القوط دخلوها سنة ٤٧٦، وأنها كانت في زمن الأبيريين يقال لها «سالدوبه» Salduba، وأن أغسطس قيصر رومة اعتنى بها، ومن اسمه اشتق اسمها.[١٠]

هوامش

(١) مما ورد في نفح الطيب عن الوقائع التي جرت في بنبلونة قوله عن الأمير عبد الرحمن الثاني الأموي ابن الحكم: إنه سنة تسع وعشرين ومائتين بعث ابنه محمدًا بالعساكر فتقدم إلى بنبلونة فأوقع بالمشركين عندها وقتل غرسية صاحبها وهو من أكبر ملوك النصارى (ثم جاء في النفح عن بنبلونة): وفي سنة سبع وأربعين ومائتين أغزى محمد إلى نواحي بنبلونة وصاحبها حينئذ غرسية بن «وبقه» وكان يظاهر أردن بن أذفنش فعاث في نواحي بنبلونة ورجع وقد دوخها وفتح كثيرًا من حصونها وأسر فرتون بن صاحبها فبقي أسيرًا بقرطبة عشرين سنة. ثم بعث سنة إحدى وخمسين أخاه المنذر بالعساكر إلى نواحي والقلاع (قلنا ألبة هي ألبة Alava من بلاد البشكنس

وأما القلاع فكان العرب يسمون بالقلاع أعالي بلاد أراغون ونبارة. انظر إلى كلام ياقوت عن منبع أبره) فعاثوا فيها، وجمع لذريق للقائهم فلقيهم وانهزم، وأثخن المسلمون في المشركين بالقتل والأسر، فكان فتحًا لا كفاء له. وفي سنة ثلاث وستين أغزى الأمير محمد بن المنذر إلى دار الحرب، وفي السنة التي بعدها إلى بلاد بنبلونة فدوخها ورجع (ثم ذكر أيام عبد الرحمن الناصر، فمن جملة كلامه عنه): ووصل إلى سدته الملوك من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب إليها من الثغور الجوفية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه (ثم قال): غزا سنة ثمان وثلاثمائة إلى جليقية وملكها أردون بن أذفنش بالبشكنس والإفرنجة وظاهره شانجة ابن فرويله صاحب بنبلونة أمير البشكنس فهزمهم ووطئ بلادهم ودوخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرب حصونهم. ثم غزا بنبلونة سنة اثنتي عشرة ودخل دار الحرب ودوخ البسائط وفتح المعاقب وجال فيها وتوغل في قاصيتها والعدو يحاذيه في الجبال والأوعار ولم يظفر منه بشيء. ثم بعد مدة بلغه انتقاض طوطة ملكة البشكنس فغزاها في بنبلونة ودوخ أرضها واستباحها. ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين فغزا الناصر بلادها وخرب نواحي بنبلونة وردد عليها الغزوات، وكان سنة اثنتين وعشرين غزا إلى بنبلونة لجاءته طوطة بطاعتها لابنها غرسية على بنبلونة. ثم عدل إلى ألبة وبسائطها فدوخها وخرب حصونها ا.هـ.

(٢) قد ذار هذه البلدة الأستاذ أحمد زكي باشا المصري العلامة المشهور رحمه الله، وذلك سنة أوفدته الحكومة المصرية إلى المؤتمر العلمي الشرقي سنة ١٨٩٢ فبعد أن قام بسياحة في أوربة فكر بأن يزور بلاد الأندلس لرؤية آثار المسلمين فيها فجاءها من طريق أيرون إلى فونترابيه إلى سالسيباستيان إلى بنبلونة إلى سرقسطة إلخ. وذكر بنبلونة في الصفحة ٣٨٢ من الطبعة الثانية من كتابه «السفر إلى المؤتمر» فقال: بنبلونة وتسمى في قليل من كتابات العرب بنقلونه، وقد حكمها المسلمون اثنتي عشرة سنة فقط، وهي أنظف مدينة رأيتها، وجميع شوارعها وحاراتها وأزقتها تضاء بالنور الكهربائي.

وجاء ذكر بنبلونة في صبح الأعشى هكذا: قال في تقويم البلدان بفتح الياء المثناة من تحت وسكون النون وضم الباء الموحدة واللام ثم واو ساكنة ونون مفتوحة وهاء في الآخر، وموقعها في أوائل الإقليم السادس من الأقاليم السبعة. قال ابن سعيد: حيث الطول اثنتان وعشرون درجة وخمس عشرة دقيقة والعرض أربع وأربعون درجة.

قال في تقويم البلدان: وهي مدينة في غرب الأندلس خلف جبل الشارة. قال: وهي قاعدة النبري أحد ملوك الفرنج وتعرف هذه المملكة بمملكة نبرة بفتح النون وتشديد الباء الموحدة المفتوحة وفتح الراء المهملة وهاء في الآخر، وهي مملكة فاصلة بين مملكتي قشتالة وبرشلونة وهي مما يلي قشتالة من جهة الشرق. انتهى.

قلنا: إن هذه المملكة هي نبارة Navarra وكونها فاصلة بين مملكتي قشتالة وبرشلونة هو صحيح، ولكن قوله إنها في غرب الأندلس فليس بصحيح لأنها في شمالي الأندلس أو في جوفيها على قول الأندلسيين، ثم إن البلدة بنبلونة يبدأ اسمها بالباء وهو هكذا عند الإفرنج، وفي تقويم البلدان يبدأ الاسم بالياء وهو خلاف الصحيح، وقد كان يمكن الظن بأن الباء انقلبت ياء بخطأ في النسخ ولكنه يصرح بقوله «الياء المثناة».

(٣) قال أحمد زكي باشا في كتابه «السفر إلى المؤتمر»: وقد زرت جميع آثار سرقسطة العربية وغير العربية، وصعدت إلى قمة البرج المائل، وهو من صنع العرب المرتدين، وقد شرع القوم في تقويض دعائمه خوفًا من سقوطه ا.هـ. قلنا: إن هذا البرج هو من بناء العرب المدجنين، وكان يقال له البرج الجديد، ويظهر أنه دخل عليه وهن من أساسه، فصار مائلًا، وخافوا من سقوطه فهدموه. وليس العرب المدجنون في الحقيقة من المرتدين، وإنما أكرهوا على عدم إظهار شعائر الإسلام. وكان يقال لهم المدجنون وهي لفظة تفيد الإقامة والاستئناس في المكان، ومنه الحيوانات الداجنة، أي التي تألف البيوت، ووجه المناسبة أنهم أقاموا تحت حكم النصارى ودجنوا. وقد حرف الإسبانيول لفظة مدجن إلى مدجر Mudjar وصار يقال عندهم لفن البناء العربي ولكل شيء عربي، «مدجر» ولما كانوا يقلبون الجيم خاء صارت فيما بعد «مدخر» فكنا في «المدجن» وانتهينا إلى «المدخر».

(٤) Isidore de Beja يقال إنه من قرطبة، ترك باللاتينية تأليفًا تاريخه ٧٥٤ مسيحية، وذكره دوزي فقال: إنه كان قسيسًا. ولكن كتابته لا تدل على سخط شديد على العرب، وهو يروي مثلا أن امرأة الملك لذريق تزوجت بعبد العزيز بن موسى بن نصير ولا يجد في ذلك إثمًا كما كان يفعل غيره من القسيسين لو قص هذه الحادثة. قال دوزي إن كراهية ايزيدور الباجي للعرب هي بسبب كونهم شعبًا غريبًا عن شعبه لا من أجل عملهم.

(٥) ويقال Roncevalles والعرب يسمون هذا المضيق باب الشزري.

(٦) قال دوزي: إن عائلة بني قصيّ هذه أصلها من القوط وقد دانت بالإسلام في القرن التاسع وصارت لها سيادة عظيمة في الثغر الأعلى وكان موسى الثاني من

بني قصيّ لعهد الأمير محمد الأموي مستوليًا على سرقسطة وتطيلة ووشقة وعاهدته طليطلة، وكان شجاعًا مقدامًا تارة يناجز كونت برشلونة وطورًا كونت قشتالة وملك فرنسة. وكان هذا يصانعه ويرسل إليه بالهدايا وكان موسى لقب نفسه «بملك أسبانية الثالث» ومازال كذلك إلى أن مات، فاسترجع الأمير الأموي سرقسطة وتطيلة، لكن ظفره لم يطل لأن أولاد موسى بن قصيّ حالفوا أذفنش الثالث ملك ليون وقاتلوا عساكر السلطان وهزموها.

(٧) الأرجح أن باني الرواق العربي المذكور في كنيسة السيو هو من العرب المدجنين الذين كان منهم عدد غير قليل في سرقسطة إلى ما قبل هذا التاريخ بثلاثمائة سنة وقرأنا في دليل بديكر أن اسم هذا البناء المذكور هو الرامي، كما تقدم عند ذكر تلك الكنيسة.

(٨) جاء في نفح الطيب: ومن التابعين الداخلين إلى الأندلس حنش الصنعاني، وفي كتاب ابن بشكوال قال ابن وضاح: حنش لقب له واسمه حسين بن عبد الله، وكنيته أبو علي، قال ابن بشكوال: وهو من صنعاء الشام. وذكر أبو سعيد بن يونس في تاريخ أهل مصر وأفريقية والأندلس فقال: إنه كان مع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وغزا المغرب مع رفيقه رويفع بن ثابت، وغزا الأندلس مع موسى بن نصير وكان فيمن ثار مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان، فأتي به إلى عبد الملك في وثاق. فعفا عنه. وكان أول من ولي عشور أفريقية في الإسلام، وتوفي بأفريقية سنة مائة (سيأتيك خلاف هذه الرواية) قال ابن حبيب: دخل الأندلس مع التابعين حنش بن عبد الملك الصنعاني، وهو الذي أشرف على قرطبة من الفج المسمى بفج المائدة، وأذن في غير وقت الأذان فقال له أصحابه في ذلك، فقال: إن هذه لدعوة لا تنقطع من هذه البقعة إلا أن تقوم الساعة، هكذا ذكره غير واحد. قال المقري: وقد كشف الغيب خلاف ذلك، فلعل الرواية موضوعة، أو مؤولة، والله تعالى أعلم.

ثم قال: إن ابن عساكر في تاريخه طول ترجمته، وقال إن صنعاء المنسوب إليها قرية من قرى الشام، وليست صنعاء اليمن. وفي تاريخ ابن الفرضي أن حنشًا كان بسرقسطة وأنه الذي أسس جامعها. وبها مات. وقبره معروف عند باب اليهود بغربي المدينة.

قلنا: قد روى ابن عساكر عن الحميدي صاحب تاريخ الأندلس أن حنشًا كان مع موسى بن نصير، ويقال إنه هو الذي اختط جامع سرقسطة.

(٩) كان في برشلونة عامل يقال له سليمان الأعرابي حدثته نفسه بالاستقلال، فانتقض على الأمير عبد الرحمن الداخل، واستولى على سرقسطة، وعقد محالفة مع شارلمان الذي يقول له العرب قارلة. وقد استوفينا هذا الخبر في كتابنا «غزوات العرب في أوربة» في صفحة ١١٦ و١١٧ وخلاصته أن سليمان الأعرابي أسر ثعلبة المرسل من قبل عبد الرحمن الداخل، وأرسله إلى شارلمان حليفه. ويقال إن سليمان الأعرابي قصد هو وأمير آخر إلى فستفالية وتواجها مع شارلمان، فازداد طمع شارلمان في الزحف إلى الأندلس، وكان يظن أن المسيحيين في الأندلس سيثورون بأجمعهم وينضمون إليه فزحف سنة ٧٧٨ فلم يصب حسبانه من جهة المسيحيين، لأن أهل تلك الجبال أبوا أن يخضعوا لأجنبي أيا كان؛ فاضطر شارلمان أن يقاتلهم وأن يحاصر بنبلونة، ولم يفتحها إلا بعد قتال شديد. ولما وصل إلى سرقسطة قاومه العرب أشد المقاومة، مع أنه كان يظن أن سليمان الأعرابي وغيره من الخارجين عن طاعة قرطبة سينضمون إليه. أما رفعه الحصار عن سرقسطة فمرؤخو العرب يقولون إن شارلمان عجز عن أخذها، فانصرف عنها بينما مؤرخو الإفرنج يقولون إنه بينما كان شارلمان يحاصر سرقسطة جاء الصريخ بأن أمة الكسون قد أبت أن تترك ديانتها الوثنية وزحفت للقتال، فاضطر إلى الرجوع، وفي أثناء رجوعه عندما وصل إلى وادي «رونزفو» انقض عليه المسيحيون الجبليون فأوقعوا بساقة جيشه واستأصلوها، وهلك ذلك اليوم كثير من أبطال الفرنسيس، بينهم رولان الفارس الشهير.

(١٠) قد ذكر جغرافيو العرب من أعمال سرقسطة شلونة، قال ياقوت: حصن بقرب سرقسطة، ينسب إليه علي بن إسماعيل بن سعيد بن أحمد بن لب بن حزم الخزرجي، قرأ على ابن عطية الغرناطي الحديث، وعلى ابن طراوة المالقي النحو، وأبوه أيضًا مقرئ نحوي، لقبهما وكتب عنهما. ا.هـ. وذكروا قتندة، أو كتندة، وهي التي وقعت فيها الواقعة الشهيرة بين المسلمين والإسبانيول، ومحض فيها المسلمون، واستشهد فيها إمام المحدثين القاضي أبو علي الحسين بن محمد بن فيره بن حبون بن سكره الصدفي السرقسطي، في ربيع الأول سنة ٥١٤ عن ستين سنة. وكان أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ألزمه أن يقلده القضاء بمرسية في شرقي الأندلس، فتقلده على كره منه سنة ٥٠٥، ثم استعفى فلم يعفه، فاختفى مدة حتى أعفاه، ولكنه غضب عليه مدة، ثم رضي عنه وحضه على نشر العلم، وكان لهذا الرجل فضائل كثيرة، ورحلة إلى الشرق، لقي فيها جلة من العلماء، وقد ألف الحافظ ابن الأبار القضاعي البلنسي كتابًا

اسمه المعجم في أصحاب الإمام أبي علي الصدفي، ذكر فيه أسماء من أخذوا عنه، وهو مما طبعه قديرة في مجريط.

وذكروا «القناطر» بقرب «روطه» من عمل سرقسطة، ينسب إليها أحمد بن سعيد بن علي الأنصاري القناطري، يكنى أبا عمر، سمع بقرطبة، ورحل إلى المشرق، وتوفي بأشبيلية سنة ٤٢٨.

وذكروا «أشبرة» من قرى سرقسطة، ينسب إليها أناس من أهل العلم، منهم خلف بن موسى بن فتوح الأشبري.

وذكروا «إشكرب» بكسر أوله وراء ساكنة، وباء موحدة، ينسب إليها أبو العباس يوسف بن محمد بن فاره الإشكربي، نشأ بحيان، وسافر إلى الشرق، ومات ببلخ سنة ٥٤٨.

وذكروا «بيطرة» وقال ياقوت: إنها من حصون سرقسطة.

وذكروا «منيونش» وقالوا إنها من نواحي بربشتر من عمل سرقسطة.

وقد تعذر علينا المطابقة بين أسماء هذه الأماكن بالعربي، وأسمائها بالإسبانيولي ولم نشأ التخمين.

وأما نهر شلون Jalon فهو جار في عمل سرقسطة، وله ناحية اسمها شلون ينسب إليها إبراهيم بن خلف بن معاوية من أصحاب أبي عمرو المقرئ.

الفصل الحادي والثلاثون

من انتسب إلى سرقسطة من أهل العلم

قال ياقوت الحموي: وينسب إلى سرقسطة أبو الحسن علي بن إبراهيم بن يوسف السرقسطي، قال السلفي: كان من أهل المعرفة والخط. وكان بيني وبينه مكاتبة. وأنبل من نسب إلى سرقسطة ثابت بن حزم بن عبد الرحمن بن مطرف بن سليمان بن يحيى العوفي، من ولد عوف بن غطفان، سمع بالأندلس، ثم رحل إلى الشرق هو وابنه قاسم، فسمعا بمكة ومصر، وتوفي ثابت بسرقسطة عن ٩٥ سنة، وكان مولده سنة ٢١٧. وابنه قاسم بن ثابت كان أعلم من أبيه، وأنبل وأروع، ويكنى أبا محمد، رحل مع أبيه فسمع معه، وعني بجمع الحديث واللغة، فأدخل إلى الأندلس علمًا كثيرًا. ويقال إنه أول من أدخل كتاب العين للخليل إلى الأندلس. وألف قاسم بن ثابت كتابًا في شرح الحديث سماه كتاب الدلائل، بلغ فيه الغاية من الإتقان، ومات قبل كماله، فأكمله أبوه ثابت بعده. قال ابن الفرضي: سمعت العباس بن عمرو الوراق يقول: سمعت أبا علي القالي يقول: كتبت كتاب الدلائل، وما أعلم وُضع في الأندلس مثله. ولو قال إنه ما وضع في الشرق مثله ما أبعد. وكان قاسم عالمًا بالحديث والفقه، متقدمًا في معرفة الغريب والنحو والشعر، وكان مع ذلك ورعًا ناسكًا أُريد على أن يلي القضاء بسرقسطة فامتنع من ذلك وأراد أبوه إكراهه عليه، فسأله أن يتركه يتروى في أمره ثلاثة أيام، ويستخير الله فيه، فمات في هذه الثلاثة الأيام. يقولون إنه دعا لنفسه بالموت، وكان يقال إنه مجاب الدعوة، وهذا عند أهله مستفيض. قال الفرضي: قرأت بخط الحكم المستنصر بالله: توفي قاسم بن ثابت سنة ٣٠٢ بسرقسطة، وابنه ثابت بن قاسم بن ثابت من أهل سرقسطة، سمع أباه وجده، وكان مليح الخط، حدّث بكتاب الدلائل، وكان مولعًا بالشراب وتوفي سنة ٣٥٢. قال: وجدته بخط المستنصر بالله أمير المؤمنين، انتهى. قلنا: لا يخفى أن

الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر كان معدودًا من العلماء والحكماء، وقد ترك آثارًا من قلمه.

قلنا: وممن ينسب إلى سرقسطة من أهل العلم أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن فرتش، ابن عم القاضي محمد بن إسماعيل، روى عن أبي عمر الطلمنكي والقاضي أبي الحزم بن أبي درهم، وابن محارب، وغيرهم. واستقضي ببلده، وكان فاضلًا ديّنًا عالمًا، أخذ الناس عنه ولد سنة ٣٩٠، وتوفي سنة ٤٨٠. ترجمه ابن بشكوال. وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن سعيد العبدري، يعرف بابن سماعة، من أهل سرقسطة خطيبها، حدّث عن أبي عمر الطلمنكي وغيره، وحدّث عنه أبو علي بن سكرة، وقال: هو مشهور بالصلاح التام، وأجاز له. وقال: توفي في سنة ٤٧٢، ودفن هو وأبو الحسين بن القاضي أبي وليد الباجي، وصلى عليهما في وقت واحد، وموضع واحد. وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن هاشم الهاشمي، سمع من القاضي محمد بن فرتش، وأبي القاسم مفرج بن محمد الصدفي، وسمع بمصر من أبي العباس بن نفيس مسند الجوهري، وسئل عنه أبو علي بن سكرة فقال: رجل صالح، كان يحفظ الموطأ والبخاري، ورأيته يقرأ من حفظه كتاب البخاري على الناس في ما بين العشائين بالسند والمتابعة، لا يخل بشيء من ذلك. وأبو عبد الله محمد بن حارث بن أحمد بن منيوه النحوي، كان من جلة أهل الأدب، روى عن أبي عمر أحمد بن صارم الباجي، وحدث عنه أبو الحسن علي بن أحمد المقرئ، لقيه بغرناطة سنة ٤٧٣ وأخذ عنه. وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله المقرئ، روى عن أبي عبد الله بن شريح، وأبي عبد الله بن مهلب. قال ابن بشكوال: أخذ عنه القراءات شيخنا القاضي الإمام أبو بكر بن العربي، وذكر أنه كان شيخًا صالحًا، وكان يقرئ الناس بحاضرة أشبيلية، وتوفي بعد سنة ٥٠٠.

وأبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن محمد بن عقبى الكلبي، كان فقيهًا عالمًا زاهدًا ورعًا، لم يمسح على الخفين قط، وكان مع ذلك يفتي بالمسح. وأراد المقتدر بن هود أن يوليه الأحكام فأبى عليه، وحلف ألا يقبلها، فأعفاه منها، وتوفي سنة ٤٦٨ في المحرم. وأبو المطرف عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن فرنش، كان فقيهًا أديبًا دينًا عاقلًا من أخط الناس، وكان فصيح اللسان، عارفًا بعقد الشروط، وكتب لابن عمه القاضي محمد بن إسماعيل بن فرتش، وتوفي سنة ٤٦٨. ترجمه ابن بشكوال، وترجم الذي قبله. وكذلك في صلة ابن بشكوال ترجمة أبي زيد عبد الرحمن بن شاطر، من أدباء سرقسطة. قال: كان ذا فضل وأدب وافر وشعر، ثم انزوى ولزم الانقباض. ومن شعره:

ولائمة لي إذ رأتني مشمرًا أهرول في سبل الصبا خالع العذر
تقول: تنبه ويك من رقدة الصبا فقد دب صبح الشيب في غسق الشعر
فقلت لها: كفي عن العتب واعلمي بأن ألذ النوم إغفاءة الفجر

ومن تراجم ابن بشكوال سيرة أبي زيد عبد الرحمن بن سنتيل الأنصاري، من أهل سرقسطة، كان صهر القاضي أبي علي بن سكرة، وقد أخذ عنه أبو علي تبركًا به، روى عن القاضي محمد بن فرتش، وكان صالحًا ورعًا منقبضًا، مقبلًا على ما يعنيه ويقربه من ربه عز وجل، وكان ممن يتبرك بلقائه، وكان أيضًا أديبًا شاعرًا.ومن شعره:

سأقطع عن نفسي علائق جمة وأشغل بالتلقين نفسي وباليا
وأجعله أنسي وشغلي وهمتي وموضع سري والحبيب المناجيا

وكتب إلى القاضي أبي علي بن سكرة:

كتبت لأيام تجد وتلعب ويصدقني دهري ونفسي تكذب
وفي كل يوم يفقد المرء بعضه ولا بد أن الكل منه سيذهب

وأبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن أبي الخير بن علي الأنصاري، من أهل سرقسطة، سكن قرطبة، روى بسرقسطة عن القاضي أبي الوليد الباجي، واختص به، وعن القاضي أبي محمد بن فرتش، وعن أبي العباس العذري، ومحمد بن سعدون القروي، وأبي داود المقري، وكان عارفًا بالأصول والفروع، معنيًا بالقراءات وتجويدها، حافظًا للقرآن العظيم، حسن الصوت به، جميل العشرة، كامل المروءة، بارًّا بإخوانه، قال ابن بشكوال: أخذ عنه أبو علي الغساني الحافظ، ورأيت قراءاته مقيدة عليه في أحد كتبه، وحدث عنه أيضًا القاضي أبو عبد الله بن الحاج في برنامجه، وغيره من كبار شيوخنا، وقرأت عليه كثيرًا من روايته، وأجاز لي ما رواه بخطه غير مرة، وصحبته إلى أن توفي رحمه الله ضحوة يوم السبت، ودفن يوم الأحد الثاني عشر من رجب سنة ٥١٨، ودفن بمقبرة الربض، وصلى عليه أخوه أبو جعفر.

وأبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي من أهل سرقسطة، سكن قرطبة، قال ابن بشكوال عنه: صاحبنا سمع من أبي علي الصدفي كثيرًا، ومن أبي

محمد بن ثابت، وأبي عمران بن أبي تليد، وأبي محمد بن السيد، وبقرطبة وأشبيلة من غير واحد من شيوخنا. وكان مقدمًا في اللغة العربية، شاعرًا محسنًا، وله مقامات من تأليفه، أخذت عنه واستحسنت، قال وتوفي رحمه الله بقرطبة في جمادى الأولى من سنة ٥٣٨. وأبو القاسم مسعود بن علي بن آدم، حدث عنه أبو عمرو المقري، وأبو القاسم مفرّج بن محمد الصدفي، روى بالمشرق عن أبي القاسم الجوهري مسنده في الموطأ، وعن أبي حسن الحلبي، قال ابن بشكوال: سمع الناس منه ببلده سرقسطة، وكان شيخًا صالحًا، وتوفي في جمادى الآخرة سنة ٤٤٠، ودفن بباب القبلة. وأبو عبد الله مزاحم بن عيسى، روى عن أبي إسحاق بن شعبان، وأبي القاسم حمزة بن محمد وغيرهما، توفي سنة ٣٩٤. وأبو العباس الوليد بن بكر بن مخلد بن أبي زياد العمري رحل وسمع من الحسن من رشيق وطبقته، وألف كتابًا اسمه «الوجازة، في صحة القول بالإجازة» وذكر أنه لقي في رحلته نيفًا على ألف شيخ، بين محدث وفقيه، وسمع منهم، وقد سمع من أبي عباس الوليد السرقسطي المذكور: أبو ذر الهروي، وأبو عمر المليحي وأبو القاسم بن الحسن التنوخي، وغيرهم، قال ابن بشكوال: ذكره الخطيب وقال: كان ثقة أمينًا كثير السماع والكتاب في بلده وفي الغربة، وهو عالم فاضل. وقال الخطيب: حدثني القاضي أبو العلاء محمد بن علي الواسطي قال: توفي الوليد بن بكر الأندلسي بالدينور سنة ٣٩٢. وأبو محمد وضاح بن محمد بن عبد الله بن مطرف بن عباد الرعيني، سمع من أبي بكر الطلمنكي، وأبي عبد الله بن الحذاء، وأبي بكر بن زهر وغيرهم، ورحل إلى المشرق سنة ٤١٨، فلقي بالقيروان أبا عمران الفاسي، وأخذ عنه، ولقي بمصر أبا القاسم عبد الجبار بن أحمد بن عمر الطرسوسي، قال ابن بشكوال: ومولده سنة ٣٨١، قرأته بخط أبي الوليد صاحبنا. وأبو محمد يحيى بن إبراهيم بن محارب، روى عن القاضي أبي محد الثغري، وعبدوس بن محمد، ورحل إلى المشرق وحج، وروى عن أبي القاسم السقطي، وأبي موسى بن حنيف وغيرهما، وكان فاضلًا زاهدًا، روى عنه الصاحبان، وقاسم بن هلال، وعمر بن كريب، وموسى بن خلف بن أبي ادرهم، ووضاح بن محمد السرقسطي، وقال: كان من أهل الدين والورع، ما رأيت أورع منه في وقته. توفي سنة ٤١٤. ترجمه ابن بشكوال.

وأبو الحسن يحيى بن فرج بن يوسف الأنصاري، له رحلة إلى المشرق سنة ٤٢٥ سمع فيها من محمد بن الفضل بن نظيف وغيره، وكتب بخطه علمًا كثيرًا، وتصدر للإقراء ببلدة سرقسطة، وكان يعرف فيها بابن المصري. وأبو الحجاج يوسف بن موسى

الكلبي الضرير، له سماع من أبي مروان بن سراج، وأبي علي الجياني وغيرهما، وكان من أهل النحو، متقدمًا في علم التوحيد. قال ابن بشكوال: وهو آخر أئمة المغرب، أخذ عن أبي بكر المرادي، وكان مختصًّا به، وله تصانيف حسان، وأراجيز مشهورة، وانتقل أخيرًا إلى العدوة، وسكن حضرة السلطان، فتوفي بها سنة عشرين وخمسمائة. وأبو سعيد خلف بن عثمان بن مفرّج، كانت له رحلة إلى المشرق، وحج فيها، وكان خيّرًا فاضلًا، مشاورًا في الأحكام ببلدة سرقسطة. توفي في ربيع الأول سنة ٤٣٤. ذكره ابن بشكوال. وأبو علي الحسن بن محمد بن هالس الأزدي المقرئ، سمع من القاضي أبي عبد الله بن فرتش تاريخ ابن خيثمة، وروى عن أبي عمرو المقرئ، وأجاز له في صفر سنة ٤٠٤، وكان من جلة أصحابه. وهو أحد الشهود على أبي عمر الطلمنكي بخلاف السنة. قال ابن الأبار: غفر الله له. وحسين بن إسماعيل بن حسين الغفاري، من أهل سرقسطة، وأحد شهودها المعدلين، ونبهائها. قال ابن الأبار في التكملة: قرأت اسمه بخط أبي الحكم بن غشليان في نسخة العقد المرتسم ببراءة أبي عمر الطلمنكي، وإسقاط شهادة الذين نسبوه إلى مخالفة السنة. وذلك عن رأي القاضي محمد بن عبد الله بن فرتون في سنة خمس وعشرين وأربعمائة. وأبو الحزم خلف بن محمد بن خلف بن أحمد بن هاشم العبدري، صاحب الأحكام بسرقسطة، جده لأبيه، وهو المعروف بالقروذي، كان قاضي الجماعة بسرقسطة، وجده لأمه أبو الحزم خلف بن أبي درهم، كان قاضي وشقة، روى عن خاله أبي هارون موسى بن خلف وغيره، وأجاز له جده ابن أبي درهم، وقدم للنظر في جامع بلده سنة ٤٤١، ثم تولى الأحكام سنة سبع وستين. وكان فقيها زاهدًا، محببًا إلى الخاصة والعامة. وكان المستعين أبو جعفر بن المؤتمن بن هود يعرف له حقه ويكرمه، وكان يعوده في مرضه، ولد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٤١٢، وتوفي ليلة الأحد الموفي ثلاثين لذي الحجة سنة ٤٩٣، ودفن بمقبرة باب القبلة ظهر يوم الأحد، وشهد المستعين جنازته، ومشى أمامها راجلًا من داره إلى قبره، وتسامع الناس بموته فابتدروا حضورها، ولم يعهد بسرقسطة مثلها. وكان قد أوحى المستعين بالصلاة عليه، فقدم لذلك أبا عبد الله بن الصراف، صاحب الصلاة، وكفل ابنته، ولم يكن له عقب غيرها، فضمها إلى قصره. أكثره من أبي محمد بن نوح. وسماه عياض القاضي في الذين لقيهم أبو علي بن سكرة الصدفي بسرقسطة. وذكر ابن الدباغ أنه يحدث عنه، وقال: كان أحد الجلة الفضلاء، وذكره ابن بشكوال مختصرًا ا.هـ. قاله ابن الأبار في التكملة.

ومن هنا يعلم أن المستعين الثاني بن المؤتمن بن هود كان يكنى بأبي جعفر، فهو الذي يترجح أن يكون قصر الجعفرية منسوبًا إليه.

وأبو القاسم خلف بن خلف بن محمد بن سعيد بن إسماعيل بن يوسف الأنصاري يعرف بابن الأنقر، روى ببلدة سرقسطة عن أبي عبد الله بن الفراء الجياني، وعن عبد الله بن سماعة، صاحب الأحكام، وعن أبي عبد الله بن هاشم، وأبي عبد الله محمد بن يحيى بن فرتش، تفقه به، وصحبه ثمانية عشر عامًا، يسمع عليه المدونة، ويقرؤها، وأخذ العربية والآداب عن أبي عبد الله بن ميمون الحسيني، وذكر أبو عمرو زياد بن الصفار أن له رواية عن أبي عمر بن عبد البر، وكان من أهل الفقه والحديث والأدب، مقدمًا في الحفظ، صدر في المفتين يقرض من الشعر يسيرا. قال ابن الأبار في ترجمته: خرج من سرقسطة بعد أن استولى الروم عليها، واستوطن بلنسية أول سنة ٥١٧، ودرس بها وأسمع وأفتى، وشاوره قاضيها أبو الحسن بن واجب، وكان بسرقسطة يشاوره قاضيها أبو القاسم بن ثابت، ولم تخرج بلاد الثغر الشرقي أفضل منه ومن أبي زيد بن منتيال الخطيب، وكانا متعاصرين يشار إليهما بالعلم والصلاح. قال أبو بكر بن رزق: درس الفقه، وبرع فيه، واستفتى ببلده، ولزم الانقباض والزهد في الدنيا، وكان موصوفًا بالصلابة في الحق، والقوة في الدين، مع حسن الخلق ولين الجانب، اختلفت إليه وأخذت عنه، وكتب لي بخط يده، وروى عنه أبو مروان بن الصيقل، وأبو بكر بن نمارة، وأبو محمد أيوب بن نوح وغيرهم. ومن قول ابن الأنقر السرقسطي المذكور:

احفظ لسانك والجوارح كلّها فكل جارحة عليك لسان

واخزن لسانك ما استطعت فإنه ليث هصور والكلام سنان

توفي عن سن عالية، تنيف على الثمانين، ليلة الجمعة منسلخ شوال سنة ٥١٩. قرأت بعض ذلك بخط ابن نمارة. وعن ابن رزق أنه توفي في أول سنة عشرين، ودفن بمقبرة باب بيطالة، لصق قبر بلدية وصاحبه أبي زيد بن منتيال، انتهى، عن ابن الأبار. وأبو الحسن ذيال بن عبد الرحمن بن عمر الشريوني، من شريون بالثغر الشرقي[١] له سماع بسرقسطة من أبي الوليد الباجي، مع أبي داود المقري، وأبي محمد الركلي سنة ٤٦٣. عن ابن الأبار.

وطاهر بن محمد بن طاهر بن عبد الرحمن القرشي الزهري، من ولد أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوض، يعرف بابن الناهض، سكن سرقسطة، وروى عن أبي ذر الهروي، وأبي عمر الطلمنكي، وكان حسن الخط، ذكره ابن حبيش. ا.هـ. عن ابن الأبار. وأبو بكر الكميت بن الحسن. قال ابن الأبار في التكملة: سكن سرقسطة، وكان من شعراء عماد الدولة أبي جعفر بن المستعين بالله أبي أيوب بن هود. قال الحميد: لقيته وقرأت عليه كثيرًا من شعره. ا.هـ، قلت: قد كُنِّيَ هنا بأبي جعفر عماد الدولة ابن المستعين بالله بن هود، وعماد الدولة هو عبد الملك بن المستعين الثاني. والحال أن تقدم لابن الأبار في ترجمة أبي الحزم خلف العبدري أن المستعين بالله هو الذي كان يكنى بأبي جعفر، فلا تعلم هل الأب المستعين هو الذي كان يكنى بأبي جعفر أم هو الابن عبد الملك عماد الدولة؟ ولا شك بوقوع خطأ في النسخ. ومحمد بن نصر الجهني، كان أبوه نصر من أهل قرطبة، انتقل منها إلى سرقسطة عند هيج أهل الربض، وهو أخو إبراهيم بن نصر، قال ابن الفرضي: شاركته في رحلته، يعني التي سمع فيها من يونس بن عبد الأعلى، ومحمد بن إسماعيل الترمذي، والحارث بن مسكين، والمزني، والربيع بن سليمان صاحب الشافعي وغيره. ومحمد بن أحمد بن عبد الله بن سليمان بن صالح بن تمام العذري، يعرف بابن فرتش، وهو جد القاضي محمد بن إسماعيل بن محمد، رحل حاجًّا، ولقي محمد بن اللباد وغيره، وولي قضاء سرقسطة بلده، وقضاء تطيلة للخليفة الناصر وابنه المستنصر، ترجمه ابن الأبار. وأبو عبد الله محمد بن بسام بن خلف بن عقبة الكلبي، من أهل سرقسطة، وإمام الجامع بها، يروي عن أخيه عبد الله بن بسام، حدث عنه الصاحبان.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن قاسم يعرف بابن الأنصاري، روى عن أبيه، وولي أحكام القضاء ببلده سرقسطة، حدّث عنه ابن عبد السلام. انتهى عن ابن الأبار. ومحمد بن إسماعيل بن محمد، قاضي سرقسطة، وهو ابن فرتش، رحل مع أبيه إسماعيل، فسمع بالقيروان من أبي عمران الفاسي سنة ٤١٠.

ومحمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح التجيبي، من أهل سرقسطة، كان واليًا على وشقة، ثم تخلى عنها لابن عمه منذر بن يحيى التجيبي، كان مع رياسته من أهل العلم والأدب، له اختصار في غريب القرآن، استخرجه من تفسير الطبري، رواه عنه ابنه أبو الأحوص، معن بن محمد أمير المرية. قال ابن الأبار: ذكر ذلك ابن عبيد الله، ووقفت على وصيته لمعن هذا، منقولة من خط أبي بكر

بن زهر، وحكى ابن حيان أنه هلك عطبًا في البحر الرومي وكان قد ركبه من دانية يبغي الحج في مركب تأنق في صحبته، واستجاد آلته وعدته، وتخير أعدل الأزمنة، ومعه خلق كثير تشاحوا في صحبته، فعطب جميعهم سوى نفر منهم، تخلصوا للإخبار عنهم، ومضى هو لم يغن عنه حزمه ولا قوته، فكان اليم أقصى أثره. وذلك في سنة ٤١٩، زاد ابن زهر في جمادى الأولى بين يابسة والأندلس. انتهى

قلت: وغير بعيد من هناك، بالقرب من مينورقة، على مسافة خمسة كيلومترات من مرسى سيوداديلة Ciadadela غرق في عشرة فبراير سنة ١٩١٠ باخرة فرنسية اسمها الجنرال شانزي، وعطب جميع ركابها، إلا شخصًا واحدًا لا غير.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن فرتون، من أهل سرقسطة، وقاضي الجماعة بها، وهو الذي انتصر لأبي عمر الطلمنكي من الذين شهدوا عليه بأنه حروري سفاك للدماء، يرى وضع السيوف على صالحي المسلمين، فأسقط شهاداتهم، وكانوا خمسة عشر من الفقهاء والنبهاء بسرقسطة. وأسجل بذلك على نفسه في سنة ٤٢٥. انتهى من تكملة ابن الأبار. ومحمد بن رافع بن غريب الأموي أحد الشاهدين على الطلمنكي بخلاف السنة، وذلك لتشدده على أهل عصره وغيرهم ممن حركهم لمطالبته، فحضروا عند رافع بن نصر، وهو ابن أخي محمد هذا، وكتبوا رسمًا أوقعوا عليه شهاداتهم بما ذكر، فأسقطها القاضي ابن فرتون، وقمع تلك الجماعة ممتعضًا للطلمنكي. ذكره ابن الأبار. ومحمد بن يحيى بن محمد التجيبي كان معدودًا في فقهاء سرقسطة ونبهائها، وشاوره القاضي محمد بن عبد الله بن فرتون في قضية الطلمنكي والشاهدين عليه بخلاف السنة، وعفا الله عن جميعهم، فأفتى بإسقاط شهاداتهم.

وأبو عبد الله محمد بن وهب بن محمد بن وهب، وهو المعروف بنوح الغافقي، كان معدودًا من فقهاء سرقسطة، توفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٤٥٨، ودفن لظهر يوم الخميس بعده. وأبو عبد الله محمد بن ميمون القرشي الحسيني من أهل سرقسطة، ومن ولد الحسين بن علي رضي الله عنهما، روى عن أبي عمر القسطلي وغيره، وكان من أهل العلم بالعربية والآداب، مدرسًا لها، وعنه أخذ أبو القاسم بن الأنقر، وأبو مروان عبد الملك بن هشام وغيرهما، ولأبي محد الركلي[٢] إجازة منه. قال ابن الأبار في التكملة: قرأت بخط ابن الأنقر، وحدثني أبو عبد الله بن نوح عن أبيه أيوب، وأبو الخطاب بن واجب عن ابن رزق جميعًا قال: حدثني الفقيه الأديب النحوي أبو عبد الله محمد بن ميمون الحسيني، قراءة مني عليه في مسجد الجزارين بسرقسطة،

قال: كانت لي في صبوتي جارية، وكنت مغرى بها، وكان أبي رحمه الله يعذلني فيها، ويعرض لي ببيعها، لأنها تشغلني عن الطلب، فكان عذله يزيدني إغراء بها، فرأيت في المنام كأن رجلا يأتيني في زي أهل المشرق كل ثيابه بيض، وكان يلقي في نفسي أنه الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان ينشدني:

تصبو إلى ميٍّ ومي لا تَني   تُزهى ببلواك التي لا تنقضي
ونِجارُك القوم الأُلَي ما منهمُ   إلا إمامٌ أو وصي أو نبي
فاثن عنانك للهدى عن ذا الهوى   وخف الاله عليك ويحك وارعوي

قال: فانتبهت فزعًا مفكرًا فيما رأيته، فسألت الجارية: هل كان لها اسم قبل أن تتسمى بالاسم الذي أعرفه؟ فقالت لا. ثم عاودتها، حتى ذكرت أنها كانت تسمى بمية، فبعتها حينئذ، وعلمت أنها وعظ وعظني الله عز وجل به، وبشرى.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يونس بن حبيب بن إسماعيل الأنصاري، روى عن أبي عمر بن عبد البر، وأبي عمرو المقري، وأبي الوليد الباجي، وأبي عبد الله بن فرتش القاضي، وأبي عبد الله بن سماعة، وأبي الوليد الوقشي، ورحل حاجًّا، فقدم دمشق، وحدّث بها عن هؤلاء، ذكره ابن عساكر وقال: سمع منه أبو محمد بن الأكفاني، وحكى عنه تدليسًا ضعّفه به. وتوفي في جمادى الأخرى، وقيل في رجب سنة ٤٧٧. عن ابن الأبار. وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عباس يعرف بابن المواق، روى عن الباجي وابن سعدون القروي وغيرهما. وتولى قضاء روطة من أعمال سرقسطة، وكان فقيهًا حافظًا، وأديبًا ماهرًا، توفي سنة ٥٠٣ عن ابن حبيش. قاله ابن الأبار. وأبو عبد الله محمد بن عبد الملك التجيبي المقرئ، قال ابن الأبار: أحسبه سرقسطيًّا. يروي عن محب بن حسين أحد أصحاب ابن سفيان، مؤلف الهادي في القراءات، أخذ عنه أبو مروان بن الصيقل. وأبو عبد الله محمد بن وهب بن محمد بن وهب بن محمد بن وهب، وهو المعروف بنوح الغافقي، كان فقيهًا مشاورًا معظمًا عند الخاصة والعامة، يرعاه السلطان ويأتمنه على حرمه وقصره. وخرج من وطنه بعد أن ملكته الروم، فنزل بلنسية، وولاه القاضي حسن بن واجب قضاء جزيرة شقر، وبها توفي ليلة الخميس آخر شهر صفر سنة ٥١٨، ودفن بقبلي جامعها، حدّث عنه ابنه أيوب. قال ابن الأبار: وبخطه قرأت وفاته. قلنا: ظاهر أن المترجم هنا هو حفيد محمد بن وهب بن محمد بن وهب، المعروف بنوح الغافقي، المتوفى سنة ٤٥٨، وقد تقدمت

ترجمته. وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن سهل الأنصاري الأوسي، من أهل سرقسطة، سكن بلنسية، يعرف بابن الخراز، روى عن أبي عبد الله بن أوس الحجاري، وأبي العباس العذري، وأبي الوليد الوقشي، واختص به، وسمع منه روايته، وهو كان القارئ لما يؤخذ عنه، وكان أديبًا، وشاعرًا، راوية، مكثرًا، حسن الخط. وكان أبوه أبو جعفر أيضًا شاعرًا، وهو الذي خاطبه أبو عامر بن غرسية بالرسالة المشهورة. حدّث عنه أبو محمد القلني،[٣] وأبو عبد الله بن إدريس المخزومي، وأبو الطاهر التميمي وغيرهم، وقال ابن الدباغ: أقرأ القرآن بالثغر، وكان عنده أدب صالح. عن ابن الأبار. وأبو عبد الله محمد بن عقال المقري، سمع من الباجي والعذري، وله رحلة حج فيها، حدث عنه أبو الفضل بن عياض. وأبو القاسم محمد بن عبد العزيز بن محمد بن سعيد بن معاوية بن داود الأنصاري، سرقسطي أصله من دروقة، وقد تقدمت ترجمته فيمن انتسب إلى دروقة، وتوفي قبل العشرين وخمسمائة، وثكله أبوه. وأبو بكر محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن أحمد العذري، يعرف بابن فرتش، روى عنه عمه القاضي أبو محمد عبد الله بن محمد، سمع منه مسند أبي بكر البزار، ومنه سمعه أبو علي الصدفي، وكان أبو علي هذا قد استجاز له ولجماعة معه أكثر شيوخه الجلة بالمشرق، كأبي الفوارس الزينبي، وابن خيرون، والمبارك بن عبد الجبار وطبقتهم، وولي الأحكام بسرقسطة، ثم خرج منها بعد غلبة العدو عليها، وجوّل ببلاد الأندلس، وحدث، وسمع منه بغرناطة أبو جعفر بن الباذش، وأبو عبد الله النميري. وحكى عنه ابن بشكوال وفاة جده القاضي محمد بن إسماعيل. وتوفي بعد الثلاثين وخمسمائة. عن ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن أبي سعيد الفرج بن عبد الله البزار، لقي بدانية أبا الحسنِ الحسنَ الحصري، وسمع منه بعض منظومه، ورحل حاجًّا، ودخل العراق، فأجاز له ابن خيرون، والحميدي. وأبو زكريا التبريزي، والمبارك بن عبد الجبار، وهبة الله بن الأكفاني وغيرهم، ونزل الإسكندرية وحدّث بها، وأخذ عنه الناس، وتوفي هناك. وأبو عبد الله محمد بن خليل بن يوسف بن نظير الأنصاري، من أهل سرقسطة، سكن بلنسية، أخذ عن أبي المطرف بن الوراق، وأبي محمد بن سمحون، وكان سماعه من هذا في سنتي ثلاثين وإحدى وثلاثين وخمسمائة. عن ابن الأبار. وأبو حاتم محمد بن أحمد بن عيسى بن إبراهيم بن مزاحم من أهل سرقسطة، كان معنيًّا بالفقه، موصوفًا بالزهد والنزاهة، توفي ببلنسية عصر يوم الخميس الثالث عشر لرجب سنة ٥٣٣. نقل ذلك ابن الأبار عن أيوب بن نوح.

وأبو جعفر محمد بن حكم بن محمد بن أحمد بن باق، من أهل سرقسطة، جده ذو الوزارتين محمد بن أحمد صاحب مدينة سالم، قتل فيها سنة ٤٢٠، روى أبو جعفر عن أبي وليد الباجي، وأبي عبد الله محمد بن يحيى بن هاشم والقاضي أبي الأصبغ بن عيسى، وأبي جعفر بن جرّاح، وأبي عبيد البكري، وعبد الدائم القيرواني، وأبي الفوارس بن عاصم وغيرهم، واستقر بمدينة فاس وأفتى بها، وولى أحكامها، وأقرأ العربية، وكان ذا حظ من علم الكلام، حسن الخلق، قوالًا بالحق، وله شرح على الإيضاح لأبي علي الفارسي، وكان واقفًا على كتبه، وعلى كتب أبي الفتح بن جني، وأبي سعيد السيرافي، وقد حدّث عن أبي جعفر المذكور أبو الوليد بن خيره وأبو مروان بن الصيقل الوشقي، وأبو محمد بن رحمان، وأبو عبد الله الأندي، وأبو محمد بن بونة، وأبو الحسن اللواتي، وغيرهم، وتوفي بتلمسان في نحو سنة ٥٣٨، روى ابن الأبار أكثر هذه الترجمة عن ابن حبيش. أبو بكر بن محمد بن يوسف بن سليمان بن محمد بن خطاب القيسي، من أهل سرقسطة، سكن مرسية، يعرف بابن الجزار، أخذ العربية عن أبي بكر بن الفرضي، وأبي محمد البطليوسي، وسمع الحديث من أبي علي الصدفي، وأبي محمد بن أبي جعفر، وأجاز له أبو عبد الله الخولاني، وقعد للتعليم بالعربية، وكان مشاركًا في القراءات، أديبًا كاتبًا شاعرًا، وجرت بينه وبين أبي عبد الله بن خلصة مسائل في إعراب آيات من القرآن ظهر عليه فيها، وضمّن ذلك رسالة أخذها عنه أبو عبد الله المكناسي في اختلافه إليه لقراءات النحو عليه، وقال: قتل بناحية غرناطة سنة ٥٤٠. تلخيصًا عن ابن الأبار. وأبو عبد الله محمد بن سليمان التجيبي السرقسطي، منها نزل المرية، كان من أهل المعرفة بالقراءات والفرائض والحساب، وله في ذلك تواليف. وأبو الوليد محمد بن عريب بن عبد الرحمن بن عريب العبسي من أهل سرقسطة، سكن شاطبة، روى عن أبي علي الصدفي وأبي محمد بن عتاب، وأبي بكر بن العربي، وأبي القاسم بن ورد، وأجزل له الرئيس أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر، وأبو بكر غالب بن عطية، وأبو الحسن بن الباذش وغيرهم، وتصدر للإقراء بشاطبة، وولى بها الصلاة والخطبة، قال ابن الأبار في التكملة: أخذ عنه شيخنا أبو عبد الله بن سعادة المعمر قراءة نافع، وأجاز له جميع رواياته. وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن مجبر التجيبي السرقسطي، نزيل مصر، كان مقرئًا متصدرًا بمقربة من جامعها العتيق، ذكره ابن حوط الله وقال: أجاز لي في سنة ٥٨٤ قاله ابن الأبار. وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد الرعيني السرقسطي، يلقب بالركن، كان فقيهًا متحققًا بعلم الكلام، متقدمًا فيه، يناظر عليه في

الإرشاد لأبي المعالي وغيره، تولى قضاء معدن عوام، بمقربة من مدينة فاس، أخذ عنه أبو الحسن بن خروف، وأبو سليمان بن حوط الله، لقيه بمالقة سنة ٥٨٧، وقال توفي سنة ٥٩٨. وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الأنصاري من أهل غرناطة، أصله من سرقسطة، يعرف بابن الصقر، روى عن أبيه أبي العباس وأبي عبد الله النميري، وغيرهما، وولي القضاء، وكان بارع الخط، وكتب علمًا كثيرًا.

وأبو سعيد مسعود بن سعيد من أهل سرقسطة، وصاحب الصلاة بها، روى عن أبي بكر اللآجري، حدث عنه أبو الحزم خلف بن مسعود بن الجلاد الوشقي. قال ابن الأبار في التكملة: وذكر ابن الفرضي مسعود بن عبد الرحمن الحنتمي الثغري، وكناه أبا سعيد، وقال إنه سكن قرطبة، ولم يذكر له رواية عن الآجري، ولا جعله من أهل سرقسطة، ولا أدري أهو هذا وغلط في نسبه أم غيره؟ قلنا: لا يوجد دليل على كون ابن الفرضي قصد بمسعود بن عبد الرحمن الحنتمي رجلًا اسمه مسعود بن سعيد كان صاحب الصلاة في سرقسطة.

وأبو الأحوص معن بن معن بن معن الأنصاري، نسبة في البربر، ويتولى الأنصار، من أهل سرقسطة، وأحد رجالاتها، ومدرك جماعتها. قال ابن الأبار: قرأت اسمه ونسبه في الأمان الذي عقده الناصر عبد الرحمن بن محمد لصاحب سرقسطة محمد بن هاشم التجيبي، عند انخلاعه عنها، وولي قضاء بلده سرقسطة سنة ٣٢٦ من قبل الناصر، وكان حصيف العقل، معروفًا بالدهاء، له فهم وإدراك، ولا ينسب إليه فقه ولا علم، ذكر ذلك محمد بن حارث، ولم يزل قاضيًا بسرقسطة إلى أن توفي سنة ٣٣٠. ونصر بن عيسى بن نصر بن سحابة، من أهل مدينة سالم، سكن سرقسطة، وكان أديبًا ذا معرفة بالعروض. قال ابن الأبار في التكملة: وقفت له على تأليف في العروض ليس بذلك، صنعه للمؤتمن أبي عمر يوسف بن المقتدر أبو جعفر بن هود، صاحب سرقسطة، ولابنه وولي عهده أبي جعفر المستعين. ا.هـ.

ظهر من هنا أن كلًّا من المقتدر بن هود وابنه المستعين الثاني يكنى بأبي جعفر، وأن قصر الجعفرية هو منسوب إليهما.

وأبو العلاء نام بن محمد بن ديسم بن نام، كان من أهل الأدب والبلاغة، وكتب لبعض الرؤساء، وكان يقرض الشعر، قال ابن الأبار: واستجاز له أبو علي الصدفي، ومن خطه نقلت اسمه، ولجماعة معه من أهل سرقسطة وبلادها، وتوفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة. وأبو محمد عبد الله بن ثابت بن سعيد بن ثابت بن قاسم بن

ثابت بن حزم العوفي، كان يحدث بالدلائل، تأليف جده الأعلى قاسم بن ثابت، عن أبيه، متصلًا في سلفه إلى المؤلف، وكان فقيهًا مشاورًا جليلًا، عريقًا في النباهة والعلم، شاوره القاضي محمد بن عبد الله بن فرتون فيما شهد به علي أبي عمر الطلمنكي، من كونه حروريًّا على خلاف السنة، وكان معه جماعة هو صدرهم، فأفتوا بإسقاط شهادات المتألبين على الطلمنكي. حدث عن أبي محمد المذكور ابنه القاضي أبو القاسم ثابت بن عبد الله، آخر من حدث من أهل بيتهم. وأبو محمد عبد الله بن علي الأنصاري من ذرية الحسين بن يحيى بن سعيد بن قيس بن سعد بن عبادة، تولى الصلاة ببلده مضافة إليه من قبل المؤتمن أبي عمر يوسف بن المقتدر أبي جعفر بن هود، وكان فاضلًا من بيت علم ورئاسة، وكانت وفاة المؤتمن في سنة ٤٧٨، روى ذلك ابن الأبار عن محمد بن نوح. وعبد الله بن سعيد بن عبد الله اللخمي أحد الفقهاء المشاورين في سرقسطة، وهو ممن أفتى بإسقاط شهادة من شهدوا على الطلمنكي بمخالفته للسنة. وأبو محمد عبد الله بن موسى بن ثابت، له سماع من أبي العباس العذري، أخذ عنه صحيح مسلم. وأبو الحسين عبد الله بن مروان بن عبد الله بن محمد بن حفصيل، من ولد حفص بن سليمان، راوية عاصم بن أبي النجود القارئ، أخذ عن أبي يونس عبد الله بن هذيل القلعي، وأخذ عنه أبو عمرو البلجيطي المقرئ. وأبو بكر عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عمير الثقفي، روى ببلده سرقسطة عن صاحب الأحكام أبي الحزم خلف بن هاشم، وأخذ عن أبي علي الصدفي. قرأ عليه بمرسية رياضة المتعلمين لأبي نعيم في سنة ٤٩٥، وسمع بقرطبة من أبي بحر الأسدي بعد خروجه من سرقسطة سنة ٥١٦، وتوفي بمدينة فاس سنة ٥٢٩ ذكر وفاته ابن حبيش.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن مقاتل التجيبي، من أهل بلنسية، أصله من سرقسطة، صحب القاضي أبا بكر بن أسد، وتفقه به، وحضر مجلس أبي محمد بن عاشر، وكان فقيهًا عارفًا بعقد الشروط متقنًا لها، قال أبو محمد بن نوح: توفي ليلة الجمعة الثالث والعشرين من صفر سنة ٥٥٢، ترجمه ابن الأبار. وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي يحيى بن محمد بن مطروح التجيبي، من أهل بلنسية، أصله من سرقسطة، سمع أباه وأبا العطاء بن نذير، وأبا عبد الله بن نسع، وأبا الحجاج بن أيوب، وأبا الخطاب بن واجب، وأبا ذر الخشني، والقاضي أبا بكر عتيق بن علي وغيرهم. وأكثر من أخذ عنه هو أبو عبد الله بن نوح، فقد تلقى عنه القراءات والأدب، ولازمه طويلًا، وأجاز له أبو بكر بن الجد، وأبو عبد الله بن الفخار،

وأبو عبد الله بن زرقون، وأبو القاسم بن حبيش، وأبو الحسن بن كوثر وغيرهم، وأجاز له من أهل المشرق أبو الطاهر بن عوف، وأبو عبد الله بن الحضرمي، وأبو الثناء الحراني، وأبو طالب التنوخي وغيرهم. وقال ابن الأبار: وولي بآخرة من عمره دانية، ثم صرف بي عندما قلدت ذلك في رمضان سنة ٦٣٣، ثم أعيد إلى قضائها بعد ذلك، لما استعفيت منه، وكان فقيهًا عارفًا بالأحكام، عاكفًا على عقد الشروط، من أهل الشورى والفتيا، أديبًا شاعرًا مقدمًا فكهًا، صدوقًا في روايته، سمعت منه حكايات وأخبارًا، وأنشدني لنفسه ولغيره كثيرًا، وأجاز لي غير مرة لفظًا جميع ما رواه وأنشأه، وروى عنه بعض أصحابنا. توفي ببلنسية مصروفًا عن القضاء عند المغرب من ليلة الجمعة التاسع لذي القعدة سنة ٥٣٦، والروم محاصرون بلنسية، ودفن بمقبرة باب الحنش لصلاة ظهر الجمعة، قبل امتناع الدفن بخارجها، ومولده سنة ٥٧٤ انتهى. وأبو عبد الله بن الصفار، أخذ بسرقسطة عن أبي العباس أحمد بن علي بن هاشم المقري المصري في مقدمة سرقسطة سنة ٤٢٠، ذكره أبو عمر بن الحذاء في برنامجه. وأبو مروان عبيد الله بن هاشم بن خلف بن أحمد بن هاشم العبدري، روى عن أبي هارون موسى بن أبي درهم، وسمع من أبي وليد الباجي، وهو كان القارئ، عليه لصحيح البخاري بسرقسطة في رجب سنة ٤٦٣، وأخوه أبو الحزم خلف بن هاشم هو أيضًا من علماء سرقسطة.

وأبو الحكم عبيد الله بن علي بن عبيد الله بن غلندة الأموي، مولاهم، من أهل سرقسطة، لما تغلب العدو على بلده خرج مع أبيه وجده إلى قرطبة، وأخذ عن أبي عبد الله بن أبي الخصال، وأبي بكر يحيى بن الفتح الحجاري، ثم رحل عن قرطبة إلى أشبيلية فأوطنها، وكان أديبًا شاعرًا، وطبيبًا ماهرًا، وكان صناع اليدين أبرع الناس خطًّا، وأحسنهم ضبطًا، وكتب علمًا كثيرًا. قال ابن الأبار في التكملة: وأنشدني له بعض أصحابنا من لزومياته:

إذا كان إصلاحي لجسمي واجبًا   فإصلاح نفسي لا محالة أوجب
وإن كان ما يفنى إلى النفس معجبًا   فإن الذي يبقى إلى العقل أعجب

وتوفي بمراكش سنة ٥٨١، وحدثني الثقة أنه بلغ سبعًا وتسعين سنة ا.هـ. وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأموي البزار، يعرف بابن الصراف، روى عن أبي محمد الأصيلي، وأبي بكر بن موهب القبري، حدّث عنه ابن أخيه أبو عبد الله محمد بن عبد

الله بن محمد الخطيب بسرقسطة، ترجمه ابن الأبار. وعبد الرحمن بن عبد الله بن ميسرة، من أهل سرقسطة وقاضيها، ذكره أبو محمد بن نوح وقال: توفي يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت لرجب سنة ٤٤٢. ودفن يوم الأربعاء بعده، قال: وولي القضاء في آخر شعبان من السنة محمد بن إسماعيل بن فورتش. وفي هذه السنة، ولإحدى عشرة ليلة بقيت لرجب، احترق مع جامع سرقسطة البلاط الشرقي. نقلًا عن ابن الأبار. وأبو القاسم عبد الرحمن بن فرتون الأنصاري، روى عن أبي عمرو المقري، وحدث عنه بحياته بكتاب «تفكر الحافظ» من تأليفه، قال ابن الأبار: وقفت على ذلك في نسخة عتيقة منه، ويقال إن هذا الكتاب هو أول من ألفه أبو عمرو. وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن عياض اليحصبي المكتب، كان من القراء، ومن علماء الحساب، وأدّب بذلك، أخذ عنه أبو علي الصدفي، وعنده أكمل حفظ القرآن. وأبو القاسم عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الرحمن بن فورتش، رحل حاجًّا فسمع بمكة أبا ذر الهروي، وأجاز له أبو عمرو السفاقسي، ولأخيه القاضي أبي عبد الله محمد بن يحيى بن فورتش، لقيه أبو علي الصدفي ولم يسمع منه شيئًا. وعبد الرحمن بن موسى بن ميسرة من أهل سرقسطة أو ناحيتها، يحدث عن أبي الفوارس منجي بن موسى من أصحاب أبي بكر بن الخطيب.

وأبو بكر عبد الرحمن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عمير الثقفي، من أهل سرقسطة، سكن قرطبة، روى عن أبيه وعمه أبي بكر عبد الله بن يحيى، وأبي عامر بن شروية، وأبي الحسن بن مغيث، وأبي بكر بن العربي، وأبي عبد الله بن مكي، وأبي مروان بن مسرة، وأبي عبد الله بن أبي الخصال، وأبي الحكم بن غشليان، وأبي بكر يحيى بن موسى، سمع من منه بقرطبة فوائد ابن صخر. وكان من أهل العناية بالرواية، حسن الخط والضبط، أزعجته الفتنة بقرطبة [فذهب] إلى ميورقة فنزلها وحدث بها، وسمع منه أبو محمد بن سهل المنقودي، وغيره سنة ٥٣٨، رواه ابن الأبار. وعبد الملك بن هشام التجيبي، ويكنى أبا مروان، روى عن أبي عبد الله محمد القسطلي. وعبد العزيز بن جوشن، من أهل سرقسطة، كان فقيهًا مشاورًا، وولي الصلاة بجامعها. وكان ممن أفتى بإسقاط شهادات المتألبين على أبي عمر الطلمنكي.

وأبو جعفر عبد الوهاب بن محمد بن حكم الأنصاري، من سرقسطة، أخذ القراءات بطليطلة عن أبي عبد الله المغامي، وأجاز له أبو الفضل بن خيرون، من بغداد، في رمضان سنة ٤٨٦، وتصدر ببلده للإقراء، ومن مشاهير تلاميذه أبو محمد عبد الله بن إدريس بن سهل المقرئ، نزيل سبتة، وأبو محمد يحيى بن محمد بن حسان القلعي،

وأبو عبد الله محمد بن عيسى بن بقاء البلغي، نزيل دمشق، وأبو محمد بن سعدون الوشقي الضرير وغيرهم، واستشهد في وقيعة وشقة سنة ٤٨٩، في آخر ذي القعدة أو أول ذي الحجة منها، وهي إحدى الوقائع الفاجعات بالأندلس. قُتل فيها نحو عشرة آلاف من المسلمين، ذكر ذلك ابن الأبار القضاعي في التكملة.

وأبو عمر عثمان بن فرج بن خلف العبدري السرقسطي، حج فسمع من الرازي ومن أبي بكر بن عبد الله بن طلحة اليابري، وأبي الحجاج بن زياد الميورقي، وأبي الحسن علي البيهقي الزاهد، وسكن بالقاهرة. قال ابن الأبار: وروى عنه من شيوخنا أبو عبد الله الألشي، لقيه في جمادى الآخرة سنة سبعين وخمسمائة. وأبو عمرو عثمان بن يوسف بن أبي بكر بن عبد البر بن سيدي بن ثابت الأنصاري السرقسطي، ويقال له البلجيطي، أخذ القراءات عن أبي زيد الوراق، ويحيى بن محمد القلعي، وأخذ عن أبي زيد بن حياة قراءة نافع، واختلف إلى أبي جعفر بن شريح، وأبي الحسن بن طاهر في أخذ العربية، وسمع التيسير من أبي الحسن بن هذيل سنة ٥٢١ واستوطن «لريه» ثم ولى قضاءها، وكان قارئًا ضابطًا، محققًا إخباريًّا ذاكرًا، وأسن، وأخذ عنه الناس. قال ابن الأبار: وأخذ عنه من شيوخنا أبو عبد الله الشوني وأبي الربيع بن سالم، وكانت ولادته سنة ٤٨٧، ووفاته في منتصف ذي القعدة سنة ٥٧٧. وأبو الحسن علي بن عبد الله بن موسى بن طاهر الغفاري السرقسطي البرجي، وبرجه من أعمال سرقسطة، كان من القراء، توفي سنة خمس أو ست وثلاثين وخمسمائة. وأبو الحسن علي بن يوسف بن الإمام، من أدباء سرقسطة، وكان زاهدًا روى عنه أبو الوليد بن خيرة الفقيه.

وأبو العلاء همام بن يحيى بن همام السرقسطي، كان كاتبًا بليغًا متفننًا، بديع الخط، كتب عن المقتدر بالله أبي جعفر بن هود، ثم عن ابنه المؤتمن، ثم عن المستعين بن المؤتمن، وتوفي في الدولة اللمتونية، عن ابن الأبار. ومثله ابنه أبو بكر يحيى بن همام بن يحيى السرقسطي، المعروف بابن أرزاق، كان من أهل الأدب مع براعة الخط، وكتب للمستعين أبي جعفر بن هود مع أبيه همام، وكتب ليوسف بن تاشفين، ثم لابنه علي، واستدعي إلى مراكش سنة ٤٩٥، وكانت وفاته بقرطبة سنة ٥٣٧، عن ابن الأبار. وأبو بكر يحيى بن محمد السرقسطي، نزيل مرسية، يعرف باللباني، أخذ عن أبي الوليد الوقشي، وأبي الحسن بن أفلح النحوي، وكان ماهرًا في علم العربية، حافظًا للغة، أقرأ بمرسية وغيرها، وأخذ عنه أبو عبد الله بن سعادة، وأبو علي بن عريب، وغيرهما، وتوفي في نحو العشرين وخمسمائة. ومحمد بن سليمان بن تليد ولي القضاء بسرقسطة،

ووشقة، يروي عن محمد بن أحمد العتبي، ومحمد بن يوسف بن مطروح الربعي، توفي سنة ٢٩٥ ترجمه ابن عميرة الضبي في بغية الملتمس. ومحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله السرقسطي الفقيه المقرئ، روى عنه أبو بكر بن العربي وغيره.

وأبو إسحاق إبراهيم بن نصر السرقسطي، حدّث عن أحمد بن عمرو بن السرح ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم، ويحيى بن عمر، روى عنه عثمان بن عبد الرحمن، ترجمه ابن عميرة في بغية الملتمس.

وإبراهيم بن هارون بن سهل، قال ابن عميرة: قاضي سرقسطة من ثغور الأندلس، فقيه محدث، مات بها سنة ست وتسعين ومائتين.

وحفص بن عبد السلام السلمي، قال ابن عميرة: سرقسطي، روى عن مالك بن أنس، مات بالأندلس قريبًا من سنة مائتين.

ورزين بن معاوية، قال ابن عميرة: سرقسطي محدث، توفي سنة ٥٢٤ بمكة، زادها الله شرفًا.

وسليمان بن مهران السرقسطي، أديب شاعر مشهور، له جلالة وقدر، روى أبو محمد بن حزم عن محمد بن الحسن المذحجي قال: أنشدني سليمان بن مهران، في مجلس الوزير أبي الأصبغ عيسى بن سعيد وزير المظفر عبد الملك بن المنصور محمد بن أبي عامر:

خليلي ما للريح تأتي كأنما ... يخالطها عند الهبوب خلوق
أم الريح جاءت من بلاد أحبتي ... فأحسبها عرف الحبيب تسوق
سقى الله أرضًا حلها الأغيد الذي ... لتذكاره بين الضلوع حريق
أصار فؤادي فرقتين فعنده ... فريق وعندي في السياق فريق

وأبو الربيع سليمان بن حارث بن هاروق الفهمي، قال ابن عميرة: فقيه سرقسطي، توفي بالإسكندرية سنة إحدى وثمانين وأربعمائة.

وأبو عبد الله محمد بن بسام بن خلف بن عقبة الكلبي من أهل سرقسطة وإمام الجامع بها، يروي عن أخيه عبد الله بن بسام، حدّث عنه الصاحبان. وحسان بن عبد السلام السلمي، يروى عن مالك بن أنس، قال ابن عميرة: ذكره محمد بن حارث الخشني، وأبو عثمان سعيد بن فتحون السرقسطي، يعرف بالحمّار. قال ابن عميرة: له أدب وعلم وتصرف في حدود المنطق، وهو مشهور. وعبد الله محمد بن زرقون

السرقسطي. قال ابن عميرة: بتقديم الزاي على الراء، محدّث، روى عن أصبغ بن الفرج. روى عنه محمد بن وضاح، ومن جملة ما روى عنه رواية عن أصبغ بن الفرج عن ابن وهب، وهي: ما يحل لأحد أن يرد شيئًا بغير علم، ولا يقول شيئًا بغير ثبت. ولقد سمعت مالكًا يقول: والله ما أحب أن تكتبوا عني كل ما تسمعون مني. قال ابن وهب: ولو عرضنا على مالك كل ما كتبنا عنه لمحا ثلاثة أرباعه. وعبد الله بن أبي النعمان قاضي سرقسطة، قال ابن عميرة: من أهل العلم والفضل، مات سنة خمس وسبعين ومائتين. وأبو الحكم عبد الرحمن بن عبد الملك بن غشليان السرقسطي، توفي بقرطبة سنة ٥٤١ قاله ابن عميرة. وعبد الأعلى بن الليث، يكنى أبا وهب، من أهل سرقسطة، محدّث له رحلة، مات بالأندلس سنة ٢٧٥، ذكره ابن عميرة في البنية. وكلثوم بن أبيض المرادي، يكنى أبا عون، من أهل سرقسطة، محدث له رحلة، مات بالأندلس سنة ٢٥٣، ذكره أيضًا ابن عميرة. وأبو مروان بن الأنصاري السرقسطي، من ذرية الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي أمير سرقسطة، كان فقيهًا فاضلًا زاهدًا، وكان أمراء بلده بنو هود يتناغون في إكرامه واحترامه. ذكره ابن نوح عن ابن الأبار.

وأبو محمد لب بن عبد الله، من أهل سرقسطة، قال ابن عميرة: محدث، كان فاضلًا زاهدًا، كتب عن أهل الأندلس ولم يرحل، وكانت وفاته في صدر أيام الأمير عبد الله بن محمد. قاله أبو سعيد. وموسى بن علي بن رباح، قال ابن عميرة: يقال إن قبره بسرقسطة بإزاء قبر حنش بن عبد الله. وأبو عبد العزيز عبد الرءوف بن عمر بن عبد العزيز، محدث معروف، قال ابن عميرة: مات بلاردة من ثغور الأندلس سنة ثمان وثلاثمائة. والوليد بن عبد الخالق بن عبد الجبار بن قيس بن عبد الله الباهلي القاضي، من أهل سرقسطة، ذكره محمد بن حارث الخشني، ترجمه ابن عميرة في بغية الملتمس. وأبو الحجاج يوسف بن محمد السرقسطي، قال ابن عميرة: كان قارئًا لكتب الحديث محسنًا، توفي بعد السبعين وأربعمائة. والفقيه أبو محمد عبد الله بن يحيى بن محمد بن بهلول السرقسطي، جاء في نفح الطيب ذكره، وقال: إنه قد ذكره العماد الأصفهاني في الخريدة، ذكره السمعاني في الذيل، وأنه دخل بغداد في حدود سنة ست عشرة وخمسمائة، ومن شعره:

أبا شمس إني إن أتتك مدائحي وهن لآل نظمت وقلائد
فلست بمن يبغي على الشعر رشوة أبى ذاك لي جد كريم ووالد

وإنـي مـن قـوم قـديـمًا ومـحـدّثـا　　　تـبـاع عـلـيـهـم بـالألـوف الـقـصـائـد

وأبو مروان محمد بن يوسف بن مرونجوش، قال ابن عميرة: سرقسطي فقيه، توفي سنة تسع عشرة وخمسمائة. وعبد الله بن سعيد بن عبد الله اللخمي.

وأبو محمد بن عبد الله بن محمد بن سندور بن منتيل بن مروان التجيبي، سمع أبا عمر بن عبد البر، وأبا الوليد الباجي، وأبا العباس العذري، وأبا عمر الطلمنكي، وكتب بخطه علما كثيرًا، وتوفي قبل الخمسمائة.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن طريف، قال ابن الأبار: كان من أهل المعرفة بالعربية، مع حظ من قرض الشعر، وكان في نحو الخمسمائة. وأبو محمد يعيش بن محمد بن فتحون من أهل الثغر، له رحلة إلى المشرق، روى فيها عن أبي الطاهر العجيفي، وأبي القاسم الجوهري وغيرهما، حدث عنه محمد بن عبد السلام الحافظ. ويوسف بن عبد الملك ثغري، يكنى أبا عمر، روى عن وهب بن مسرة وغيره، حدث عنه الصاحبان وقالا: توفي في المحرم سنة ٣٨٧. وخلف بن سيد. من أهل الثغر الشرقي، يحدث عن عيسى بن موسى بن الإمام، لقيه بتطيلة، وأخذ عنه. وأبو الحسن ذيال بن عبد الرحمن بن عمر الشريوني الثغري، سمع بسرقسطة من أبي الوليد الباجي وغيره سنة ٤٦٣. وأبو عبد الله محمد بن جعفر الهمذاني، يعرف بالشرقي، نسبة إلى شرق الأندلس، قرأ بجامع قرطبة، ذكره ابن الدباغ ووصفه بالعلم والنبل، وتوفي سنة ٥١٣، قاله ابن الأبار. وأبو الربيع الخصيب بن محمد بن خصيب بن الخزاعي. وأبو الطاهر الأشتركوني، من أشتركوني، حصن من أعمال تطيلة، اسمه محمد بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن إبراهيم، سمع من جلة العلماء، وتحقق باللغة والأدب، وألف المسلسل، وأنشأ المقامات اللزومية، ومات بقرطبة سنة ٥٣٨. ومن عادة الأندلسيين أنهم إذا أطلقوا الثغر أرادوا به سرقسطة أو إحدى جهاتها، وقد ينسبون إلى الثغر فيقولون فلان الثغري، ويكون من سرقسطة، أو من وشقة، أو تطيلة أو من لاردة، وهلم جرًّا من المدن التي كانت يومئذ آخر بلاد المسلمين، أو من ملحقاتها.

فمن هؤلاء أبو حديدة ناهض بن عريب، قال ابن الأبار: من أهل الثغر الشرقي روى عن زكريا بن النداف. وأبو يونس عبد العزيز بن عمر بن حبنون، من أهل منتشون، من أهل الثغر الشرقي، سمع من أبي الوليد الباجي صحيح البخاري بسرقسطة سنة ٤٦٣ وولي الأحكام بموضعه. قال ابن الأبار: قرأت ذلك بخط أبي داود المقرئ. وأبو الأصبغ عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن خلف الأموي، من أهل بلشند. قال

ياقوت: بسكون اللام وفتح الشين وسكون النون، من نواحي سرقسطة بالأندلس، وفيها حصن يعرف ببني خطب، روى عن أبي محمد بن أبي جعفر، سمع منه، وحكى عنه أنه كان يقول: سمعت كتاب صحيح البخاري على أبي الوليد الباجي، ولكني لا أحدث به عنه، لأنه كان يصحب السلطان. وأبو الحجاج يوسف بن إبراهيم العبدري المعروف بالثغري، قال ابن عميرة: فقيه محدث راوية، عارف أديب، انتقل إلى مرسية في الفتنة واقتنع ولم يتعرض لظهور، وكان قد غص به جماعة من الفقهاء بمرسية حين وصلها، فسعى له في الخطبة بجامع قليوشة من قرى مدينة أوريوالة، وانتقل إليها، سمعت عليه بعض كتاب الموطأ، يروي عنه جماعة، منهم أبو الحسن بن مغيث والحافظ أبو بكر وأبو الوليد بن رشيد، وأجاز له أبو الحسن رزين بن معاوية العبدري، وتوفي سنة ٥٦٠. وكان مولده سنة ٤٧٢ ببلده ا.هـ. قلت: قرأت في بعض الكتب أن القاضي أبا يوسف كان محدثًا، فلما اتصل بهارون الرشيد تحامى الناس سماع حديثه.

وخلف بن سيد من أهل الثغر الشرقي يحدث عن عيسى بن موسى بن الإمام لقيه بتطلية، وأخذ عنه.

وخلف بن موسى بن فتوح المقرئ، يكنى أبا القاسم، ويعرف بالأشبري، وأشبرة قرية من قرى سرقسطة. كان مقرئًا، أخذ عنه أبو علي بن بشر السرقسطي وغيره، ذكره ابن الدباغ، عن ابن الأبار. وأبو عبد الله محمد بن فتح الأنصاري الإمام الثغري، قال أبو عمرو المقرئ أنشدني أبياتًا في الزهد منها:

كم من قوي قوي في تقلبه ... مهذب الرأي عنه الرزق ينحرف
ومن ضعيف ضعيف الرأي مختبل ... كأنه من خليج البحر يغترف

وغالب بن عبد الله الثغري، شاعر أديب، ذكره ابن عميرة.

وأبو القاسم خلف بن عيسى، من أهل الثغر الشرقي، وليس بابن أبي درهم، روى عن أبي عمر بن الهندي، وأبي عبد الله بن العطار. ذكره ابن الأبار. ومحمد بن سعيد بن ثابت العبدري، من أهل الثغر الشرقي، أبو عبد الله، حدث عنه أبو زاهر سعيد بن أبي زاهر، وكان صاحب الصلاة بموضعه. ذكره ابن الأبار نقلًا عن ابن حبيش. وأبو عبد الله محمد بن فرج بن جعفر بن خلف القيسي، من أهل الثغر الشرقي، سكن غرناطة، يعرف بابن أبي سمرة، أخذ القراءات عن أبي جعفر أحمد بن عبد الحق

الخزرجي، وأبي القاسم بن النحاس، وأبي الحسن بن كرز وغيرهم. ودرس العربية ولقيه أبو عبد الله بن حميد بغرناطة سنة ٥٣٥ ذكره ابن الأبار.

وممن ينسب إلى سرقسطة من المشاهير، وإن لم يكن من أهل العلم: إبراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك، وهمشك جده نصراني أسلم على يد بني هود بسرقسطة وكان مقطوع إحدى الأذنين، فكان النصارى إذا رأوه في القتال قالوا (همشك) معناه ترى مقطوع الأذنين، فإن (هاء) عندهم قريب من (أما) بالعربية. والمشك في لغتهم هو المقطوع الأذنين.

وإبراهيم هذا لما خرج بنو هود من سرقسطة نشأ تحت الخمول. قال لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة في صفحة ١٦٠ من الطبعة المصرية: إنه كان شهمًا متحركًا خدم بعض الموحدين بالصيد وتوسل بدلالة الأرض، ثم نزع إلى ملك قشتالة، واستقر مع النصارى، ثم انصرف إلى بقية اللمتونيين بالأندلس، بعد شفاعة وإظهار توبة. ولما ولي يحيى بن غانية قرطبة ارتسم لديه برسمه، ثم كانت الفتنة عام تسعة وثلاثين.

وثار ابن أحمر بقرطبة، وتسمى بأمير المؤمنين، فبعثه ابن غالية رسولًا، ثقة بكفايته ودربته، لمحاولة الصلح بينه وبين ابن أحمر، فنبه قدره.

ثم غلي مرجل الفتنة وكثر الثوار بالأندلس، فاتصل بالأمير ابن عياض بالشرق وغيره، إلى أن تمكن له الامتياز بحصن شقوبش، ثم تغلب على مدينة شقورة[٤] وتملكها، وهي ما هي من النمة، فغلظ أمره، وساوى محمد بن مردنيش أمير الشرق، وداخله حتى عقد معه صهرًا على ابنته، فاتصلت له الرئاسة والإمارة، وكان سيفًا لصهره المذكور مسلطًا على من عصاه، فقاد الجيوش، وافتتح البلاد، إلى أن فسد بينهما، فتفاتنا وتقامعا، وانحاز بما لديه من البلاد والمعاقل، وعد من ثوار الأندلس أولي الشوكة الحادة، والشبا المرهوب، بعد انقباض دولته. قال محمد بن أيوب بن غالب، المدعو بابن حمامة: أبو إسحاق الرئيس شجاع بهمة من البهم، كان جريئًا شديد الحزم، سديد الرأي، عارفًا بتدبير الحروب، حمي الأنف عظيم السطوة، مشهورًا بالإقدام، مرتكبًا للعظيمة. قال بعض من عرف به من المؤرخين: إنه وإن كان قائد فرسان، فقد كان حليف فتنة وعدوان، ولم يصحب قط متشرعًا، ولا نشأ في أصحابه من كان متورعًا، سلطه الله على الخلق وأملى له، فأضر بمن جاوره من أهل البلاد. وقال لسان الدين: كان جبارًا قاسيًا، فظًّا غليظًا، شديد النكال، عظيم الجرأة والعبث بالناس، بلغ من عبثه فيهم إحراقهم بالنار، وقذفهم من الشواهق والأبراج، وإخراج الأعصاب والرباطات عن ظهورهم، عن

أوتار القسى، وضم أغصان الشجر العادي بعضها إلى بعض، وربط الإنسان بينها، ثم تسريحها فيذهب كل غصن بحظه من الأعضاء. قال: ورآه بعض الصالحين في النوم وسأله: ما فعل الله بك فأنشده:

من سره العيش في الدنيا بخلقة من   يصور الخلق في الأرحام كيف يشا
فليصبر اليوم صبري تحت بطشته   مغللًا أمتطي جم الغضا فُرُشا

ثم ذكر لسان الدين شجاعته فقال: زعموا أنه خرج متصيدًا، وفي صحبته محاولون له، وقارعوا أوتار الغناء في مائة من الفرسان، فما راعهم إلا خيل العدو هاجمة على غرة، في مائتين من الفوارس، فقالوا: العدو في مائتي فارس! فقال: وإذا كنتم لمائة وأنا لمائة فنحن قدرهم. فعد نفسه بمائة، ثم استدعى قدحًا من شرابه وصرف وجهه إلى المغني وقال: غن لي تلك الأبيات، وكان يغنيه بها فتعجبه:

يتلقى الندى بوجه حياء   وصدور القنا بوجه وقاح
هكذا هكذا تكون المعالي   طُرُق الجد غير طرق المزاح

فغناه بها، واستقبل العدو وحمل عليه بنفسه وبأصحابه حملة رجل واحد، فاستولت على العدو الهزيمة، وأتى على معظمهم القتل، ورجع غانمًا إلى بلده، ثم انصرفت الأيام، وعاد للصيد في موضعه، وأطلق بازه على حجلة فأخذها، وذهب ليذبحها، فلم يحضره خنجر، فبينما هو يلتمسه إذ رأى نصلًا من نصال المعترك، من بقايا الهزيمة فأخذه وذبح الطائر، واستدعى الشراب وأمر المغني فغناه بيتي أبي الطيب:

تذكرت ما بين العذيب وبارق   مجر عوالينا ومجرى السوابق
وصحبة قوم يذبحون قنيصهم   بفضلة ما قد كسروا في المفارق

وقد رأيت من يروي هذه الحكاية عن أحد أمراء بني مردنيش، وعلى كل حال فهي من مستظرف الأخبار.

قال لسان الدين: وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة، في جمادى الأولى منها، قصد إبراهيم بن همشك بجمعه مدينة غرناطة، وداخل طائفة من ناسها، وقد تشاغل الموحدون بما دهمهم من اختلاف الكلمة عليهم، وتوجه الوالي بغرناطة السيد أبو سعيد

إلى العدوة، فاقتحم ابن همشك غرناطة ليلًا، واعتصم الموحدون بقصبتها فنصب لهم المجانيق، وقتلهم بأنواع من القتل، وعندما اتصل الخبر بالسيد أبي سعيد بادر إليها، فأجاز البحر، والتف به السيد أبو محمد، والسيد أبو حفص، بجميع جيوش الموحدين، ووصل الجميع إلى ظاهر غرناطة، وأصحر إليهم ابن همشك، وبرز منها، والتقى الفريقان بمرج الرقاد من خارجها، ودارت بينهم الحرب، فانهزم جيش الموحدين، واعترضت الفل تخوم الفدادين، وجداول الماء التي تتخلل المرج، فاستولى عليهم القتل، وقتل في الوقيعة السيد أبو محمد، ولحق السيد أبو سعيد بمالقة، وعاد ابن همشك إلى غرناطة، فدخلها بجملة من أسرى القوم أفحش فيهم المثلة، بمرأى من إخوانهم المحصورين.

واتصل الخبر بالخليفة، وهو بقرية سلا، فجهز جيشًا أصحبه السيد أبا يعقوب ولده والشيخ أبا يوسف بن سليمان زعيم وقته، وداهية زمانه، فأجازوا البحر، والتقوا بالسيد أبي سعيد بمالقة، وتتابع الجمع، والتف بهم من المجاهدين والمطوعة، واتصل منهم السير إلى قرية داق من قرى غرناطة. وكان من استمرار الهزيمة على ابن همشك، لذي جزء لنفسه وجيشه من نصارى وغيرهم ما يأتي ذكره عند اسم مردنيش. ثم قال:

ولما فسد بين ابن همشك وابن مردنيش بسبب بنته التي كانت تحت ابن مردنيش فطلقها، وانصرفت إلى أبيها، وأسلمت إليه ابنها، وسئلت عن إمكان صبرها عنه، فقالت: جرو سوء من كلب سوء! فأرسلت كلمتها في نساء الأندلس مثلا — اشتدت بينهما الفتنة، وعظمت المحنة، وهلك بينهما من شاء الله هلاكه، إلى أن كان أقوى الأسباب في تدمير ملكه.

ولما صرف ابن مردنيش عزمه إلى بلاده، وتغلب على كثير منها، خدم ابن همشك الموحدين، واستجار بهم، وقدم على الخليفة عام خمسة وستين وخمسمائة، فأكرم قدومه، وأقره بمواضعه، إلى أوائل عام أحد وسبعين، فطولب بالانصراف إلى العدوة بأهله وأولاده، وسكن بمكناسة، وأقطع بها أملاكًا لها خطر.

وابتلاه الله بفالج غريب الأعراض، فكان يدخل الحمام الحار فيشكو حره بأعلى صراخه، فيخرج فيشكو البرد كذلك، إلى أن مضى لسبيله، انتهى ببعض تصرف.

وممن ينسب إلى سرقسطة عمر بن مصعب بن أبي عزير بن زوارة بن عمرو بن هاشم العبادي، وقيل العبدري، ذكره ابن عميرة في بغية الملتمس، نقلًا عن ابن يونس. وأبو الحكم المنذر بن رضا السرقسطي، سكن بلنسية، وكان من الشعراء. ومظفر

الكاتب السرقسطي، خرج من سرقسطة، وسكن غرناطة، وكنيته أبو الفرج، أخذ عن قاسم بن محمد الشيباني، وأبي عمر القسطلي، وصحب أبا بكر المصحفي، ذكره ابن الأبار.

ونسب إلى سرقسطة حكماء وعلماء من اليهود، ومن مشاهيرهم ابن الفوال[٥] الطبيب الفيلسوف. ومنهم الفضل حمداي[٦] المشهور بالحكمة والرياضيات.

وممن سكن في سرقسطة من الأطباء أبو عبد الله بن الكتاني، وهو من أطباء المسلمين، ترجمه ابن أبي أصيبعة فقال: هو أبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن الكتاني، كان أخذ الطب عن عمه محمد بن الحسين وطبقته، وخدم به المنصور بن أبي عامر، وابنه المظفر، ثم انتقل في صدر الفتنة إلى مدينة سرقسطة، واستوطنها، وكان بصيرًا بالطب، متقدمًا فيه، ذا حظ من المنطق والنجوم، وكثير من علوم الفلسفة. قال القاضي صاعد: أخبرني عنه الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن وافد اللخمي أنه كان دقيق الذهن، ذكي الخاطر، جيد الفهم، حسن التوحيد والتسبيح، وكان ذا ثروة وغنىً واسع، وتوفي قريبًا من سنة عشرين وأربعمائة، وهو قد قارب ثمانين سنة. قال: وقرأت في بعض تآليفه أنه أخذ صناعة المنطق عن محمد بن عبدون الجبلي، وعمر بن يونس بن أحمد الحراني، وأحمد بن جفصون الفيلسوف، وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم القاضي النحوي، وأبي عبد الله محمد بن مسعود البجائي، ومحمد بن ميمون المعروف بمركوس، وأبي القاسم فيد بن نجم، وسعيد بن فتحون السرقسطي، المعروف بالحمّار، وأبي الحارث الأسقف، تلميذ الربيع بن زيد الأسقف الفيلسوف، وأبي مرين البجائي، ومسلمة بن أحمد المرجيطي.

وقد ترجم ابن أبي أصيبعة عالمًا من علماء الأندلس، وطبيبًا من أطبائها، اسمه ابن بكلارش، كان يهوديًّا، قال إنه خدم بصناعة الطب بني هود، وله من الكتب كتاب «المجدولة في الأدوية المفردة» وضعه مجدولًا، وألفه بمدينة المرية للمستعين بالله أبي جعفر أحمد بن المؤتمن بالله بن هود.

ولا شك في أنه ليس من ذكرناهم هم جميع الذين نبغوا من أهل سرقسطة في العلم والأدب، بل مهما استقصى الإنسان فلا بد من أن يفوته تراجم كثيرة، إما سهوًا منه أو من المؤلفين الذين أخذ عنهم، وهذا هو الشأن في كل مدينة حاولنا أن نذكر من خرج منها من العلماء والأدباء.

هذا وفي سرقسطة صدر الأمر من فيليب الثاني ملك أسبانية بإخراج الموريسك أي المسلمين الذين أكرهوا على التنصر، ولبثوا يضمرون الإسلام في قلوبهم، وكان لا

يزال منهم عدة ألوف في بلاد أراغون وفي سائر أسبانية، وكان منهم عدد غير قليل في سرقسطة وبرشلونة، وفي مدن قشتالة، وقلما خلت منهم بلدة. فلما صممت الدولة الأسبانية على إخراجهم جميعًا من البلاد، بحجة أنهم لا يزالون مسلمين في الباطن، اعترض على ذلك كثيرون من الأهالي، لاسيما أصحاب الأراضي، وقدموا وأخروا، وقالوا لذلك: إن بعض البلاد ستصبح قاعًا صفصفًا إذا خرج الموريسك منها، فأبى الملك إلا إنفاذ أمره الذي صدر في ٢٣ مايو سنة ١٦١٠.

وبمقتضى هذا الأمر كان يجب اجتماع جميع الموريسك ليأتي المعتمد الخاص من قبل الحكومة، ويسير بهم إلى الثغر البحري، الذي سيخرجون منه، وقد جاء في هذا الأمر أن الموريسكي الذي يكون متزوجًا بمسيحية أصلية يجوز بقاء امرأته وأولاده، إذا شاءوا البقاء في البلاد. وكذلك المسيحيون الأصليون المتزوجون بموريسكيات إذا أرادوا هم ونساؤهم البقاء في البلاد فلهم ذلك. وكذلك الموريسك الذين تحقق أنهم ارتدوا عن الإسلام ارتدادًا صحيحًا لا شائبة فيه، فهؤلاء لهم أيضًا حق البقاء.

فخرج من الموريسك بضعة عشر ألفًا، بطريق نبارة إلى فرنسة. وخرج بضعة عشر ألفًا إلى ميناء كمفرنش، والتحقوا ببلاد الإسلام.

وتاريخ المويسك بتفاصيله سنأتي به في جزء خاص، بعد الانتهاء إن شاء الله من جغرافية الأندلس، وتاريخ الدول الإسلامية فيها.

ومن توابع سرقسطة حصن يقال لها شميط، بضم فكسر، ذكره ياقوت في المعجم، وحصن آخر يقال له «قشب»[7] بفتح فسكون. قال ياقوت: حصن من قطر سرقسطة ينسب إليه أبو الحسن نفيس بن عبد الخالق بن محمد الهاشمي القشبي المقرئ، جاور بمكة مدة، قال أبو طاهر السلفي: وقرأ عليّ بعد رجوعه من مكة وتوجه إلى الأندلس. ومن حصون سرقسطة الحصن المسمى قشتلار Castellar وبلدة يقال لها «ألاغون» وبلدة أخرى اسمها «منزلباربا» وبلدة أخرى اسمها برجة. وهي مدينة قديمة سكانها اليوم ستة آلاف نسمة إلى الشمال الغربي من سرقسطة، وهي تناوح شارات مونكايو Moncayo، وقد كانت برجة من البلاد المعروفة في زمن العرب. ونبغ فيها أناس من أهل العلم، ومنهم من سكن سرقسطة، وقد تقدم ذكر أحدهم، وهي غير برجة التي هي من أعمال البيرة، فإن برجة سرقسطة هي بضم أولها كان يلفظها العرب كما يلفظها الإسبانيول اليوم boya[8] وأما برجة البيرة فهي بفتح أولها.

هوامش

(١) قال ياقوت في المعجم: حصن من حصون بلنسية بالأندلس نسب إليها السلفي أبا مروان عبد الملك بن عبد الله الشريوني، وكان قد كتب الحديث بالمغرب والحجاز وتفقه على أبي يوسف الزياني على مذهب مالك. ويوسف بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عديس الأنصاري الشريوني يكنى أبا الحجاج، أخذ عن أبي عمر بن عبد البر وغيره وسكن طليطلة، ومات في شوال سنة ٥٠٥، ويظهر أن شريون كانت تعد من الثغر الشرقي أحيانًا وتضاف إلى بلنسية أحيانًا.

(٢) نسبة إلى ركلة من عمل سرقسطة. قال ياقوت في معجمه: ركلة من عمل سرقسطة بالأندلس ينسب إليها عبد الله بن محمد بن دري التجيبي الركلي أبو محمد، روى عن أبي الوليد الباجي وأبي مروان بن حيان وأبي زيد عبد الرحمن بن سهل بن محمد وغيرهم وكان من أهل الأدب قديم الطلب، مات سنة ٥١٣، ا.هـ. قلنا إن الأسبان يتلفظون بها كالعرب بكسر أولها أي Ricla وهي بقرب نهر شلون لا تبعد كثيرا عن موراطه Morata وموقع ركلة بديع وفيها برج مثمن الشكل ومساكن منحوتة في الصخور.

(٣) نسبة إلى قلنة. قال في معجم البلدان: بلد بالأندلس. قال ابن بشكوال: ينسب إليها عبد الله بن عيسى الشيباني أبو محمد من أهل قلنة حيز سرقسطة، محدث حافظ متقن، كان يحفظ صحيح البخاري وسنن أبي داود عن ظهر قلب، فيما بلغني عنه، وله اتساع في علم اللسان وحفظ اللغة، وأخذ نفسه باستظهار صحيح مسلم، وله عدة تآليف حسنة، وتوفي ببلنسية عام ٥٣٠.

(٤) Segura سيأتي ذكرها.

(٥) قال ابن أبي أصبيعة في طبقات الأطباء: منحم بن الفوال يهودي من سكان سرقسطة كان متقدما في صناعة الطب متصرفًا مع ذلك في علم المنطق وسائر علوم الفلسفة. ولمنحم بن الفوال من الكتب كتاب كنز المقل عن طريق المسألة والجواب وضمنه جملا من قوانين المنطق وأصول الطبيعة.

(٦) قال ابن أبي أصبيعة: أبو الفضل حمداي بن يوسف بن حمداي من ساكني مدينة سرقسطة ومن بيت شرف اليهود بالأندلس من ولد موسى النبي عليه السلام، عني بالعلوم على مراتبها وتناول المعارف من طرقها فأحكم لسان العرب ونال حظًا جزيلا من صناعة الشعر والبلاغة وبرع في علم العدد والهندسة وعلم النجوم وفهم صناعة

الموسيقى وحاول عملها وأتقن علم المنطق وتمرن بطرق البحث والنظر، واشتغل أيضًا بالعلم الطبيعي وكان له نظر في الطب، وكان فس سنة ثمان وخمسين وأربعمائة في الحياة وهو في سن الشبيبة.

(٧) بالإسبانيولية Caspi وهي على نصف المسافة بين سرقسطة ولاردة موقعها على نهر أبرة.

(٨) وقيل إن من توبع سرقسطة «المنارة» قال ياقوت: وعن السلفي: أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن سلامة الأنصاري المناري، ومنارة من ثغور سرقسطة بالأندلس كان يحضر عندي لسماع الحديث سنة ٥٣٠ بعد رجوعه من الحجاز، وذكر لي أنه سمع بالأندلس من أبي الفتح محمد المناري، وذكر أنه قرأ على أبي الوليد يونس بن أبي علي الآبري. وعلي بن محمد المناري صاحب أبي عبد الله المغامي، سمع الموطأ وغيره بالمغرب ا.هـ. قلت: إن المعروف عندي هو أن بقرب دروقة من عمل سرقسطة جسرًا يقال له جسر المنارة. وكذلك توجد بلدة اسمها «المنار» بقرب «بلغى» من عمل لاردة من الثغر الشرقي.

وذكر العرب من توابع سرقسطة «بلوندة» قال ياقوت إنها حصن من حصون سرقسطة.

الفصل الثاني والثلاثون

تطيلة

وعلى مسافة ٧٨ كيلومترًا من سرقسطة مدينة تطيلة، واقعة على الضفة اليمنى من أبره. ولها هناك جسرًا ١٩ قوسًا، وسكان هذه المدينة اليوم نحو من عشرة آلاف. ولكنها كانت عظيمة في أيام العرب.

قال ياقوت الحموي في المعجم: تطيلة بالضم ثم الكسر وياء ساكنة ولام: مدينة بالأندلس في شرقي قرطبة، تتصل بأعمال أشقة، هي اليوم بيد الروم[١] شريفة البقعة، غزيرة المياه، كثيرة الأشجار والأنهار، اختطت في أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية. وقال أبو عبيد البكري: كان على رأس الأربعمائة بتطيلة امرأة لها لحية كاملة كلحية الرجال، وكانت تتصرف في الأسفار كما يتصرف الرجال، حتى أمر قاضي الناحية القوابل بامتحانها فأجبن عن ذلك، فأكرهنها فوجدوها امرأة، فأمر بحلق لحيتها، ولا تسافر إلا مع ذي محرم. وبين تطيلة وسرقسطة سبعة عشر فرسخًا، وينسب إليها جماعة، منهم أبو مروان إسماعيل بن عبد الله التطيلي اليحصبي وغيره. انتهى.

هوامش

(١) كتاب العرب كان يعبرون عن الإسبانيول بقولهم تارة: الإفرنج، لأن هذا الاسم صار عند العرب مرادفًا للأوربيين، وتارة بالروم لأنه عند العرب اسم لكل من كان في الأصل تابعًا لملكة رومة، وأحيانا بالنصارى الاسم العام لهم، ولم يكن اسم الإسبانيول معروفًا حينئذ.

الفصل الثالث والثلاثون

من انتسب إلى تطيلة من أهل العلم

عبد الله بن محمد الفهري كانت له رحلة، نقل ابن الأبار القضاعي عن ابن حبيش قال: كان عالمًا فاضلًا، صالحًا دينًا، من الحفاظ المتقدمين. وأبو عبد الله بن محمد بن عيسى بن القاسم الصدفي، سكن بآخرة مدينة فاس، سمع أبا علي بن سكرة الصدفي، ولازم مجلسه لسماع الحديث، ومسائل الرأي، وكان فقيهًا عارفًا بالوثائق، أديبًا شاعرًا، استكتبه ابن الملجوم في قضائه بمكناسة، واستخلفه، وتوفي سنة ٥٢٩، عن ابن الأبار. وأبو حفص عمر بن محمد بن إسماعيل الزاهد المعروف بالترفي، روى بالمشرق عن أبي القاسم بن الصقلي، توفي سنة ٣٧٩.

وسكن تطيلة من العلماء عبد الرحمن بن الحسين، روى عن عبد الله بن محمد بن يحيى ابن عبد العزيز بن الخراز صاحب الصلاة بقرطبة. وأبو عبد الله محمد بن عيسى المعروف بابن لبريلي من أهل تطيلة وقاضيها. له رحلة إلى المشرق حج فيها سنة ٣٨١، ولقي مشيخة المصريين، وأخذ عنهم، وكان موصوفًا بالعلم والصلاح، والعفة والشجاعة، والجهاد بثغره. وخرج مع المهدي محمد بن هشام لنصرته، فقتل بعقبة البقر، في صدر شوال سنة ٤٠٠، عن ابن بشكوال.

وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعيد بن موسى بن نعم الخلف الرعيني، من أهل تطيلة، سمع بسرقسطة من القاضي أبي الوليد الباجي، وكان قد رحل حاجًّا فلقي بمكة أبا معشر الطبري، وبالإسكندرية أبا الفتح السمرقندي، وكان مولده سنة ٤٤٣، وتوفي سنة ٥٠٧ في أوريولة، قاله ابن بشكوال. وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن مطرف البكري، يروي عن أبي العباس أحمد بن أبي عمر المقري، وأبي الوليد الباجي، وأبي علي بن المبشر، والحصري وغيرهم، توفي بالميرته سنة ٥٢١، عن ابن بشكوال. ووليد بن خطاب بن محمد، سمع من أبي بكر التجيبي وغيره، وله رحلة إلى المشرق كتب فيها

عن أبي سعيد المالِيني، وعن جماعة سواه. وكانت له عناية بالحديث وكان ثقة، رواه ابن بشكوال. وأبو بكر يحيى بن زكريا بن محمد الزهري القرشي، روى ببلدة تطيلة عن عبد الله بن بسام وغيره، وحدّث عنه الصاحبان وقالا: كان رجلًا صالحًا، رحمه الله.

وأبو الحسن داود بن إسماعيل المكتب، حكى عنه أبو عمرو البلجيطي[١] ترجمه ابن الأبار وأبو جعفر أحمد بن علي بن غزلون الأموي، روى عن أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي، وهو معدود من كبار أصحابه، وكان من أهل الحفظ والذكاء، وتوفي بالعدوة في نحو ٥٢٠ قاله ابن بشكوال. وحوشب بن سلمة، قال ابن عميرة: تطيلي منسوب إلى بلدته، ولي قضاءها، ومات بها في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن.

وأبو الوليد حيون بن خطاب بن محمد، يروي عن أبي العاصي حكم بن إبراهيم المرادي، وأبي محمد بن ارفع رأسه، وسهل بن إبراهيم الأستجي وابن الهندي وابن العطار، وله رحلة إلى المشرق حج بها، ولقي الداودي والقابسي، والبراذعي، وله كتاب جمع فيه أسماء الرجال الذين لقيهم، حدّث عنه محمد بن سمعان الثغري.

وزكريا بن الخطاب بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن حزم الكلبي محدث، من أهل تطيلة، رحل إلى المشرق حاجًّا سنة ٢٩٣، فسمع بمكة كتاب النسب للزبير بن بكار، من الجرجاني، وروى موطأ مالك بن أنس، رواية أبي المصعب الزهري، فكان الناس يأتون إلى تطيلة للسماع منه. وعمر بن يوسف بن موسى بن فهد بن خصيب بن الإمام، تطيلي، توفي سنة ٣٣٧. ونعم الخلف بن أبي الخصيب، يكنى أبا القاسم، من أهل تطيلة، كان محدثًا، شاعرًا، زاهدًا، مرابطًا، غازيًا، قتل شهيدًا سنة ٣٩٨، ذكره ابن عميرة في بغية الملتمس. وعامر بن مؤمل، بالميم، وقيل موصل، بالصاد، ابن إسماعيل بن عبد الله بن سليمان بن داود بن نافع اليحصبي، يكنى أبا مروان، محدث من أهل تطيلة، مات في أيام الأمير عبد الله بن محمد الأموي. ومحمد بن علي بن محمد بن شبل بن كليب بن معشر بن عبد الله القيسي. وسعيد بن هارون بن عفان بن مالك بن عبد الله، اليحصبي التطيلي محدث، له رحلة. ذكره محمد بن حارث الخشني عن ابن عميرة.

وإلى الشمال من تطيلة مدينة «الفاره».[٢]

هوامش

(١) نسبة إلى بلجيط من عمل سرقسطة إلى الجنوب منها، والأسبان يقولون لها «بلشيت» beichite، وقد ذكر ياقوت في المعجم بلدة من نواحي سرقسطة اسمها «بلطش» بفتح الطاء والشين معجمة، وقال: إن لها نهرًا يسقي عشرين ميلًا. ولم نتحقق اسمها بالإسبانيولي.

(٢) Alfaro وهي من المدن التي كانت للعرب. قال ياقوت: فارة بالراء المشددة والهاء بلفظ قولهم: امرأة فارة، أي هاربة. مدينة في شرقي الأندلس، من أعمال تطيلة ا.هـ. جاء في دليل بديكر أنها مدينة قديمة سكانها اليوم ستة آلاف نسمة.

ومما ذكره جغرافيو العرب من أعمال تطيلة «فاجرة» قال ياقوت: بكسر الجيم والراء مهملة، مدينة في شرقي الأندلس من أعمال تطيلة هي اليوم بيد الإفرنج. قلت هي بلدة قديمة كان يقيم بها الملوك وفيها أديار وكنائس ولفظها عند الإسبانيول Najera كما هو عند العرب.

وقالوا إن من أعمال تطيلة أرنبط، قال ياقوت: بضم أوله مدينة في شرقي الأندلس من أعمال تطيلة، مطلة على أرض العدو، بينها وبين تطيلة عشرة فراسخ، وبينها وبين سرقسطة سبعة وعشرون فرسخًا. قال ابن حوقل: هي بعيدة عن بلاد الإسلام ا.هـ. قلنا: إلى الشمال من تطيلة، ضاربة في الأرض التي كانت يومئذ للعدو، «أوليت» وفيها مساكن لملوك نبارة، فهل هذه هي التي يقال لها «أرنيط» أو الراء فيها محرفة عن الواو وهي «أونيط» على أنها إقليم قلعة أيوب ودروقة، وفي دليل بديكر ذكر بلدة اسمها «أرنيدو» على ٣٠ كيلومترا من «كلهرة» فالأقرب أن أرنيط هي هذه.

وذكروا أيضًا من أعمال تطيلة «بقيرة» قال ياقوت: بينها وبين تطيلة أحد عشر فرسخًا. فهل هي «أقيلة» Aguila التي بقرب تطيلة من جهة الشرق وقد حرفها العرب إلى «بقيرة»؟

الفصل الرابع والثلاثون

طرسونة

وإلى الجنوب الغربي من تطيلة مدينة طرسونة Tarazona على مسافة ٢٢ كيلومترًا. واسمها كان عند الرومانيين تورياسو Turiaso، سكانها اليوم ثمانية آلاف نسمة، وفيها كنيسة من بناء القرن الثاني عشر، وقد كانت طرسونة من المدن العربية المعروفة، قال ياقوت في المعجم: بينها وبين تطيلة أربعة فراسخ، معدودة في أعمال تطيلة؛ كان يسكنها العمال ومقاتلة المسلمين إلى أن تغلب عليها الروم، فهي في أيديهم إلى هذه الغاية[١] انتهى. ومن طرسونة إلى شورية Soria ٦٧ كيلومترا.

هذا وينسب إلى طرسونة بعض أهل العلم، منهم أبو إسحاق بن يعلى الطرسوني[٢] ثم مدينة كشيجون Cacijon على مسافة ٩٤ مترًا من سرقسطة، وقصبة «أوليت» Oliete، وسكانها نحو من ألفي نسمة، وقصبة طفالة Tafalla سكانها خمسة آلاف نسمة، وعلى ٨٨ كيلومترًا من سرقسطة بنبلونة الشهيرة، وقد تقدم ذكرها في أثناء الكلام على جبال البيرانس، والإسبانيول يكتبونها بالميم بعد الفاء الفارسية، أي باميلونة، ولكن العرب يكتبونها بالنون، لأنهم لا يأتون بالميم بعد الباء، وإنما يأتون بالنون. وسكان بنبلونة نحو من ثلاثين ألفًا، وهي واقعة على ضفة نهر أرقة Arga ويحيط بها سور قديم بناها بوسي Pompee الروماني، فانتسبت إليه، وصارت تسمى بومبايلو Pompaela ثم تحرفت إلى اسمها الحالي بنبلونة، وكان استيلاء القوط على هذه البلدة سنة ٤٧٦ للمسيح، ثم في سنة ٥٤٢ استولى عليها الإفرنج، ثم في سنة ٥٧٨ جاءها العرب، واستولوا عليها مدة غير طويلة. ومن سنة ٩٠٥ صارت قاعدة مملكة نبارة Navarra، ثم استولى عليها القشتاليون سنة ١٥١٢، وفي حصارها جرح أينيقولوبيس ريكالد الذي بعد أن كان قائد عسكر ترهّب وأقلع عن الدنيا، وصار هو القديس أغناطيوس لويولا Loyola مؤسس الرهبانية اليسوعية.



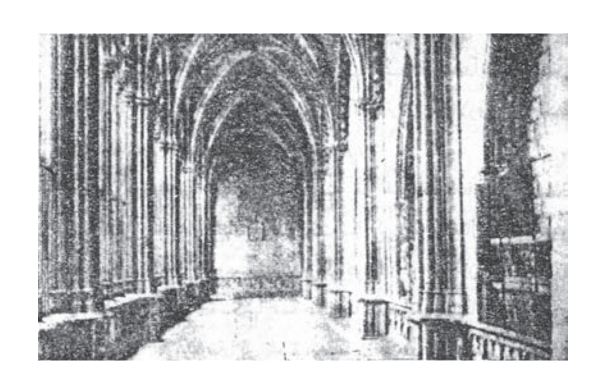
شكل ٣٤-١: انكسار جيش شارلمان في باب الشرزي من جبال البرانس.

وفي بنبلونة كنيسة كبرى بدأ بناءها كارلس الثالث ملك نبارة سنة ١٣٩٧، وفي الزاوية الجنوبية الغربية من الكنيسة شبكة حديدية أصلها سلسلة، كانت تحيط بسرادق الناصر سلطان الموحدين، أخذت منه في الهزيمة الكبرى التي وقعت على المسلمين في وقعة العقاب التي يقول لها الأسبان «لاس نافاس دو طولوزه» Les Novas de Tolosa.

ومن بنبلونة يصعد السائح إلى جبال البيرانس، وغير بعيد من هناك مضيق رونسقو، ويقال له أيضًا رونسفال Roncevalles الذي انهزمت فيه ساقة شارلمان وهو قافل من سرقسطة، ويقول له العرب باب الشزري.



شكل ٣٤-٢: صورة أحد أبواب بنبلونة.



شكل ٣٤-٣: صورة باب الكنيسة الكبرى بنبلونة

ومن بنبلونة إلى سان سبتيان ٩٣ كيلومترًا بسكة الحديد. وفي هذه المسافة يقع الخط الحديدي الحد الذي كان فاصلًا بين قشتالة الديمة ونبارة. ومن مدن تلك البلاد «الفارة» وسكانها ستة آلاف، ثم «كلهره» وهي مدينة أيبيرية قديمة سكانها عشرة آلاف، واقعة على نهر سيداكوس Cidacos وكان اسمها في القديم كالاغوريس ناسيكا Calagurris Nassica وفيها كنيسة قديمة جدًّا فيها عظام بعض شهداء النصرانية.

ومن كلهره إلى شورية ٩٩ كيلومترا. وأما الأرض القفر المسماة سولانا Solana فتمتد من الأبره إلى أرقة Arga.

ومن المدن المجاورة لنهر سيداكوس قصبة يقال لها أرنيدو Arnide[٣] ثم بلدة يقال لها لودوسا Lodosa فيها كهوف كانت مساكن، ثم بلدة يقال لها آغون سيلو وفيها حصن بأربعة أبراج، ثم مدينة لوكرونتو Logrono وكان العرب يقولون لها «لوكروني» وهي بلدة سكانها خمسة عشر ألفًا، معدودة من قشتالة القديمة. ومن لوكروني مسافة ٢٥ كيلومترًا إلى ناجرة، وهذه بلدة قديمة كان لها شأن في القديم، وفيها قصر كان يسكنه الملوك في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وعلى ١٩ كليومترًا إلى الغرب من ناجره، على طريق برغش، بلدة يقال لها سانتو دومنقه قلصادة. وهي التي ينسب إليها الإمام القلصادي المار الذكر Santo Domingo de la Calzada وفيها أربعة آلاف نسمة، ومن لوكروني مسافة قصيرة إلى بلدة استله Estella.

وقد ورد ذكر ناجره في كتب العرب، قال ياقوت: ناجرة بكسر الجيم، والراء مهملة. مدينة في شرقي الأندلس من أعمال تطيلة، هي الآن بيد الإفرنج، وإلى اليمين من نهر أبره توجد جبال وعرة في وسط الحقول، وذلك عن بلدة «فون مابور» Fuenmayor وعندها قنطرة على أبره، ثم بلدة «غوارديه» وأما بلدة هارو Haro فهي من ناحية «ريوجه» Rioja وسكانها ثمانية آلاف نسمة، وبالقرب منها وادي ميرندة.

ومن سرقسطة يمر الخط الحديدي على الضفة اليمنى من نهر جلق، فعلى مسافة ثمانية كيلومترات يصل إلى بلدة يقال لها «سان جوان موزاريفار» وبالقرب منها بلدة أخرى اسمها «فيلا نوفة» ثم بلدة «زويرة» ثم قصبة يقال لها المدور، سكانها ثلاثة آلاف فيها حصن قديم، ثم بلدة تسمى «تاردينتة» Tardienta.

ثم مدينة وشقة وهي بلدة في غاية القدم، سكانها اليوم ثلاثة عشر ألفًا، لا يزيدون وهي على رابية مشرفة على سهل الهوية La Hoya، وكان يقال لهذه البلدة لعهد الرومانيين أوسكا Osca وكان سرطوريوس لذلك العهد أسس فيها مدرسة لشبان الأيبيريين. وقد فتح العرب وشقة في ما فتحوه من المدن عندما استولوا على سرقسطة أي في سنة ٩٦ للهجرة، وفق ٧١٣، وفي الأنسيكلوبيدية الإسلامية ينقل عن المستشرق قديرة: أن وشقة كانت مركز مقاطعة مستقلة في نواحي سنة ٣٠١، لعهد أميرها محمد بن عبد الملك الطويل، وبقيت في يد العرب إلى سنة ١٠٩٦، من التاريخ المسيحي، فاسترجعها الأسبان، وجعلوها قاعدة مملكة أراجون، وبقيت كذلك إلى سنة ١١١٨، إذ نقلوا مركز الحكم إلى سرقسطة نفسها بعد أن أخرجوا العرب منها.

أما ياقوت الحموي فقال عن وشقة، بفتح أوله، وسكون ثانيه والقاف: بليدة بالأندلس ينسب إليها طائفة من أهل العلم منهم حديدة بن الغمر، له رحلة. وإبراهيم بن عجبيس بن أسباط بن أسعد بن عديّ الزيادي الوشقي، كان حافظًا للفقه، واختصر المدونة، له رحلة سمع فيها من يونس بن عبد الأعلى، ومات سنة ٢٧٥. عن ابن الفرضي. وابنه أحمد، سمع من أبيه. وتوفي سنة ٣٢٢ انتهى.

هوامش

(١) ومن البلاد التي تتصل بتطيلة «قلصادة» جاء في دليل بديكر أنها على مسافة ١٩ كيلومترا إلى الغرب من ناجرة، على طريق برغش Burgos والأسبان يقولون لها «سانتا دومينية وقلصادة» Santa Dominigo de la Calzads وليس فيها أكثر من أربعة آلاف من السكان، ولكن فيها كنيسة من الطرز القوطي عظيمة. قلنا إنه منسوب إلى قلصادة، ونظنها هي هذه، رجل من أعلم علماء الأندلس اسمه أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي القلصادي، ترجمه نفح الطيب فيمن رحل إلى المشرق، وضبطه «القلصادي» بفتحات وقال في حقه: الرحالة المؤلف الفرضي، آخر من له التآليف الكثيرة من أئمة الأندلس، وأكثر تصانيفه في الحساب والفرائض كشرحيه العجيبين على تلخيص ابن البناء والحوفي، وكفاه فخرًا أن الإمام السنوسي صاحب العقائد أخذ عنه جملة من الفرائض والحساب، وأجازه جميع مروياته. وأصله من بسطة، ثم انتقل إلى غرناطة فاستوطنها، وأخذ بها عن جماعة كابن فتوح والسرقسطي وغيرهما، ثم ارتحل إلى المشرق، ومر بتلمسان، فأخذ بها عن عالم الدنيا ابن مرزوق والقاضي أبي الفضل العقباني، وأبي العباس بن زاغ وغيرهم، ثم ارتحل فلقي بتونس تلاميذ ابن عرقة كابن عقاب والقلشاني، وغيرهما، ثم حج ولقي أعلامًا، ورجع فاستوطن غرناطة، إلى أن حل بوطنه ما حل، فتحيل في خلاصه من الشرك، وارتحل فمر بتلمسان فنزل بها على الكتيب بن مرزوق ابن شيخه، ثم جدت به الرحلة إلى أن وافته منيته بباجة إفريقية، منتصف ذي الحجة سنة ٨٩١ (أي قبل سقوط غرناطة بست سنوات).

ومن تآليفه أشرف المسالك إلى مذهب مالك. وشرح مختصر خليل، وشرح الرسالة وشرح التلقين، وهداية الأنام في شرح مختصر قواعد الإسلام، وشرح رجز القرطي، وتنبيه الإنسان إلى علم الميزان، والمدخل الضروري، وشرح إيساغوجي في المنطق وشرح

الأنوار السنية لابن جزي، وشرح رجز الشراز في الفرائض. وشرح حكم ابن عطاء الله، وشرح رجز أبي عمرو بن منصور في أسماء النبي ﷺ، وشرح البردة، وشرح رجز ابن بري، وشرح رجز شيخه أبي إسحاق بن فتوح في النجوم. وشرح رجز ابن مقرعة، وله النصيحة في السياسة العامة والخاصة. وهداية النظار في تحفة الأحكام والأسرار. وكشف الجلباب عن علم الحساب. وكشف الأسرار عن علم البخار. والتبصرة. وقانون الحساب وشرحه. وشرحان على التلخيص كبير وصغير وشرح ابن الياسمين في الجبر والمقابلة ومختصره. وكليات الفرائض وشرحها. وشرحان للتلمسانية كبير وصغير. وشرح فرائض صالح بن شريف. وفرائض مختصر خليل. وشرح لابن الحاجب. وكتاب الغنية في الفرائض. وغنية النجاة وشرحاها الكبير والصغير. وتقريب المواريث. ومنتهى العقول البواحث. وشرح مختصر العقباني ولم يتم. ومدخل الطالبين. ومختصر مفيد في النحو. وشرح رجز ابن مالك. وشرح الأجرومية وشرح جمل الزجاجي. وشرح ملحة الحريري. وشرح الخزرجية. ومختصر في العروض.

(٢) وقد أقام بطرسونة أبو الحسن سعيد بن محمد الجهمي المقرئ من أهل وادي الحجارة وتوفي بها، وكان يعرف بابن قوطة.

(٣) هذه التي نظن أن العرب كانوا يقولون لها «أرنيط» وبعد ذكرها ياقوت والإدريسي وغيرهما.

الفصل الخامس والثلاثون

من انتسب إلى وشقة من أهل العلم

خالد بن أيوب أبو عبد السلام، محدث من أهل وشقة. ذكره ابن يونس ونقل ذلك ابن عميرة.

وأبو الحزم خلف بن عيسى بن سعيد الخير، المعروف بابن أبي درهم القاضي من أهل مدينة وشقة، محدث له رحلة، قال الحميدي: ورأيت في نسبه زيادة بخط ابن ابنه القاضي أبي عبد الله يحيى بن القاضي أبي الإصبغ عيسى ابن القاضي ابن الحزم خلف بن عيسى بن سعيد الخير بن أبي درهم بن وليد بن ينفع بن عبد الله التجيبي، سمع بالأندلس أبا عيسى يحيى بن عبد الله بن أبي عيسى بن يحيى، وأبا بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز، وأبا زكريا يحيى بن سليمان بن هلال بن بطرة، وبمصر من أبي محمد الحسن بن رشيق وطبقته. روى عنه أبو الوليد هشام بن سعيد الخير بن فتحون الكاتب، حدّث عنه بالموطأ رواية يحيى بن يحيى. ذكره ابن عميرة.

وأبو عثمان سعد بن سعيد بن كثير المرادي محدث، وشقي، سمع من محمد بن يوسف بن مطروح وطبقته، مات في صفر سنة ٣٠٦. ذكره ابن عميرة، وكان ابنه سعيد أيضًا من أهل العلم. وصالح بن محمد المرادي أبو محمد يعرف بابن الوركاني، وشقي محدّث، مات بالأندلس سنة ٣٠٢، ذكره ابن عميرة.

وعبد الله بن حسن بن السندي، وشقي، توفي سنة ٣٣٥، عن ابن عميرة.

وعبد الله بن وهب، وشقي محدث، مات سنة ٣٠١. عن ابن عميرة.

وأبو المطرف عبد الرحمن بن إبراهيم بن عجنس بن أسباط الزيادي، من أهل وشقة، مات سنة ٣١٤، عن ابن عميرة.

وعبد السلام بن وليد، ولي قضاء وشقة في أيام الأمير الحكم بن هشام الأموي، قال ابن عميرة: ذكره ابن يونس.

وأبو عثمان بن محمد، من أهل وشقة، مات سنة ٣٠٧، ذكره ابن عميرة.

وهشام بن سعيد الخير بن فتحون، أبو الوليد الكاتب، قال الحميدي: أظن أصله من وشقة، محدّث جليل، سمع بالأندلس، ورحل إلى الحج، فسمع بطريقه في القيروان، وبمصر، وبمكة، من جماعة، ورجع إلى الأندلس، فحدّث بها، وسمعنا منه. فمن شيوخه بالأندلس القاضي أبو الحزم خلف بن عيسى بن سعيد الخير الوشقي، المعروف بابن أبي درهم، وأبو مهدي عبد الله بن أحمد بن فترى. ومن شيوخه بالقيروان أبو عمران الفاسي، وأبو إسحاق المكناسي، وعتيق بن إبراهيم، وابن عياش الأنصاري، وابن الحوّاص. ومن شيوخه بمصر عبد الجبار بن عمر، وأبو العباس بن منير، وأحمد بن محمد بن الحاج الأشبيلي. ومن شيوخه بمكة أبو محمد بن فراس الأطروش، وأبو بكر ابن الأسفرائيني، وأبو العباس بن بندار الرازي، وأبو الحسن بن بندار القزويني، وأبو بكر بن الحسن الصقلي، وأبو محمد مكي بن عيسون، وأبو عبد الله محمد بن سهلان الواسطي. وكان أبو الوليد جميل الطريقة منقطعًا إلى الخير، مات بعد الثلاثين وأربعمائة.

وأبو عمر يوسف بن مروان بن عيشون المعافري، قال ابن عميرة: وهو وشقي، يروي عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وطبقته، ويعرف أهل بيته بوشقه ببني المؤذن، مات بالأندلس سنة ٣٠٩. وأبو محمد عبد الله بن محمد بن غالب الواشقي القاضي، حدّث عن أبي هارون موسى بن هارون بن خلف بن أبي درهم، قال ابن الأبار في التكملة: قرأت ذلك بخط ابن الصيقل المرسي. وأبو محمد بن سعدون بن مجيب بن سعدون بن حسان التميمي الضرير، من أهل وشقة، سكن بلنسية، أخذ القراءات عن أبي المطرف بن الوراق، وأبي جعفر عبد الوهاب بن حكم الوشقي، وأبي القاسم خلف بن أفلح الأموي، وأبي داود المقرئ، وأبي الحسن بن الدوش، وتصدر للإقراء بجامع بلنسية، قال ابن الأبار: وكان من أهل التجويد والتعليل، والضبط والإتقان لهذا الشأن، مشاركًا في العربية، وكان يعلم بها، أخذ عنه أبو الربيع بن حوط الله، وأبو العطاء بن نذير، وأبو الوليد بن بسام اللاردي، وغيرهم، وقفت على ذلك، وتوفي قبل الأربعين وخمسمائة. وأبو المطرف عبد الرحمن بن موسى بن خلف بن عيسى بن سعيد الخير بن وليد بن ينفع بن أبي درهم التجيبي، روى عن أبيه أبي هارون وعن غيره، وولي قضاء بلده وشقة وراثة عن سلفه، حدّث، وأخذ عنه، قال ابن الأبار: وقفت على ذلك بتاريخ شوال من سنة إحدى وخمسمائة. وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن حيات الأنصاري المقرئ من أهل وشقة، نزل سرقسطة، يعرف بابن قرايش، أخذ القراءات

عن أبي إسحاق بن دخنيل، وأبي داود المقرئ، وأبي الحسن بن الدوش، وأبي تمام القطيني، وتصدر للإقراء بسرقسطة، وكان مقرئًا ماهرًا، نحويًّا حافظًا، أخذ عنه أبو الطاهر الأشتركوي، وأبو مروان بن الصيقل. وأبو عمر البلجيطي، وغيرهم، قال ابن الأبار: وتوفي شهيدًا بسرقسطة، في الكائنة على أبي عبد الله بن الحاج المتوفى بها سنة ٥٠٣، وتسمى سنة المرج. قال: بعضه عن ابن حبيش، وسائره عن ابن عياد.

وأبو القاسم عبد الرحمن بن أحمد بن قاسم التجيبي، من أهل وشقة، سكن المرية، أخذ القراءات بقرطبة عن أبي جعفر الخزرجي، وأخذ عن أبي القاسم بن النحاس قراءة نافع خاصة، وتصدر بجامع المرية للإقراء، وأخذ عنه الناس، ومن المختصين به أبو العباس البلنسي. قال ابن الأبار: لازمه إلى سنة ٥٢٧، وأخذ عنه أيضًا أبو محمد الشمنتي المقرئ، ذكر ذلك ابن عياد. وأبو مروان عبد الملك بن سلمة بن عبد الملك بن سلمة الأموي، مولاهم، من أهل وشقة، يعرف بابن الصيقل أخذ القراءات عن أبي المطرف بن الرزاق، وأبي زيد بن جهات، وأبي الحسن بن شفيع، وغيرهم.

ولقي أبا محمد بن عتاب، وأبا الوليد بن رشد، وأبا بحر الأسدي، وأبا الحسن بن الأخضر، وأبا عبد الله المورروري، وأبا علي الصدفي، وأبا بكر بن العربي، وأبا عبد الله بن الحاج، وأبا القاسم بن ثابت، قاضي سرقسطة، وأبا محمد الركلي، وأبا محمد البطليوسي، وغيرهم. وأجاز له بعضهم. وقال أبو عبد الله بن عياد: له إجازة من ابن عتّاب، وابن رشد، وأبي بحر، ولم ينص على سماعه منهم. قال ابن الأبار: وهو صحيح. وتصدر ببلنسية لإقراء القرآن والنحو والأدب سنين جملة، وكان مشاركًا في فنون، فقيهًا، أديبًا، فصيحًا، مع الضبط والإتقان. حدث عنه أبو عمر بن عياد وأبو جعفر بن نصرون، وأبو بكر بن هذيل، وشيخنا أبو عبد الله بن نوح وغيرهم، وتوفي بالمرية، منصرفه من العدوة سنة ٥٤٠. وصارت كتبه ببلنسية، وأمواله بالمرية، لبيت المال.

وأبو يونس عبد العزيز بن زكريا بن حيون، كان من العناية بالعلم، قال ابن الأبار: ولم تكن له رحلة، وتوفي سنة ٣٢٠. ذكره ابن حارث، وذكر ابن الفرضي أباه زكريا بن حيون. وأبو هارون موسى بن خلف بن عيسى بن أبي درهم التجيبي، قاضي وشقة، سمع أباه، وأبا عمرو السفاقسي وحج في سنة ٤٠٧، فسمع من أبي عبد الملك البوني كتابه شرح الموطأ، وسمع بالقيروان صحيح البخاري من أبي عمران الفاسي، وأجاز له جماعة. وهو من بيت قضاء وجلالة، حدّث عنه ابناه أبو موسى هارون، وأبو المطرف عبد الرحمن، وابن أخته صاحب الأحكام بسرقسطة، أبو الحزم خلف بن

محمد العبدري، وحدّث عنه سنة ٤٤٥. عن ابن الأبار. وأبو الحزم خلف بن مسعود بن موسى من أهل وشقة، يعرف بابن الجلاد، حدّث عن أبي العاصي حكم بن إبراهيم المرادي، ومسعود بن سعيد السرقسطي، وحكم بن محمد السالمي وغيرهم. حدّث عنه بالإجازة أبو هارون موسى بن خلف بن أبي درهم. وأبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن محمد، يعرف بابن الأبار، روى عن أبيه إسماعيل الوشقي، وعن عبد الله بن حسن السندي، وعن زكريا بن النداف، وغيرهم. وكان من أهل الفقه والحديث. قال ابن الأبار القضاعي: سمع منه أبو الحزم بن أبي درهم، وحدّث عنه بالمدونة، وغيرها. ذكر ذلك أبو الوليد الباجي وسواه. وأبو عبد الله محمد بن موسى بن خلف الوشقي، منها. أخذ عن أبي داود المقرئ، ورحل حاجًّا فلقي ابن الفحّام، وأخذ عنه وقفل إلى الأندلس، فأوطن الش، وتولى الصلاة والخطبة بجامعها، وكان بها يقرئ القرآن، وكف بصره بآخرة من عمره، وتوفي قبل الثلاثين وخمسمائة، عن ابن الأبار. وأبو الأحوص معن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح التجيبي، والي المرية، ودارهم وشقة. كان أميرًا مرضي السيرة، عدلًا، باسطًا للحق، بريئًا من الدماء وأموال الناس. وقلد ذلك القضاة وأصحاب الشورى، فما أفتوه به أنفذه بواسطة صاحب الشرطة. وكان ذا حظ من العلم. وقد روى عن أبيه أبي يحيى مختصره لغريب القرآن، الواقع في تفسير الطبري الكبير.

ذكر ذلك أبو محمد بن عبيد الله في برنامجه وقال: وقال الحسن بن أبي الحسن: حدّثوا عن الأشراف، فإنهم لا يرضون أن يدنسوا شرفهم بالكذب ولا بالخيانة. قال ابن الأبار القضاعي في التكملة: وتوفي أبو الأحوص هذا بالمرية سنة ٤٤٣. وأبو بكر أحمد بن سليمان بن محمد بن أبي سليمان قاضي وشقة، روى بالمشرق عن أبي القاسم بن عبد الرحمن بن الحسن الشافعي، وأبي ذر الهروي، وغيرهما. حدّث عنه أبو بكر محمد بن هشام المصحفي، وسمع منه، وأثنى عليه. قاله ابن بشكوال في الصلة.

وكثير بن خلف بن كثير الوشقي، منها روى عن أبي عبد الله بن عيشون، سمع منه سنة ٣٦٤، قاله ابن بشكوال. وأبو عيسى لب بن هود بن لب بن سليمان الجذامي، رحل من وشقة إلى المشرق، ودخل بغداد، وسمع بها مع القاضي أبي علي الصدفي على الشيوخ، وصحبه هناك، قاله ابن بشكوال. وهارون بن موسى بن خلف بن عيسى بن أبي درهم، تقدمت ترجمة أبيه أبي هارون موسى، سمع من أبيه، ومن أبي محمد الشنتجالي، وحيّون بن خطّاب، وغيرهم، واستوطن دانية، وكان قاضيًا بها، وخطيبًا

بجامعها، قال ابن بشكوال: وكانت له معرفة بالأحكام وعقد الشروط وتوفي سنة ٤٨٤ أو نحوها. وأبو عبد الله يحيى بن عيسى بن خلف بن أبي درهم، سمع من خاله موسى بن عيسى، ومن أبي الوليد الباجي، وكان أبو علي بن سكرة يحسن الثناء عليه، قاله ابن بشكوال. وسعيد بن يحيى الخشّاب، محدّث وشقي، مات بالأندلس سنة ٣١٨. وأبو الحسن علي بن غالب بن محمد بن غالب، من أهل وشقة، له رحلة إلى المشرق، استوطن طرطوشة، وولي الخطبة بجامعها، وتوفي سنة ٥٢٠ وكان من أهل العلم والفضل. وأبو إسحاق إبراهيم بن دختيل المقرئ، من أهل وشقة، سكن سرقسطة، روى عن أبي عمرو عثمان بن سعيد المقرئ، قال ابن بشكوال: وكان رجلًا فاضلًا، جيد التعليم، حسن الفهم، أخبرنا عنه غير واحد من شيوخنا، توفي بسرقسطة في حدود السبعين والأربعمائة. ومحمد بن سليمان بن تليد، قاضي وشقة وتولى القضاء بسرقسطة أيضًا، يروي عن محمد بن العتبي، وعن محمد بن يوسف بن مطروح الربعي، مات بالأندلس سنة ٢٩٥.

وإلى الشرق من وشقة مدينة «تمريط»[1] مائلة إلى الجنوب، وهي إلى الشمال من لاردة. ذكرها نفح الطيب.

وإلى الشمال من وشقة على مسافة ١٣٣ كيلومترًا من سرقسطة مدينة «جاقة» سكانها خمسة آلاف نسمة، وهي قاعدة مقاطعة سوبراربه Sobrarba، ولها سور وأبراج، وفيها كنيسة بناها راميرو الأول سنة ١٠٤٠، ثم مدينة «سارينينه» Sarinena وسكانها أربعة آلاف نسمة.

ثم مدينة بربشطر،[2] وهي الآن مدينة صغيرة، سبعة آلاف نسمة، ولكن كان لها شأن عظيم في زمان العرب، وهي إلى الجنوب الشرقي من وشقة، جاء ذكرها في معجم البلدان فقال: بربشتر، بضم الباء الثانية، وسكون الشين المعجمة، وفتح التاء المثناة من فوق: مدينة عظيمة في شرق الأندلس، من أعمال بربطانية،[3] وقد صارت للروم في صدر سنة ٤٥٢، حمل منها لصاحب القسطنطينية في جملة الهدايا سبعة آلاف بكر منتخبة، ثم استعادها المسلمون في إمارة أحمد بن سليمان بن هود في سنة ٤٥٧، بعد ذلك بخمسة أعوام، فغنموا فيما غنموا عشرة آلاف امرأة، ثم عادت إليهم خذلهم الله، ولها حصون كثيرة، منها حصن القصر، وحصن الباكة[4] وحصن قصر منيونش،[5] وغير ذلك. وينسب إليها خلف بن يوسف المقري البربشتري، أبو القاسم، روى عن أبي

عمرو المقري، وأجاز له. وكان من أهل القرآن والحديث والبراعة والفهم، وتوفي في شهر رمضان سنة ٤٥١. ويوسف بن عمر بن أيوب بن زكريا التجيبي البربشتري، أبو عمرو، وله رحلة سمع فيها بمصر من الحسن بن رشيق وغيره. وكان يسكن الإسكندرية، وبها حدّث. وسمع من أبي صخر بمكة، قاله السلفي. ا.هـ.

قلنا إن ما ذكره ياقوت في معجمه عن خلف بن سويف المقري وجدناه منقولًا بالحرف تقريبًا عن الصلة لابن بشكوال، لا يختلف إلا في قول ابن بشكوال إن وفاة خلف كانت لعشر خلون من رمضان، وإنه مات بالطاعون. وأما يوسف بن عمر بن أيوب التجيبي، فكذلك مترجم في الصلة لابن بشكوال. وإنما يقول في الصلة إن كنيته أبو عمر، وأنه روى بقرطبة عن أبي زكريا بن قطرة، ويقول إن له رحلة إلى المشرق، سمع فيها من أبي الحسن بن رشيق بمصر وغيره. ولكنه يزيد على ذلك بقوله: حدّث عنه الصاحبان، وتوفي بعدهما بأندة سنة ٤٠٨، وحدّث عنه أيضًا أبو عمرو المقري. فظهر لنا أن ياقوت نقل عن أبي طاهر السلفي قوله إنه سكن الإسكندرية لأن السلفي كان هناك، كما لا يخفى.

وأما فاجعة بربشتر التي مع جميع ما حصل بالإسلام من الفجائع لم يوجد أشق منها، فقد ذكرها ابن عذارى في البيان المغرب فقال: إن جيش الأردامانيين (؟) نزلوا عليها، وجدّوا في قتالها وحصارها جدًّا عظيمًا، فكان أهلها يقاتلونهم خارج مدينتهم، وذلك في سنة ست وخمسين وأربعمائة.

وكان الماء يأتيها في سرب تحت الأرض من النهر حتى يدخل إليها فيخترقها، فخرج رجل من القصبة إلى الروم ودلهم عليه، فساروا إليه وهدموه وحالوا بينه وبين الاتصال بفم السرب، فعدم أهلها الماء، ولم يكن لهم صبر على العطش، فراسلوا الروم في أن يسلموهم في أنفسهم وذراريهم ويسلموا إليهم البلد، فأبى الروم من ذلك فجالدهم المسلمون إلى أن دخل الروم عليهم عنوة، فقتلوا المقاتلة، وسبوا الحريم والذرية وحصلوا منها على أموال جليلة، فكان أشد الرزايا بهذه الجزيرة، وحصل بأيدي الروم من نساء أهل بربشتر وذريتهم قرب المائة ألف، حصل من ذلك في سهم رئيسهم اللعين أربعة آلاف نسمة، اختارهن أبكارًا من الثمانية أعوام إلى العشرة فأهدى منهن لملكه ما شاء. وكان هذا اللعين يسمى بالبطيبين؟ وذكر أنه حصل في سهمه أخزاه الله، من أوقار الأطعمة والحلي والكسوة خمسمائة حمل. وكان الخطب في هذه المدينة أعظم ما يوصف، لأن الحال كان آل بهم إلى أن ألقوا بأيديهم بسبب الظمأ، وخرجوا من المدينة، وانتشروا في

بسيط من الأرض. فلما رأى الطاغية، ضاعف الله عذابه، كثرتهم وانتشارهم، خاف أن تدركهم حمية، في استنقاذ أنفسهم فأمر ببذل السيف فيهم، وبعضهم ينظر إلى بعض من رجال ونساء. فقيل إنه قتل منهم يومئذ نحو ستة آلاف، ثم نادى برفع السيف عنهم، وأمر بخروجهم عن المدينة بالأهل والذرية، فبادروا الخروج منها مزدحمين على أبوابها، فمات في ازدحامهم خلق كثير.

ولما عرض جميع من خرج عن المدينة بفناء بابها، بعد قتل من قتل منهم ظلوا قيامًا ذاهلين منتظرين نزول القضاء بهم، ثم نودي فيهم بأن يرجع كل ذي دار إلى داره بأهله وولده، وأزعجوا لذلك، ولما استقروا بالدور مع عيالهم وذرياتهم اقتسمهم المشركون، فكل من صارت في حصته دار حازها وما فيها من أهل وولد ومال، فحكم كل علج منهم في من سلط عليه من أرباب الدور، بحسب ما يبتليه الله به منه، يأخذ كل ما أظهره له، ويعذبه فيما أخفى عنه. وربما زهقت نفس المسلم دون ذلك فاستراح، وربما أنظره أجله إلى أسوأ من مقامه ذلك، لأن عداة الله كانوا يومئذ يهتكون حريم أسراهم وبناتهم بحضرتهم، إبلاغًا في نكايتهم (إلى أن يقول) فبلغ الكفرة يومئذ منهم ما لا تلحقه الصفة، والحول والقوة لله العظيم.

فلما استولى الروم على هذه المدينة المشئومة ترك فيها اللعين ألف فارس، وأربعة آلاف راجل، ورحل منها إلى بلاده. ولم يكن للنصارى قبل هذه الفعلة مثلها في بلاد المسلمين.

فلما رأى ابن هود هذا الأمر نادى بالنفر للجهاد في سائر بلاد المسلمين، فحميت نفوس أهل الإسلام، وجاءه منهم خلق عظيم لا يحصى عدده، ذكر أنه وصل من سائر بلاد الأندلس ستة آلاف من الرماة العقّارة، فنازلوا مدينة بربشتر وتأهبوا لقتال من ورد عليهم من الكفار، فلما عاين الكفار قوة المسلمين وكثرة حماتهم ورماتهم أغلقوا أبوابهم، وتركوا حربهم، وعظم عليهم أمرهم، فأمر ابن هود المقتدر بالله بالنقب لسورها، وأمر الرماة أن ينقبوا السور، لئلا يمنع الكفرة النقابة من النقب. فكان الروم لا يخرجون أيديهم من فوق السور، فنقبوا شقة كبيرة، ودعموا السور وأطلقوا النار في الدعائم، فوقعت تلك الشقة واقتحم المسلمون البلد. ولما عاين الروم ذلك خرجوا من ناحية أخرى على باب آخر فاتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاءوا، ولم ينج منهم إلا اليسير ممن تأخر أجلهم، وسبوا كل ما كان فيها من عيالهم وأبنائهم وقتل من أعداء الله نحو ألف فارس، وخمسة آلاف راجل، ولم يصب من جماعة المسلمين إلا نحو

الخمسين، فاستولى المسلمون على المدينة، وغسلوها من رجس الشرك، وجلوها من صدأ الإفك.

قال البكري: أدخل منها سرقسطة نحو ألف سبية، ونحو ألف فارس، ونحو ألف درع، وأموال وأثاث، وكان أخذها في جمادى الأولى من سنة سبع وخمسين وأربعمائة، فكان بين دخول الروم إليها وعودها للمسلمين سنة كاملة، وشاع لابن هود صنيع في بلاد المسلمين لهذا الفتح الذي اتفق على يديه. انتهى ما قاله ابن عذارى عن فاجعة بربشتر، وانتقام المسلمين لها.

ونقل المقري في النفح عن ابن حيان ما يلي قال: وكان تغلب العدو، خذله الله تعالى، على بربشتر، قصبة بلد برطانية، وهي تقرب من سرقسطة، سنة ست وخمسين وأربعمائة، وذلك أن جيش الأردمليش نازلها وحاصرها، وقصّر يوسف بن سليمان بن هود في حمايتها، ووكل أهلها إلى نفوسهم، فأقام العدو عليها أربعين يومًا، ووقع ما بين أهلها تنازع في القوت لقلته، واتصل ذلك بالعدو، فشد القتال عليها والحصر لها، حتى دخل المدينة الأولى في خمسة آلاف مدّرع، فدهش الناس، وتحصنوا بالمدينة الداخلة، وجرت بينهم حروب شديدة، قتل فيها خمسمائة إفرنجي. ثم اتفق أن القناة التي كان الماء يجري فيها من النهر إلى المدينة تحت الأرض في سرب موزون انهارت، وفسدت، ووقعت فيها صخرة عظيمة سدت السرب بأسره، فانقطع الماء عن المدينة. ويئس من بها من الحياة، فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصةً، دون مال وعيال، فأعطاهم العدو الأمان، فلما خرجوا نكث بهم وغدر، وقتل الجميع إلا القائد ابن الطويل، والقاضي ابن عيسى، في نفر من الوجوه، وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى، حتى إن الذي خص بعض مقدمي العدو لحصته، وهو قائد خيل رومة، نحو ألف وخمسمائة جارية أبكارًا، ومن أوقار الأمتعة والحلي والكسوة خمسمائة جمل. وقدّر من قتل وأسر مائة ألف نفس. وقيل خمسون ألف نفس.

ومن نوادر ما جرى على هذه المدينة لما فسدت القناة، وانقطعت المياه، أن المرأة كانت تقف على السور وتنادي من يقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها، أو لولدها فيقول لها أعطيني ما معك، فتعطيه ما معها من كسوة وحلي وغيره.

قال: وكان السبب في قتلهم أنه خاف ممن يصل لنجدتهم، وشاهد من كثرتهم ما هاله، فشرع في القتل، لعنه الله تعالى، حتى قتل منهم نيفًا على ستة آلاف، ثم نادى الملك بتأمين من بقي، وأمر أن يخرجوا، فازدحموا في الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم، ونزلوا من الأسوار في الحبال، للخشية من الازدحام في الأبواب، ومبادرة إلى شرب الماء.

وكان قد تحيّز في وسط المدينة قدر سبعمائة نفس من الوجوه، وحاروا في نفوسهم وانتظروا ما ينزل بهم، فلما خلت ممن أسر وقتل، وأخرج من الأبواب والأسوار، وهلك في الزحمة، نودي في تلك البقية بأن يبادر كل منهم إلى داره بأهله وله الأمان وأرهقوا وأزعجوا، فلما حصل كل واحد منهم بمن معه من أهله في منزله، اقتسمهم الإفرنج، لعنهم الله تعالى، بأمر الملك، وأخذ كل واحد منهم دارًا بمن فيها من أهلها، نعوذ بالله تعالى.

وكان من أهل المدينة جماعة قد عاذوا برءوس الجبال، وتحصنوا بمواضع منيعة، وكادوا يهلكون من العطش، فأمنهم الملك على نفوسهم وبرزوا في صور الهلكى من العطش، فأطلق سبيلهم، فبينما هم في الطريق، إذ لقيهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة فقتلوهم إلا القليل ممن نجا بأجله. قال: وكان الإفرنج، لعنهم الله تعالى، لما استولوا على أهل المدينة (وذكر أمورًا هنا أمسكنا عن نقلها لأنها مما تنفطر له الكبود وتقشعر الجلود) وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط في ما مضى من الزمان، ولما عزم ملك الروم على القفول إلى بلده، تخيّر من بنات المسلمين الجواري الأبكار والثيبات ذوات الجمال، ومن صبيانهم الحسان ألوفًا عدة، حملهم معه ليهديهم إلى من فوقه، وترك من رابطة خيله ببربشطر ألفًا وخمسمائة، ومن الرجال ألفين.

قال ابن حيان: وأختم هذه الأخبار الموقظة لقلوب أولي الألباب بنادرة يكتفى باعتبارها عما سواها، وهي أن بعض تجار اليهود جاء بربشتر بعد الحادثة، ملتمسًا فدية بنات بعض الوجوه، ممن نجا من أهلها، حصلن في سهم قومس من الرابطة فيها كان يعرفه. قال: فهديت إلى منزله فيها. واستأذنت عليه، فوجدته جالسًا مكان رب الدار، مستويًا على فراشه، رافلا في نفيس ثيابه، والمجلس والسرير كما خلقهما ربهما يوم محنته، لم يغير شيئًا من رياشهما وزينتهما، ووصائفه مضمومات الشعور، قائمات على رأسه، ساعيات في خدمته. فرحب بي وسألني عن قصدي، فعرفته وجهه، وأشرت إلى وفور ما أبذله في بعض اللواتي على رأسه، وفيهن كانت حاجتي فتبسم وقال بلسانه: ما أسرع ما طمعت في من عرضناه لك! أعرض عمن هنا، وتعرض لمن شئت ممن سيّرته لحصني، من سبي وأسراي، من أقاربك في من شئت منهم. فقلت له: أما الدخول إلى الحصن فلا رأي لي فيه، وبقربك أنست، وفي كنفك اطمأننت، فسمني ببعض من هنا؛ فإني أصير إلى رغبتك، فقال: وما عندك؟ قلت: العين الكثير الطيب، والبز الرفيع الغريب. فقال: كأنك تشهّيني ما ليس عندي! يا باجه — ينادي بعض أولئك

الوصائف، يريد يا بهجة، فغيّره بعجمته — قومي فأعرضي عليه ما في ذلك الصندوق. فقامت إليه، وأقبلت ببدر الدنانير، وأكياس الدراهم، وأسفاط الحلي، فكشفت، وجعلت بين يدي العلج، حتى كادت تواري شخصه، ثم قال لها: أدني إلينا من تلك التخوت، فأدنت منه عدة من قطع الوشي والخز والديباج الفاخر، مما حار له ناظري، وبهت، واسترذلت ما عندي. ثم قال لي: لقد كثر هذا عندي حتى ما ألذ به. ثم حلف بإلهه: إنه لو لم يكن عندي شيء من هذا ثم بذل لي بأجمعه في ثمن تلك، ما سخت بها يدي، فهي ابنة صاحب المنزل، وله حسب في قومه، اصطفيتها لمزيد جمالها لولادتي، حسبما كان قومًا يصنعون بنسائنا نحن، أيام دولتهم، وقد ردت لنا الكرة عليهم، فصرنا في ما تراه، وأزيدك بأن تلك الخود الناعمة — وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى الناحية — مغنية والدها، التي كانت تشدو له على نشوائه، إلى أن أيقظناه من نومائه. يا فلانة، يناديها بلكنته: خذي عودك فغني زائرنا بشجوك. قال: فأخذت العود وقعدت تسويه وإني لأتأمل دمعها يقطر على خدها، فتسارق العلج مسحه، واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا، فضلًا عن العلج، فصار من الغريب أن حث شربه عليه، وأظهر الطرب منه. فلما يئست مما عنده، قمت منطلقًا عنه، وارتدت لتجارتي سواه، واطلعت لكثرة ما لدى القوم من السبي والمغنم على ما طال عجبي به، فهذا فيه مقنع لمن تدبره، وتذكر لمن تذكره!

قال ابن حيان: قد أشفينا بشرح هذه الحالة الفادحة، على مصائب جليلة مؤذنة بوشك القلعة، طالما حذر أسلافنا لحاقها، بما احتملوه عمن قبلهم من إثارة، ولا شك عند ذوي الألباب أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع، وقد أمرنا بالتواصل والألفة، فأصبحنا من استشعار ذلك، والتمادي عليه على شفا جرب، يؤدي إلى التهلكة لا محالة. انتهى ببعض اختصار.

قال المقري: وذكر بعده كلامًا في ذم أهل ذلك الزمان، من أهل الأندلس، وأنهم يعللون أنفسهم بالباطل، وأن من أدل الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم، وبعدهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية نبيهم، وغفلتهم عن سد ثغورهم، حتى أطل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم، يجوس خلال ديارهم، ويستقري بسائط بقاعهم، ويقطع كل يوم طرفًا، ويبيد أمة، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا، صموت عن ذكرهم، لهاة عن بثهم، ما إن يسمع عندنا بمسجد من مساجدنا، أو محفل من محافلنا، مذكر لهم أو داع، فضلًا عن نافر إليهم، أو ماش لهم، حتى كأنهم ليسوا منا، أو كأن بثقهم ليس

بمفض إلينا، وقد بخلنا عليهم بالدعاء، بخلنا بالعناء، عجائب فاتت التقدير، ولله عاقبة الأمور وإليه المصير. انتهى.

قال المقري: ولقد صدق ابن حيان رحمه الله تعالى، فإن البثق سرى إليهم جميعًا كما ستراه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونقل المقري عن ابن حيان أيضًا في هذه الفادحة ما يلي: أن بربشتر هذه تناسختها قرون المسلمين، منذ ثلاثمائة وثلاث وستين سنة، من عند الفتوح الإسلامية بجزيرة الأندلس، فرسخ فيها الإيمان، وتدورس القرآن، إلى أن طرق الناعي بها قرطبتنا صدر رمضان من العام، فصك الأسماع، وأطار الأفئدة، وزلزل أرض الأندلس قاطبة، وصير لكل شغلًا يشغل الناس في التحدث به، والتساؤل عنه، والتصور لحلول مثله أيامًا، لم يفارقوا فيها عاداتهم من استبعاد الوجل، والاغترار بالأمل، والاستناد إلى أمراء الفرقة الهمل، الذين هم منهم ما بين فشل ووكل، يصدونهم عن سواء السبيل، ويلبسون عليهم وضوح الدليل. ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين، هم كالملح فيهم: الأمراء والفقهاء، بصلاحهم يصلحون، وبفسادهم يفسدون، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لا كفاية له، ولا مخلص منه.

فالأمراء القاسطون قد نكبوا عن نهج الطريق، زيالا عن الجماعة، وجريًا إلى الفرقة. والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدوف عما أكده الله تعالى عليهم، من التبيين لهم، قد أصبحوا ما بين آكل من حلوائهم، وخابط في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم، آخذ في التقية من صدقهم. وأولئك هم الأقلون فيهم. فما القول في أرض فسد ملحها، الذي هو مصلح لجميع أغذيتها، وما هي إلا مشفية على بوارها. ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء! لم يكن عندهم لهذه الحادثة إلا الفزع لحفر الخنادق وتعلية الأسوار، وشد الأركان، وتوثيق البنيان، كاشفين لعدوهم عن السَّوْأة السُّوأَى من إلقائهم يومئذ بأيديهم إليه أمورًا قبيحات الصور، مؤذنات الصدور بإعجاز الغير

أمور لو تدبرها حكيم   إذن لنهى وحبب ما استطاعا

انتهى باختصار.

ثم قال ابن حيان: فلما كان عقب جمادى الأولى سنة ٥٧ شاع الخبر بقرطبة برجوع المسلمين إليها — أي إلى بربشتر — وذلك أن أحمد المقتدر بن هود المفرط فيها والمتهم على أهلها، لانحرافهم إلى أخيه، صمد لها مع إمداد الخليفة عباد، وسعى

لإصمات سوء المقالة عنه، وقد كتب الله تعالى عليه ما لا يمحوه إلا عفوه، فتأهب لقصد بربشتر في جموع من المسلمين، فجالدوا الكفار بها جلادًا ارتاب منه كل جبان، وأعز الله سبحانه أهل الحفيظة والشجعان، وحمي الوطيس بينهم إلى أن نصر الله تعالى أولياءه وخذل أعداءه، وولوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة، فاقتحمها المسلمون عليهم، وملكوها أجمعين، إلا من فر من مكان الوقعة، ولم يدخل المدينة، فأجيل السيف في الكافرين واستؤصلوا أجمعين، إلا من استرق من أصاغرهم، وفدي من أعاظمهم، وسبوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم، ومسكوا المدينة بقدرة الخالق البارئ، وأصيب في منحة النصر المتاح، طائفة من حماة المسلمين الجادين في نصر الدين، نحو الخمسين، كتب الله تعالى شهادتهم وقتل فئة من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل فغسلها المسلمون من رجس الشرك وجلوها من صدأ الإفك. انتهى.

قلنا قد ظهر من هذا النقل أن المقري، ومن قبله ابن عذارى، إنما نقلا تاريخ فاجعة بربشتر عن ابن حيان لأن بعض الجمل مثل «فغسلها المسلمون من رجس الشرك وجلوها من صدأ الإفك» مذكورة في نفخ الطيب نقلا عن ابن حيان، وأيضًا في البيان المغرب لابن عذارى، وكذلك يوجد اتفاق في بعض الروايات مثل أنه استشهد من المسلمين يوم ارتجعوا بربشتر نحو الخمسين، وأن العدو فقد يومئذ ألف فارس وخمسة آلاف راجل، إلا أنه موجود بين روايتي ابن حيان وابن عذارى اختلافات في بعض التفاصيل؛ فإن ابن عذارى لم يذكر تقصير يوسف بن سليمان بن هود في حماية بربشتر، ولا ذكر أيضًا أن أحمد المقتدر أخاه فرط في أمرها لانحراف أهلها إلى أخيه يوسف من وجود العداوة بينهما. والحال أنه من سياق الكلام، ومن قول ابن حيان أن العدو أقام يحاصر بربشتر أربعين يومًا، يظهر للقارئ أن التفريط وقع من بني هود في أمرها سواء كان يوسف بن هود أو أخوه أحمد، وأن أهل بربشتر كانوا من حزب يوسف، فبهذا السبب تركهم أحمد الذي كان أميرًا لسرقسطة ولم ينجدهم. وكذلك يوسف تأخر عن نصرتهم، ولا سبب في ذلك، والله أعلم، سوى خوفه من أخيه، لأنهما كانا في شقاق بعيد، وكل منهما يستنصر بالطاغية ابن ردمير على أخيه فتأخر يوسف وتأخر أحمد عن نجدة أهل بربشتر بخوف كل منهما من الآخر. فجرى على بربشتر ما جرى من الفاجعة التي ندر وقوع مثلها في الإسلام. ولا شك في أنه تحدث المسلمون بهذا الخبر في كل ناد، وجعلوا التبعة في هذه الفجيعة على بني هود، ولاسيما على أحمد بن سليمان بن هود الملقب بالمقتدر صاحب سرقطة لأنه كان أقدر من أخيه على إصراخ

أهل تلك البلدة، فلذلك عمد أحمد لإصمات سوء المقالة عنه، كما قال ابن حيان، وصمد إلى بربشتر بجموع المجاهدين واسترجعها، وشفى صدور المسلمين مما كان فجعهم من حادثتها، فقال ابن عذارى: وشاع لابن هود صنيع في بلاد المسلمين لهذا الفتح الذي اتفق على يديه. ولكن ابن حيان يقول: إن الله تعالى كتب عليه من حادثة بربشتر ما لا يمحوه إلا عفوه. وبالاختصار يظهر للمتأمل أن جميع ما حل بالمسلمين من الفجائع في الأندلس إنما كان نتيجة انقسامهم، واشتغالهم بمحاربة بعضهم بعضًا، واستظهارهم بملوك الإسبانيول على إخوانهم، ولما كانت الإمارة الإسلامية موحدة في قرطبة والكلمة مجتمعة، كان يبعد أن يقع بهم ما وقع في ما بعد، وكانوا لو أصيبوا في حادثة واحدة لم يمض وقت حتى يجبروا كسرها، بخلاف ما آل إليه أمرهم في زمن ملوك الطوائف، عندما سقطت الخلافة في قرطبة ووقعت الفتنة الكبرى بين العرب والبربر، وصارت كل مدينة من مدن الأندلس مستقلة بنفسها، فيها أمير المؤمنين ومنبر. فأصل فساد أمر الأندلس إنما كان من سوء أحوال أمرائها، وتنزي جميعهم على الملك، غير ناظرين إلى العواقب، وفي جانب هذا الفساد لم يكن من صلح الفقهاء ما يقوم الأود، بل غلب على هؤلاء حب الدنيا، كما قال ابن حيان في ما نقلناه عنه، وهو عين ما ذكرناه نحن في رسالتنا المشهورة «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟» قلت في الصفحة ٤٣ من الطبعة الأولى من تلك الرسالة:

> ومن أكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوع خاص، وظن هؤلاء، إلا من رحم ربك، أن الأمة خلقت لهم، وأن لهم أن يفعلوا بها ما يشاءون، وقد رسخ فيهم هذا الفكر حتى إذا حاول محاول أن يقيمهم على الجادة بطشوا به عبرة لغيره، وجاء العلماء المتزلفون لأولئك الأمراء، المتقلبون في نعمائهم، الضاربون بالملاعق في حلوائهم وأفتوا لهم بجواز قتل ذلك الناصح، بحجة أنه شق عصا الطاعة، وخرج عن الجماعة. وقد عهد الإسلام إلى العلماء بتقويم أود الأمراء، وكانوا في الدول الإسلامية الفاضلة بمثابة المجالس النيابية في هذا العصر، يسيطرون على الأمة، ويسددون خطوات الملك ويرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة، ويهيبون بالخليفة فمن بعده إلى الصواب، وهكذا كانت تستقيم الأمور، لأن أكثر أولئك العلماء كانوا متحققين بالزهد، متحلين بالورع، متخلين عن حظوظ الدنيا، لا يهمهم أغضب ذلك الملك الجبار أم رضي؟ فكان الخلائف والملوك يرهبونهم، ويخشون مخالفتهم،

بما يعلمون من انقياد العامة لهم، واعتقاد الأمة بهم. إلا أنه بمرور الأيام، خلف من بعد هؤلاء خلف اتخذوا العلم مهنة للتعيش، وجعلوا الدين مصيدة للدنيا، فسوغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم، وأباحوا لهم باسم الدين خرق حدود الدين. هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء، وعلوا مناصبهم، يظنون فتياهم صحيحة، وآراءهم موافقة للشريعة، والفساد بذلك يعظم ومصالح الأمة تذهب، والإسلام يتقهقر، والعدو يعلو ويتنمر، وكل هذا إثمه في رقاب هؤلاء العلماء. ا.هـ.

وقد وضع الأستاذ فقيد الإسلام صاحب المنار رحمه الله حاشية على هذه الجملة قال فيها: وفينا هذه المسألة حقها في المنار، وأهمه مقالة في المجلد التاسع عنوانها «حال المسلمين في العالمين ودعوة العلماء إلى نصيحة الأمراء والسلاطين» أنحينا فيها بالّائمة على علماء هذا العصر في تقصيرهم عن نصيحة الملوك والأمراء. ا.هـ.

على أن فقهاء الأندلس برغم كل ما ثبت عنهم من التقصير في إقامة أمرائهم على الطريق المستقيم، لا ننكر أنه ضاق ذرعهم أخيرًا بفتن ملوك الطوائف التي كان من ورائها تقلص الإسلام شيئًا فشيئًا، فراسلوا المرابطين ومن بعدهم الموحدين، في بر العدوة حتى أجازوا إلى الأندلس المرة بعد المرة وكانت مواقفهم في جهاد النصارى هي السبب في نسيئة أجل الإسلام في تلك البلاد مدة مائتين إلى ثلاثمائة سنة.

ومما يجب الانتباه إليه بمناسبة حادثة بربشتر هو العمران الزائد الذي وصلت إليه لذلك العهد أسبانية الإسلامية، فأنت ترى أنهم عدلوا سبي تلك البلدة بمائة نسمة أو بخمسين ألفًا، ولا شك في أن أهلها لم يكونوا أجمعين من جملة السبي. والحال أن بربشتر لم تكن إلا مدينة من الدرجة الثالثة بالكثير في مدن الأندلس، أي من المدن التي رافائيل بلستر أحصاها بثلاثمائة مدينة في أسبانية المسلمة. فلا هي من الحواضر الكبرى، ولا هي في الثمانين مدينة المعمورة جدًّا، بل هي في القصاب التي تأتي في الدرجة الثالثة، ومع هذا فقد رأيت ما كان من عدد أهلها، وما ظهر من عظمة ثروتهم وسبوغ نعمتهم، وفي حكاية التاجر اليهودي الذي ذهب لفكاك السبايا ما فيه كفاية.

ولقد ذكرنا أن بربشتر هي من أعمال بريطانية أو برطانية في شرقي الأندلس وبرطانية يقول لها الأسبان بولطانية باللام، وهي إلى الشمال من بربشتر، وإلى الشمال الشرقي من وشقه. وقد نقلنا عن ياقوت في المعجم أنها مدينة كبيرة بالأندلس، يتصل عملها بعمل لادرة، وكانت سدًّا بين المسلمين والروم، ولها مدن وحصون، وفي أهلها

جلادة وممانعة للعدو، وهي في شرقي الأندلس اغتصبها الإفرنج فهي اليوم في أيديهم. ا.هـ.

قلنا إن بلطانية أو برطانية هي في وسط جبال البرانس، تقع في الجنوب من الجبل المسمى بالجبل الضائع، وفي الشرق من الشارات التي يقال لها «شارات بانيه» Pena وأما لاردة فهي إلى الجنوب الشرقي من برطانية. ثم إنه إلى الجنوب من بربشتر تقع مدينة «مونتشون» ويقول لها الأسبانول Monzon[٦] وهي بلدة صغيرة اليوم أهلها أربعة آلاف نسمة ولكنها قديمة، وفيها خرب من زمان الرومان، وعلى صخرة عالية منها، تشرف عليها حصن قديم كان ريموند بيرانجه الرابع أمير برشلونة تخلى عنه سنة ١١٤٣ لنظام الفرسان الهيكلي. وبالقرب من حصن مونتشون إلى الشرق بحرًا بلدة تمريط Tamarite وإلى الجنوب الشرقي من تمريط تقع بلدة يقال لها المنار وبالقرب منها بلدة «بلغى» التي سيأتي ذكرها، وهي من عمل لاردة من بلاد كتلونية.

والطريق من سرقسطة إلى برشلونة بالسكة الحديدية هو على الجنوب الشرقي، بين نهر أبره والقناة الإمبراطورية، وهناك قرية يقال لها باستريز "Pastriz" وقرية أخرى يقال لها البرجو، ولا شك أنها بحرفة عن البرج، ثم إن على النهر بلدة يقال لها «الفونت» تنتهي عندها القناة الإمبراطورية، وفيها قصور لعائلة نبيلة كانت لها سيادة على الفونت، وغير بعيدة عنها قرية «أغيلار» ثم قصبة يقال لها «بينه» ثم مدينة «كينتو» Quinio وهي صغيرة وكلها قصاب على وادي أبره، ثم بلدة قلسة Gelsa و«الزائدة» Zaida و«اسقاطرون» Escatron ثم السهلة ويقول لها الإسبانيول Azaila.

وعلى مسافة ٧٣ كيلومترًا من سرقسطة بلدة صغيرة اسمها هيجار Hijar أهلها ألفا نسمة. وعلى مسافة ٣٢ كيلومترًا من هيجار بلدة يقال لها الكنيز Alcaniz وكان العرب يقولون لها القنيت وهي بلدة قديمة ايبرية. كان اسمها في الماضي أنتورجيس Anilorgis وفي هذه البلدة ظفر القرطاجنيون بقيادة الأسد الرئبال أسد روبال Hesdrubat بالجيش الروماني سنة ٢١٢ قبل المسيح. وبالقرب من القنيت هذه يوجد صخر كبير يقال له «صخر المغربي Roca del Moro» عليه صور عذملية تمثل كثيرًا من الحيوانات، وفي تلك الناحية تجتاز السكة الحديدية وادي لب، وتعود فتدنو من نهر أبره. وأما حصن جبرة فيقع على مائة وكيلومترين من سرقسطة وهذا الحصن يقول له الإسبانيول شبرانة، وقد ذكره ياقوت بهذا الاسم فقال:

شبرانة من ثغور شرق الأندلس بقرب طرطوشة ينسب إليها أديب يقال له الشبراني، وإلى الشمال من جبرة أو شبرانة تقع بلجيط. وبلجيط قصبة من عمل

سرقسطة ينسب إليها أناس من أهل العلم قد ورد ذكرهم في تراجم علماء سرقسطة[٧] وإلى الجنوب من جبرة مدينة قشب Caspe وقد مر ذكرها، وهي سبعة أو ثمانية آلاف نسمة على الصفة اليمنى من وادي أبره، والوادي من عند قشب يدور صوب الشرق، مارًّا بمكناسة، ويدخل في بلاد كتلونية.

وكانت قشب من الحصون المعروفة عند العرب، وينسب إلى قشب من العلماء أبو الحسن نفيس بن عبد الخالق بن محمد الهاشمي القشبي المقرئ، لقيه السلفي بالإسكندرية، وحج ورجع إلى الأندلس، وذكر السلفي أنه قرأ عليه قبل رجوعه إليها. وقد تقدم ذكره.

ومن أعمال سرقسطة بلدة إلى غربيها يقال لها المنية almuna وبلدة أخرى إلى الغرب منها أيضًا، بينها وبين دروقة، يقال لها كارينته Carinena ولا نعلم هل هذه التي يقول العرب قلنة، أم هي غيرها؟ قال ياقوت في المعجم: قلنة بلد بالأندلس، قال ابن بشكوال إنه ينسب إليها عبد الله بن عيسى الشيباني أبو محمد، من أهلقلنة حيز سرقسطة، محدث حافظ متقن، كان يحفظ صحيح البخاري، وسنن أبي داود، وله اتساع في علم اللسان، وحفظ اللغة، وله عدة تآليف حسنة، وتوفي ببلنسية عام ٥٣٠.

وجاء في معجم البلدان أن من جملة حصون سرقسطة حصن اسمه «ملونده[٨]» بضم أوله وثانيه، وسكون النون، ثم دال مهملة. ومن هذا القبيل «بلشند» و«بلطش» اللتان قال ياقوت إنهما من أعمال سرقسطة. ولم نقف على أسمائهما بالأسباني إلى هذه الساعة، ونرجح أنه من أثر التحريف. وذكر ياقوت من جملة حصون سرقسطة حصنًا اسمه شلوقة، ينسب إليه علي بن إسماعيل بن سعيد بن أحمد بن لب بن حزم الحزرجي، قرأ على ابن عطية الغرناطي الحديث، والنحو على ابن طراوة المالقي، وأبوه أيضًا مقرئ نحوي، لقيهما السلفي (بالإسكندرية) وكتب عنهما. ولا نعلم هل شلوقة هذه هي التي يقول لها الإسبانيول سلوسية S.lucia؟ وهي إلى الشرق نحوًا من بينية، الواقعة على نهر أبره، إلى الجنوب من سرقسطة.

ومتى تجاوزت تشب تجد نهر أبره قد اتجه إلى الشمال، ودار من حول شارات مكناسة Sierra de Mequinenza المعدودة من جبال كتلونية، ثم يعود أبره فينحدر إلى الجنوب، ويعود الخط الحديدي فيتلاقى بأبره، عند بلدة يقال لها فيون، على مسافة ١٥٢ كيلومترًا من سرقسطة، وهناك الحد بين أراغون وكتلونية ثم ينحدر أبره طالبًا طرطوشة، حيث ينصب في البحر، وعلى مسافة ٢١١ كيلومترًا بلدة يقال لها مرسى

فليست، عدد سكانها أربعة آلاف، وبالقرب منها معدن رصاص، وهي واقعة في واد بهيج، على سفح جبل مولا Mola ومن بعدها إلى الشرق بلدة بورجاس دلكامبو Borjas del Cabmpo ثم يطل السائح على البحر المتوسط.

هوامش

(١) Tamarita.

(٢) Barbashtro.

(٣) Bollania والعرب يقولون «بربطانية» وبه قال ياقوت الذي يضبطها هكذا: بفتح الباء الثانية وطاء وألف ونون مكسورة وياء خفيفة وهاء. قال: إنها مدينة كبيرة بالأندلس يتصل عملها بعمل لاردة، وكانت سدًّا بين المسلمين والروم، ولها مدن وحصون، وفي أهلها جلادة وممانعة للعدو، وهي في شرقي الأندلس، اغتصبها الإفرنج، فهي اليوم في أيديهم. انتهى. ولكن في نفح الطيب يسميها كورة برطانية، بباء واحدة، لا ببائين، وهي الأقرب للأصل الإسبانيولي، وهو يذكرها مع كورة باروشة فيقول: كورة تطيلة، ومدينتها طرسونة، وكورة وشقة ومدينتها تمريط، وكورة مدينة سالم، وكورة قلعة أيوب، ومدينتها بليانة، وكورة برطانية، وكورة باروشة، وقد تكرر ذكر برطانية في نفح الطيب، فإنه يذكر في أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل أنه أرسل وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث سنة سبع وسبعين ومائة بالعساكر إلى أربونة وجرندة، فأثخن فيهما، ووطئ أرض برطانية. ثم إنه عند ذكره إمارة عبد الرحمن الثاني يقول إنه سنة ست وعشرين بعث العساكر إلى أرض الفرنجة، وانتهوا إلى أرض برطانية، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة، ولقيهم العدو، فصبروا حتى هزم الله عدوهم، وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود، انتهى. ولا يمكن أن يكون قد أراد ببرطانية هنا بلاد بريطانية التي هي في شمالي فرنسة، لأنها شديدة البعد، ولم تذكر التواريخ أن عبد الرحمن الثاني أوغل في أرض فرنسة، حتى وصل إلى برطانية، ثم إنه يذكر في هذه الواقعة بلاء عامل تطيلة موسى بن موسى، وهو موسى بن موسى بن قصي، الذي هو من أصل إسبانيولي، وقد أسلم وتولى الثغر الشرقي مدة طويلة، فظاهر من هنا أن برطانية هي البلدة التي يقول لها الإسبانيول «بلطانية» باللام، وهي إلى الشرق الجنوبي من جاقة، وإلى الشمال من بربشتر.

(٤) ذكر ياقوت هذا الحصن، وجعله بتشديد الكاف، فقال: حصن بالأندلس من نواحي بربشتر وهو اليوم بيد الإفرنج. انتهى ولعله هو الحصن الذي بقرب المنار، بين لاردة وبربشتر، والإسبانيول يقول له «الباكه» Albca وهو أقرب إلى لاردة منه إلى بربشتر.

(٥) لم نجد في أعمال بربشتر ما يقال له اليوم منيونش، وإنما توجد بالقرب من بربشتر بلدة يقال لها المنية، ويقول لها الإسبانيول منية سان يوان.

(٦) قال ياقوت في المعجم: منت شون الشين معجمة وآخره نون حصن من حصون لاردة بالأندلس قديم بينه وبين لاردة عشرة فراسخ وهو حصين جدًّا تملكه الإفرنج سنة ٤٨٢.

(٧) منهم أبو عميرة البلجيطي.

(٨) لعلها التي يقول لها الإسبانيول اليوم مالونده على نهر جاق Malunda Velilla Giloca وهي بقرب بلدة موارطة Morata.

الفصل السادس والثلاثون

كتلونية

هذه البلدة هي قائمة بذاتها من قديم الدهر، وكثيرًا ما كانت مستقلة عن سائر أسبانية، ولم تتحد مع أراغون وقشتالة إلا بعد طرد المسلمين من الأندلس، وأهلها أمة يقال لها الكتالان، لسانهم غير الإسبانيول، والفرق بينهما أن الإسبانيول مشتق من اللاتيني، وهو أقرب إلى اللاتيني من اللغة الكتلونية، وأن هذه اللغة أقرب إلى لغة بروفنسة، التي هي لغة جنوبي فرنسة. وجنس الكتلان على وجه الإجمال لا يود الجنس القشتالي. قال لي رجل من الكتلان، ونحن آتون من مجريط إلى برشلونة: نحن والقشتاليون كالماء والزيت، بمجرد اختلاطنا ينفصل كل فريق منا عن الآخر.

وحدود كتلونية جبال البيرانس من الشمال، وبلاد أراغون من الغرب، وولاية بلنسية من الجنوب، والبحر المتوسط من الشرق، وكان لكتلونية على هذا البحر من السواحل مسافة أربعمائة كيلومتر من رأس سربيرة Cerbira في الشمال إلى مصب نهر سينيه Cenia، وأهم مدنها البحرية روزاس Rosas وكاداكيس Cadaques وبالاموس وبرشلونة وطركونة وسالو Salou ولوس الفاكيس Los Alfaquis. وأهم قسم لها من البرانس الجبال المسماة بجبل نيغرو Negro وسان غراو Sangrau ومونشارات Monlserrat وغيرها، وأهم الأودية المتكونة من هذه الجبال هي وادي أندور، وهو وادٍ له حكومة مستقلة، بين فرنسة وأسبانية، كما لا يخفى، ووادي آنيو Aneo، ووادي آرون Aron، ووادي آرو Aro، ووادي كردونة Cardona وغيرها. وأعظم أنهرها نهر أبره، ثم نهر سكر Segre ثم نهر لوبريقات Liobregat ونهر تير Ter ونهر فلوفيه Fluvia.

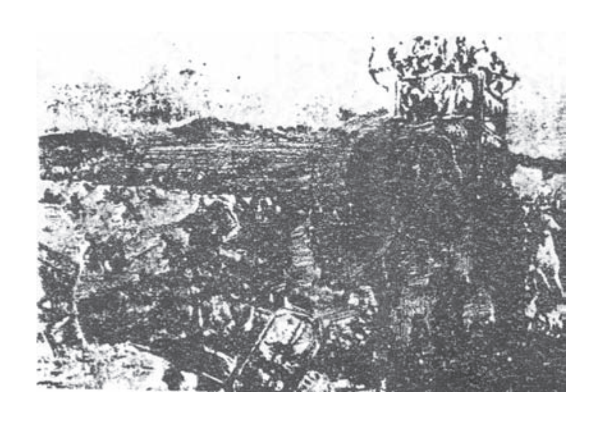
والقسم الشمالي من كتلونية شديد البرد. لملاصقته لجبال البرانس، ولكن السواحل هي في غاية الاعتدال، وكذلك القسمان الغربي والجنوبي. وليست البلاد من جهة أرضها

معدودة من البقاع الخصيبة في الدنيا. وأكثر أراضيها جبلية، والأوعار فيها كثيرة، إلا أن الكتلان من أكثر الأمم نشاطًا وأشدهم ثباتًا في العمل، فلذلك ترى في أراضيهم المزارع العظيمة للحبوب، وكروم العنب المالئة للسهل والوعر ومن بساتين الزيتون، من الغياض ما لا يحصى، ومن الأماكن التي تذكر بحسن زراعتها سهول لامبوردان Lampordan، وجيرندة، وسيردانيه، وباجس، وبنادس توطركونة وضفاف نهر سيفر، ونهر أبره، ولا تنس فحص طرطوشة، وبقعة لاردة.

ومن حاصلات كتلونية الثمار بأنواعها، والخشب، والبقول، وأكثر ما تباع في فرنسة، وكذلك يستخرجون الخمر بكثرة. ثم إن عندهم في الجبال مواشي كثيرة. أما المعادن فيكثر في كتلونية الجير والجص والملح. وفي طرطوشة وطركونة رخام كثير وبقرب ساليت Salut معدن رصاص، والحديد موجود في البرانس، والمياه المعدنية كثيرة أيضًا، أشهرها في غاريقة Garriga وكالداس Caldas وبودا Puda إلخ.

وأما الصناعة في كتلونية ففي منتهى الازدهار، لاسيما في أرباض برشلونة، ومما لا نزاع فيه أن كتلونية هي أرقى بلاد أسبانية في الصناعة. ومن صناعات كتلونية نسج القطن والصوف والحرير والجوخ، وسائر أنواع المنسوجات. وعمل الورق والصابون والزجاج والسلاح، وغير ذلك، وبسبب ازدهار الصناعة نجد تجارة برشلونة هي أوسع من تجارة أية مدينة في أسبانية، بل برشلونة تعد من أعظم المدن التجارية في العالم. وفي كتلونية عرق فينيقي ثابت في التاريخ، فإن الفينيقيين زاروا تلك البلاد وعمروها، وكانوا يبحثون فيها عن معادن الذهب والفضة، ثم جاء اليونانيون فزاحموا الفينيقيين، وأنشئوا مستعمرات على شواطئ البحر، مثل بلدة روزاس التي قيل لها الروضة، وأنبورياس التي قيل لها أنبوريون Enporien، ثم عندما عظمت دولة قرطاجنة جاء القرطاجنيون في القرن الثالث قبل المسيح، وزاحموا اليونانيين وانتشروا في كتلونية. والمظنون أن أسدروبال برقة Asdrubal Berca الزعيم القرطاجني هو باني مدينة برشلونة، التي كان اسمها في القديم بارسينو Bercino.

ولما كان الرومانيون حلفاء لليونانيين لم تلبث الحرب أن نشبت بين الرومان والقرطاجنيين، لأن الرومان أرسلوا في سنة ٢١٨ قبل المسيح القائد سيبيون Seipion وأخاه بأسطول إلى مياه امبوريون، ثم إلى طركونة، ودارت الحرب بين القرطاجنيين والرومان، فانهزم سيبيون وأخوه، وقتلا في المعركة، وفي طركونة نفسها عاد الرومانيون فنزلوا وحشدوا لقتال القرطاجنيين، وصارت هذه البلدة قاعدة للرومان، ومنها امتدوا



شكل ٣٦-١: صورة انتصار اينبال على الرومان في واقعة براسيمانو سنة ٢١٧ ق.م.

وانتشروا في أسبانية، وصارت الروضة وامبوريون وبرسينو، أي برسلونة وجيرندة وفيك وبادلوانة ودرطوزة التي سماها العرب طرطوشة، واياردة، التي سموها لاردة وغيزونة وإيزونة وسيقارة، من المدن المعروفة في ذلك الوقت تحت حكم الرومانيين.

وقد ذكر المؤرخون من اللاتين أسماء الشعوب التي كانت معروفة في كتلونية، مثل الكوزتاني cozetani، واللاسيتاني Laciani والايلارجيت Ilergeies، والايندیجیت Indigetes، واللاتاني laletani، والسيرتاني Cerretani والأوزتاني Austani، والكاستلاني Castelloni، وبعض المؤرخين يذهبون إلى أن اسم كتلونية مشتق من اسم الكاستلاني، والآخرون يقولون إنه مشتق من اسم قبيلة يقال لها «قوطي ألاني» Gothi-Alani.

أما تاريخ كتلونية في القرون الأولى من القرون الوسطى فلا يزال إلى اليوم غامضًا وقد ذكر مؤرخو الإفرنجة أن العرب استولوا على كتلونية في القرن الثامن للمسيح.

قال ابن خلدون عن دخول موسى بن نصير إلى الأندلس:

نهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين، في عسكر ضخم، من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر، فوافوا خليج الزقاق، ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز إلى الأندلس وتلقاه طارق فانقاد واتبع، ويقال إن موسى لما سار إلى الأندلس عبر البحر من ناحية الجبل المنسوب إليه، المعروف اليوم بجبل موسى، وتنكب النزول على جبل طارق،



شكل ٣٦-٢: صورة واقعة بحرية بين القرطاجتين والرومان سنة ٢١٨.

وتمم الفتح وتوغل في الأندلس إلى برشلونة من جهة المشرق، وأربونة في الجوف، وضم قادس في المغرب، ودوخ أقطارها وجمع غنائمها، وأجمع أن يأتي المشرق من جهة القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشام دروب الأندلس ودروبه ويخوض إليه ما بينهما من بلاد أمم النصرانية، مجاهدًا فيهم، ومستلحمًا لهم، إلى أن يلحق بدار الخلافة من دمشق.

ونمى الخبر إلى الخليفة الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأى أن ما هم به موسى تغرير بالمسلمين، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف، وأسر إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين، إن لم يرجع هو، وكتب له بذلك عهده. ففت ذلك في عزم موسى، وقفل عن الأندلس، بعد أن أنزل الرابطة والحامية في ثغورها. واستعمل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها، وأنزله بقرطبة، فاتخذها دار إمارة. إلى آخر ما ذكره ابن خلدون، مما يدل على أن فتح العرب لبرشلونة وقع في زمن موسى بن نصير نفسه، بل يقول إنه أوصل الغزو إلى أربونة، إلا أنه يقول بعد ذلك: ثم تتابعت ولاة العرب على الأندلس، تارة من قبل الخليفة، وتارة من قبل عامله بالقيروان، وأثخنوا في أمم الكفر، وافتتحوا برشلونة من جهة الشرق، وحصون قشتالة وبسائطها من جهة الجوف، وانقرضت أمم القوط. وأوى الجلالقة ومن بقي من أمم العجم إلى جبال قشتالة وأربونة وأفواه الدروب، فتحصنوا بها، واجتازت عساكر المسلمين ما وراء برشلونة من دروب الجزيرة،

حتى احتلوا البسائط وراءها وتوغلوا في بلاد الفرنجة، وعصفت ريح الإسلام بأمم الكفر من كل جهة، وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلاف وتنازع أوجد للعدو بعض الكرة، فرجع الإفرنج ما كانوا غلبوهم عليه من بلاد برشلونة، لعهد ثمانين سنة من لدن فتحها ا.هـ.

ثم إنه في نفخ الطيب مذكور فتح هشام بن عبد الرحمن الداخل لمدينة أربونة الشهيرة من جنوبي فرنسة، ولا يقدر الأمير هشام المذكور أن يفتح أربونة وهي في الجوف، على مسافة غير قصيرة إلى الشمال من البرانس، أو جبل البرتات، إلا إذا كان استولى على كتلونية. وجاء في نفح الطيب أن الأمير هشام بعث سنة ست وسبعين ومائة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث، لغزاة العدو، فبلغ ألبة والقلاع، وأثخن في نواحيها، ثم بعثه بالعساكر سنة سبع وسبعين إلى أربونة وجيرندة فأثخن فيهما، ووطئ أرض برطانية. ا.هـ.

وقد نقلت هذه الفقرة في كتابي «غزوات العرب في أوربة» وعلقت عليها بقولي: الأرجح أن لا يكون المراد هنا ببرطانية، برطانية الأفرنسية، بل امبرطانية الكتلانية. وعند ذلك يلزم أن لا تكون البلاد المذكورة قبلها جيرندة التي هي في جنوبي فرنسة، والتي قاعدتها بوردو، بل جيرندة التي هي من مقاطعات كتلونية، أي جيرندة التابعة لبرشلونة، والتي يقال لها اليوم جيرونة، فإن اسمها الروماني القديم جيرونده Gerunda. وكان اسمها هذا هو المستعمل يوم فتحها العرب. نبهني إلى ذلك ولدنا الفاضل محمد الفاسي الفهري، وقال لي إنه لم يزل بفاس إلى الآن عائلة من الأندلس، يقال لها عائلة الجيرندي، نبغ منها علماء مثل أبي العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن الجيرندي الأندلسي، المتوفي بفاس سنة ١١٢٥، ترجمه القادري في نشر المثاني، والكتاني محمد بن جعفر في سلوة الأنفاس. ولا شك في أن العرب سكنوا جيرندة الكتلونية طويلًا، ولكنهم لم يسكنوا جيروندة التي عاصمتها بوردو، ولا عرفوها إلا في الغزوات، عابري سبيل. روى لي محمد الفاسي أن المستشرق الأسباني قديرة، كتب فصلًا خاصًّا عن فتح العرب للمدن الثلاثة: برشلونة، وجيرندة، وأربونة، يتلخص منه أن العرب فتحوا جيرندة، عندما فتحوا الأندلس، وبقيت في أيديهم حتى انتزعها منهم شارلمان سنة ٧٨٥، ثم استردها العرب سنة ٧٩٣، ثم أخذت منهم سنة ٧٩٧ أو ٧٩٨، ثم عادوا ففتحوها، ثم أخرجوا منها نهائيًّا سنة ٨٠٠.

وفي الصفحة ١١٦ من كتابنا «غزوات العرب في أوربة» ذكرت نقلًا عن المستشرق الفرنسي رينو، ما يلي: منذ استرجع «ببين» القصير أربونة، وأجلى العرب عنها، سكنت

الأمور بين مسلمي الأندلس والفرنسيس. وكان ببين يعد البيرانة هي التخم الطبيعي بين فرنسة وأسبانية. وكان عبد الرحمن (يريد الداخل) مشغولًا حينئذ بمحاربة الأمراء الخارجين عليه. ولم يكن ببين يهمل شيئًا من الوسائل لإثارة نيران الفتنة بين المسلمين. وسنة ٧٥٩ أي بعد استرداد الفرنسيس لأربونة (وقرقشونة Carcassona) دخل أمير برشلونة، المسمى سليمان في علاقات مع ببين وتعاهد معه. ومؤرخو الفرنسيس يزعمون أنه انضوى تحت لواء ببين، ولكن الأصح أن يقال إنه ما قصد إلا أن يستعين به على الاستقلال عن سلطانه. ومن بعد ذلك أصبحت هذه خطة أمراء المسلمين في شمالي الأندلس فيوم يضغط عليهم السلطان في قرطبة، يلجئون إلى فرنسة، ينشدون عندها التنفيس من خناقهم. وإذا ظهرت لهم مطامع الفرنسيس بحق بلادهم عادوا إلى رئيسهم في قرطبة، واعتصموا به. انتهى كلام رينو.

وعلقت على هذا الكلام ما يلي: سليمان الأعرابي الكلبي أمير برشلونة كانت بينه وبين شارلمان علاقات، مذ كان أميرًا بسرقسطة. وانظر ما يقوله صاحب أخبار مجموعة: ثم ثار سليمان الأعرابي بسرقسطة، وثار معه حسين بن يحيى الأنصاري، من ولد سعد بن عبادة، فبعث إليه الأمير (يعني عبد الرحمن الداخل) ثعلبة بن عبد في جيش، فنازل أهل المدينة، وقاتلهم أيامًا، ثم إن الأعرابي طلب الفرصة من العسكر فلما وضع الناس عن أنفسهم الحرب، وقالوا قد أمسك عن الحرب، أغلق أبواب المدينة، وأعد خيلًا، ثم لم يشعر الناس حتى هجم على ثعلبة فأخذه في المظلة فصار عنده أسيرًا، وانهزم الجيش، فبعث به الأعرابي إلى قارلة، فلما صار عنده طمع قارلة في مدينة سرقسطة من أجل ذلك، فخرج حتى حل بها، فقاتله أهلها ودفعوه أشد الدفع، فرجع إلى بلده. انتهى

وقلت بعد ذلك إن العرب يسمون شارلمان قارلة كما كانوا يسمون جده شارل مارتل وسيأتي ذكر قصة الأمير سليمان هذا الذي مالأ شارلمان على قومه، وكيف انتهى أمره. انتهى

وقد ورد في «أخبار مجموعة» ذكر سليمان الأعرابي في محل آخر حيث يقول: ثار على الأمير (أي عبد الرحمن الداخل) عبد الرحمن بن حبيب الفهري، الذي كان يقال له السقلابي بتدمير، فكاتب سليمان الأعرابي الكلبي، وكان ببرشلونة، ودعاه إلى الدخول في أمره، فكتب إليه الأعرابي: إني لا أدع عونك. فامتعض الفهري من جوابه؛ إذ لم يجمع له فغزاه. فهزمه الأعرابي، فكر الفهري إلى تدمير. ا.هـ.

وجاء في «أخبار مجموعة» في مكان آخر: أن حسين بن يحيى الأنصاري عدا على الأعرابي يوم جمعة، فقتله في المسجد الجامع في سرقسطة، وصار الأمر لحسين وحده،

فنزل به الأمير، وكان عيسون بن سليمان الأعرابي قد هرب إلى أربونة، فلما بلغه نزول الأمير بسرقسطة، أقبل فنزل خلف النهر، فنظر يومًا إلى قاتل أبيه قد خرج عن المدينة، وصار على جرف الوادي، فاقتحم عيسون فرسًا له، كان يسميه الناهد، وقتله، ثم رجع إلى أصحابه فسمى ذلك الموضع مخاضة عيسون. ا.هـ.

ونقلت في كتابي «غزوات العرب في أوربة» عن المستشرق رينو ما يلي:

وسنة ٧٧٧ ثار أميران من أمراء المسلمين في مقاطعات نهر أبره، وخرجا من طاعة السلطان في قرطبة، فاجتازا البيرانة، قاصدين شارلمان في فستقالية، حيث كان منعقدًا مجلس حافل، وكان أحد هذين الأميرين، وهو المسمى سليمان، قد قاتل عساكر قرطبة، وأخذ قائدها أسيرًا، وجاء به، وقدمه كهدية إلى شارلمان، ويزعم مؤرخونا أن هذا الأمير دخل في طاعة الإمبراطور الفرنسي.ا.هـ.

وعلقت على هذا بقولي: استشهد رينو على ذلك بمجموعة الدون بركه، وكذلك بتاريخ ابن القوطية. وأما مؤرخو العرب فلم يتفقوا على اسم هذا الأمير، لأن بعضهم يسميه سليمان بن قحطان الغربي، والآخرين يسمونه مطرف بن العربي. وقد تقدم أن هذا الأمير هو سليمان الأعرابي الكلبي. وأما أسيره الذي أرسله إلى شارلمان فهو ثعلبة بن عبد الذي أسره بحيلة كما تقدم. ا.هـ.

وفي صفحة ١٢٤ من كتابي «غزوات العرب في أوربة»، في أثناء كلامي عن إمارة عبد الرحمن الثاني، نقلت عن نفح الطيب قوله: وفي سنة ٢٣٦ بعث عبد الرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة، وانتهوا إلى أرض برطانية، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى، عامل تطلية، ولقيهم العدو، فصبروا حتى هزم الله عدوهم. ا.هـ. وعلقت على هذه الجملة بقولي: برطانية هنا لا يظهر أنها التي يقال لها بريطانية Bretagne من شمالي فرنسة إلى الغرب، بل هي مقاطعة من كتلونية، يقال لها اليوم أمبوردانية Ampordania وكان أهل البلاد يقولون لها «أمبروطانية» وهي لفظ مشتقة من «أمبورياس» اسم مدينة فينيقية قديمة، ثم يونانية في أرض كتلونية.ا.هـ. ولقد لاح لي الآن أن برطانية هنا ليست أمبوردانية من كتلونية وإنما هي برطانية من أراغون. وهي التي تقدم ذكرها، والأسبان يقولون لها «بلطانية» باللام، ففي هذه الواقعة كان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى من بني قصي وكان عاملًا بتطلية من بلاد أراغون.

وفي صفحة ١٣٠ من «غزوات العرب في أوربة» ذكرت ملك الحكم بن هشام في قرطبة، وكيف ثار به عماه، فاضطر أن يقضي أوائل أيامه في قمع الثورة، ونقلت عن

المستشرق رينو[1] صاحب كتاب «غارات العرب في بروفانس وسيمونت وسويسرة» ما يلي:

بينما كان شارلمان في مدينة «اكسلا شابيل» جاء مستنجدًا به أمير برشلونة المسلم، وعم الحكم أمير قرطبة (نقل رينو هذا الخبر عن الدون بوكة) وفي تلك السنة نفسها بينما كان لويس بن شارلمان ملك أكيطانية عاقدًا مجمعًا في طلوزة جاءه رسول من الأذفونش ملك جليقية وأشتورية، يلتمس حشد جميع القوات المسيحية، وتجريدها لقتال العدو العام، ثم وفد أيضًا على هذا المجمع رسول من قبل أمير مسلم، في ناحية وشقة، يقال له «باهلوك» يريد أن يسالم المسيحيين، فظهر أن الغرة كانت لائحة لأخذ الثأر من المسلمين، وللدخول إلى أسبانية. وكان لويس ملك أكيطانية، وأخوه شارل، قد شنا الغارات في أطراف المقاطعات التي تشرب من نهر أبره: ثم عاد لويس فأجاز البيرانة من جهة أراغون، وحاصر وشقة، التي كان أميرها قد أرسل بمفاتيحها إلى شارلمان، ولكن لما جاء الفرنسيس لتسلم بلدته، امتنع عليهم ولبس لهم جلد النمر.

وفي ذلك الوقت كان عبد الله، عم الحكم أمير قرطبة، قد استولى على طليطلة وعمه الآخر سليمان استقر في بلنسية، فسرح جيشًا لقتال عمه عبد الله في طليطلة، وسار هو بنفسه مع جيش من الفرسان قاصدًا البيرانة، فأدخل في الطاعة برشلونة وغيرها من المدن التي كانت أشرطت نفسها للعصيان. انتهى

وأيدت رواية رينو برواية نفح الطيب عن هذه الحوادث، وهي هذه: وفي سنة اثنتين وتسعين ومائة جمع لذريق بن قارلة، ملك الفرنج، جموعه، وسار لحصار طركونة، فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن في العساكر فهزمه، ففتح الله على المسلمين وعاد ظافرًا. ولما كثر عبث الفرنج في الثغور، بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه، سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين، فافتتح الثغور والحصون، وخرب النواحي، وأثخن في القتل والسبي، وعاد إلى قرطبة ظافرًا. ا.هـ.

قلت: لعل صاحب نفح الطيب يعني بلذريق بن قارلة لويس بن شارلمان، أما الأمير المسلم الذي كان في ناحية وشقة ويسميه الإفرنج «بهالوك» فنرجح أنه هو بهلول بن مخلوق، من عمال قرطبة. وكان قد انضم إلى لويس بن شارلمان في تلك الغارة.

فالمؤرخ كوندي الإسبانيولي يقول: إن الحكم لم يتمتع طويلًا بالراحة التي كان وطد أطنابها بتعبه وجهاده، ففي سنة ٨٠١ مسيحية، وفق ١٨٥ هجرية، تحرك ملك أشتورية وأراد التجاوز على المسلمين، ولما كان يعلم نفسه أضعف من أن يقدر عليهم،

استنجد بشارلمان، وهذا أسرع لنجدته، مؤملًا بذلك الاستيلاء على أسبانية الشمالية وضمها إلى مملكته، فجعلت أمداد شارلمان تثوب إلى الإسبانيول، تحت قيادة ولده لويس ملك أكيطانية، فزحف لويس واستولى على مدينة جيرونة وجاء فحاصر برشلونة، وانضم إليه بهلول بن مخلوق (الذي نحت منه الإفرنج اسم باهلوك) من عمال أمير قرطبة، وسار بالفرنسيس إلى طرطوشة، فزحف الحكم بنفسه، ومعه عمروس، ومحمد بن مفرج، قائد الخيالة. الذي كان عظيم الاعتماد عليه، نظرًا لدهائه وإقدامه، ثم أغار الحكم على نبارة وبنبلونة، ودخل وشقة. فخشي الأذفونش على بلاده، وحشد عساكره، وزحف إليه يوسف بن عمروس، فأوقعه الأذفونش في كمين، وأخذه أسيرًا، فدفع عليه أبوه فدية جسيمة حتى أنقذه.

وأما الحكم فكان يتوقد صدره إحنة على بهلول بن مخلوق عامله، الذي انحاز إلى الفرنسيس، ومشى بين أيديهم. ولما عرف أنه في جوار طركونة، عمد إليه من فوره، ولم يزل في أثره حتى ثقفه في طرطوشة بعد أن هزمه، ثم احتز رأسه، ورجع الحكم إلى قرطبة بدون أن يتعرض لبرشلونة، وذلك خوفًا من الفشل في حصارها ا.هـ.

وقال المستشرق رينو — الذي اعتمدنا على كتابه «غارات العرب في بروفنس وبيمونت وسويسرة» لأنه أشهر كتاب في هذا الموضوع، وكل جملة فيه تقريبًا مدعومة بالوثائق، مؤيدة بروايات مؤرخي ذلك العصر، سواء من الإفرنج أو من العرب — ما يلي:

ولم يكن شيء من تلك الغارات، سواء من جهة العرب أو من جهة الإفرنج، ليؤدي إلى نتيجة حاسمة، يصبح منها أحد الفريقين ملكًا. أو يحوز فتحًا مبينًا. وكان أهم ما لقيه الفرنسيس في هذه الحرب، هو أن أمراء المسلمين الذين كانوا أظهروا الطاعة لشارلمان، أبوا أن يقلبوها عندما جاءت جيوشه إلى بلادهم، وأصلوها نارًا حامية. وكان المسلمون لا يزالون أصحاب المدن الكبرى، والمعاقل المنيعة، مثل برشلونة، وطرطوسة، وسرقسطة. وكانت برشلونة، بنوع خاص، بحصانة موقعها، وبقربها من فرنسة، وبكونها مدينة بحرية، هي من أشد البلاد نكاية بالفرنسيس وكان الأمير الذي فيها، وهو الذي يسميه الإفرنجة «زاتون[٢]» وقد أوهم شارلمان أنه يريد الدخول في طاعته، ولكن عندما حضر الفرنسيس أمام بلدته، قلب لهم ظهر المجنّ، وكشّر عن ناب العدواة، فأجمع لويس شارلمان، ملك أكيطانية، بالاتفاق مع غليوم، كونت طلوزة، وبرأي مجمع مؤلف من أمراء تلك البلاد، أن يستولى على برشلونة في أول فرصة. وكان

شارلمان يومئذ في رومة مشغولًا بقضية تتويجه إمبراطورًا على الغرب. وكانت برشلونة قد أصبحت للمسلمين معقلا متينًا، وكانت تصدر عنها فرسان تلك الخيل المشهورة بخفة الحراكات، فتبث الغارات في بلاد النصارى وتعود وأيديها ملأى بالغنائم، وكانت من المنعة بحيث إن الفرنسيس لبثوا سنتين يحصرونها، ويضيقون عليها، ويكتسحون نواحيها، ولم يقدروا على دخولها.

وكان الفرنج في حصارها، قد قسموا جيشهم إلى ثلاثة أقسام: قسم منهم كان يهاجم نفس برشلونة، وقسم ثان، يقوده غليوم كونت طلوزة، كان يرابط في الممر الذي كانت تفيض منه جيوش المسلمين المقبلة من قرطبة لنجدة برشلونة، وقسم ثالث كان يقوده الملك لويس نفسه. وكان في جبال البرانس يحمل على المسلمين حتى وجد الفرصة ملائمة، وكان الإفرنج قد تقاسموا أعمال الحصار فيما بينهم، حتى يتهيأ لكل فريق منهم أن يتقن عمله، فمنهم من كان شغله وضع السلالم، والتسلق على الأسوار والأبراج، ومنهم من لم يكن له شغل غير جلب الميرة والعدة. ومنهم من كان موكولًا إليه الحفر والنقب. ومنهم من كان معهودًا إليه بوظائف أخرى. فاشتد الحصار إلى درجة غير معهودة، وجاءت جيوش المسلمين لتفرج عن برشلونة، فلم تقدر على النفوذ إليها، فتحولت إلى بلاد اشتورية، وهزمت أهلها، فبقي أمير برشلونة منفردًا بقوته، والمدد بعيد عنه، وخرج في إحدى المعارك لقتال الإفرنج المحاصرين، فأخذ أسيرًا ثم حمل الإفرنج على البلدة حملتهم الأخيرة ففتحوها.

وكان فتح الإفرنج لبرشلونة سنة ٨٠١ بعد أن بقيت تسعين سنة في أيدي المسلمين. فلما دخلوها بادروا بتحويل جوامعها كنائس، وأرسل الملك لويس إلى أبيه شارلمان جانبًا من الغنائم، من دروع، وزرود، وخوذ، وخيول مسرجة بأفخر السروج، وبعد ذلك أصبح لفرنسة منطقتان في شمالي أسبانية: إحداهما كتلونية، وقاعدتها برشلونة، والثانية غشقونية، ومن مضافاتها نبارة وأراغون.

أما مؤرخو العرب فينسبون سقوط برشلونة على تأثير الفتنة التي أثارها سليمان وعبد الله، عما الحكم الأموي، وشغلته عن أمجاد تلك المدينة، كما جاء في كلام أبي الفداء وابن خلدون والمقري وغيرهم، وهذا هو الصحيح.

وبقيت برشلونة وما يليها من كتلونية، حاشا طركونة، ولاردة، وطرطوشة، خارجة عن حكم العرب، حتى في زمن عبد الرحمن الناصر، برغم كثرة غزواته، وعظمة دولته. وقد ذكر المسعودي، وهو ممن عاصر الناصر وولده المستنصر، أن الحدود بين المسلمين

والنصارى كانت في ذلك الوقت طرطوشة، ومنها إلى أفراغه. وقال ابن خلدون إنه لأول وفاة الناصر طمع الجلالقة في الثغور، فغزاهم الحكم المستنصر بنفسه، ونازل شفت اشتابين، وفتحها عنوة، فبادروا إلى عقد السلم معه، وانقبضوا عما كانوا فيه، ثم أغزى غالبًا مولاه بلاد جليقية وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب، فجمع له الجلالقة، فهزمهم واستباحهم.

وكان شائجه بن ردمير، ملك البشكنس، قد انتقض، فأغزاه الحكم التجيبي، صاحب سرقسطة، في العساكر، وجاء ملك الجلالقة لنصره فهزمهم، ثم أغزى الحكم بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبي إلى بلاد برشلونة، فعاثت العساكر في نواحيها.

قال ابن خلدون: ثم بعث ملكًا برشلونة وطركونة يسألان تجديد الصلح، وإقرارهما على ما كانا عليه، وبعثا بهدية، وهي عشرون صبيًّا من الخصيان الصقالبة، وعشرون قنطارًا من صوف السمور، وخمسة قناطير من القصدير، وعشرة أذرع صقلبية، ومائتا سيف إفرنجية. فتقبل الهدية وعقد على أن يهدموا الحصون التي تضر بالثغور، وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم، وأن ينذروا بما يكون من النصارى في الإجلاب على المسلمين.ا.هـ.

ومن هنا يعلم أن برشلونة وطركونة ونواحيهما كانت في ذلك الوقت، وهو أواسط القرن الرابع للهجرة، في أيدي أهلها، إلا أن ملوك تلك النواحي كانوا يعدون أنفسهم تحت سيادة الخليفة في قرطبة.

وفي زمن أبي مروان المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر كانت غزاة المسلمين في كتلونية، لأن ابن عذارى ذكر أنه في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة كانت أولى غزوات المظفر إلى بلاد الإفرنج، وفتح حصن «ممقصر» من ثغر برشلونة عنوةً، وأسكنه بالمسلمين ودوّخ بسيط برشلونة، وما اتصل به. قال ابن حيان: وأظهر عبد الملك المظفر الجد في أمر هذه الغزوة، غرة رجب من السنة، أي ٣٩٣، ودفع المعاريف والصلات إلى طبقات الأجناد الغازين معه فيها، ووافت الحضرة طوائف كثيرة من مطوعة العدوة المجاهدين، فيهم جماعة كبيرة من أمرائهم وفقهائهم، وتعرّض قوم من أمراء هذه القبائل لصلة عبد الملك، فأطلق لهم عند تكاملهم ببابه خمسة عشر ألف دينار عينًا، وزعها عليهم بحسب مقاديرهم، معونة على جهادهم، قبلوها منه بالتأوّل. وتحرج آخرون ممن وافى معهم عن فعلهم.

واتصل ورود المطوعة من كل قوم، وكل ناحية، فتكاملت الحشود بالحضرة، ودنا وقت المعركة، فصب المال صبًّا. وعهد عبد الملك إلى خزان الأسلحة بتوزيع خمسة آلاف درع، وخمسة آلاف بيضة، وخمسة آلاف مغفر، على طبقات الأجناد الدارعين.

وركب عبد الملك إلى المسجد الجامع لشهود عقد الألوية، على عادة أمراء الأندلس قبله وذلك يوم الجمعة لثمان خلون من شعبان من تلك السنة، ثم خرج يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من شعبان، من باب الفتح الشرقي، من أبواب الزاهرة، وقد اجتمع الناس لرؤيته، فخرج عليهم شاكي السلاح، في درع جديدة سابغة، وعلى رأسه بيضة حديد مثمنة الشكل، مذهبة، شديدة الشعاع، وقد اصطفت القواد والموالي والغلمان في أحسن تعبئة، وسار عبد الملك إلى أن نزل بمنية أرملاط، أول محلاته، ثم سار إلى أن وصل طليطلة، لسبع بقين من شعبان فتلوّم بها يوم الجمعة، ورحل يوم السبت إلى مدينة سالم، فوافاه هناك عدة زعماء من وجوه النصارى وفرسانهم، أرسل بعضهم ملك القوط يومئذ، أذفونش بن أردن، المعروف بابن البربرية ومعهم آخرون ممن أرسل بهم خاله شانجه بن غرسية، زعيم الجلالقة، وصاحب قشتيلة وألبة، وحضر هؤلاء الأرهاط للغزو بين يدي عبد الملك، على ما تضمنه شرط سلمهم المنعقد أول هذه السنة، فأحسن عبد الملك قبولهم، وأوسع إنزالهم، وأصعد عن مدينة سالم إلى الثغر الأعلى، فاحتل سرقسطة.

وأخرج عبد الملك مولاه واضحًا، في نخبة من رجاله، إلى حصن «مدنيش»[٣] بمقربة من حصن «ممقصر»[٤] الذي عمل على قصده، فسار واضح فصبّح هذا الحصن مع إسفار الصبح، ورحل عبد الملك، فتلقته رسل واضح، فبشروه بالفتح، وأشرف المسلمون على حصن ممقصر، فكبروا لما نظروا إليه تكبيرًا عاليًا، كادت الأرض ترتجف له! وتتابع قرع الطبول، وطَمَّ هوله، فذعر الكفرة، لأول وقتهم، واحتل الحاجب عبد الملك وعسكر المسلمين بساحتهم، فأحاطوا بالحصن من جميع جهاته، وصمم المسلمون صاعدين إلى الحصن، فوجًا إثر فوج، وقد برز المشركون إلى الربض، يمانعونهم عنه بزعمهم، فنشب القتال بين الطائفتين، وصبر المشركون، فلم يمهلهم المسلمون إلا ريثما كشفوهم عن الربض، وأقحموهم خلف السور، واضطروهم إلى التحصن به. ثم جد الكفرة في الدفاع، وصدقوا القراع، فتجرعوا كئوس الحمام دراكًا، وضرب الليل رواقه، فحجز بين الفريقين، وقد ثلم المسلمون في السور ثلمًا كثيرة.

ثم غدا المسلمون على القتال بعد صلاة الفجر، فناهضوا أعداء الله بأصح عزيمة، وقامت الحرب على ساق، فصبر المسلمون على مباشرتها أكرم صبر سمع به، حتى

ولّى العدو الأدبار، فاقتحموا عليهم الأسوار، وأخذوا كثيرًا منهم، وركب الحاجب عجلًا بنفسه، مع أكابر أهل مركبه، فارتقى إلى باب قصبتهم، واقتحم الناس على أعداء الله القصبة، فملكوها، وخلصت طائفة منهم إلى محل منيع بهذه القصبة، فساورهم أولياء الله بذروة ذلك المحل، فأيقنوا بالهلاك، وسألوا النزول على حكم الحاجب فأنزلهم، وحكم فيهم بحكم ابن عمه سعد بن معاذ، رضي الله عنه، فقتل جميعهم وملك الحصن، وحاز الغنائم.

وعهد الحاجب إلى المسلمين ألا يحرقوا منزلًا، ولا يهدموا بناءً، بما ذهب إليه من أسكان المسلمين هناك، فشرع للوقت في إصلاح الحصن، ونادى في المسلمين: من أراد الإثبات في الديوان بدينارين في الشهر، على أن يستوطن في هذا الحصن، فعل، وله مع ذلك المنزل والمحرث. فرغب في ذلك خلق عظيم، واستقروا به في حينهم.

ولما استكمل الحاجب ما أراده من أمر هذا الحصن، أقام كلمة الإسلام منه بأرض لم تر الإسلام قط، رحل عنه إلى بسيط برشلونة، فدوّخ بلاد الكفرة، وانبسط المسلمون في عرصاتهم، يحرقون ويهدمون، وانبسطت خيل المغيرة في أرضهم إلى أن أتى بسيطًا كثير العمارة، فاحتلوه، وعمّوا جميعه، ووقعوا على كثير من عيال الجالية من هذه الحصون، فردوهم سبيًا إلى المحلة، وأبلغوا في النكاية، وأحرزوا الأجر الجزيل.

وعيّد الحاجب والعسكر عيد الفطر بأرض برشلونة، فإنه رحل يوم عيد الفطر غرة شوال من السنة المؤرخة، فأدركه وقت صلاة العيد وهم سائرون، فنزلوا للصلاة. ولما قضى الحاجب صلاته، تبوأ بمصلاه مقعدًا، لتهنئته بما سنّى الله له من التعبيد في سبيل جهاده، فتقدم إليه أكابر الناس على مراتبهم، ثم ركب فرسه، فتقدم إليه طبقات الأجناد، مبتهلين بالدعاء له، وسار العسكر، ونزل بالبطحاء، ثم رحل من منزل إلى منزل، فعم ذلك كله غارة وانتسافًا.

قال حيان بن خلف: ورأى الحاجب عبد الملك أن قد بلغ الغاية من التدويخ لأرض العدو، فرحل بالعسكر منكفئًا نحو أرض الإسلام، وأمر كاتب الرسائل أحمد بن برد أن يكتب بالفتح نظيرين: أحدهما إلى الخليفة هشام المؤيد بالله، والآخر يقرأ على كافة المسلمين بقرطبة، وتنفذ نسخته إلى الأقطار، فعجل ذلك وأنفذه نحو حضرة قرطبة، وكان جملة ما تضمنه كتاب الفتح من عدد السبي خمسة آلاف وخمسمائة وسبعين رأسًا، وعدد الحصون التي افتتحت عنوة، فقتلت مقاتلتها، ستة حصون، وكان عدد الحصون التي أخلاها العدو فخربت ودمرت خمسة وثمانين حصنًا، وكلها قد سميت

في كتابه، وأذن الحاجب لجميع المطوعة في القفول إلى بلادهم، إذ قد قضوا ما قصدوا له من جهاد عدوهم، فقفلوا فرحين مستبشرين.

ورحل العسكر من مدينة لاردة يوم الثلاثاء لثمان خلون من شوال، فدخل قرطبة لخمس خلون من ذي القعدة فتلقاه أهل قرطبة وعلماؤها ووجوهها مهنئين شاكرين ثم دخل الحاجب إلى الخليفة هشام، فرفع مجلسه وكساه من ملابسه السنية ثلاث رزم، قرن بها سبعين من خاص سيوفه، فأظهر عبد الملك السرور بذلك، وشكر الخليفة، وقبل يده، وانصرف إلى قصره بالزاهرة.

وجلس يوم الأربعاء ثاني يوم وصوله مجلس التهنئة في أبهة فخمة، وأذن للناس في الوصول على مراتبهم، فوصل في أوائلهم كبار قريش، من بيت الخليفة، المروانيون، ثم القضاة والحكام والفقهاء، ثم وجوه أهل الأسواق والأرباض من قرطبة، ثم وصل الشعراء والأدباء، فأنشد منهم من رسمه الإنشاد، ووضع سائرهم الأشعار بين يدي الحاجب. انتهى نقلًا عن ابن عذارى ببعض اختصار.

وجاء في الأنسكلوبيدية الإسلامية عن برشلونة ما محصله: أن العرب افتتحوها سنة ٧١٣ في غارة موسى بن نصير لأول الفتح، وسموها برشينونة Barshinona ولكن غلب عليها اسم برشلونة، باللام، ثم صارت برسلونة بالسين. وكان العرب يلقبون ملك أراغون وكتلونية بالبرشلوني أو بالبرجلوني بالجيم. وفي سنة ٨٠١ غلب عليها لويس بن شارلمان، وبقيت تابعة للملكة الإفرنجية إلى سنة ٨٨٨، ففي ذلك الوقت استقل بها أمراؤها الذي كان يقال للواحد منهم كونت برشلونة. وقد ذكر «البيان المغرب» أنه في سنة ٢٤٢ عاد العرب فاحتلوها، كما أن دوزي ذكر أن المنصور بن أبي عامر أخذ برشلونة عنوة، ولكن في سنة ٩٨٧ رجع الكونت بوريل Borel فاستولى عليها، وفي سنة ١١٣٧ انضمت إلى مملكة أراغون.

ومما هو جدير بالذكر من خبر برشلونة أن عليًّا بن مجاهد العامري، ملك دانية أصدر أمرًا تاريخه ٤٥٠ وفق ١٠٥٨ للمسيح، يضع فيه أسقفيات دانية، وأوريولة، وجزر ميورقة، ومينورقة، ويابسة، تحت رئاسة أسقف برشلونة.ا.هـ.

وقد راجعنا قول دوزي في كتابه «تاريخ مسلمي أسبانية» فوجدناه يقول في صفحة ١٩٩ من الجزء الثالث أن المنصور بن أبي عامر رحل من مرسية قاصدًا كتلونية فهزم الكونت بوريل، ووصل نهار الأربعاء أول يوليو إلى برسلونة. ويوم الاثنين من الأسبوع التالي دخل البلدة عنوة، فقتل جانبًا من الأهالي، وأخذ الباقي أسرى

وانتهب العسكر البلدة وأحرقوها. ونقل دوزي عن ابن الخطيب أن المنصور استولى على برشلونة في وسط صفر سنة ٣٧٥، فهذا اليوم يوافق ٦ يوليو سنة ٩٨٥ قال دوزي إن هذا التاريخ صريح في كتب العرب، وهو مطابق تواريخ الإفرنج وقد أخطأ بوفارول Bofaroll[٥] في زعمه أن هذا الحادث وقع في السنة التي بعدها.

وجاء في الأنسيكلوبيدية الفرنسية الكبرى أنه بعد أن استرجع الإفرنج كتلونية كان يوجد فيها تسعة أكناد تابعون للإمبراطور، وفي سنة ٨٧٢ استقل أحدهم، وهو المسمى عند الكتلان غريفا بيلوس Griva Pelos وهم يعدونه أول واضع لأساس استقلال كتلونية. وكان يتولى أيضًا بلاد جيرنده Gironde وفيش Vich ومانرسه Manresa وبرجه Berga، وبيرالده Peralada، وريباغورس Ribagorce، وسيردانية Cerdagne، وبسالو Besalu، وأمبورياس Ampurias وبالارس Pallars، وتوفي هذا الكند سنة ٩٠٢، ودفن في دير ريبول Ripoll الذي كان قد بناه، وفي مدة أولاده أغار المنصور بن أبي عامر على برشلونة، واستلوى عليه سنة ٩٨٥، ولكن بوريل الثاني لم يلبث أن استرجعها. ثم أن بوريل ريموند الثالث قام بدور عظيم في أثناء الحروب الأهلية التي اشتعلت بين المسلمين، وأضعفت الإسلام فانتصر لمحمد بن هشام على سليمان بن الحكم، وانتصر في واقعة عقبة البقر سنة ١٠١٠ ا.هـ.

قلنا إن واقعة عقبة البقر هذه هي واقعة شهيرة، تحرير خبرها أن عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر، وهو الملقب بشنجول، لأن أمه إسبانيولية، بنت الملك شانجة، كان من الحمقى، وعلى يده انتهت الدولة العامرية، ذلك أنه حمل الخليفة هشام المؤيد بالله على توليته عهده بمحضر من الملأ، وكان يومًا مشهودًا، فقرئ العهد عليهم، وهو من إنشاء أبي حفص بن برد، فنقم أهل الدولة على شنجول هذه الجرأة الفظيعة، ولاسيما أقارب الخليفة هشام، من الأمويين والقرشيين، وتمشت رجالاتهم في أمر القيام على شنجول، وقتلوا صاحب شرطته، وهو غائب في إحدى غزواته، وكان ذلك سنة تسع وتسعين وثلاثمائة. وخلعت قرطبة هشامًا المؤيد، وبايعت هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله، وطار الخبر إلى عبد الرحمن شنجول بمكانه من الثغر فقفل إلى الحضرة بجيشه، فلما قرب من قرطبة وثب عليه من احتز رأسه. وحمله إلى محمد بن هشام الخليفة الجديد، الذي تلقب بالمهدي. وكان العرب قد كرهوا البربر، لمظاهرتهم المنصور بن أبي عامر وأولاده، ونسبوا ما حل من الضعف بدولة بني أمية إليهم، وأخذ المهدي بإهانتهم، ونهبت العامة بعض دورهم، فتمشت رجالاتهم، واشتوروا في تقديم

هشام بن سليمان بن أمير المؤمنين الناصر، فعرف بذلك المهدي، فأمر بالقبض على هشام وأخيه أبي بكر، وضرب أعناقهما، وفر سليمان بن أخيهما الحكم ومعه البربر، واجتمعوا بظاهر قرطبة، فبايعوه، ولقبوه بالمستعين بالله، ونهضوا به إلى طليطلة، حيث استجاش المستعين، بشانجة بن غرسية بن فردلند، ثم نهض بجموع البربر والنصارى إلى قرطبة، وبرز المهدي إليهم بجموع قرطبة، فكانت الدائرة على المهدي والقرطبيين، فقتل منهم البربر والنصارى عشرين ألفًا، وهلك في هذه الواقعة من خيار الناس والعلماء، وأئمة المساجد عدد كبير. ودخل المستعين الحضرة ختام المائة الرابعة. وقيل إن الذي هلك من أهل قرطبة ثلاثون ألفًا، وقالوا إنها كانت أول ما أخذ النصارى من إثاراتهم عند المسلمين، وكان ذلك على يد فرقة من أنفسهم، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ثم نعود إلى ما ذكرته الأنسيكلوبيدية الفرنسية الكبرى من تاريخ كتلونية فنقول:

> إنه بعد ريموند بوريل الثالث قام بيرنجة ريموند الأول (١٠١٨–١٠٣٥) وهذا قسم مملكته بين أولاده الأربعة، وكان أكبرهم ريموند بيرنجه الأول، الملقب بالشيخ (١٠٣٥–١٠٧٦) الذي اتسعت مملكته، وغزا مرسية العربية سنة ١٠٧٤ وقام بعده ولده ريموند بيرنجه الثاني، وحفيده بيرنجه الثاني الذي قتل أخاه وانفرد بالمملكة (١٠٨٢–١٠٩٧) وكان لهذا الكند مدخل في الحرب الأهلية بين المسلمين وهو الذي انتزع طركونة من أيديهم سنة ١٠٩١، ورحل إلى المشرق مشتركًا في الحرب الصليبية. وخلفه ابن أخيه الذي تلقب بريموند بيرنجه الثالث، ويقال له الكبير. وفي زمانه بلغت كتلونية قمة عزها ومجدها، وصار لبرشلونة أسطول وكانت لها تجارة واسعة! وفي أيامه أخرج الإسبانيول العرب من جزائر ميورقة وأخواتها. وذلك باجتماع أسطول برشلونة مع أساطيل بيزة ورومة من إيطالية مما سيأتي الكلام عليه، فسقطت ميورقة في أيدي الكتلان سنة ١١١٥، وكان العرب قد شنوا الغارة على كتلونية فهزمهم ريموند برنجه في وسط كونغسط Congost وفي سنة ١١٣٠ زحف إلى طرطوشة وحاصرها، وضيّق عليها، وأجبر كلًّا من أميري طرطوشة ولاردة أن يؤدي له إتاوة سنوية، إلا أن العرب عادوا فأغاروا على بلاده، وهزموه في واقعة كوربينس Corbins وبينما كان يتأهب لأخذ

الثار منهم، وقعت وفاته في سنة ١١٣١، وكانت اتسعت مملكته جدًّا، لأنه عدا كتلونية، كان قد استولى على قرقشونة وكونتية بروفنس من فرنسة، وكانت في يده ميورقة، والجزائر التي حولها.

وبعد وفاته انقسمت المملكة بين ولديه، أحدهما البكر وهو المسمى ريموند بيرنجة الرابع، والثاني بيرنجة ريموند، الذي تولى بلاد بروفنس من فرنسة، وترك لأخيه كل ما كان تابعًا للمملكة من أسبانية، وتلقب ريموند بيرنجة الرابع بالقديس وأخذ يحارب المسلمين، وأنفق مع رامير الثاني Ramire II ملك أراغون، الذي كان قد ترهب في الآخر، وتقرر بينهما تزويج ريموند بيرنجة بالأميرة بترونيليه Petronilla وارثة مملكة أراغون، ولما خلع رامير الثاني نفسه من ملك أراغون، واختار الرهبانية بايع أهل أراغون ريموند بيرنجة المذكور ملكًا عليهم، فصارت في يده قوة عظيمة، وتحالب مع الأذفونش السابع ملك قشتالة، وساعده في غارته على المرية سنة ١١٤٧ ثم إنه بمساعدة الجنويين حاصر طرطوشة، واستولى عليها في ٣١ ديسمبر سنة ١١٤٨ وبعد أن طرد العرب من طرطوشة أخرجهم من مواطنهم الأخيرة في أطراف بلاده، من جهة الغرب، مثل لاردة، وفراغه، ومكناسة، وفي سنة ١١٥٢ لم يكن بقي للعرب شيء في كتلونية.

وفي سنة ١١٦٢ خلفه ابنه ريموند، الذي ضم وشقة إلى مملكته، وتلقب بأذفونش الثاني،[٦] وكانت كل من مملكتي أراغون وكتلونية تحت حكمه، ولكن الاتحاد بينهما كان سياسيًّا فقط، إذ كل من المملكتين كانت محتفظة بلغتها، وعاداتها ومشاربها، ولم يمنع اختلاف الذوق والمشرب من الاتفاق في السياسة، فإن أراغون كانت، بسبب كتلونية، تتصرف بقوة بحرية عظيمة. وكما أن كتلونية، بواسطة أراغون، كانت تتصرف في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بقوة برية عظيمة، فأفادهما الاتحاد فوائد لا تحصى، لاسيما في إجلاء العرب عن شرقي أسبانية.

ولما آل الملك إلى فرديند الكاثوليكي، ثم إلى شارلكان، كانت كتلونية تابعة لأسبانية، ولكن الكتلان بطبيعتهم لا يحبون القشتاليين، ولا يمتزجون معهم، وفي سنة ١٦٣٩، عندما أراد فليب الرابع، ملك أسبانية، إلغاء امتيازات كتلونية، ثار الكتلان به، وحاربوه بمساعدة لويس الثالث عشر، ملك فرنسة،

الذي اعترف بحكومة جمهورية لكتلونية، واستمرت هذه الثورة مدة اثنتي عشرة سنة. ثم وقع الاتفاق بين الفريقين سنة ١٦٥٩. وصدر العفو عن الثائرين، وبقيت امتيازات كتلونية محفوظة، ولكن في سنة ١٦٨٩ ثارت كتلونية مرة ثانية، ولما انتخبت أسبانية حفيد لويس الرابع عشر ملكًا عليها لم يعجب ذلك الكتلان، كرهًا بأهل قشتالة، الذين انتخبوه، فانتقم فيليب الخامس من الكتلان، وأذاقهم عذابًا واصبًا وألغى امتيازاتهم، ونقل المدرسة الجامعة من برشلونة إلى سرفيره Cervera. إلا أن الكتلان هم أهل جد ونشاط، فلم يلبثوا أن تقدموا إلى الأمام بجدهم، وصارت بلادهم أغنى قطعة من أسبانية. ولما زحفت جيوش نابليون على أسبانية قاومها الكتلان مقاومة شديدة، كسائر أهل أسبانية. وفي الحروب الأهلية التي تقع كثيرًا في أسبانية، كان الكتلان ينقسمون إلى قسمين، فأهل الجبال منهم ينزعون بطبيعتهم إلى المبادئ الملكية، وأهل السواحل، مثل برشلونة، يميلون إلى المبادئ الحرة.

ولما سقطت الملكية سنة ١٩٣١ جرت حركة شديدة في كتلونية، لأجل الانفصال عن سائر أسبانية، ولكن المعتدلين من الكتلان كانوا يكتفون لكتلونية بالاستقلال الداخلي، ولما كانوا في أيام الملكية قد اتفقوا مع زعماء الحزب الجمهوري على ذلك، بموجب معاهدة وقع عليها الفريقان، لم يقدر زعماء هذا الحزب بعد أن قبضوا على ناصية الحكم، إلا أن يجيبوا الكتلان إلى بعض مطالبهم بالأقل، فلم يكن رضى الكتلان عن الحكومة الكتلونية الجديدة تامًّا، ولبثوا يترقبون الفرصة لأجل استكمال حريتهم.

وفي أثناء ما نحن نكتب هذه السطور تشتعل نيران الحرب الأهلية في أسبانية بين الحزبين الكبيرين الحزب المحافظ، ومعه القسوس، والأحبار، وأكثر قواد الجيش، والفئة الملكية، والفئة الجمهورية المعتدلة. والحزب الاشتراكي، ومعه العملة، والشيوعيون، والصعاليك، والفلاحون من طلاب الأراضي، والجمهوريون الغلاة الثائرون على القديم. ولقد مضى إلى ساعة رقم هذه الأحرف نحو من خمسة عشرة يومًا والفتنة تضطرم في جميع مدن أسبانية، والقوتان متكافئتان إلى هذا اليوم، لا يقدر الناظر إلى الحوادث أن يستخلص منها حكمًا بترجيح الظفر لإحدى الفئتين. وقد وقعت الوقائع في برشلونة أيضًا، وانتصب الميزان نحوًا من ثلاثة أيام، إلا أن كفة حزب اليسار

رجحت فيها على كفة الحزب المحافظ، وسارت العساكر الموالية للجمهورية ومعها عصائب من الأهالي، قاصدة إلى سرقسطة، لإخضاع الجيش الثائر فيها على الحكومة. وقد مرت هذه القوة الزاحفة ببلدة قشب، وأدخلتها في الطاعة، ولا نعلم ماذا يتم في سرقسطة؟

فظهر من هنا أن سكان السواحل من كتلونية لا تزال تنزع فيهم من الحرية أعراق تتجلى فيهم عند كل فرصة.

ذكرنا قبلًا أن اللغة الكتلونية هي أقرب لغة إلى اللغة البروفنسية Provenceai ومن المعلوم أن الكتلونية، والبروفنسية، والقشتالية، والبرتغالية، كلها مشتقة من اللغة اللاتينية التي هي الأم. وذلك بفساد طرأ على اللغة اللاتينية في القرون الوسطى فما زال يعمل عمله فيها حتى تكونت منها عدة فروع، يقال لها عند الإفرنج: لغات الأوك Langues d'Oc وقد أصبحت اللغة الكتلونية لغة متميزة عن غيرها، منفصلة عن القشتالية والغالية في القرن الثاني عشر للمسيح، ولكنها إلى ذلك الوقت لم تكن لغة أدب وتأليف، وما ابتدأ التأليف في اللغة الكتلونية إلا في القرن الثالث عشر، فظهرت فيها دواوين شعرية، ومعجمات لغوية، وكتب نحو وصرف، وأخذت تنمو وتنتشر، ولما استولى ملوك برشلونة وأراغون على جزر الباليار، امتدت اللغة الكتلونية إلى ميورقة ومينورقة ويابسة، وإلى بلنسية والقنت، وصارت هي اللغة السائدة في شرقي أسبانية. وكانت الملاحة في سواحل أسبانية الشرقية في أيدي الكتلان، فصارت اللغة الكتلونية هي أداة التفاهم عند جميع البحرية، في هذه القطعة من البحر المتوسط. وقد انقسمت اللغة الكتلونية هي أيضًا إلى لهجتين إحداهما الميورقية، والثانية البلنسية، وأكثر ما كان التباين هو في اللفظ، وفي تركيب بعض الجمل. ولما اتحدت مملكتا أراغون وقشتالة، تقلصت اللغة الكتلونية من أراغون، ولكنها بقيت هي اللغة المعروفة في كتلونية، وجزر الباليار، وبلنسية والقنت.

ولما كنت في ميورقة جرى التعارف بيني وبين قسيس كبير طاعن في السن، قيل لي إنه من كبار العلماء، وإنه صنف كتابًا بالغًا عدة مجلدات في فرائد اللغة الكتلونية.

وهذه اللغة وإن كانت لاتينية محضة في أصلها فقد دخل فيها ألفاظ كثيرة جرمانية وألفاظ كثيرة بروفنسية، وألفاظ كثيرة عربية، وهي في كثرة الداخل عليها من العربي أشبه بالإسبانيولية القشتالية.

أما في تركيب الجمل فيوجد تشابه كثير بينها وبين البروفنسية، ومن خصائصها أنه يقع فيها تبديل حرف بحرف، فيجعلون بدلا من حرف E حرف I أو حرف O أو حرف U، وهم يجعلون دائما حرف X بدلا من حرف S. وإذا كان اسم أو نعت باللغة البروفنسية منتهيًا بأحرف An أو En أو In أو Im فالكتلوني يضيف إلى هذا الاسم أو هذا النعت حرف Y فإذا جاء في البروفنسي لفظة Engin مثلا جعلوها في الكتلوني Enginy. وعلامة التأنيث في النعوت هي في الكتلوني حرف A كما هي في البروفنسي، ولكن ليس ذلك مطردًا، فقد يقولون Fort في مقام التأنيث بدلا من أن يقولوا Forta ومزية هذه اللغة هي الاختصار والنحت، فهي لا تعرف تغيير أواخر الكلم بحسب مواقعها من الإعراب. بل تقتصر على أصل الكلمة، وربما تحذف بعض أحرف من أواسطها. فنجد فيها مثلا لفظة Vino منحوتة بلفظة Vi ولفظة Bono منحوتة بلفظة Bo[٧] ولذلك تمتاز هذه اللغة بالشدة الجزم، وقوة المقاطع وهي في هذا كالتركية. ومن مزاياها كثرة الألفاظ المحاكية للأصوات، وهي التي من قبيل الطقطقة، والهمهمة، والغمغمة، والدمدمة، وخرير الماء، وصرصرة البازي، وشقشقة الفحل. وفحيح الحية، وما أشبه ذلك في العربية فهذا الضرب من الكلام مستفيض في هذه اللغة وإذا انتهت فيها الكلمة بحرف صائت حذفوه، وتلفظوا بها بصورة الجزم.

وأما آداب اللغة الكتلونية فقد قسمها بعضهم إلى ثلاثة أداور؛ الأول: هو الدور البروفنسي، وأمده من القرن الثالث عشر إلى أواسط القرن الرابع عشر. والدور الثاني: هو الكتلاني، الذي يبدأ من زمان الدون جقوم، وينتهي بالقرن الرابع عشر. والثالث: هو المسمى بالبلنسي، وهو يبدأ بأوزياس مارك Ausias March وينتهي بنهاية القرن الخامس عشر. ثم إنه في القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر كتبت باللغة الكتلونية كتب نفيسة، ونظم الشعراء أشعارًا رائقة، ولكن الأدب الحقيقي لم يبدأ إلا في القرن الثالث عشر، ففي ذلك العصر عدل الشعراء، والزجالون من الكتلان عن اللغة المكتوبة، ونظموا باللهجات العامية كما يعلم من قرأ شعر بركدان Berquedan وبليور Benluire وغيرهما. وممن اشتهر بهذا الأسلوب من شعرائهم برناردو موغوده Bernardo de Moguda وجقوم فبرر Jaime fabrer وكان موغوده في صحبة الملك جقوم الأول عندما فتح ميورقه، فقال في ذلك الفتح ما هو شعر وتاريخ معًا. وللشاعر فبرر والشاعر الآخر جوردي داراي Jordi del Ray قصائد وصفا بها تلك العاصفة الشديدة التي دمرت أسطول جقوم الأول، ومنعته من خوض غمرات الحرب الصليبية في الشرق.

والغالب على الكتلان أنهم يميلون إلى ذكر الأحداث الواقعة المحسوسة أكثر من ميلهم إلى العواطف والخيالات، ولذلك نجد لهم في التاريخ كتبًا قيّمة وكان جقوم الأول، الملقب بالفاتح، قد كتب هو نفسه تاريخًا لغزواته، مملوءا بالوقائع، وقد طبع هذا التاريخ طبعته الأولى في برشلونة سنة ١٥١٧، وهذا الملك كان قد سن قانونًا بحريًّا لبثوا مدة طويلة يعملون بموجبه في البحر المتوسط، ثم دخلت منه قواعد كثيرة في القوانين البحرية الحديثة. لهذا كان هذا الملك معدودًا من أعظم الأدباء الذين خدموا اللغة الكتلونية. وفي القرن الرابع عشر اشتهر بتره الثالث ابن جقوم الأول، فأمر بكتابة تاريخ عن مغازي والده ومغازيه هو.

وممن امتاز في علم التاريخ والآثار دسكلوت Desclot محرر تاريخ أراغون، المعدود من أحسن مؤلفات القرون الوسطى. ثم مونتانير Montaner وهو نديده في معرفة التاريخ، ولكنه أعلى منه عبارة، ويقال إنه أفصح مؤلف في عصره.

وممن بلغوا لذلك العهد جوان مورتوريل Martorell وله كتاب قصص عن الفروسية، يقال إن أديب أسبانية الأكبر سرفنتيس Cervanies لم يكن يحفل بغيره. ولا يجب أن ننسى بونيفاسيو فرر Ferrer الذي ترجم التوراة كلها إلى الكتلونية، وطبعت هذه الترجمة في بلنسية سنة ١٤٧٨. ونبغ كثير من الشعراء بهذه اللغة نخص منهم بالذكر رامون مونتانير Ramon Montaner وموزن زالبا Mosen Zalba وموزن توريل Mosen Turrell وغيرهم. وفي زمن بتره الرابع ملك أراغون تألفت أكاديمية بسعي لويس آفيرسو Averso وجاييم مارك Jaime Merch وكان للأدب الإيطالي تأثير في الأدب الكتلوني، نظرًا لكثرة العلاقات بين البلادين، وترجم أندري فبرر المهزلة الإلهية لدانتي.

أما الدور البلنسية فهو أرقى أدوار اللغة الكتلونية، وذلك لأن اللهجة البلنسية أرق وأشجى بكثير من اللهجة البرشلونية الجاسية، ولأنه نبغ في بلنسية شعراء كان يجري في عروقهم الدم العربي، ومن شعراء بلنسية المشهورين دوسان جوردي De San Jordi وجقوم رواغ Roig وجقوم غازول Gazull الذي اشتهر برثائه الفلاحين في سهل بلنسية، وأنليزة Anleza وبلتزا روبورتلس Portells ونرسيزوفينيولاس Vinyolas ومرسين غرسية، وجوان فوغاسو Fogasso وتورنيدة Turneda الذي نظم المبادئ الأدبية المسيحية شعرا.

ونبغ من الناثرين جوان مانسو Manso الذي ألف كتابًا على اللهجة البلنسية وبيرته طوميش، وله تاريخ وقائع، وجبرائيل تورل، صاحب تاريخ أكناد[٨] برشلونة،

ولويس الكنيس، وميكال بيريز Perez، وبقيت الآداب اللغوية الكتلونية زاهرة مدة دوام استقلال برشلونة، فلما أضاعت هذه البلاد استقلالها في زمن الإمبراطور شارلكان، تقلصت الآداب الكتلونية، ورجعت تلك الحركة إلى الوراء، ومع هذا فقد نبغ من الكتلان في ذلك العصر شعراء، مثل بيتره سيرافي Serafi، وجيبرغا Giberga، وجوان ماتارو Mataro، الذي نظم قصيدة عن واقعة ليبنط البحرية، التي تغلبت فيها الأساطيل النصرانية على الأسطول العثماني، واشتهر من المؤلفين بيتره كاربونيل Carbonell، وفرنسيسكو كاله Calca وميكال فرّر، وكاتب جغرافي اسمه فرنسيسكو طرفه Tarrafa وروكه مؤلف معجم لغوي للسان الكتلوني.

ومن الفقهاء فرنسيسكو سولسونة Solsona، ومن الأطباء جوان روفائيل مواكس Moix وغيرهم، ولكن زوال الدولة البرجلونية فت في عضد اللغة الكتلونية وهو أمر بديهي، فحيث لا توجد دولة قومية، لا يوجد أدب حقيقي، انظر إلى العرب كيف ضعفت ملكة البيان عندهم، بعد استيلاء الأعاجم على بلادهم.

وكان مبدأ انحطاط اللسان الكتلوني في القرن السابع عشر، واستمر إلى الثامن عشر وزاد الطين بلة أن فيليب الخامس أمر بإلغاء الامتيازات الكتلونية، وبعدم تحرير أوامر الحكومة باللغة الكتلونية. وصاروا يؤلفون الكتب في كتلونية باللغة القشتالية، ولكن برغم تضييق الدولة الأسبانية على هذه اللغة، بقيت فيها بقايا صالحة من شعراء وكتاب، مثل فرنسيسكو بالار، وإينياسيو فريره، وأوغسطين أوره، وغيرهم.

وبقيت اللغة الكتلونية تتقهقر إلى الوراء إلى أيام الثورة الفرنسية، التي تلقى الكتلان مبادئها بشوق عظيم، فحصلت نهضة سياسية صحبتها نهضة لغوية، ونشطت هذه اللغة ثانية من عقالها، وتنظمت جامعة برشلونة على نسق جديد، وتألفت أكاديميات، وانتشرت صحف، ونشأ ناشئة كتلونية، تنزع إلى إحياء أدبها القديم.

ونشر عبدون تراداس Abdon Terradas أول جريدة باللغة الكتلونية سنة ١٨٣٨ وأخذوا ينظمون وينثرون بهذه اللغة، وكثر الشعراء والزجالون. مثل بادريس Padris. وبوفارول Bofarull. وريكار Ricart. واسترادا Estrada. وغيرهم. ولكن اللغة القشتالية بقيت فائقة.

ومن سنة ١٨٦٠ فصاعدًا انقسم الأدباء إلى قسمين: بعضهم يذهب إلى ترقية اللغة الكتلونية، بدون إهمال القشتالية شقيقتها، وبعضهم يأبى إلا حصر الأدب والقضاء والسياسة في الكتلونية، والحزب الأول يكثر في بلنسية، وأما الحزب الثاني فأكثره في

برشلونة، وعلى كل حال فاللسان الكتلوني من ستين أو سبعين سنة إلى اليوم، قد بعث بعثة جديدة، وتمثلت فيه الروايات ونظمت المآسي، والمهازل والنشائد المختلفة، واشتهر في هذا الدور فيكتور بلاغر Belaguer من الشعراء وأورس Ors رئيس أكاديمية الآداب في برشلونة، وفرنسيسكو بارترينة، وغيرهم. ومن كتاب القصص فونتانلس Fontanals وله شهرة في كل أوربة، وأولر Oiler وتوده Toda.

هوامش

(١) أخذ علينا بعض المؤلفين كوننا في كتابنا «غزوات العرب في أوربة» لم نزد على أن نقلنا كلام المستشرق الفرنسي رينو، وعدوا ذلك قصورًا في التأليف، وحقيقة الحال أننا نحن توخينا عمدا النقل عن رينو الفرنسي وكلر الألماني والمحافظة على نصوصهما وذكر المنابع التي استقيا منها وذلك حتى لا يظن أننا نحن تصرفنا بروايات مؤرخي الإفرنجة وطولنا وقصرنا في الموضوع، وما أشبه ذلك مما يتعرض له المؤلفون الذي يجعلون التاريخ مجرد استنتاج بعقولهم ويخلطون الرواية بالرأي الشخصي. فالموضوع الذي طرقناه لم يسبق أن أحدًا من العرب أفرده بالتأليف وكل ما جاء عنه في كتب العرب بعض جمل في تضاعيف السطور جمعناها من هنا وهناك إلى كتاب واحد واخترنا وضعها في الحواشي تعليقًا على كلام رينو وكلر الذي رويا ما رويا بناء على وثائق لا تحصى من كتب الإفرنج والعرب وممن عاصروا تلك الوقائع، وقد جاءت هذه الحواشي التي علقناها مؤيدة في الجملة للمتون التي ترجمناها من الفرنسية والألمانية والطليانية والتي أحببنا نقلها بالأمانة العلمية اللازمة. والمقصد الحقيقي عندنا هو تمحيص الروايات التي يحصل بها برد اليقين عن تلك الحوادث لا إظهار البراعة الشخصية.

(٢) جاء في تاريخ متس، وتاريخ ريجينون وغيرهما أنه في سنة ٧٩٧ من التاريخ المسيحي قدم أمير برشلونة العربي على شارلمان. وبعد ذلك في سنة ٨٠١ أراد خلع طاعته فأخذ أسيرا ونفي، وهؤلاء المؤرخون يسمونه تارة «زاتون» Zaton وطورًا «زادو» Zaddo وأحيانًا «زاد Zaad» والأرجح أن اسمه سعدون أو سعد. وقد ورد في تاريخ الملك لويس الحليم أن سعدون هذا وقع أسيرًا في سربونة وأنه بعد أسره تولى إمارة برشلونة ابن عم له اسمه عامر فدافع عن البلدة دفاعًا يتقاصر عنه كل وصف مدة سنتين تحمل أثناءها مسلمو برشلونة من ضيق الحصار ما يعجز أي قبيل عن تحمله

وذهب مؤرخون منهم «مارمول Marmol» إلى أن سعدون أو سعدًا كان من عمال ملك قرطبة فانتقض على سلطانه فأرسل إلى شارلمان يعده بالدخول في طاعته. وفي سنة ٧٩٧ و٧٩٨ دخل هذا الأمير فعلًا في طاعة شارلمان ولكن شارلمان شعر بعد سنتين من هذا العهد بأن أمير برشلونة نقض طاعته. فسرح إليه جيشًا تحت قيادة ولده لويس أو لودفيك — ولذلك العرب حرفوه إلى لذريق — فحاصر برشلونة واستفتحها ثم انصرف عنها، فجاء أمير سرقسطة واستردها. ولكن لويس شارلمان عاد سنة ٨٠٦ فاستولى عليها وعلى أعمالها، فالروايات تختلف في كيفية استيلاء الفرنسيس على برشلونة ولكن خلاصتها واحدة وهي أن العرب خسروا بلاد كتلونية من ذلك الوقت وأنه تولى عليها في البداية أمراء تابعون لفرنسة ثم لم يبرحوا حتى استقلوا عن فرنسة وعن العرب معًا.

(٣) لم يتحقق اسم هذا الحصن بالإسبانيولي.

(٤) لم نجد ممقصر ولكن وجدنا اسم محل في الجبل إلى الغرب من طركونة اسمه الأقصر Aleixar فربما كان هو الحصن المقصود إلا أن الأسماء تتحرف بين الإسبانيولي والعربي إلى أن لا يهتدى إلى حقيقتها.

(٥) هو صاحب الكتاب المسمى بتاريخ أكناد برشلونة Condes de Barcelone.

(٦) ولد هذا الملك في سنة ١١٥٢ وبويع ملكًا على برشلونة وعلى أراغون سنة ١١٦٣ وتوفي سنة ١١٩٦ وكان قد استولى على بروفنس في جنوبي فرنسة ووقعت الحرب بينه وبين شانجة ملك نبارة وقاتل جيوش الموحدين الزاحفين من أفريقية إلى الأندلس وخلفه ابنه بتره ملكًا على أراغون وبرشلونة ويقال له بتره الثاني ولد سنة ١١٧٤ واشترك مع أذفونش السادس ملك قشتالة في قتال الموحدين سنة ١٢١٢ ومات في السنة التي بعدها قتيلًا في حرب الألبيجيين Albigeois.

(٧) إذن الكتلونية في هذا تشبه جارتها العربية المغربية فلا شك في كون إخواننا المغاربة هم أعظم النحاتين في العربية فيقولون في عبد الله «عبو» وفي عبد الرحمن «رحو» وفي عبد السلام «عبسلام» ويصغرونه «بسلامو» وفي عبد الكريم «عبكريم» وفي تصغيره «كريمو» ويقولون في عبد القادر «عبقادر» و«قدور» والمشارقة أيضًا يقولون قدور وينحتون محمدا «بحمود» وعبد اللطيف أو لطف الله «بلطوف» وزكريا «بزكور» ونصر الله «بنصور» وعبد الرازق ورزق الله «برزوق» وعبد الجبار «بجبور» وهذا أيضًا في المغرب وفيه أيضًا «عزوز» و«كبور» لعبد العزيز وعبد الكريم وفيه غرائب ونحت من قبيل «مح» و«محَ» و«حمو» في محمد و«طامة» و«طمو» و«طم» و«ط» في فاطمة

و«عشوش» و«ش» في عائشة ويقال إن النحت في فاطمة وعائشة يبلغ بضع عشرة صورة. أما في المشرق فنقتصر في نحتها على «فطوم» و«عيوش» ومن غرائب نحت الأسماء ما سمعته من إخواننا مسلمي بوسنه وهرسك وهو «ميو» في مصطفى و«سلو» في صالح ومنها عند الأكراد «حسو» في حسن، وهلم جرّا.

(٨) جمع كند واليوم يقولون كونت بالتاء وكان العرب يقولون قمط بالميم والطاء ويجمعونها على أقماط وكثيرا ما جاء في كتبهم ذكر أقماط برشلونة أو برجلونة وقد أهدانا الفاضل المؤرخ الحاج محمد العربي بنونة عن أعيان تطوان عدة مراسلات خطية دارت بين سلاطين غرناطة بني الأحمر وبين أقماط برجلونة سننشرها هنا.

الفصل السابع والثلاثون

مراسلات سلطانية

وقعت بين أقماط برجلونة ملوك أراغون وسلاطين بني الأحمر أصحاب غرناطة

كانت المراسلة لا تنقطع بين سلاطين غرناطة بقية ملوك العرب في الأندلس، من جهة، وبين ملوك قشتالة، وملوك أراغون، وأقماط برجلونة من جهة أخرى، بسبب الجوار، واتصال الأرض بالأرض، واشتباك المصالح، والمرافق، ولقد أتينا في كتابنا «آخر بني سراج» المذيل بمختصر تاريخ أسبانية، في طبعته الثانية، بأربعة مراسيم سلطانية صادرة عن السلطان أبي الحسن علي بن الأحمر، على بعض فرسان الإسبانيول وزعمائهم ونحن الآن ناشرون بعض كتب من سلطان غرناطة يوسف بن إسماعيل بن فرج، إلى الدون بتره، ملك أراغون وكتلونية. قد أهدانا هذه الوثائق النفيسة الأخ الفاضل الوجيه الحاج محمد العربي بنونة، من أعيان تطوان وذلك نقلًا عن مجموعة رسائل اتصل بها من كتلونية، حاوية عددًا كبيرًا من هذه المراسلات، إلا أن تقادم العهد قد طلسها، وعبث الأرضة بها قد جعل قراءتها متعذرة وطمسها، فبعد الجهد الجهيد تمكن الأخ العربي بنونة، جزاه الله خيرًا، من نسخ هذا الجزء القليل، الذي اتضح له خطه، وتسنى له ضبطه، وهو ما يلي بحروفه:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

السلطان الأجل، المرفع المكرم، المبرور المشكور، الأوفى الأخلص، دون بطره: ملك أراغون، وسلطان بلنسية وسردانية وقرصقة، وقمط برجلونة،

وصل الله عزته بتقواه، وأسعده بطاعة الله ورضاه، مكرم جانبه، وشاكر مقاصده في الوفاء ومذاهبه، الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين، أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر، سلطان غرناطة ومالقة والمرية ووادي آش وما يليها، أما بعد فإنا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة، حرسها الله، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل، واليسر الأشمل، والحمد لله كثيرًا، وعن العلم بمحلكم في الملوك الأوفياء، والشكر مما لكم في الصحبة من المذاهب والأنحاء، وإلى هذا فموجبه إليكم هو أنه حدثت شكايات في هذا الصلح، رفع إلينا فيها أهل بلادنا، وطلبوا خلاصها، فاقتضى نظرنا أن وجهنا إليكم كتابنا هذا، صحبة سفير بها، ومن هذه الشكايات ما صدر عن أهل بلادكم من أخذ أسارى، وحملهم إلى أرض غير أرضكم، وبيعهم لهم بها، ونحن نعلم أنكم أوفى ملوك النصرانية، وإنك ما عرفت إلا بالوفاء قديما وحديثًا، فقصدنا منكم أن تعملوا في هذا الحال ما تقتضيه غيرتكم على عهدكم، ومحلكم في الوفاء وتأمروا بخلاص الشكايات على الوجه الذي يقتضيه نظركم، ويكون ذلك مما نشكره من أعمالكم، ونزداد به علمًا بوفائكم، وحسن مصادقتكم. وقد وجهنا إليكم برسم هذه الشكايات مملوك جانبنا القائد بشيرًا، ومعه أُقين ولد خديمنا وخديمكم بشقلين شرنجة،[١] وأنتم تفعلون ما هو اعتقادنا فيكم، وما نعلمه من مقاصدكم في الوفاء ومناحيكم، والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه، ويسعدكم بطاعته ورضاه، والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا، وكتب في اليوم الرابع والعشرين لشهر محرم مفتتح عام سبعة وثلاثين وسبعمائة، عرف الله خيره.

كتاب آخر:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

السلطان الأجل، المرفع المكرم، المبرور المشكور، الأوفى الأخلص، دون بطره، ملك أراغون، وسلطان بلنسية، وصاحب سردانية، وقمط برجلونة، وصل الله عزته بتقواه، وأسعده بطاعة الله ورضاه، مكرم جانبه، وشاكر مقاصده في الوفاء ومذاهبه، حافظ عهده البر به، العارف بمحله في الملوك

ومنصبه، الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر، أما بعد فإنا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة، حرسها الله، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل، واليسر الأشمل، والحمد لله كثيرًا، وعن الحفظ لعهدكم، والثناء على مذهبكم في الوفاء وقصدكم، والعلم بمنصبكم في ملوك النصرانية ومجدكم، وإلى هذا فقد وصلنا كتابكم جوابًا عما كتبناه إليكم، في شأن الضرر الذي لحق بلادنا من أرضكم، تذكرون أن ذلك الضرر لا علم عندكم به، وحاشا لله أن نعتقد فيكم إلا الوفاء الذي يليق بمملكتكم وسلفكم، فمثلكم من الملوك الكبار لا يعتقد فيه إلا الوفاء والصدق. وما ذلك الضرر إلا من أهل الأرض، وأكثره من الناس الخارجين عن طاعتكم من لقنت، والمدوّر، وأريولة، والأرض التي لنظر بطره شارققة، ومع ذلك فإنه ضرر كبير، ومنه ما هو من البلاد التي تحت طاعتكم. ففي هذه الأيام أضر بهذه السواحل شيني،[٢] وحمل من المسلمين حملة (جملة لم نتبين حقيقتها) ببلنسية، فالقصد منكم أن تنظروا في هذا الحال بما هو المعلوم من وفائكم، وغيرتكم على عهدكم، حتى تجدوا ما أخذ من المسلمين وأموالهم، وعرفونا بما عندكم في قضية تلك البلاد التي خرجت عن طاعتكم، لنعلم مذهبكم في ذلك، ونبني عليه وعرفت بأنكم قد كتبتم إلى ميورقة، ليوصل إليكم منها المفسدون الذين خرجوا على عهدكم، وأضروا بالمسلمين لتعملوا في قضيتهم الواجب، وذلك هو الذي يليق بكم، ونشكركم عليه، ووقفنا في آخر كتابكم على فصل طلبتم منا فيه أن نعرفكم بمذهبنا في الصلح، فإنكم صعب عليكم ما تضمنه كتابنا، وإنه لا صبر على هذا الضرر، فاعلموا أن قصدنا بما كتبناه إليكم ما هو إلا (كلمة أشكلت قراءتها) في ذلك الضرر، وأما ما عقدناه من الصلح فنحن نوفي به على حسب ما اشترطناه، ما وفيتم لنا أيها السلطان، فكونوا من ذلك على يقين، والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه، ويسعدكم بطاعته ورضاه، والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا، وكتب في يوم الخميس الثالث والعشرين لشهر محرم مفتتح عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة.

كتاب آخر:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

السلطان الأجل، المرفع المكرم، المبرور الأوفى الأشهر المذكور الأخلص، دون بطره، ملك أراغون، وبلنسية، وميورقة، وسردانية، وقرسقة، وقمط برجلونة ورشليون،[٣] وصل الله عزته بتقواه، وأسعده بطاعة الله ورضاه، مكرم مملكته، الحافظ لعهده، الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر، سلطان غرناطة، ومالقة، والمرية، ووادي آش، وما إليها، وأمير المسلمين، أما بعد فإنا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة، حرسها الله، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل، واليسر الأشمل، والحمد لله كثيرًا، وجانبكم مكرم مبرور، ومحلكم في الملوك الأوفياء مشهور، ومذهبكم في الصحبة والوفاء بالعهد معلوم مشكور، وإلى هذا فقد وصلنا كتابكم، جوابًا على كتابنا الذي وجهناه إليكم، صحبة إرسالنا، واستوفينا ما ذكرتم فيه، وما قررتم عندنا، من أنكم أمرتم خدامكم وولاة بلادكم، بالإنصاف من كل ما أخذ للمسلمين بعد عقد الصلح، وذلك هو الذي يليق بسلطان مثلكم، فما زال أسلافكم الملوك يعرف منهم الوفاء بالعهد، والوقوف في حفظ أمور الصلح على ما عقدوا عليه، وتعلمون أن هذه الشكايات التي لحقت أرضنا من ناسكم، قد طال الحال فيها، ووجهنا فيها إليكم إرسالًا، وهم يترددون في طلبها، منذ نحو من عام، وما زال أهل بلادنا الذين لحقهم الضرر، يتشكون إلينا، مرة بعد مرة، ولا يسعنا إلا أن ننظر لهم، فقصدنا منكم أيها السلطان أن تعزموا في هذه الحال عزيمة مثلكم من السلاطين، وتحكموا على ناسكم بخلاص ذلك حكمًا حزمًا، وقر رأينا أن وجهنا إليكم بكتابنا هذا خديمنا الفارس المكرم أبا الحجاج يوسف بن فرج أكرمه الله، فعسى أن تجعلوا معه من يظهر لكم من ناسكم، يتردد معه على الجهات التي تعينت الشكايات فيها، وتنفذوا لهم أمركم في ذلك بالخلاص الذي يقع به الإنصاف على أكمل الوجوه، فإن فعلتم ذلك فعلتم ما يليق بكم، وما نقابلكم عليه إلا بالشكر، وإلا فلا يسعنا إلا أن ننظر لرعيتنا وجهًا يكون فيه خلاص شكاياتهم، وإذا وقع الاسترهان، فلا يخفى عليكم ما يحدث في ذلك من خلل في الصلح، وأنه لا يستقيم له. هذا ما عندنا عرفناكم به، ونحن نرقب ما يكون من عملكم في ذلك، والله يصل لكم بطاعته عوارف رضوانه، ومواهب إحسانه، والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا. كتب في التاسع عشر لشهر ذي الحجة عام ستة وأربعين وسبعمائة.

كتاب آخر:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

السلطان الأجل، الأوفى الأخلص، المبرور المشكور، المرفع المكرم، دون بطره، ملك أرغون، وبلنسية، وميورقة، وسردانية، وقرسقة، وقمط برجلونة، وصل الله عزته بتقواه، ويسره لما يحبه الله ويرضاه، مكرم مملكته، البر بجانبه، الشاكر لمقاصده في الوفاء ومذاهبه، الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر، سلطان غرناطة، ومالقة، والمرية، ووادي آش، وما إلى ذلك، وأمير المسلمين. أما بعد فكتبناه إليكم من حمراء غرناطة، حماها الله، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل، واليسر الأشمل، والحمد لله كثيرًا كما هو أهله، وجانبكم مبرور، ومحلكم في ملوك النصرانية معلوم مشهور، وإلى هذا فموجبه إليكم هو أن شخصين من أهل المرية، يعرف أحدهما بعلي بن بكرون الصائغ، والآخر بسعيد بن أحمد الحجام، أخذا في جفن[٤] الرخاج (كذا) وهما خارجان من مالقة، وثبت عندنا عقد صحيح أنهما أخذا في نصف شهر صفر الفارط قريبًا، ونصف صفر موافق للسابع والعشرين ليونيو، المتصل بشهر مايو، وصلحنا معكم عقد بتاريخ الرابع عشر من الشهر العجمي المذكور، فظهر من ذلك أنهما أخذا بعد عقد الصلح باثني عشر يومًا، وهذان المسلمان وصل بهما إلى المرية نصراني من بلنسية، يروم فداءهما فرفع إلينا قرابتهما، وعرفونا أنهما أخذا في الصلح، فرأينا أن حكمنا على قرابتهما بأداء الفدية للنصراني، ثقة بأنكم تخلصون القضية، وتحكمون على من اشتراهما أو باعهما بعد أخذهما في الصلح بغرم ما يجب في ذلك، فغرضنا منكم أن تعلموا في هذه القضية ما هو المعلوم من وفائكم، حتى يخلص قرابة الأسيرين من الفدية التي غرموها في غير حق، تعملوا في ذلك واجب الوفاء الذي نشكره لكم، والله يصل عزتكم بتقواه، وييسركم لما يحبه ويرضاه، والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا، كتب في الثامن والعشرين من شهر رجب الفرد عام خمسة وأربعين وسبعمائة ا.هـ.

وبعد انتهاء المكتوب ملحق به سطران بخط غير خط المكتوب، وهو دونه في الحسن، والمظنون أنهما بخط سلطان غرناطة نفسه، ونصهما:

والفدية التي افتكوا بها، وحكمنا عليهم بغرمها للنصراني الذي أوصلهم، هي اثنان وخمسون دينارًا من الذهب العين، سواء بينهما، فعرفناكم بذلك، بعد الوقوف على عقود الفدية بذلك، ومعاد السلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرا. وفي تاريخه.

كتاب آخر:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

ليعلم من يقف على هذا الكتاب ويسمعه، أننا الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر، سلطان غرناطة، ومالقة، والمرية ووادي آش، وما إليها، وأمير المسلمين، لما انعقد الصلح بيننا وبين السلطان الأجل المرفع، الأوفى المبرور الأخلص، دون بطره، سلطان أرغون وبلنسية، وقرسقة، وميورقة، وسردانية، وقمط برجلونة، أسعده الله بطاعته ورضاه طلبنا من محل أبينا السلطان الجليل المعظم الأشهر الأوحد أمير المسلمين أبي الحسن،[٥] سلطان العدوة، أن ينعم بالإذن لنا في عقد صلح معه على بلاده، على ما جرت به عوائد صلحه مع تلك المملكة، وأعطانا مقدرة لعقد ذلك، فاقتضى نظرنا أن وجهنا إلى السلطان دون بطره، برسم عقد الصلح معه على بلاد السلطان أبي الحسن بالعدوة والأندلس، القائد الأجل الأغر الأرفع الأمجد الحسيب الأصيل، الأفضل خاصتنا، الحظي لدينا، المبرور الأخلص، أبا الحسن بن كماشة،[٦] وصل الله عزته ورفعته، وأمرنا له بهذا المكتوب ظهيرًا على أن ما يعقده في ذلك فنحن بمضيه، نلتزم حكمه، ونلزمه من أذن لنا فيه، بما عندنا من قبل السلطان، ولأن يكون هذا ثابتًا، ولا يلحق فيه شيئًا أمرنا بكتب هذا المكتوب، وجعلنا عليه خط يدنا وطابعنا، وشاهدًا علينا بإمضاء حكمه، وذلك في السادس عشر لشعبان من عام خمسة وأربعين وسبعمائة ا.هـ.

كتاب آخر من أحد وزراء بني الأحمر إلى الدون الهلشه،[٧] ملك أراغون وقمط برجلونة:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

مولاي السلطان المعظم، المؤمر المبرور، الأوفى المشكور، الكبير الشهير، دون الهنشه، ملك أراغون، وبلنسية، وسردانية، وقمط برجلونة، وصل الله عزته بتقواه، وأسعده بطاعته ورضاه، معظم سلطانه، مكرم جانبه، الشاكر لمقاصده في الوفاء ومذاهبه، الحافظ لعهده، المثنى على غرضه في صحبة مولاه وقصده، وزير السلطان أيده الله، رضوان بن عبد الله.[٨] كتبه إليكم من الباب الكريم أسماه الله بحمراء غرناطة، حرسها الله، وليس بفضل الله سبحانه ثم ببركة الدعاء لمولاي أيده الله ونصره وأسعده وظفّره إلا الخير الأكمل، واليسر الأشمل، والحمد لله كثيرًا وجانبكم معظم مبرور، وقصدكم في الوفاء معروف مشكور، وقدركم في ملوك النصرانية معروف مشهور، وموجبه إليكم هو أن الواصل إليكم بهذا الكتاب، وجهة مولاي السلطان، أيده الله برسم إيصال الأسارى المأخوذين في الصلح الذين وقع الكلام فيهم مع رسولكم للكرم، دون رامون بيل، مقصد مولاي أيده الله منكم أن تتفضلوا بتسريحهم وتوجيههم معه، يكون ذلك مما يشكره من أعمالكم، وأنتم تفعلون في ذلك ما يقتضيه وفاؤكم المشهور، وقصدكم المبرور، والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرا. وكتب في اليوم الخامس عشر لذي حجة مختتم عام خمسة وثلاثين وسبعمائة.

كتاب آخر من وزير آخر:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وسلم تسليما.

مولاي السلطان الأجل المكرم المعظم المرفع المبرور، الأوفى المشكور، الشهير الكبير الخطير، دون الفونشه، ملك أراغون، وسلطان بلنسية، وسردانية وقمط برجلونة وصل الله إعزازه بتقواه، وأسعده بطاعته ورضاه، معظم جانبه، مجل سلطانه، الباذل في خدمته جهد إمكانه، الشاكر لنعمه، العارف بسمو مملكته، علي بن كماشة، كتب إليكم من باب مولانا، أيده الله، بحمراء غرناطة، حرسها الله، وليس بفضل الله سبحانه، ثم بنعمة مولاي، أدام الله أيامه، إلا الخير الأتم، واليسر الأعم، وعن التعظيم لملكتكم، والمسارعة لخدمتكم،

والشكر لنعمتكم، وإلى هذا وصل صحبة معظم ملككم، رسولكم وخديمكم: المكرم ريمون بيل إلى حضرة مولانا، أيده الله، وحضر بين يديه، وأدى رسالته، وأظهر من حسن آدابه ومقاصده في خدمتكم، ما هو اللائق بأمثاله، ممن تربى، في داركم، ونشأ في خدامكم، واستحسن مولاي أيده الله، وقصده في ذلك، وجدد من مودتكم وصحبتكم ما تقفون على شرحه في كتابه إليكم، وأما معظّم جانبكم، فعمل في خدمتكم ما يجب عليه، وألقيت لمولانا أيده الله، ما لكم فيه من المحبة، والمودة وشكرها لكم أتم الشكر، وعملت أيضًا في خدمة ولدكم مولاي المعظم، دون بطره الكبير أسعده الله بطاعته، ما يجب، وقد كتب له مولاي، أيده الله، كتابًا بالصحبة والمودة، ومن خديمكم ريمون المذكور تتعرفون ما عملت في ذلك كله، ومنه تتعرفون أيضًا جميع الأخبار، وكرامة مولاي، أيده الله له، وعنايته به، ومما أعرف به سلطانكم أني كنت طلبت من إنعامكم كسوة من لباسكم، وأخبرني الزعيم المكرم برناط شرمي، أنكم أصدرتم أمركم بذلك، وأنعمتم به ومعظّم جانبكم ينتظر ذلك، وأخبرني أيضًا أنكم أمرتم لي ببازي، وأنا أنتظر ذلك أيضًا، وأذكركم (هنا كلمات لم تمكن قراءتها) ويصلكم يا مولاي القوسان اللذان قلت لكم عنهما صحبة رسولكم، ريمون بيل المذكور، وما أنا إلا خديمكم، ومقر بنعمتكم، فما كان بجانب سلطانكم أعمل فيه ما يجب عليه، والله سبحانه يصل أعزازكم بتقواه، ويسعدكم بطاعته ورضاه، والسلام يراجع سلام مولانا كثيرًا أثيرا. وكتب في اليوم الخامس عشر لذي حجة مختتم عام خمسة ثلاثين وسبعمائةا.هـ.

كتاب آخر من سلطان غرناطة إلى ملك أراغون:

الحمد لله حق حمده. وصلواته على سيدنا ومولانا محمد نبيه وعبده.

وصل الله عزتكم بتقواه، وأسعدكم بطاعته ورضاه. ألقى إلينا رسولكم ريمون بيل، الشكايات التي لأهل أرضكم، فكان من جملتها قضية الفيلوك[٩] الذي أخذه أهل المرية في العام الفارط، وقد خلّصت قضيته، ورد إليكم بآلاته كلها، وكل ما كان فيه من سلع كانت قد بيعت بالمرية، فنقد لصاحبها ثمنها، بديوان المرية، وتخلّص منه، وقضية ابن الحسين صاحب الشيني، الذي ذكرتم أنه تعرّض لأرضكم في الصلح، قد بحث عن جميع ما أوصله،

وذلك جفنان اثنان، كان أحدهما قد استقر بمالقة، والآخر ببيرة، وقد مكن منهما أصحابهما، الواصلون عنهما، واستقصى البحث عن كل ما أوصله من النصارى، وكانوا سبعة عشر، وجهوا كلهم بجملتهم مع رسولكم وهم يصلونكم، وقد كان وجه من النصارى قبل ذلك مع القائد أبي الحسن بن كماشة ثمانية عشر. وأما السلع فما وجد منها قبضه أصحابه الواصلون من قبلكم، واعلموا أن الريس ابن الحسن الذي صدر عنه ما ذكرتم، كان قد كتب في شأنه محل أبينا السلطان المعظم الأوحد، أمير المسلمين، أبو الحسن أيده الله، ليوجّه إليه هو وكل ما وصل به، وقد وجّه إليه هو والأعلاج الذين (كلمة لم تمكن قراءتها) في حركته الأخيرة، وجميع ما أوصله فإن كان نقصكم شيء مما أخذه، فأنتم تكتبون في ذلك إلى المقام العليّ، أسماه الله، ونظره أجمل، وما أوجب الإبطاء بتوجيه ذلك كله إلا أنه قرر عندنا أن الأعلاج المذكورين، والسلع من أرض الحرب، فلما وصل كتابكم صدقناكم في ذلك، وأمرنا برد جميع ذلك كله. وتسريحه بجملته تصديقًا لقولكم، وتوفية لقصدكم. والله يصل سعادتكم بتقواه، ومعاد السلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا. كتب في الرابع لذي حجة مختم عام خمسة وثلاثين وسبعمائة ا.هـ.

كتاب آخر:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وآله وسلم تسليمًا.

السلطان الأجل الأكرم، المرفع المبرور المشكور، الأوفى الأخلص، دون بطره ملك أراغون وسلطان بلنسية وقرسقة، وسردانية، وقمط برجلونة، وصل الله عزته بتقواه، وأسعده بطاعته ورضاه، مكرم جانبه وشاكر مقاصده في الصحبة ومذاهبه الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين، أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر، سلطان غرناطة، ومالقة، والمرية، ووادي آش، وما إليها، وأمير المسلمين، أما بعد فإنا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة، حرسها الله، عن الخير الأكمل، واليسر الأشمل والحمد لله كثيرًا، ونحن نعلم ما لكم في ملوك النصرانية من القدر المشهور، والوفاء المشكور، ونقابل جانبكم من الكرامة بالحظ الموفور، وقد وصلنا الكتاب الذي وجهتم إلينا، الذي يتضمن تثبيت

العهد، وتوكيد الود، وتصحيح العقد، وإخلاص الصفاء، وتجديد الوفاء، فقابلنا ذلك بشكر نجده لملكتكم، وإخلاص صادق في صحبتكم، ثم إنه بلغنا أن والدكم السلطان المرفع، دون الفونشو، مات، وأنكم ورثتم مملكته التي أنتم أحق بها، فرأينا أن وجهنا كتابنا هذا إليكم، نعزيكم في الوالد ونهنيكم بالملك، حسبما يقتضيه حق الصحبة التي بيننا، التي تأكد رسمها، ونعرفكم أننا ما عندنا إلا ما يرضيكم، من الاعتقاد فيكم، والحفظ لعهدكم، والشكر لقصدكم، فكونوا من ذلك على يقين، ومما نعركم به أن خديمنا بشقلين سريجه، كتب إلينا في أمور مما تخص جهتكم، وقد كتبنا إليه في جوابها ما تتعرفونه من قبله، فصدقوه فيما يلقيه عنا إليكم، واعلموا أنه لما وصلنا خبر موت والدكم كتبنا إلى بلادنا الشرقية كلها، أن لا سبيل لأن يتطرق لجهة أرضكم أحد بضرر، والله تعالى يصل عزتكم بتقواه، ويسعدكم برضاه، والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا، كتب في السابع والعشرين لجمادى الآخرة عام ستة وثلاثين وسبعمائة عرّف الله بركته ا.هـ.

كتاب آخر:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصبحه وسلم تسليمًا.

السلطان الأجل، المرفع المكرم، المبرور المشكور، الأوفى، دون الفونشه، ملك أراغون، وسلطان بلنسية، وصاحب سردانية، وقرسقة، وقمط برجلونة، وصل الله عزته بتقواه، ويسّره لما يحبه ويرضاه، مكرم مملكته، وشاكر مودته، المثنى على صحبته، البر بجانبه، العارف بمقاصده في الملوك الأوفياء ومذاهبه، الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر، أما بعد، فإنا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة، حرسها الله، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل، واليسر الأشمل، والحمد لله كثيرًا. وجانبكم مبرور، ومذهبكم في الوفاء مشكور، ومنصبكم في الملوك معلوم مشهور، وإلى هذا فقد وصل كتابكم المبرور، في شأن الأشخاص الذين باعهم الجنويون بالمرية، وعرّفتم أنهم من أهل أرضكم. اعلموا أننا لو عرفنا أنهم من أهل أرضكم ما سمح في بيعهم ولوجّهناهم إليكم، على ما يوجبه الوفاء

بالعهد فإننا ما عندنا إلا الوفاء بما عاهدناكم عليه، ولكن عند وصول كتابكم وجّهنا التفسير بأسمائهم إلى المرية، وأمرنا أن يبحث عنهم، ويسترجعوا من أيدي من هم عنده، ونحن نعمل في ذلك ما يوجبه الوفاء، وما يقتضيه اعتقادنا في صحبتكم بحول الله، فاعلموا ذلك، والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه، ويسعدكم بطاعته ورضاه، والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا، وكتب في الموفي ثلاثين لشهر جمادى الآخرة عام خمسة وثلاثين وسبعمائة ا.هـ.

كتاب آخر:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

مولاي السلطان المعظم، الأجل المكرم، المرفع الأوفى الأشهر، المبرور المشكور، دون بطره، سلطان أرغون، وبلنسية، وسردانية، وقرسقة، وقمط برجلونة وصل الله عزته بتقواه، وأسعده بطاعته ورضاه، معظم ملككم الشهير الزكي، القائم لجانبكم المعظم، بموصول الثناء ومستمر الشكر، وزير السلطان رضوان بن عبد الله، كتبه إليكم من باب مولاه، أيده الله بحمراء غرناطة حرسها الله، ولا جديد بفضل الله سبحانه، ثم ببركة هذا الأمير الكريم، أيد الله سلطانه، إلا الخير العميم، والحمد لله، وعن العلم بما لكم من الملك المرفع الجانب، والشكر لما عندكم من الوفاء الذي حصلتم منه على أجل المواهب، واختصصتم منه بأكرم المذاهب، ووصل كتابكم المكرم، صحبة كتابكم إلى مولاي السلطان، أيده الله، بتجديد الصلح الذي كان بين أسلافه وأسلافكم، الذي عقد عليه بثقلين سريجة، وقد أنعم بكتب عقد عن مقامه، بنص العقد الذي وجّهتم، وعلى حسب فصوله، وما عنده، أيده الله، إلا الحفظ لعهدكم. والارتباط لصحبتكم، فكونوا من ذلك على يقين. واعلموا أنني لا أزال أعمل في توفية حفظ ذلك الصلح، وتكميل أموره، ما هو الواجب عليّ في خدمة مولاي، أيده الله، حتى تتمشى الأمور على ما يقتضيه الحق، ويوجبه الوفاء، وأما ما ذكرتم من اعتقادكم الجميل وكرامتكم، فذلك فضل منكم أشكركم عليه غاية الشكر، ومثلكم من الملوك الكبار من يصدر عنه قول الخير وفعله، والله تعالى يصل عزتكم بتقواه، ويسعدكم بطاعته ورضاه،

والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا. كتب في اليوم الرابع لذي الحجة عام ستة ثلاثين وسبعمائة ا.هـ.

كتب إلينا الأخ الحاج محمد العربي بنونة أن خط هذا الكتاب الأخير رديء جدًّا، وقال: «لا أدري كيف صدر من ديوان الحمراء» وقد أسفنا أن تكون أكثر الكتب السلطانية، التي اشتملت عليها تلك المجموعة، قد أكلتها الأرضة، وتنكر خطها، وتعذر ضبطها، وهيهات أن توجد لها مجموعة أخرى! وعلى كل حال لو اتصلت يدنا بنسخ جلية، لهذه الكتب السلطانية، البالغ عددها ستين كتابًا، في ما علمنا، لبادرنا إلى استنساخها، وإلحاقها بالطبعة الثانية من الحلة السندسية، لما في هذه المراسلات بين سلطنتي غرناطة وأراغون، من تمثيل الحالة التي على ما كانت عليه في القرن الثامن للهجرة، الموافق للقرن الرابع عشر للميلاد، وذلك بين المسلمين وجيرانهم المسيحيين من أهل أسبانية.

أما الملكان اللذان توجهت إليهما هذه الرسائل من سلطان غرناطة ووزرائه فهما الفونش الرابع، وولده بطره.

ولأجل أن يرتوي القارئ من تاريخ هذين الملكين، نعيد هنا ما كنا كتبناه في مختصر تاريخ أسبانية الملحق «بآخر بني سراج» صفحة ١٧٧ من الطبعة الثانية وهو:

«ثم مملكة أراغون، حذاء جبال البيرانه، اعتمدت في أوائل أمرها على لصوصية البحر، واشتهر بين أمرائها جقوم،[١٠] وهو الذي استولى على جزائر الباليار: ميورقة، ومينورقة، ويابسة، وقيل إن السبب في الاستيلاء عليها تعرّض أهل ميورقة لمراكب الإسبانيول.

ويفهم من قول المخزومي في تاريخ ميورقة، كون سبب أخذها من المسلمين أن أميرها في ذلك الوقت محمد بن علي بن موسى، احتاج إلى الخشب، فأنفذ طريدة بحرية، وقطعة حربية، إلى يابسة بأخذه، فعلم بذلك والي طرطوشة، فجهّز إليها من أخذها، فترصد محمد بعض مراكبهم وأخذها، فأجمع الروم على قتاله في عشرين ألفًا، وجهّزوا ستة عشر ألفًا في البحر، وكان لدى وصول الروم قد أمر الوالي صاحب شرطته أن يأتيه بأربعة من كبراء المصر، فضرب أعناقهم، فاجتمعت الرعية إلى أبي حفص بن سيري، وأخبروه بما نزل وعزوه في من قتل، وقالوا له: هذا أمر لا يطاق! وأصبح الوالي يوم الجمعة، منتصف شوال، والناس من خوفه في أهوال، ومن أمر العدو في إهمال، فأمر

صاحب شرطته بإحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة، فأحضرهم، وإذا بفارس على هيئة النذير دخل إلى الوالي، وأخبره بأن الروم قد أقبلت، وأنه عد فوق الأربعين من القلوع. وما فرغ من إعلامه حتى ورد آخر وقال: إن أسطول العدو قد تظاهر، وإنه عد سبعين شراعًا. فصح الأمر عند الوالي وأطلقهم واستنفرهم. ثم ورد الخبر بأن العدو قرب من البلد، فإنهم عدوا مائة وخمسين قلعًا، فأخرج الوالي جماعة تمنعهم من النزول.

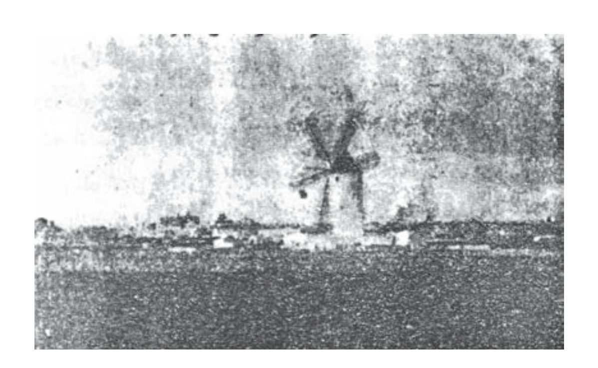
وفي الثامن عشر من شوال وقع المصاف، وانهزم المسلمون، وارتحل النصارى إلى المدينة، ونزلوا منها على الحربية الحزنية[١١] من جهة باب الكحل. ولما رأى ابن سيري أن العدو قد استولى على البلد خرج إلى البادية.

ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر قاتلوا البلد قتالا شديدًا. ولما كان يوم الأحد أخذ البلد، وقتل فيه أربعة وعشرون ألفًا، وأخذ الوالي وعذب، وعاش خمسة وأربعون يومًا تحت العذاب ومات. وأما ابن سيري فتحصن في الجبال، وجمع حوله ستة عشر ألفًا، وما زال يقاتل حتى قتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وستمائة. وجده من آل جبلة بن الأيهم الغساني. وأما الحصون فأخذت في آخر رجب من تلك السنة وفي شهر شعبان لحق من نجا من المسلمين ببلاد الإسلام. انتهى ما ذكره ابن عميرة المخزومي ملخصًا.[١٢]

قلنا إننا كنا قد نقلنا هذا النقل عن نفح الطيب وسنعود إلى خبر ميورقة وأخواتها عند الوصول إلى الكلام على هذه الجزائر جغرافية وتاريخًا، ونأتي إن شاء الله على الموضوع بالتفصيل، وإنما لهذا النقل هنا من جهة اتصاله بتاريخ ملوك أراغون، الذين هم أقماط برشلونة. فأما باب الكحل الذي دخل منه النصارى إلى مدينة بالمه[١٣] التي كان العرب يسمونها ميورقة، فقد شاهدناه يوم زيارتنا لتلك الجزيرة سنة ١٩٣٠. وأما الجبال التي تحصن بها ابن سيري فقد مررنا بحذائها، وهي على مسافة نحو من ساعتين بالسيارة الكهربائية من المدينة، ومن رآها علم أنها لا تؤخذ ولا يتأتى الصعود إليها، لوعورتها، وامتناع السلوك فيها. وما أظن المسلمين تركوا القتال، ولحقوا ببلاد الإسلام إلا بأحد سببين: إما أن يكون قتل ابن سيري قد فت في أعضادهم، ووقع الخلف بعده فيما بينهم، فلم تنتظم لهم كلمة بعد ذهابه، فطلبوا التسليم على شرط النجاة بأرواحهم، ولحقوا ببلاد الإسلام. وإما أن يكون تعذر عليهم المقام بهذه الجبال العالية الوعرة التي ليس فيها شيء يقوم بميرتهم، وكانوا لا يقدرون أن يهبطوا منها إلى السهول، لكثرة جيش العدو المرابط بحذائهم. والله أعلم.



شكل ٣٧-١: مدينة بالما قاعدة جزيرة ميورقة.



شكل ٣٧-٢: طاحون هواء في ميورقة.

ثم نعود إلى خبر كتلونية وأراغون فنقول إنه في مدة جقوم هذا، فاتح الباليار خرجت بلنسية من أيدي المسلمين، وبعد ذلك اجتمع بقايا المسلمين في مملكة أراغون وثاروا، وأثخنوا في عدوهم إلا أن جقوم طردهم أخيرًا فانحاز أكثرهم إلى مملكة ابن الأحمر، وأجاز بعضهم إلى أفريقية.

وقد اشتهر جقوم هذا بحب الطلاق والزواج واتخاذ الحظايا، وبينما مطران جيرونه يوبخه مرة على استهتاره هذا، استشاط غضبًا، وأمر بقطع لسانه. واغتصب مرة امرأة أحد رعيته. وكانت وفاته في ٢٧ تموز سنة ١٢٧٦.

وخلفه الدون بطره، وفي مدته انضمت مملكة صقلية إلى مملكة أراغون، وطرد الدون بطره منها شارل دانجو Danjoi أخا القديس لويس ملك فرنسة، وذلك بالرغم من إرادة البابا، وقصدوا استعادتها فانهزموا، فأصدر البابا حرما على حرم بحق بطره، وأخيرًا أقطع البابا مملكة أراغون شارل دوفلوا، بن فيليب الجريء ملك فرنسة، فزحف فيليب بعساكره على مملكة أراغون، وكان له من جقوم أخي بطره نفسه عضدًا، لإحنة كانت مستحكمة بين الأخوين، فانهزم جند بطره. واستولى الفرنسيس على جيرونة، إلا أن العلة تفشت فيهم من رائحة جثث القتلى، فهلك منهم خلق كثير، وأصيب الملك فيليب نفسه، وحمل ومات في الطريق.

وبعد انصراف الفرنسيس استعاد بطره جيرونة، وحول نظره صوب أخيه جقوم الذي ظاهر عليه الغريب، فأرسل ولده الفونس إلى ميورقة بأسطول ليأخذها من يده، وتوفي بطره، وابنه الفونس يحاصرها، فلم يقلع حتى دخَلت في حوزته. وقام بأمر أراغون بعد أبيه. ومات هذا وخلفه أخوه جقوم ملك صقلية، فترك أمور هذه الجزيرة لوالدته، وجاء إلى أراغون متسلمًا زمامها، وأعاد ميورقة على عمه جقوم. ثم تولى صقلية أخوه فردريك، وتزوج بابنة شارل دونابل، وولد له منها خمسة ذكور: جقَوم، والفونس، وبطره، ورامون وخطب لابنه البكر جقوم الدونة ليونورة القشتالية، وبينما كانوا يعقدون له عليها إذ عدل عن الزواج زاعمًا أن أباه أجبره عليه، وإنه هو يريد الترهب والتبتل، وأسقط حقه من وراثة الملك، ودخل في سلك الرهبان، وقضى الناس من ذلك العجب، لما كان عليه من الانغماس في اللذات والاسترسال إلى الشهوات، فولي العهد أخوه الفونس، وصار جوان أخوهما مطران طليطلة، وأخذ كل من الأخوين الباقيين إقطاعًا باسمه

ثم مات جقوم الثاني في برشلونة، في ٢ نوفمبر سنة ١٣٢٧، وخلفه ولي عهده الفونش الرابع، فتزوج هذا مرتين، وولد له من إحدى امرأتيه الدون بطره ولي عهده فلما مات سنة ١٣٣٦ وقع النزاع بين ولده بطره، وبين امرأة أبيه، التي كانت أخت ملك قشتالة، فادعت أنه يريد انتزاع أملاك إخوته، أولادها، فكاد الخلاف بسبب ذلك يتسع بين قشتالة وأراغوان، لولا ما جمعهما من كلمة الحرب المقدسة ضد المسلمين لعهد السلطان أبي الحسن المريني، صاحب المغرب.

وبعد وقعة طريف وانتقاض بطره من عوارض تلك الحرب أخذ يحاول انتزاع ميورقة من يد صهره جقوم.

قيل إن السبب في ذلك أن الدون بطره كان متوجهًا إلى افينيون، لزيارة البابا ومعه الدون جقوم راكبًا بجانبه، فلما صارا على مقربة من البلدة، وقد حفت بهما حاشيتهما، رأى سائس حصان الدون جقوم، أن سائس حصان الدون بطرُه، يحث مسير حصان مولاه، فلطمه ليشتد، ويمكنه اللحاق به، فأبصر ذلك الملك واغتاظ من ابن عمه لسكوته وإغضائه على حركة سائسه، فوقرت في صدره، وانتهز الفرصة لتجريده من مملكته ميورقة، في خلف وقع بين جقوم وبين ملك فرنسا من أجل مونبليه. فزحفت عساكر فرنسا لأخذها، فبعث جقوم إلى ابن عمه بالصريخ، فلم يجبه. ثم نقم عليه أمورًا، منها أنه يحاول الاستقلال، وأنه ضرب السكة باسمه. وأخيرًا أعلن خلعه من ولاية الجزر، فاستغاث جقوم بالبابا، فأرسله البابا إلى برشلونة نزيلًا عند بطره، ومستميحًا عفوه، فعندما حصل عنده ضبط عليه امرأته التي هي أخت بطره، وسرحه، فلحق جقوم بميورقة، وقد نادى بحرب بطره، والانفصال عنه، وكان أسطول بطره في رباط المسلمين بالجزيرة الخضراء، فاسترجعه منها، ونزل به على ميورقة، ففر جقوم إلى فرنسا، وبقي في نزاع مع ابن عمه بطره إلى أن باع أخيرًا بعض أملاكه من ملك فرنسا، وجهز بثمنها ثلاثة آلاف ماش، وثلاثمائة فارس، وركب بها البحر، طامعًا في استرداد جزيرته ميورقة فقابله واليها من قبل بطره بجيوش أوفر مرارًا من جيشه، وهزمه، فهلك في الهزيمة.

وما انتهى بطره من خطب جقوم ابن عمه، حتى ثارت معه مسألة أخرى مع أخيه المسمى أيضًا بجقوم، وذلك بسبب انتقال الملك، فإن بطره لم يكن له أولاد ذكور، فأراد العهد لابنته، والحال أن أخاه كان يطالب بهذا الحق فانشقت المملكة بهذا السبب إلى قسمين، ونشبت الحرب بينهما، وقام جمهور من الرؤساء على الملك وفي أثنائها توفي أخوه جقوم، فاتهم بطره بكونه سمه، فازدادت الثورة، وزحف الملك إلى الرعية الثائرة فجرت عدة وقائع سالت فيها الدماء غزارًا، وغدر بطره بالرؤساء الذين استسلموا إليه، وأرهق مدن مملكته حصرًا وعسرًا، إلى أن تمت له الغلبة، ثم بسبب مراكب استولى عليها أمير البحر عنده، رغم إرادة بطره ملك قشتالة، وقعت الحرب بينهما وانضم إلى أراغون الأمراء الذين كان بطره القشتالي قد آسفهم، وما وضعت تلك الحرب أوزارها حتى اصطلت الثانية، ثم الثالثة.

وهلك بطره الأراغوني سنة ١٣٨٧، بعد أن ملك نيفًا وخمسين سنة، وكان سفاكًا للدماء، غدّارًا، غدر بأهله وإخوته، وأهرق سيولًا من الدم، حتى لقب بالحنجري. وتزوج بأربع نساء الأولى دونه مارية ابنة ملك نباره، ماتت سنة ١٣٤٦ والثانية دونة ليوليورة ابنة ملك البرتغال، وماتت هذه بعد تلك بسنتين بالطاعون الذي عم جنوبي أوروبا، وشمالي أفريقية، وهو الذي يسميه ابن خلدون بالطاعون الجارف، خرَّب كثيرًا من ديار الشرق والغرب، ثم اقترن الدون بطره بليولورة أخت ملك صقلية، وماتت سنة ١٣٧٤، وقد ولدت منه ثلاثة ذكور، وابنة واحدة فاقترن بامرأته الرابعة، سيبيله فورسيه، كانت أرملة، بارعة في الجمال، وكان أوانئذ قد بلغ هو الحادية والستين، فملكت قلبه وأعطاها قياده، وأقطعها من أملاك التاج الملكي، فاعترضه ولي عهده جوان، وهو ابنه من امرأته الثالثة، ووقع النزاع، وانتهى بتحكيم أحد القضاة.

وفي أواخر مدة هذا الملك وقع النزاع الشهير بين البابا وأوروبان السادس، والبابا كليمان السابع، وأخذ كل منهما يحرم الآخر، وانقسمت ممالك أوروبا في شأنهما إلى شطرين: قفرلة وقشتالة ولبارة، ونابولي قامت بدعوة كليمان، وإنجلترة والبرتغال وأراغون، قامت بدعوة أوروبان، إلا أن أراغوان مالت فيما بعد إلى كليمان.

وبعد وفاة بطره قام ابنه جوان الأول وفي الحال قبض على سيبيلية امرأة أبيه وعلى أخيها وأعوانها، وابتزها الأملاك التي كان أبوه وهبها إياها، وسلمها إلى امرأته دونة «فيولنته» واعتنى بتزويج دون مارتين ابن أخيه بابنة عمه فردريك، ملك صقلية التي كان آل إليها إرث تلك الإمارة بعد وفاة والدها، وكان جوان مولعًا بالشعر والموسيقى والصيد، مهملًا الجد من الأمور، حتى أصبح قصره عبارة عن عكاظ شعراء، ومجتمع مغنين، لا يسمع فيه إلا إيقاع أو إنشاد، فقام أعيان البلاد، وطلبوا منه إقصاء حظيته دونه «كاروزة» لاتهامهم إياها بترغيبه في ما هو فيه من العبث فانقاد إلى إرادتهم، خوف انتقاضهم، وتوفي جوان في الصيد بكبوة جواد تردَّى به في غابة، وهو يطلب ذئبًا فخلفه أخوه الدون مرتين، لأن جوان لم يعش له غلام من صلبه. فنازعه في الملك آل فواكس، فغيهم عليه واستوثق له الأمر، وتزوج بالدونة مارية. فولد له منها أربعة أولاد، توفي منهم ثلاثة دون البلوغ، وبقي الواحد وهو الدون مرتين متوَّج صقلية، فمات هذا في غزاة بسردانية عام ١٤٠٩، ولم يعش له ولد، على كونه تزوج مرتين، نعم كان له أولاد من حظاياه، فعند وفاته انقرضت ذرية الذكور الشرعيين من البيت المالك، وتنازع حقوق الوراثة خمسة أمراء: الدون، فادويك، ولد مارتين من إحدى حظاياه.

وكونت أورجل، ابن عم مارتين في الدرجة الخامسة، ودوق كالابرة، ابن الدونة فيولنتة، بنت جوان الأول. ثم فرديناند القشتالي، الملقب عندهم بالرشيد، وهو ابن جوان الأول القشتالي، والدونة ليونوره اخت الدون مرتين ملك صقلية، الذي بموته انقطعت السلالة، فهو إذن ابن أخت الملك الشرعي، فكان أقرب المتنازعين إلى الحق في هذا العرش، وكان كذلك كونت أورجل بمكانه من الكلالة لأنه من نفس بيت الملك.

وربما كان لهذا الكونت «أو الكنداو القمط» في مملكة أراغون الشيعة الكبرى، إلا أنه لم يحسن طلب حقه، وجمع العساكر، فأخذت تعبث في البلاد مما أحال عنه القلوب إلى فرديناند، فانتخبوه ملكًا في ٣ سبتمبر سنة ١٤١٢، وقبض على كونت أورجل وسجنه، واستتب له الأمر. إلا أنه في سنة ١٤١٦ مات، وخلفه بكر أولاده الفونش الخامس، فاتح نابولي. ثم مات هذا سنة ١٤٥٨ عن غير ولد، فانتقل الملك إلى أخيه جوان، الذي كان تزوج بابنة شارل النبيل، وبواسطتها ملك بلاد نيارة.

وولد لجوان هذا، فرديناند الملقب بالكاثوليكي، فملك أراغون ونبارة معًا، وتزوج بايزابيلاّ ملكة قشتالة، فصارت هذه الممالك الثلاث مملكة واحدة، عادت في حالة من اجتماع الكلمة، ووفرة العديد، وغزارة المادة، بحيث قضت على الملك الأخير الباقي الذي كان بالأندلس للمسلمين. ا.هـ.

علمنا من هنا أن ملك أراغون الذي كان يخاطبه يوسف بن أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر، سلطان غرناطة، هو بطره الرابع الذي تولى من سنة ١٣٣٦ إلى سنة ١٣٨٧، وقبله كانت المراسلة مع والده الفونش، وهو الفونش الرابع. وأما سلطان غرناطة الذي صدرت عنه هذه الكتب، فهو يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر الخزرجي الأنصاري، ترجمة لسان الدين بن الخطيب في كتابه «اللمحة البدرية في الدولة النصرية» بقوله:

بدر الملوك، وزين الأمراء، كان أبيض أزهر أيدًا، مليح القد، جميل الصفات برّاق الثنايا، أنجل، رجل الشعر، أسوده، كث اللحية، وسيمًا، عذب الكلام، عظيم الحلاوة، يفضل الناس بحسن المرأى، وجمال الهيئة، كما يفضلهم مقامًا ورتبة، وافر العقل كثير الهيبة، إلى ثقوب الذهن، وبعد الغور، والتفطن للمعاريض، والتبريز في كثير من الصنائع العملية، مائلًا إلى الهدنة، مزجيًا للأمور، كلفًا بالمباني والأثواب، جمَّاعة للحلي والذخيرة، مستميلًا لمعاصريه من الملوك.

تولى الملك بعد أخيه بوادي السقائين من ظاهر الخضراء، يوم الأربعاء الثالث عشر من ذي الحجة، عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، وسنه إذ ذاك خمسة عشر عامًا،

وثمانية أشهر، واستقل بعد بالملك، واضطلع بالأعباء، وتملأ الهدنة ما شاء، وعظم مرائه لمباشرة الألقاب، ومطالعة الرسوم، فجاء نسيج وحده. ثم عانى شدائد العدو، فكرم يوم الوقيعة العظمى بظاهر طريف موقفه، وحَمد بعد منازلة الطاغية عند الجثوم على البلاد ضيرُه، فأفلت من مكبدة العدو التي تخطاها أجلُه وأوهن حبلها سعدُه.

ولما نفذ في الجزيرة القدر، وأسفت الأندلس، سدّد الأمور، وامتسك الإسلام على يده، وراخى مخنّق الشدة بسعيه، فعرَفت الملوك رجاحته، وأثنت على قصده إلى حين وفاته.

كان له من الذكور ثلاثة: محمد، ولي الأمر من بعده. وإسماعيل المتوثب عليه ومزعجه عن الأندلس، عند التغلب عليه، والثورة به، من ثقاف جواره. وقيس شقيق إسماعيل منهما.

تولى وزارته لأول أمره كبير الأكرة، ونبيه المشيخة بحضرته، إبراهيم بن عبد البر العريض المكسب، اليمين العقار، لمخيلة طمع نشأت لمقيمي دولته، فيما بيده. إلى ثالث شهر المحرم من العام. وأنِفَ الخاصة والنبهاء رئاسته. فطلبوا من السلطان إعاضته. فعدل عنه إلى خاصة دولتهم الحاجب أبي النعيم، مظنة التسديد. ومحط الثقات، فاتصل نظره مستبدًّا عليه في تنفيذ الأمور وتقديم الولاة والعمال. وجواب المخاطبات. وتدبير الرعايا. وقود الجيوش.

ثم قبض عليه ليلة السبت الثاني والعشرين لرجب لعام أربعين وسبعمائة، وتولى الوزارة بعده ابن عمة أبيه، السلطان أبي الوليد، وهو القائد أبو الحسن علي بن مول بن يحيى بن مول الأمّي؛ رجل جهوري حازم، مؤثِر للغلظة لم ينشب أن كف استبداده فالتاثت حاله ولزمته شكاية استنفدته. وأقام رسم الوزارة بكاتبه شيخنا أبي الحسن بن الجياب نسيج وحده، إلى أخريات شوال من تسعة وأربعين وسبعمائة، وهلك رحمه الله فأجرى لي الرسم[١٤] وعصب بي تلك المثابة، مضاعف الجراية، معززًا بولاية القيادة، حسبما وقع استيفاؤه في كتاب نفاضة الجراب من تأليفنا. ا.هـ.

وقد ذكر لسان الدين بن الخطيب من كان على عهد السلطان يوسف بن الأحمر المذكور من الملوك فقال: إنه كان بفاس السلطان المتناهي الجلالة، أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبيد الحق. وبتلمسان عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان. وبتونس الأمير أبو يحيى بن الأمير أبي زكريا ابن الأمير أبي إسحاق ابن الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص.

ومن ملوك النصارى بقشتالة الفونش بن هراندة بن شانجه بن الفونش بن هرانده وهو الذي هبت له الريح، وعظمت به في المسلمين النكاية، وتملك الخضراء، بعد

أن أوقع بالمسلمين الوقيعة بطريف. وببرجلونة السلطان بطُره، وقال عن وفاته ما يلي: وافاه أمر الله جل جلاله أتم ما كان شبابًا، واعتدالًا وحسنًا، وفخامة، وعزة، من حيث لا يحتسب، فهجم عليه يوم عيد الفطر من عام خمسة وخمسين وسبعمائة في الركعة الأخيرة، رجل ممرور؛ رمى نفسه عليه، وطعنه بخنجر كان قد اتخذه، وأغرى بعلاجه، وصاح، وقُطعت الصلاة، وسُلت السيوف، وقبض على المرور، واستفهم، فتكلم بكلام مختلط، واحْتُمل إلى منزله مرفوعًا فوق رؤوسنا على الفوت، ولم يُسَتقرّ به إلا وقد قضى، رحمه الله، وأخرج ذلك الممرور للناس فمُزق، ثم أحرق في النار. ودفن السلطان عشية اليوم في مقبرة قصره، لصق أبيه، ووُلي أمره أكبر ولده ا.هـ.

وهذا بحث حقه أن يكون في أثناء الكلام على سلاطين غرناطة، مما سنصل إليه إن شاء الله، وإنما قد تعجَّلنا منه هذه القطعة لأجل التعريف بالسلطان الذي كانت قد صدرت عنه هذه المراسلات إلى ملوك أراغون وكتلونية. ولعل المراسلات الأخرى التي تعذرت قراءتها بتقادم عهدها، فيها ما هو صادر عن غيره من ملوك غرناطة إلى غير الفونش وبطُره من ملوك أراغون.

هوامش

(١) لم نعرفه.

(٢) الشاني بمعنى السفينة، ويجمعونها على الشواني. وقد يقولون في مفردها «شيني» وقد قال صاحب التاج إنها لغة مصرية، مثل الشونة، بمعنى مخزن الغلة. والعلامة الأب أنسطاس الكرملي يرجح أنها فارسية، وأن أصلها «دوني» بمعنى السفينة. وهو يقول إن العرب قد يقلبون الدال شينًا، كما ترى في الارتعاد والارتعاش.

(٣) Roussillon مقاطعة فرنسية اليوم مركزها بربينيان على الحدود بين فرنسة وكتلونية.

(٤) الجفن معناه هنا السفينة وهو اصطلاح عامي ليس له أثر في الفصيح ولعلهم تواضعوا عليه من باب التشبيه بجفن العين.

(٥) السلطان أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق صاحب المغرب.

(٦) نقرأ اسم عائلة كماشة في تاريخ غرناطة لعهد بني الأحمر وأن وزير أبي عبد الله بن الأحمر يوم تسليم هذه البلدة كان يوسف بن كماشة. وأما أبو الحسن بن كماشة المذكور هنا فلعله الوزير القائد أبو الحسن علي بن يوسف الحضرمي ابن كماشة ذكره

لسان الدين بن الخطيب في «اللمحة البدرية» فقال: المستفيض عن تصرفاته عدم النجح أمرًا مطردًا. وزر للسلطان محمد بن يوسف الذي صدر عنه هذا الكتاب.

(٧) هو الفونشه ولد بتره.

(٨) هو رضوان النصري الحاجب ترجمه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة فقال: حسنة الدولة النصرية وفخر مواليها رومي الأصل أخبرني أنه من أهل القاصارة وأن نسبه تتجاذبه القشتالية من طرف العمومة والبرجلونية من طرف الخئولة وكلاهما نبيه في قومه وأن أباه ألجأه الخوف بدم ارتكبه في محل أصالته من داخل قشتالة إلى السكن بحيث ذكر ووقع عليه سبي في سن طفولته، واستقر بسببه في الدار السلطانية ومحض أحواز رقة السلطان دائل قومه أبو الوليد، فاختص به ولازمه قبل تصيير الملك إليه، فتدرج في معارج حظوته واختص بتربية ولده وركن إلى فضل أمانته، وخلطه في قرب الجوار بنفسه، واستجلى الأمور المشكلة بصدقه، وجعل الجوائز السنية لعظماء دولته على يده، وكان يوجب حقه ويعرف فضله إلى أن هلك فتعلق بكتف ولده وحفظ شمله ودبر ملكه، وكان سترًا للحرم وشجنًا للعدا وعدة في الشدة وزينًا في الرخاء رحمة الله عليه.

ثم قال في حاله وصفته: كان هذا الرجل مليح الشيبة والهيئة معتدل القد والسحنة مرهوب البدن مقبول الصورة حسن الخلق واسع الصدر أصيل الرأي رزين العقل كثير التجمل عظيم الصبر قليل الخوف في العاهات ثابت القدم في الأزمات ميمون النقيبة عزيز النفس عالي الهمة بادي الحشمة آية في العفة مثلًا في النزاهة ملتزمًا للسنة دءوبًا على الجماعة جليس القبلة سديد الإدراك مع السكون الثاقب الذهن مع إظهار الغفلة مليح الرعاية مع الوقار والسكينة مستظهرًا لعيون التاريخ ذاكرًا للكثير من الفقه والحديث كثير الدالة على تصوير الأقاليم وأوضاع البلاد عارفًا بالسياسة مكرمًا للعلماء تاركًا للهوادة قليل التصنع نافرًا من أهل البدع متساوي الباطن والظاهر مقتصدًا في المطعم والملبس، اتفقوا على أنه لم يعاقر مسكرًا قط، ولا زُنّ بهناة ولا لطخ بريبة ولا وسم بخلة تقدح في منصب ولا باشر عقابًا غير جائز ولا أظهر شفاءً من غيظ ولا اكتسب من غير التجر.

ثم ذكر آثاره فقال: أحدث المدرسة بغرناطة ولم تكن بها بعد وسبب إليها الفوائد ووقف عليها الرباع المغلة وانفرد بمنقبتها فجاءت نسيجة وحدها بهجة وظرفًا وفخامة وجلب الماء الموقف فائد سقيه عليها وأدار السور الأعظم على الربض الكبير المنسوب

للبيازين فانتظم منه النجد والغور في زمان قريب وشارف التمام إلى هذا العهد وبنى من الأبراج المنيفة في مثالم الثغور وردم مطالعها المنذرة ما ينيف على أربعين برجًا فهي مائلة كالنجوم ما بين البحر الشرقي من ثغر البيرة إلى الأحواز الغربية، وأجرى الماء بجبل هورور مهتديًا إلى ما خفي على من تقدمه.

وقال عن جهاده: غزا في السادس والعشرين من محرم عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة بجيش مدينة باغة، وهي ما هي من الشهرة وكرم البقعة، فأخذ بمخنقها وشد حصارها عنها، فتملكها عنوة وعمرها بالحامة ورتبها بالمرابطة، فكان الفتح فيها عظيمًا، وفي أوائل شهر المحرم من عام اثنتين وثلاثين وسبعمائة غزا بالجيش عدو المشرق، وطوى المراحل مجتازًا على بلاد قشتالة ولورقة ومرسية، وأمعن فيها ونازل حصن المدور، وهو حصن أمن غائلة العدو مكتنف بالبلاد موضوع على طية التجارة ونائبة القتال، فاستولى عنوة عليه منتصف المحرم من العام المذكور وآب مملوء الحقائب سبيًا وغنمًا.

وغزواته كثيرة كمظاهرة الأمير الشهير أبي مالك على منازلة جبل الفتح وما اشتهر عنه فيه من الجد والصبر وأثر عنه من المنقبة الدالة على صحة اليقين وصدق الجهاد أصابه سهم في ذراعه وهو يصلي فلم يشغله عن صلاته ولا حمله توقع الإعادة على إبطال عمله.

ثم ذكر ترتيب خدمته وما تخلل ذلك من محنته فقال: لما استوثق أمر الأمير المخصوص بتربيته محمد بن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر وقام بالأمر وكيل أبيه الفقيه أبو عبد الله محمد بن المحروق ووقع بينه وبين المترجم عهد على الوفاء والمناصحة لم يلبث أن نكبه وقبض عليه ليلة كذا من رجب عام ثمانية وعشرين وسبعمائة وبعثه ليلًا إلى مرسى المنكب واعتقله في الطبق من قصبتها بغيًا عليه وارتكب فيه أشنوعة أساءت به العامة وأنذرت باختلال الحال ثم أجازه البحر فاستقر بتلمسان ولم يلبث أن قتل المذكور وبادر سلطان الموتور بقريبه عن سرته استدعاءه فلحق بمحله من هضبة الملك متمليًا ما شاء من عز وعناية، فصرفت إليه المقاليد ونيطت به الأمور وأسلم إليه الملك وأطلقت يده في الحال واستمرت الأحوال إلى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة، وظهر من سلطانه التنكر عليه فعاجله الحمام فخلصه الله منه، وولي أخوه أبو الحجاج من بعده، فوقع الإجماع على اختياره للوزارة أوائل المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، فرضي الكل به وفرحت العامة والخاصة للخطة لارتفاع المنافسات بمكانه، ورضي الأضداد بتوسطه وطابت النفوس بالأمن من غائلته، فتولى الوزارة وسحب أذيال

الملك وانفرد بالأمر واجتهد في تنفيذ الأحكام وتقدم الولاة وجواب المخاطبات وقود الجيوش إلى ليلة الأحد الثاني والعشرين من رجب عام أربعين وسبعمائة، فنكبه الأمير المذكور نكبة ثقيلة البرك هائلة الفجأة من غير زلة مأثورة ولا سقطة معروفة، إلا ما لا يعدم بباب الملوك من شرور المنافسات ودبيب السعايات الكاذبة، وقبض عليه بين يدي محراب الجامع من الحمراء إثر صلاة المغرب، وقد شهر الرجال سيوفهم فوق رأسه يحفون به ويقودونه إلى بعض دور الحمراء، وكبس ثقات السلطان منزله فاستوعبوا ما اشتمل عليه من نعم وضم إلى المستخلص عقاره (المستخلص هو في الأندلس الملك الخاص بالسلطان) ثم نقل بعد أيام إلى قصبة المرية محمولًا على الظهر فشد بها اعتقاله ورتب الحرس عليه إلى أوائل ربيع الثاني من عام أحد وأربعين وسبعمائة، فبدا للسلطان في أمره واضطر إلى إعادته وفقد نصحه وأشفق لما عدم من أمانته وعرض عليه بالنوم الكف عن ضرره، فعفا عنه وأعاده إلى محله من الكرامة وصرف عليه من ماله ما فقد، وعرض عليه الوزارة فأباها واختار برد العافية وأنس لذة التخلي، فقدم لذلك من سد الثغور، فكان له اللفظ ولهذا الرجل المعنى، فلم يزل مفزعًا للرأي محلًّا للعظة كثير الأمل والغاشي، إلى أن توفي السلطان المذكور غرة شوال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة، فأخذ البيعة لولده سلطاننا الأسعد أبي عبد الله وقام خير قيام بأمره، وقد تحكمت التجربة وعلت السن وزادت الخشية من لقاء الله الشفقة، فلا تسأل عما أفاض من عدل وبذل من مداراة، ودامت حاله متصلة على ما ذكر إلى أن لحق ربه، وقد علم الله أني لم يحملني على تقرير سيرته والإشادة بمنقبته داعية، وإنما هو قول بالحق وتسليم لحجة الفضل وعدل في الوصف والله عز وجل يقول: (وإذا قلتم فاعدلوا).

ثم قال عن وفاته: في ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان من عام ستين وسبعمائة طرق منزله بعد فراغه من إحياء ثلث الليل متبذل اللبسة خالص الطوية ممتطيًا للأمن مستشعرًا للعافية قائمًا على المسلمين بالكل حاملًا للعظيمة، وقد بادر الغادرون بسلطانه فكسروا علقه بعد طول معالجة ودخلوا عليه وقتلوه بين أهله وولده وذهبوا إلى الدائل برأسه، وفجعوا الإسلام بالسائس الخصيب المغاضي راكب متن الصبر ومطوق طوق النزاهة والعفاف، وآخر رجال الكمال والستر الضافي على الأندلس ولوئم من الغد بين رأسه وجسده ودفن بإزاء لحود مواليه من السبيكة (مقبرة ملوك بني الأحمر كانت بمحل يقال له السبيكة الحمراء) ظهرًا ولم يشهد جنازته إلا القليل من الناس وتبرك بعد بقبره وقلت عند الصلاة أخاطبه دون الجهر من القول لمكان التقية:

أرضوان لا يوحشك فتكة ظالم	فلا مورد إلا سيتلوه مصدر
ولله سر في العباد مغيب	يشهر خافيه القضاء المقدر
سميك مرتاح إليك مسلم	عليك ورضوان من الله أكبر
فحث المطا ليس النعيم بمنقض	ولا العيش في دار الخلود مكدر

انتهى ببعض اختصار ومنه يفهم مكان الحاجب أبي النعيم رضوان النصري من الدولة النصرية.

(٩) يظهر أن المراد به الفلك أو هو مصغره عند الأندلسيين.

(١٠) أو جاك أوجامس وهذا الأخير هو الذي اختاره لسان الدين بن الخطيب في لفظ هذا الاسم كما يتبين من كتابه «اللمحة البدرية في الدولة النصرية».

(١١) هكذا كما في نفح الطيب وهل لفظة «الحزنية» هنا هي نسبة إلى الحزن، بالفتح، وهو ضد السهل؟ أو هي مصحفة بالنسخ، وأصلها «المخزنية»، نسبة إلى «المخزن»، الذي يستعمله المغاربة والأندلسيون بمعنى الحكومة؟

(١٢) نقلنا ما لخصه المقري عن ابن عميرة المخزومي، وذلك من نفح الطيب، ولما كانت الرواية في غاية الاختصار، والحادثة هي في غاية البال، ولم ينقع ذلك منا غليلًا، تطلعنا إلى كتاب ابن عميرة نفسه، فبحثنا عنه ما استطعنا، ونشدناه في خزائن الكتب المشهورة في فاس ومكناس والرباط وغيرها وحتى اليوم لم نجده.

(١٣) Palma.

(١٤) يكون مبدأ وزارة لسان الدين في زمن السلطان المذكور.

الفصل الثامن والثلاثون

تقسيمات كتلونية الإدارية

تنقسم بلاد كتلونية إلى أربع مقاطعات: مقاطعة برشلونة، ومساحتها ٧٦٩٠ كيلومترًا مربعًا، وفيها مليون ومائة وخمسون ألفًا من السكان، وجيرونة، التي كان يقال لها في القديم جيرندة، ومساحتها ٥٨٦٥ كيلومترًا مربعًا، وعدد سكانها ثلاثمائة وعشرون ألف نسمة، ومقاطعة لاردة، ومساحتها ١٢١٥١ كيلومترًا مربعًا وعدد سكانها يقارب مائتين وتسعين ألفًا، وطرَّكونة ومساحتها ٦٤٩٠ كيلومترا مربعًا، وعدد سكانها نحو من ٣٤٠ ألفًا.

وأشهر أنهار كتلونية نهر لوبريقات Liobregat وكان يقال له عند الرومان روبريكالوس Rubricalus وهو الذي يسقي سهول برشلونة، ثم نهر شيقر Segre وكان الأقدمون يسمونه سيكوريس Sicoris وهو ينصب في نهر أبرُه، عند مكناسة.[1] وأما أبرُه، فبعد أن يلتقي بنهر شيقر يخترق الجبال في جنوبي طرَّكونة، ويتوجه إلى البحر المتوسط، فينصبّ فيه، شرقي طرطوشة.

وأشهر قمم جبال كتلونية قمة «مارنجس» وعلوها ٢٩١٤ مترًا، وقمة كارليت، وعلوها ٢٩٢١ مترًا، وكانيجو، وعلوها ٢٧٨٥ مترًا، وهي مغطاة بالثلوج. وهناك قمم أقل ارتفاعًا، مثل مونت شيزات الشهير Montserrat وعلوها ١٢٣٦، وهي قمة شهيرة في تلك البلاد يقال لها الجبل المقدس، منقطعة من جميع جهاتها، ذات أسنان كأسنان المشط، وصخور في منتهى العظم، كأنها قلعة عظيمة مشرفة على بسيط كتلونية، ومونت صانت وعلوها ١٠٧١ مترًا.

وأشهر سهول كتلونية سهل أمبوردان، وقد تقدم ذكر هذه الناحية، وسهول جيرندة وفيش وسهول النقيرة Noguera وفونتانا Fontanat ومن حيث إننا تقدمنا

في ذكر هذه البقاع من جهة أراغون إلى كتلونية، رأينا أن نبدأ بذكر الجهات الغربية المصاقبة لأراغون فنقول:

إن مدينة لاردة واقعة على وسط المسافة بين سَرَقُسطة وبرشلونة، وعدد سكانها اليوم ثلاثون ألف نسمة، وارتفاعها عن سطح البحر ١٩١ مترًا، وهي على الضفة اليمنى من وادي سيغر، الذي يقول له العرب وادي شيقر. ولاردة مدينة قديمة إيبيرية وكانت معروفة في زمن الرومان، وقد استولى عليها العرب في القرن الثامن للمسيح، بعد استيلائهم على سرقسطة، وكانت من مدن الثغر الأعلى. ولما انقسمت الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية استولى على لاردة بنو هود الجذاميون، أصحاب سرقسطة وعند وفاة المستعين بالله سليمان بن هود، خرجت في نصيب ولده يوسف، ثم استولى عليها أحمد الملقب بالمقتدر.

وقد ذكر لاردة ياقوت الحموي فقال: لاردة بالراء مكسورة، والدال مهملة: مدينة مشهورة بالأندلس، شرقي قرطبة، تتصل أعمالها بأعمال طرّكونة، منحرفة عن قرطبة إلى ناحية الجوف، ينسب إلى كورتها عدة مدن وحصون، تذكر في مواضعها وهي بيد الإفرنج الآن. ونهرها يقال له سيقر. ينسب إليها جماعة منهم أبو يحيى زكريا بن يحيى بن سعيد اللاردي، ويعرف بابن الندّاف، وكان إمامًا محدثًا، سُمع منه بالأندلس كثير، ذكره الفرضي ولم يذكر وفاته. ا.هـ.

وبقيت لاردة في أيدي العرب من سنة ٧١٣ إلى سنة ٧٩٩، إذ استولى عليها لويس الحليم، ملك فرنسا، ثم استرجعها المسلمون، وبقيت في أيديهم إلى أن سقطت بسقوط سرقسطة، في أوائل القرن السادس للهجرة. وكان أول ظهور بني هود في لاردة فقد غلب عليها سليمان بن محمد بن هود، وكان من كبار الجند بالثغر الأعلى إلى حين وقوع الفتنة الشاملة، فلما صار الأمر فوضى وثب سليمان المذكور على والي لاردة أبي المطرف التجيبي، وقتله واستولى على لاردة ومنتَشون ونواحيها وكان في سرقسطة أمير من التجيبيين يقال له منذر بن يحيى من قواد الدولة العامرية، فمات في أثناء الفتنة، فورث الإمارة ابنه يحيى بن منذر، وسنه فيما ذكر تسع عشرة سنة. وكانت أمه أخت المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة، فاحتقره بنو عمه، وتواطئوا على قتله مع كبير منهم اسمه عبد الله بن حكيم، ثم قتلوه وولوا هذا الرجل أمرهم، ولكنه كان عاهر الفرج ساءت ملَكته فيهم فخلعوه، وبعثوا إلى سليمان بن هود، وهو بمدينة لاردة، ليأتي إلى سرقسطة ويلي الأمر، فجاء ونزل بدار الإمارة. وكان استيلاء ابن هود على لاردة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، واستيلاؤه على سرقسطة سنة ثمان وثلاثين.

ولما مات سليمان بن هود كان له خمسة أولاد ذكور، قد قسم عليهم البلاد في حياته فولي أحمد، ولده الثاني، مدينة سرقسطة، وولي يوسف ولده الأكبر، مدينة لاردة، وولي محمدًا قلعة أيوب، وولي لبًّا مدينة وشقة، وولي المنذر تطيلة.

إلا أن أحمد بن سليمان بعد وفاة أبيه صار يحتال على إخوته حتى أخرجهم من ولاياتهم، ولم يمتنع عليه إلا يوسف أمير لاردة، وكان هذا يلقب بحسام الدولة، ولما رأى الأهالي أعمال أحمد بن سليمان بن هود بأخوته كرهوه، ومالوا إلى أخيه يوسف وقاموا بدعوته وكان هذا بطلًا شهمًا، إلا أنه كان سيئ البخت، وكان أخوه أحمد خبيثًا على جانب عظيم من المكر فأرسل إلى الطاغية ابن ردمير يستعينه على أخيه، وكان يوسف قد أرسل إلى بلاد ابن ردمير ميرة كثيرة، فسرى أحمد برجاله من سرقسطة، وأخذ قوافل أخيه، وانهزم رجالها، فأخذهم النصارى أسرى، ثم جاع أهل تطيلة، فأرسلوا إلى يوسف يستغيثون به، فبعث إليهم بأرزاق كثيرة، فخرج أحمد وأخذ قوافل أخيه وما فيها من الميرة، وقتل رجالها، فلما رأى المسلمون في الثغر الأعلى ما رأوا من دهاء أحمد بن سليمان بن هود، ومن سوء بخت أخيه يوسف، خافوا على أنفسهم من أحمد، فأطاعوه، ولم يبق في حوزة يوسف سوى لاردة، وقد كانت هذه العداوة بين الأخوين هي السبب في فاجعة يَربُشتَر التي تقدم ذكرها.

وما زالت لاردة تابعة لسَرَقُسطة إلى أن استولى الإسبانيول على سرقسطة وانطوى بساط الثغر الأعلى.

وممن انتسب إلى لاردة من أهل العلم أبو محمد عبد الله بن هارون الأصبحي، الفقيه الشاعر، ترجمه ابن بشكوال وقال: ذكره لي أبو الحسن على بن أحمد العائذي وأنشد له أشعارًا أنشده إياها منها:

كم من أخٍ قد كنت أحسب شهدَهُ   حتى بَلَوتُ المرَّ من أخلاقه
كالملح يُحسبُ سكَّرًا في لونه   ومَجسِّه، ويحول عند مذاقه

وترجمه أيضًا صاحب بغية الملتمس.

وعبد الملك بن غير الفارسي، محدث، من أهل لاردة، ذكره أبو سعيد بن يونس. جاء ذكره في بغية الملتمس. وأبو عبد العزيز عبد الرءوف بن عمر بن عبد العزيز أصله سَرَقُسطي، توفي بلاردة سنة ٣٠٨. وعبد العزيز بن عمر بن حبنون، من أهل مَنْتشُون، من عمل لاردة يكنى أبا يونس، سمع من أبي الوليد الباجي صحيح البخاري

بسرقسطة سنة ٤٦٣، وولي الأحكام بمنتشون. نقل ذلك ابن الأبار في التكملة عن أبي داود المقرئ. وأبو محمد عبد الجبار بن مفرّج بن عبد الله الأنصاري من أهل لاردة، استوطن مرسية، سمع أبا الأصبغ عبد العزيز بن محمد البلشيدي الأموي، وكان شيخًا صالحًا، ولد سنة ٤٨٦، وتوفي حول سنة ٥٦٠، نقل ذلك ابن الأبار عن ابن عيّاد. وأبو محمد عبد الجبار بن خلف بن لب اللاردي، سكن بلنسية ودانية، وقرأ جميع البخاري في دانية على الباجي سنة ٤٥٢، وسمع من أبي العباس العذري، وأبي عمر بن عبد البر، وغيرهما، وأجاز له أبو عمر بن الحذّاء، وسمع منه أبو عبد الله بن خَلَصَة المعافري. وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمّار بن محمد التيجي، من أهل لاردة، قال الأبار إنه رحل إلى بلنسية، على أثر استرجاعها من الروم، في منتصف رجب سنة ٤٩٨، فلقي فيها أبا داود المقرئ، وأخذ عنه القراءات السبع، ثم انصرف إلى بلدة لاردة، فأقرأ بها القرآن، وأخذ عنه. ورحل إلى مرسية صدر رجب سنة ٤٩٧، وتصدر بجامعها للإقراء، وأُخذ عنه وسَمِع حينئذ من أبي علي الصدفي الحديث، وانتقل بعد ذلك في آخر سنة ٥٠٣ إلى أوريوله، وخطب بجامعها، وتمادى إقراؤه بها إلى حين وفاته، في السادس والعشرين من رمضان سنة ٥١٩، ومولده في رمضان سنة ٤٧٧، فلم يطل عمره. نقل ذلك ابن الأبار من خط زياد بن الصفار، وهو أحد تلاميذه، أخذ عنه القراءات والعربية وقرأ عليه كتاب روضة المدارس، وبهجة المجالس، من تأليفه. وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن سعيد الأنصاري اللاردي، لقي أبا بكر الجزَّار السرقسطي، وغيره من الأدباء، قال ابن عيّاد: كان كثير الاختلاف إلى مجلس شيخنا أبي بكر بن غارة وكان فَكِه المجالسة، ليِّن الجانب، أديبًا ظريفًا أنشدنا لأبي بكر الجزار:

عجبتُ لِذِي وجعٍ مُؤلم ... يَسومُ الطبيب ويُكْدِي عَلَيْه
يَضِنُّ عليه بدينارهِ ... ويَجْعَلُ مُهجته في يَدَيه

وتوفي ببلنسية في جمادى الأولى سنة ٥٥٩، وقد نيّف على الثمانين. وأبو الوليد يحيى بن سليمان بن حسين بن يوسف الأنصاري، قاضي لاردة، أصله من «شيَة» قرية هناك، خرج من لاردة سنة ٥٤٥. وأبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد التيجي الواعظ، من أهل لاردة، لقي أبا القاسم عبد الرحمن بن المشَّاط الطليطلي بمالقة سنة ٥٠٠ وكتب من أصله بخطه تأليفه المترجم «بكشف جمل من التعطيل، فحجج من الأثر والنظر والتنزيل» وهو جواب لرجل ورد من المشرق، يتكلم في خلق القرآن والنزول

إلى السماء الدنيا، وأمثال ذلك، ذكره ابن الأبار. ويحيى بن محمد الأموي، أبو الوليد، المعروف بابن قبرون من أهل لاردة سكن شاطبة، وتولى قضاءها، وانتقل إلى بلنسية، فشاوره قاضيها. حدث عنه ابن عيّاد، وابناه محمد وأحمد، قال ابن الأبار استشهد في وقيعة البُرت سنة ٥٠٨. وأبو عبد الله محمد بن علي اللاردي، سكن قرطبة كانت له رحلة إلى الشرق حج فيها، ثم قفل فأقرأ القرآن بمسجد أم هشام بقرطبة. ومحمد بن أسلم اللاردي يروي عن يونس بن عبد الأعلى. وأبو عبد الله مالك بن معروف قيل إنه من ماردة، وقال الحميدي: الأرجح أنه من لاردة، يروي عن عبد الملك بن حبيب. مات سنة ٢٦٤، وغيرهم.

وفي لاردة كنائس كثيرة من أشهرها كنيسة سان لورانسو، بنيت بين سنة ١٢٧٠، وسنة ١٣٠٠، على أنقاض هيكل روماني، ولما جاء العرب جعلوا من ذلك الهيكل جامعًا، فلما خرجوا من لاردة، تحول هذا الجامع إلى كنيسة. ومن لاردة يذهب المسافر إلى بلدة بَلَغي Balaguer والمسافة بينهما ثلاثون كيلومترًا وهي بلدة سكنها العرب، جاء في معجم البلدان: بلغي بفتح أوله وثانيه، وعين معجمة، وياء مشددة، كذا ذكر أبو بكر بن موسى: بلد بالأندلس من أعمال لاردة، ذو حصون عدة، ينسب إليه جماعة، منهم أبو محمد عبد الحميد البلغي الأموي، قال أبو طاهر الحافظ (أي السلفي): قدم البلغي الإسكندرية، فسألته عن مولده فقال: ولدت سنة ٤٨٧ في مدينة بَلَغي، بشرقي الأندلس ثم انتقلت إلى العدوة بعد استيلاء العدو على البلاد فصرت خطيب تلمسان، وقرأت القرآن، وسمعت الحديث، وأُعرف بابن بربطير البلغي. ومحمد بن عيسى بن محمد بن بقاء أبو عبد الله الأنصاري الأندلسي البلغي المقرئ، أحد حفاظ القرآن المجودين، انتهى باختصار. قلت: أبو عبد الله محمد بن بقاء هذا رحل حاجًّا، وقدم دمشق، وأقرأ بها، وتوفي فيها سنة ٥١٢، ذكره ابن عساكر، مؤرخ دمشق، الذي ذكر أنه شهد غسله، وكان في الصلاة عليه. وينسب إلى بلغي أبو الحجاج يوسف بن إبراهيم بن عثمان العبدري، المعروف بالثغرى، نزل غرناطة. وعبد الله بن إبراهيم بن العوام البلغي الأندلسي. استوطن مصر، ذكره ابن بشكوال في الصلة، وقال ابن الأبار في كتابه المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي إن والد أبي الحجاج يوسف العبدري المذكور انتقل من بلغي، ونزل غرناطة، ثم انتقل إلى قرطبة، وإن أبا الحجاج ولد بغرناطة، في صفر سنة ٥٠٣، واستقر أخيرًا بقليوشة، من أعمال مرسية وتوفي هناك سنة ٥٧٩.

هذا، ومن حصون لاردة التي كانت معروفة في زمان العرب، منت شون، ذكره معجم البلدان فقال: إنه بالشين المعجمة، وآخره نون، حصن من حصون لاردة بالأندلس

قديم، بينه وبين لاردة عشرة فراسخ وهو حصين جدًّا تمَلكه الإفرنج سنة ٤٨٢، انتهى. ومونشون اليوم بلدة صغيرة سكانها أربعة آلاف نسمة، وفيها كنيسة صان جوان، وأما الحصن القديم فهو على قمة شاهقة، وفيها بقايا حصن روماني على قمة أخرى. وتمريط على مسافة ١٥ كيلومترًا من مونشون.

ومن لاردة تمتد طريق عربات محاذية لوادي شقر إلى مدينة بلغي وإلى بلدة يقال لها أرتيزة Artesa ثم إلى «أولياته» ثم إلى كاستلنو Caslellnoi ثم إلى «سولسونة» وعلى مسافة ١٨ كيلومترًا من لاردة، بالقرب من نهر شيقر، توجد صخور عليها تصاوير قديمة، منها تصاوير حيوانات، ومنها تصاوير بشرية، وأما سولسونة فهي قرية معلقة على صخر شاهق مشرف على وادي نيغرو Negro.

ومن لاردة طرق إلى جبال البرانس الشرقية، وإلى وادي اندور[٢] حيث حكومة اندور المستقلة، الواقعة بين فرنسا وأسبانية، وهذا الوادي فيه عدة قرى وقاعدة الوادي يقال لها اندورا لافيجا Adorra la vieja ومساحة هذه البقعة المستقلة ٤٥٢ كيلومترًا مربعًا وعدد سكانها ٥٢٥٠ نسمة وحكومتها تقدم كل سنة ٩٦٠ فرنكًا لجمهورية فرنسا، علامة على كونها تحت حماية هذه الدولة، إلا أنه يشترك مع فرنسا في حق هذه الحماية مطران أورجل Uergel وهو يأخذ من هذه الجمهورية ٤٦٠ بسيطة إسبانيولية سنويًّا. وهناك بلدة يقال لها سيو أورجل عدد سكانها ثلاثة آلاف، فيها مركز أسقفية، وهي ذات موقع حصين، وغير بعيد عن أورجل ناحية سردانة Cerdagna ثم بلدة يقال لها بويغسردا Buigcerda.

هوامش

(١) Mequnenza أي بالعربي مكينِنسة ولكن العرب نظرًا لوجود بلدة مكناسة في بلادهم تلفظوا باسم هذه كتلك فعندهم مكناسة حصن من حصون الأندلس ذكر ياقوت في معجم البلدان مكناسة المغرب ثم ذكر مكناسة هذه وقال: قال أبو الأصبغ سعيد الخير الأندلسي: مكناسة حصن بالأندلس من عمل لاردة.

(٢) في جمهورية اندور المستقلة البريد والبرق تابعان للبريد والبرق في فرنسا، وأما السكة فهي إسبانيولية، وأما اللغة فهي كتلونية. ومركز الجمهورية في قرية جميلة بحذاء جبل. وفيها كنيسة قديمة من القرن الثاني عشر، وفيها قصر للحكومة يجلس فيه المأمورون، ويجتمع رجال المجلس وهم أربعة وعشرون عضوًا، ينتخبون لمدة

أربع سنوات عن النواحي الست التي تتألف منها الجمهورية، ولهؤلاء الحق في الإقامة بالقصر أيام الاجتماع وفي إيواء بغالهم في اسطبله فهذا القصر دار حكومة ومحكمة وحبس وفندق ومدرسة وخزانة كتب معًا، وفي القصر خزانة تشتمل على وثائق امتيازات هذه الجمهورية ويقال إنه من جملتها وثائق يرجع تاريخها إلى عهد شارلمان ولويس الحليم. وبالقرب من اندور برج عربي قديم اسمه كارول وليس في أرض اندور طرق عربات لأن الأهالي على جانب عظيم من السذاجة وهم يعتقدون أن الطرق المعبدة تهدد استقلالهم ... وأما جبل مونت سرات أو مونت شرات فمعناه جبل المنشار وقد تقدم ذكره وهو جبل مقدس عند الكتلان وشكله في منتهى الغرابة لأنه منقطع من جميع الجهات ومشرف على البسائط الواسعة ناتئة منه إلى الأمام أسنان كأسنان المشط، وعلى شفير الجبل من جهاته الأربع جنادل كبيرة أشبه بالرجال المعممين، كان العرب لما ملكوا تلك الأقطار يسمونها بالحرس، وقد تمكن الكتلان من بعض جهات الجبل من مد خط حديدي إلى قمته وذلك بعناء شديد، ولم يكن ممكنا مدّ هذا الخط إلا من مكان واحد إذ الصعود من الجهات الأخرى غير ممكن إلا بشعاب يسلكها الناس على الأقدام، وفي أعلى القمة دير يزوره كل سنة عشرات الألوف من البشر، وهذا الدير بني سنة ٨٨٠ للمسيح وأكثر من يزوره المتزوجون اعتقادًا منهم بأن زيارته تكون سببًا للبركة في الحياة الزوجية. وإلى الشمال الشرقي من جبل المنشار هذا يجري نهر لوبريقات وله واد عميق في بطنه قرية يقال لها مونيسترول Monistrol وكل تلك الناحية هي في غاية الجمال الطبيعي، ويوجد على نهر لوبريقات معامل كثيرة تتحرك آلاتها بقوة مياهه المنحدرة.

ومما يناسب ذكره هنا المعابر التي بين المنحدرين الجنوبي والشمالي من جبال البرانس. وهي التي يقال لها البورنات أي الأبواب، وأشهرها معبر سالدو Saldeu الوقع إلى الشرق والناس تعبره على الخيل مدة خمسة أو ستة أشهر من السنة، ثم معبر فونتارجنت Fontargente وهو أسهل سلوكًا من غيره وبالقرب منه بحيرة لطيفة. ثم معبر سيغوير Siguer وارتفاعه ٢٥٩٥ مترًا، وهو غير مسلوك مدة ثمانية أشهر من السنة. وإلى الشمال الغربي من البرانس ثلاثة معابر، وهي معبر رات Rat وعلوه ألفان وستمائة متر، ومعبر أريسال ومعبر بوية Bouet وارتفاعه ٢٦٦٠ مترًا.

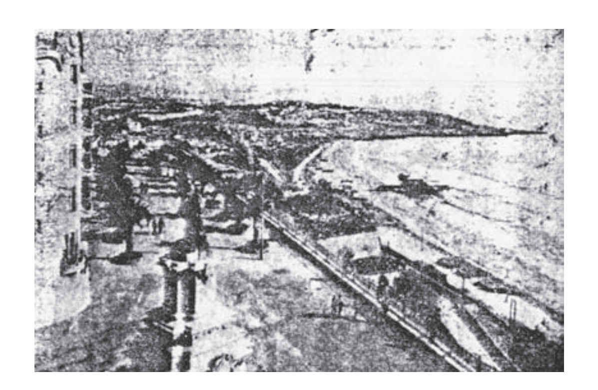
الفصل التاسع والثلاثون

طرّكونة

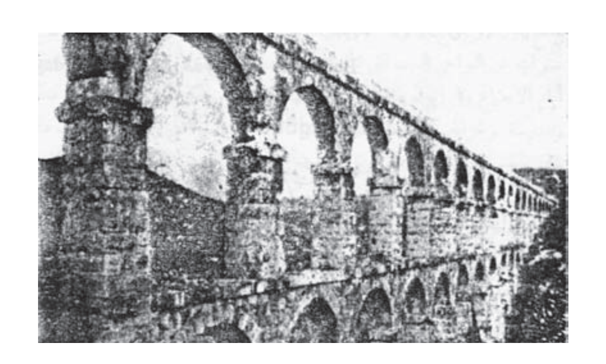
وأما مدينة طرَّكونة فهي مدينة بحرية سكانها لا يزيدون اليوم على ٢٥ ألفًا بعد أن كان فيها مليون نسمة في أيام الرومان وهي مركز أسقفية. ويقال لأسقفها بريماط أسبانية، كما يقال لأسقف طليطلة. وفي أعلا نقطة من البلدة إلى جهة الشرق، حيث القلعة القديمة، مركز الأسقفية وبجانبه الكنيسة الكبرى. والبلدة قسمان: قديم وحديث، فالقديم هو القسم العالي، وفيه بقايا كثيرة، وكتابات من زمن الرومان وأما القسم الحديث، ذو الشوارع المستقيمة، فهو الذي يلي البحر.

وأسوار طركونة ماثلة من الجهات الثلاث، وإنما قد تهدم منها الجانب الغربي ويرجع بناء طركونة إلى زمن الايبيريين، ويقال إن أول من سكن فيها قبيلة من هؤلاء اسمها السيسيتان Cessetains وقد بقيت لهم مسكوكات، وهم الذين بنوا أسوار المدينة سنة ٢٦٧ قبل المسيح. ولما وقعت الحرب بين القرطاجنيين جاء القواد الرومانيون سيبيون ورفاقه، فاستولوا على طركونة، وبنوا فيها مرسي بحريًّا، وأسوارًا منيعة، وصارت من أعظم مستعمرات الرومان في أسبانية، وكان ذلك من بعد سنة ٢١٨ قبل المسيح، ثم إنه في سنة ٢٦ جاء أغسطس قيصر وسكن بطركونة، وبنى فيها هيكلًا عظيمًا، ومباني فخمة،[١] وتتابع ولاة الرومان عليها، وتنافسوا في الاعتناء بها ولا تزال آثارهم تشهد بعظمتها لذلك العهد، وكان استيلاء القوط عليها سنة ٤٧٥ للمسيح، وكان استيلاء العرب سنة ٧١٣. ولما استرجع النصارى هذه البلدة أعادوا إليها مركز الأسقفية، وذلك سنة ١١١٨، إلا أن أهميتها التجارية لم ترجع إليها، بل تحولت التجارة إلى برشلونة من جهة الشمال، وإلى بلنسية العربية من جهة الجنوب.

وأما مرسى طركونة في زمن العرب فليس هو مرساها الحالي، بل كان في أسفل حارة البحر من طركونة الحديثة. ثم إن الكتلان بنوا ميناء آخر في أواخر القرن الخامس



شكل ٣٩-١: ساحة أغسطس في طركونة.



شكل ٣٩-٢: القناة المعلقة في طركونة.

عشر، وكان بناؤهم لهذا المرفأ من حجارة الملهى الروماني. وأشهر شوارع طركونة هما رملة سان جوان، ورملة سان كارلوس.

وأما الكنيسة الكبرى فقد بنيت على أنقاض الهيكل الروماني، وأنقاض المسجد الجامع، الذي كان في زمان العرب. فما أخرجوا العرب من هناك سنة ١١١٨ حتى حولوا المسجد إلى كنيسة، وطول هذه البيعة مائة وأربعة أمتار، ولها برج علوه ٦٥

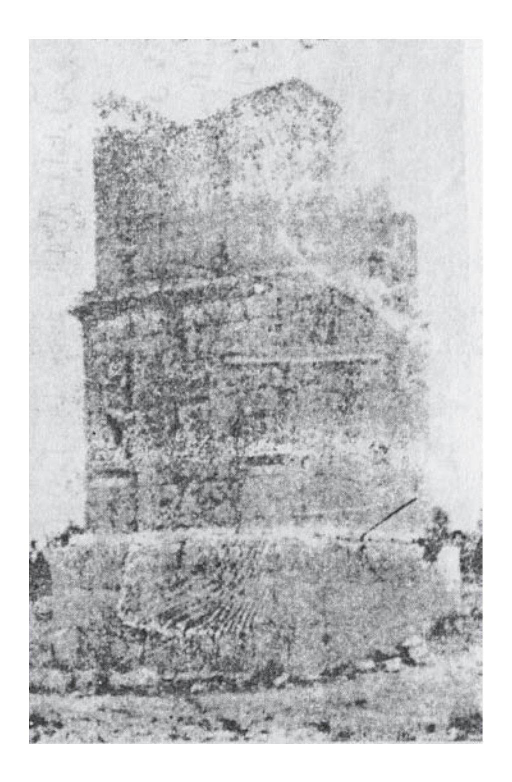


شكل ٣٩-٣: طركونة.

مترًا، وفيها تصاوير لأشهر المصورين، وتماثيل لأشهر النحاتين، وفيها قبر جاك الأول الأراغوني، الملقب عندهم بالفاتح، المتوفي سنة ١٢٧٦ وفي طركونة متحف للآثار القديمة، فيه كثير من النواريس والتماثيل، وقطع الفسيفساء، من أيام الرومان وغيرهم وفيه أيضًا أسلحة، ومسكوكات إيبيرية وفينيقية ورومانية.

ومن جملة مباني طركونة المشهورة القناة الرومانية المعلقة، أتوا فيها بالماء من وادي غَيّه Gaya وهذه القناة طبقتان أدناها ذو ١١ قوسًا وأعلاها ذو ٢٥ قوسًا. وطول الطبقة الأولى ٧٣ مترًا، وطول الطبقة الثانية ٢١٧ مترًا، ومجرُّ المياه من رأس نبعها طوله ٣٥ كيلومترًا.

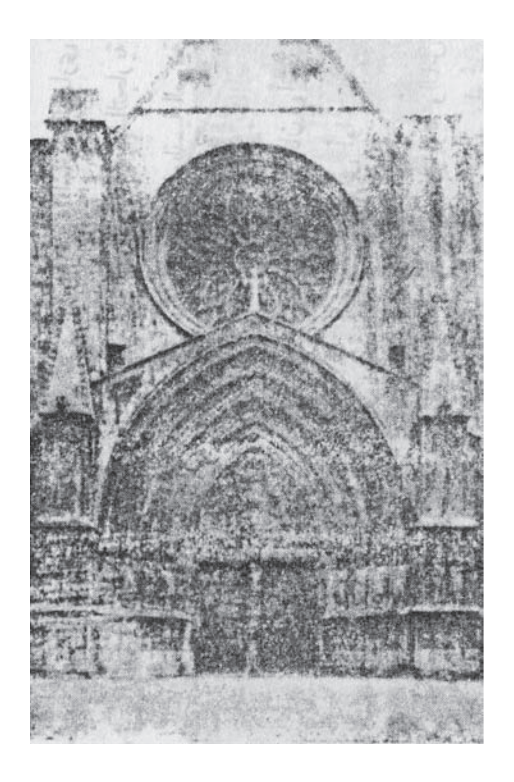
وكان يقال لطركونة في أيام العرب مدينة اليهود، لأنهم كانوا كثيرين فيها، كما كانوا في غرناطة، وجاء في الانسيكلوبيدية الإسلامية أن العرب إنما اجتاحوا طركونة سنة ٧٢٤، واستولوا عليها، وبقيت في أيديهم إلى آخر الدولة الأموية، فبعد سقوط الخلافة في قرطبة، وانقسام العرب إلى ملوك الطوائف، زحف إليها لويس صاحب أكيطانية، فاستولى عليها، فزحف العرب واستردوها منه. ثم أغار عليها رامون بيرانجة Ramon Beranger واستولى عليها، فجاء العرب واستردوها منه أيضًا ولم تسقط السقوط النهائي في أيدي المسيحيين إلا سنة ١١٢٠. وقد جاء في الانسيكلوبيدية المذكورة ذكر الكوة الرخامية المكتوب عليها اسم عبد الرحمن الثالث، وهي التي في رواق الكنيسة



شكل ٣٩-٤: برج سيبيون في طركونة.

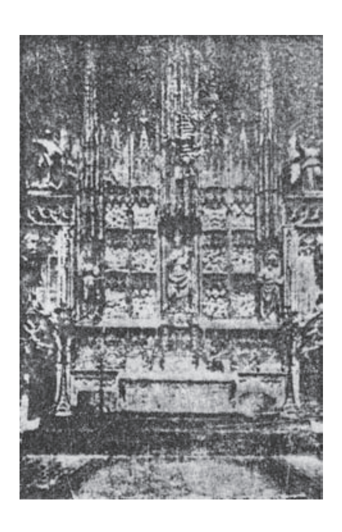
الكبرى، فإنه في هذا الرواق نافذة صغيرة في حائط عليها تاريخ بالخط الكوفي، فيه اسم الخليفة الناصر، والتاريخ هو في سنة ٣٤٧. وفي الانسيكلوبيدية الإسلامية يقول إنه في سنة ٣٤٩.

وجاء في معجم البلدان لياقوت: طركونة، بفتح أوله وثانيه وتشديده، وضم الكاف، وبعد الواو الساكنة نون، بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة، وهي مدينة قديمة على شاطئ البحر، منها علّان، يصب مشرفًا إلى نهر أبرُه، وهو نهر طرطوشة، وهي بين طرطوشة وبرشلونة، بينها وبين كل واحدة منها خمسة عشر فرسخًا. ا.هـ.

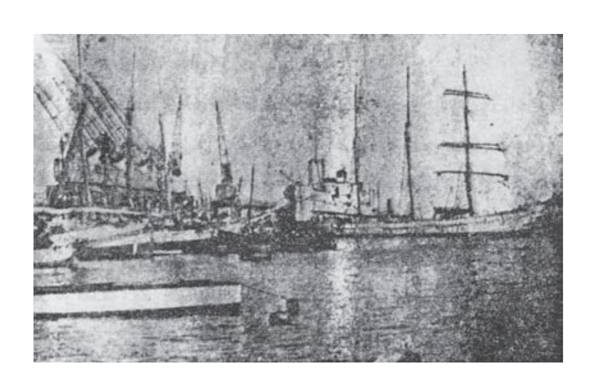


شكل ٣٩-٥: باب كنيسة طركونة.

وحول طركونة سهل أفيح خصيب فيه كروم عنب وزياتين، وكثير من الجوز واللوز، يخترقه الخط الحديدي مارًّا بقرى وقصاب كثيرة، من جملتها «رويس» Reus و«سلبه» Selva و«مونت بلانش» Mont Blanch على وادي «فرنكولي»، وفيها أسوار وأبراج قديمة، ومن هناك يذهب الناس لمشاهدة آثار دير يقال له دير «سان بوبله» St. Poblei، نسبة إلى رجل كان يسمى بوبله، كان العرب ألقوا إليه مقاليد الناحية المسماة هارديتا Herdeta، وكان في ذلك الدير مقبرة لملوك أراغون. وقد تهدم هذا الدير بالفتن التي وقعت بين سنتي ١٨٢٨ و١٨٣٥ وتهدمت القبور أيضًا، ولكن الآثار لا تزال ماثلة.



شكل ٣٩-٦: كنيسة طركونة.

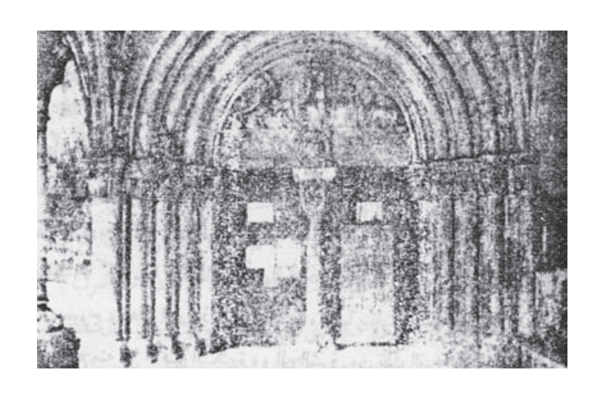


شكل ٣٩-٧: مرسى طركونة.

والخط الحديدي الممتد من طركونة إلى لاردة يمشي أولًا مع النهر، ثم يبتعد عنه، فيخترق شارات برادس، ولا يزال يصعد من شرقيها إلى أن يبلغ ارتفاعًا يزيد على

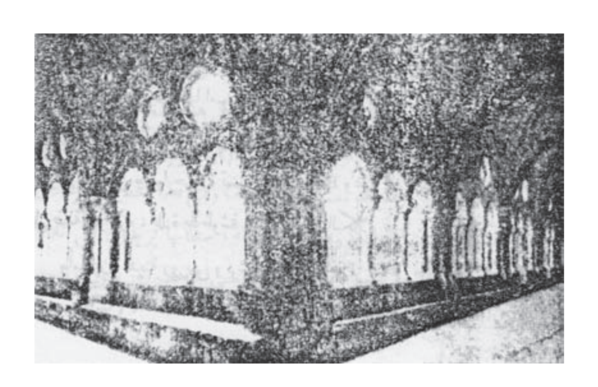


شكل ٣٩-٨: قوس بارا في طركونة.



شكل ٣٩-٩: الباب البيزنطي في طركونة.

ألف متر، ثم يعود فينحدر، فيمر ببلاد منها فينكسا Vinaixa، وفلورستا Floresta، وبورجاس Borjas وجُنادة Gineda، إلى أن يبلغ لاردة، وبين المدينتين أزيد عن مائة كيلومتر، وأما الخط الحديدي من طركونة إلى طرطوشة، فإنه يشرف على بسيط طركونة من جهة اليمين، وعلى البحر من جهة الشمال، ويشاهد منه رأس سالو Salou. وعند رأس سالو مرفأ يخدم مدينة رويس، وهذا المرفأ يبعد عن طركونة ١٣ كيلومترًا،



شكل ٣٩-١٠: كنيسة طركونة أيضًا.

ثم إن الخط يتقدم صوب طرطوشة، في ناحية يكثر فيها الخروب واللوز والنخل، وعلى مسافة ١٩ كيلومترًا من طركونة بلدة يقال لها كامبريلس Camberlis، وعلى مسافة ٣٣ كيلومترًا بلدة هوسبيتالة Hospitalei وكان فيها قديمًا منزل للمسافرين. وتلك الناحية كلسية الأرض، فلا ينبت فيها إلا أشجار نادرة، وترى الجبال جرداء، وهي مشرفة على البحر، وفي بلدة تسمى أميتلَّه Ametlle أهلها صيادو سمك، وعلى ساحل البحر توجد بعض نواعير لسقي الأرض. وعلى مسافة ٧١ كيلومترًا بلدة يقال لها أمبولة Ampolla مشرفة على خليج يقال له خليج سان جورج، وهذه البلدة ذات موقع بديع، ومنها ينظر الإنسان إلى وادي أبرُه، وما تفرع منه من الأقنية الكثيرة، وإلى الشرق من تلك القرية منارة بحرية يقال لها منارة فنغال Fangal وإلى الجنوب الشرقي منارة أخرى على رأس طرطوشة، تقرب من بلدة صغيرة اسمها أمبوسطة Amposta. وإلى الجنوب من أمبوسطة توجد قناة إلى مرسى يقال له سان كارلوس الرابطة، وهناك مصب نهر أبرُه الكبير، وهو شطران، يفصل بينهما جزيرة تسمى بودا Buda وعلى ٨٤ كيلومترًا من طركونة، على ضفة نهر أبرُه، بلدة طرطوشة، التي سيأتي الكلام عليها.

وأما بين مدينة رويس وبرشلونة، فالمسافة تزيد على مائة كيلومتر ومدينة روس سكانها ٢٦ ألف نسمة، وهي بلدة صناعية واقعة في سفح جبل، وكان فيها حصون قديمة تهدمت وصار مكانها الآن حارة جديدة، وفيها كنيسة سان بدرو، لها برج ارتفاعه ٦٦ مترًا، وفي هذه البلدة أنشأ بعض تجار الإنكليز، في أوائل القرن الماضي،

معامل للقطن، فيها خمسة آلاف نول، وازدادت الصناعة في هذه المدينة فأُحدثت فيها معامل للحرير، وللجلد، وللصابون، وللخمر والمسكرات بأنواعها، فصارت رويس ثاني مدينة صناعية في كتلونية. وعلى الخط الحديدي بين رويس وبرشلونة توجد بلدة صناعية أخرى اسمها فالس Valls سكانها ١٣ ألفًا، وهي ذات أسوار وأبراج قديمة، وعلى مقربة من فالس في وادي غاية Gaya يوجد دير بناه رامون بيرانجه الرابع سنة ١١٥٧ كان يضارع دير بوبلة المتقدم الذكر في حسن الصنعة الكتلانية، إلا أن هذا الدير تهدم في فتنة سنة ١٨٣٥ وفيه قبور ملوك كثيرين منهم بترُه الثالث، ملك أراغون، المتوفي سنة ١٢٨٥، وجيمس الثاني المتوفي سنة ١٣٢٧ وامرأته الملكة بلانش دانجو Blanche d'Anjou وكذلك هناك قبر روجيرلوريا Lauria الذي كان أمير الأسطول لعهد بترُه الثالث. وهو الذي كسر الأسطول الفرنسي في واقعة نابولي. وقبور رامون وغيارمومونكادا Moncada اللذين قتلا في واقعة استيلاء الإسبانيول على ميورقة سنة ١٢٢٩. عندما طردوا منها العرب.

ومن البلاد الواقعة على الخط الحديدي بين رويس وبرشلونة: سان فتسلت كالدَرْس Calders. وفيها ملتقى فرعي السكة الحديدية: الذاهب إلى طركونة، والذاهب إلى برشلونة. وهناك روماني عظيم يقال له برطال باره Portal de Bara وقرية يقال لها روضة باره Roda de Bara وكذلك على هذا الخط قصبة اسمها فيلاً نوفا كلتري Villa Nieva Geltri وهي بلدة سكانها ١٢ ألفًا، وفيها تجارة ذات بال ولها متحف يشتمل على آثار قديمة، مصرية ورومانية، وعلى هذا الخط عندما يحاذي البحر قرية يقال لها سيتغس Sitges وهي قرية لطيفة، سكانها يزيدون على ثلاثة آلاف نسمة، ولها مرفأ على البحر، وفيها متحف يسمى بمتحف روز ينبول، توجد فيه تحف نفيسة مصنوعة على المعدن.

هوامش

(١) إن جميع مدن أسبانية لم تحفظ من أبينتها القديمة ما حفظته طركونة والناس يقولون إنه لا يقدر على بناء هذه الأبنية المتناهية في الضخامة سوى الجن، فقد يبلغ ثخن الجدار خمسة أو ستة أمتار، وإن كثيرا من الحجارة يبلغ من الطول أربعة أمتار في عرض مترين، ففي طركونة يتذكر الإنسان قلعة بعلبك وأهرام الجيزة.

وقد اعتنى الرومان بتمكين أبنية طركونة إلى هذا الحد ليجعلوها حصنًا في غاية

المنعة أمام القرطاجنيين، وقد استكمل أغسطس قيصر في طركونة جميع ما يلزم من المباني والمعاهد اللازمة لعاصمة كبيرة، فكان فيها القصور والهياكل والحمامات وملاعب الخيل وملاهي التمثيل والأندية الاجتماعية، وأما في عهد النصرانية فليس فيها شيء يذكر سوى الكنيسة الجامعة التي فيها قبر جاك الأول الأراغواني الذي فتح بلنسية، وهذا القبر قد تقدم كونة نُسف في فتنة ١٨٣٥ كما أنه تهدم أبنية كثيرة في طركونة عندما حاصرها الفرنسيس سنة ١٨١١.

الفصل الأربعون

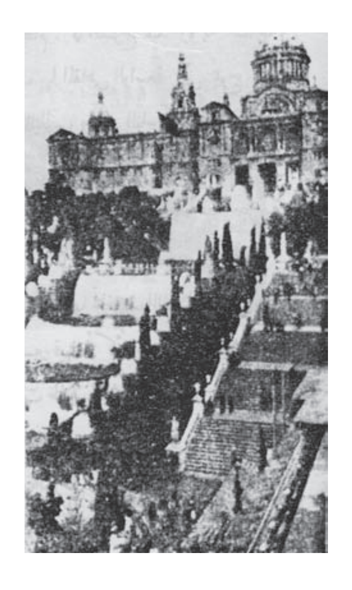
برشلونة

هذه البلدة هي أعظم بلدة تجارية وصناعية في الجزيرة الأيبيرية، وعدد سكانها يزيد على سبعمائة ألف نسمة وستين ألفًا. وهي قاعدة بلاد كتلونية، ولها مقاطعة خاصة بها، حدودها من الشمال الشرقي مقاطعة جيرندة أو جيرونة، ومن الغرب مقاطعة لاردة، ومن الجنوب مقاطعة طركونة، وفي برشلونة مركز القائد العام والوالي المدني على جميع كتلونية، وفيها أيضًا كرسي رئيس أساقفة، وفيها مدرسة جامعة ومن جهة العرض والطول هي في موقع رومة، وهي تصعد بتدريج من ساحل البحر إلى مرتفع يقال له تيبيدابو Tibidabo إلى الشمال الغربي منها علوه ٥٣٢ مترًا، وهذا المرتفع يتصل بجبال مالاس، وجبال مونت جويك Montjuich وبين مالاس ومرتفع تيبيدابو وادٍ يقال له بيزوس Besos. وإلى الجنوب من مونتجويك، يجري نهر لو بريقات. فيتكون على ضفتيه واد مربع. كله مزارع ومباقل وبساتين، تأخذ منه هذه المدينة العظيمة جميع ما يلزم من الخضرة والفواكه.

ولبرشلونة أرباض صناعية متعددة، منها: سَنس Sans. وغراسية Gracia، وسان اندري بالومار Plaomar، وسان مرتين بروفنسال Provensals، وفي هذه الأرباض معامل القطن الكثيرة، ومعامل أخرى للآلات الميكانيكية وللكهرباء. والمترفون من أهل برشلونة يختارون السكنى في ضواحيها. التي أشهرها بونانوفا Bonanova وسان جرفازيو Gervasio.

وإذا نظر الإنسان إلى برشلونة يجدها مجموعة من ثلاث مدن: الأولى برشلونة الأصلية وهي التي على سيف البحر. وبرشلونة المحدثة في القرون الوسطى وهي التي تتألف منها المدينة العظمى اليوم. وبرشلونة الحديثة وهي التي أحدثت في هذا العصر واتصلت بالضواحي والقرى. وقد كان كثير من القرى منفصلًا عن المدينة فاتصل بها

باشتباك العمارة وامتداد خطوط العجلات الكهربائية. وقلّ أن يوجد في أوروبا حواضر تفوق برشلونة، في حسن فنادقها، ونظافة شوارعها، وإتقان مبانيها. وقلما انشرح صدري برؤية ساحة من سوح المدن العظام كما انشرح عند رؤية الساحة الكبرى، التي يقال لها ساحة كتلونية. تحف بها المقاهي الواسعة التي تموج فيها المئات، وأحيانا الألوف من الخلق، لاسيما في الليالي، ويبقى الناس في فصل الصيف جلوسًا في تلك المقاهي إلى ما بعد الساعة الثالثة من الليل. ويقال للشارع في برشلونة وجميع بلاد كتلونية «رملة»، ويكتبونها هكذا: Rambla وهي لفظة عربية كما ترى.

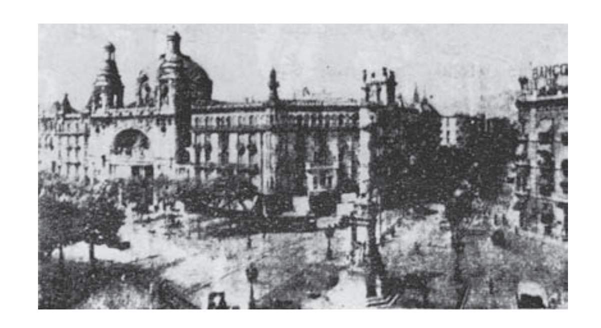


شكل ٤٠-١: حديقة مونتجويك ببرشلونة.

ورملات برشلونة موصوفة بسعتها وانتظامها، وكلها تحف بها الظلال، وتتناسق الأشجار على جانبيها. ولا يوجد شوارع يحلو السير فيها أكثر من شوارع برشلونة. وأينما توجه المسافر يجد مقاعد يستريح عليها تحت ظلال الأشجار الوارفة، وشمس برشلونة حادة كسائر البلاد الحارة، فبسبب حدة الشمس يجد السائر من لذة اللياذ بظل الدوح الفينان ما لا يجده في حواضر الأقاليم الباردة. ومما يحلو في برشلونة



شكل ٤٠-٢: بناية التليفون ببرشلونة.



شكل ٤٠-٣: رملة كتلونية ببرشلونة.

للسائح الشرقي، وللغربي أيضًا، ما فيها من شجر النخل، وأجملها النخيلات التي في ساحة المرفأ. ويجد المسافر في برشلونة من أنواع الفواكه ما لا يجده في غيرها، لأنها تجمع فواكه البلادين الحارة والباردة.

ومن أعظم مباني هذه الحاضرة كنيستها الكبرى، وقد بنيت مكان المسجد الجامع. وهذا المسجد بني على آثار هيكل روماني قديم. وقد بدأ الكتلان ببناء هذه البيعة سنة ١٢٩٨، ويقال إن فيها عظام القديسة «أولاليه» مدفونة تحت المذبح الأعظم، تتقد فوق قبرها الشموع ليلًا ونهارًا. وهذه القديسة هي شفيعة برشلونة، ولها عندهم مزيد الحرمة.[١] وبجانب الكنيسة دير مبني منذ القرن الخامس عشر. وتحيط بالكنيسة أبنية عمومية، منها خزانة أوراق مملكة أراغون، تشمل على أربعة ملايين قطعة من الوثائق التي أنجتها الأقدار من عوادي الحروب والفتن. وفي برشلونة خزانة أخرى لهذه البقايا القديمة، في متحف خاص، جعلوه في كنيسة سانتا أغيدا Agueda. وفي الساحة المسماة بالساحة الملوكية قصر أقماط برشلونة، الذين في الأصل كانوا عمالًا للإمبراطور شارلمان وأولاده على برشلونة، ثم استقلوا عنهم، ولبثوا أكثر من قرن ونصف قرن أمراء على كتلونية، لا يخضعون لأحد إلا لخلفاء قرطبة، بالصورة الظاهرة، إذا خافوا عاديتهم. وقد تقدم لنا ذكر اتحاد مملكتي كتلونية وأراغون، بواسطة رامون بيرانجة الرابع الذي تزوج بوارثة ملك أراغون، وصير المملكتين مملكة واحدة، فجَنتْ من هذا الاتحاد سيادة عظيمة، لا سيما في البحر. وفي برشلونة أبنية كثيرة موصوفة بالزخرف، مثل كنيسة سانتا ماريه دلبينو Delpeno، وكنيسة سانتاحنه، التي هي من القرن الثاني عشر، وغيرهما. وفيها بناية عظيمة للبورصة أو المصفق. وأما المرفأ فأول سد بُني فيه لمصادمة الأمواج تاريخه سنة ١٤٧٤، وهو في غاية السعة لا تقل مساحتُهُ عن ١٢٤ هكتارًا. وعدد البواخر التي تزور هذا المرفأ في دور السنة يزيد على أربعة آلاف وخمسمائة باخرة، والوارد من المواد الأولية على برشلونة هو الحنطة، والشعير، والذرة، والأرز، والحديد، والقطن، والقهوة، والبترول، وغيرها. وبين برشلونة وسائر مراسي أسبانية حركة تجارية عظيمة، ولهذا كانت لها منزلة عليا في درجة الملاحة، وقد عدّلوا سنة ١٩٢١ محمول سفن التجارة الأسبانية بما يقارب مليونًا ومائتي ألف طن.

وأهم ما تمتاز به برشلونة من العوامل الاقتصادية هو معامل القطن التي يشتغل بها مائة ألف عامل، ويأتي بعد القطن صناعة الصوف، التي أكثرها في سابادل Sabadel وتاراسّا Tarrassa وفي الدرجة الثالثة صناعة الحرير التي حفظت شيئًا من ازدهارها الذي كانت قد بلغته في أيام العرب.



شكل ٤٠-٤: شارع غراسيا ببرشلونة.

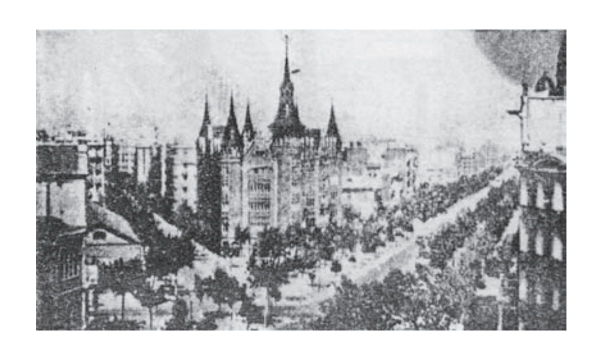


شكل ٤٠-٥: ساحة ماسيا ببرشلونة.

وفي برشلونة حديقة كبيرة من أبهى حدائق أوروبا، تبلغ مساحتها ٣٠ هكتارًا، وبالقرب منها متحف عظيم فيه نماذج خاصة بالتاريخ الطبيعي، ومتحف آخر بجانبه، بناهما تاجر كبير اسمه «مارتوريل بينيه» Mertorell Piena وبإزاء المتحف الطبيعي تمثال للشاعر الكتلاني المشهور آريبو Aribau. وهناك شلال صناعي يتصبب في مغارة محدثة. وبالقرب منها تمثال آخر للكاتب الكتلاني فيلانوفا، ويوجد متحف للعاديات القديمة، فيه خزانة كتب نفيسة، ووثائق تاريخية، ومصنوعات من قبل التاريخ، فضلا



شكل ٤٠-٦: ساحة كتلونية ببرشلونة.

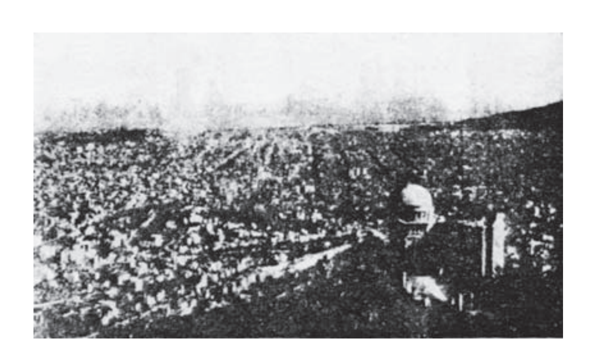


شكل ٤٠-٧: شارع أبريل ببرشلونة.

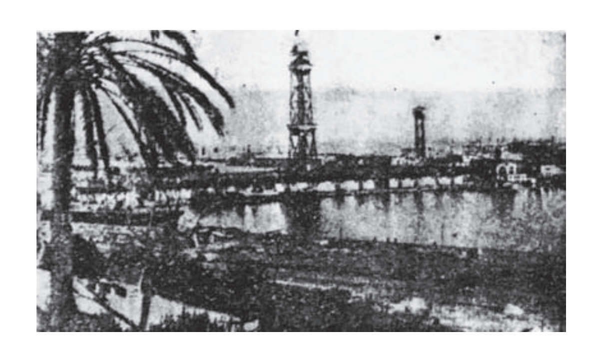
عما بعده، من أنواع الخزف، والنسيج، والزجاج، والسلاح، والمسكوكات، وغيرها. وفي برشلونة متحف للصنائع النفيسة والتصاوير. ومن المباني الفخمة المعدودة قصر العدلية، إنشاؤه سنة ١٩٠٣. ومن الكنائس القديمة كنيسة سان بترُه، في القسم القديم من البلدة، تاريخ بنائها سنة ٩٤٥. ومن التماثيل الشهيرة في برشلونة تمثال كريستوف كولمبس، وعلوه ستون مترًا، وقد أنشئوه في أواخر القرن الماضي، وهو في فم شارع الرملة الشهير، الذي طوله ١١٨٠ مترًا.

وضواحي برشلونة مثل «مونت جويك» و«فال فيدر بروه» و«تيبيدادو» هي من أجمل ما يوجد للنزهة، ولا سيما تيبيدادو، وقمة هذا الجبل علوها ٥٣٢ مترًا، ومنها يشرف الرائي على البلدة كلها، وعلى جميع ضواحيها، ويشاهد جبال البرانس ومونت شرَّات، من جهة البر، وقمم جبال ميورقة، من جهة البحر. ويقال إن اسم برشلونة أو برسلونة مشتق من اسم «ماسيلكار بارسا» القائد القرطاجني، وقيل في الاسم خلاف ذلك. وقد أعطى أغسطس قيصر هذه البلدة لقب «مستعمرة رومانية» وقيل لها «جوليافافنتيا» Julia Faventia.

وفي القرن الثاني قبل المسيح صارت برشلونة تناظر طرّكونة في العظمة، وكان بناء المدينة القديمة على القمة التي فيها اليوم الكنيسة الكبرى. ويوجد من آثار سورها وأبوابها بين الكنيسة المذكورة وساحة «إنجل» وساحة «ريغومير» وشارع «آفينو» وكان استيلاء القوط عليها في أوائل القرن الخامس للمسيح. واستولى عليها العرب سنة ٧١٣. ثم استرجعها لويس الحليم ملك فرنسا سنة ٨٠١ ومع أنها كانت في زمن العرب مدينة عظيمة فلم أعثر إلى الآن على أسماء علماء ينتسبون إليها. مع أننا عثرنا على أسماء رجال من أهل العلم ينتسبون إلى مدن وقصاب، بل إلى قرى ليست شيئًا بالنسبة إلى برشلونة. أما في دور الكتلان فقد نبغ فيها مشاهير في كل فن.



شكل ٤٠-٨: منظر عمومي لمدينة برشلونة.



شكل ٤٠-٩: مرسى ميرامار ببرشلونة.

هوامش

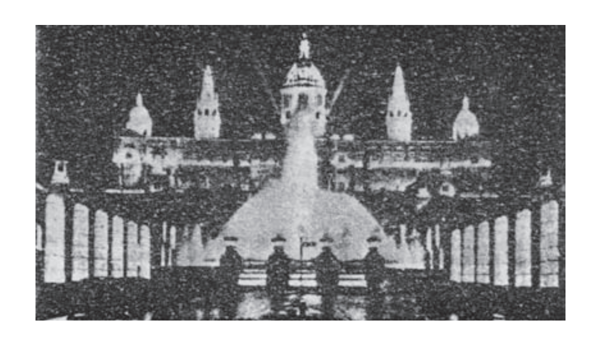
(١) لقد ظهر في الحرب الأهلية، التي اشتعلت في هذه المدة الأخيرة في أسبانية، وبدأت في ١٧ يوليو/تموز من هذه السنة، أن برشلونة أكثر مدن أسبانية عداوة للكثلكة فإن العامة ثارت على رجال الكنيسة، وقتلوا كل من وقع في أيديهم منهم، وهدموا جميع الكناس والأديار بدون استثناء، ليس في برشلونة فحسب، بل في جميع مقاطعة كتلونية، ولم يعفوا إلا عن كنيسة برشلونة الكبيرة، ضنًّا بنفائس صنعتها، وبعض كنائس نادرة أخرى، ولقد وقع من هدم الكنائس والأديار في كل أسبانية ما لا يقع تحت حصر، إلا أن كتلونية امتازت بذلك على غيرها.

الفصل الحادي والأربعون

جيرونة أو جيرُوندة

هذه هي مركز إحدى المقاطعات الأربع، وهي اليوم مدينة صغيرة، سكانها بضعة عشر ألف نسمة، ولها تاريخ قديم، وفيها أبراج قديمة، عندما شاهدناها تذكرنا المدن العربية. وكان العرب قد استولوا عليها سنة ٧١٣، وكان يقال لها يومئذ جيرُنده، فسماها العرب بهذا الاسم. وما قيل لها جيرونة إلا فيما بعد. وفي سنة ٧٨٥، أي بعد أن بقيت في أيدي العرب اثنتين وثمانين سنة، جاءت جيوش شارلمان واستولوا عليها وعمروها، وإلى الآن يوجد عرب أصلهم من أهل جيرندة. وفي فاس حاضرة المغرب، عائلة يقال لها بنو الجيرندي. وقد رجعت جيرندة إلى الكتلان. بعد أن استولى عليها الفرنسيس. وكان يقال لقمط برشلونة برنس جيرندة، نظرًا لأهميتها، وطالما ذكرت في مغازي للعرب. وأشهر ما اشتهرت به المقاومة الشديدة التي أبدتها في وجه الفرنسيس سنة ١٨٠٩، فإن حامية قليلة العدد، تطوع لمساعدتها بعض الإنجليز، صدَّت جيشًا فرنسيًّا عدده ٣٥ ألفًا، مدة سبعة أشهر، ولم يتمكن الفرنسيس منها إلا بنفاد الذخيرة والميرة. وكان قائد الحامية «مريانوكسترو» قد مرض من شدة الإعياء ومات. وقد بلغت خسائر الفرنسيس على جيرُندة خمسة عشر ألف جندي.

وموقع جيرندة بديع، يمر بها نهر يقال له «أونيار» Onar. وهذا النهر يجري إلى نهر آخر اسمه «تر» Ter ومن جيرُندة إلى باربينيان، التي هي من ضمن فرنسا نحو من ٦٨ كيلومترا. والحد الفاصل بين فرنسا وأسبانية هو على ٤١ كيلومترًا إلى الجنوب من باربينيان ويقال له عنق بليوشتر Belluistres وأول بلدة تستقبلك من أسبانية إذا جئتها من فرنسا تسمى بورت بو Port-Bou وهي مرسى على البحر. أهلها ثلاثة آلاف نسمة. والخط الحديدي يخترق هناك عدة أنفاق. وكلما أفاض القطاع من نفق انفتح أمامه، بين الجبل من جهة والبحر من جهة أخرى، مناظر تبقى صورتها في الخاطر.



شكل ٤١-١: حديقة مونتجويك ببرشلونة.



شكل ٤١-٢: قوس النصر ببرشلونة.

ثم إن الشرقي يتذكر هناك أنه صار إلى بلاد الشرق، فإنه يرى النواعير الدائرة على الحيوانات، ويشاهد الأشجار والنباتات التي يعهدها في بلاد الشرق. ومن «بورت بو» يتقدم الخط الحديدي إلى «لانسية» Liansa، ثم يمر بحصن «كارامانسو» Caramanso



شكل ٤١-٣: جبل قريب من برشلونة.

ثم بمعبر «بَرتس» Portus الذي يقال إن أنيبال عبر منه في زحفه إلى رومة سنة ٢١٨ قبل المسيح. ثم يدخل الخط الحديدي في سهل «امبوردان» الخصيب ويقطع وادي البريقات الأصغر. ووادي «موقة» Mugo ووادي «مانول». ووادي «فلوقية». ثم يصل إلى بلدة «فيغراس» Figueras. وهي قاعدة ناحية لمبوردان. وفيها حصن يقال له «سان فرنندو» ولهذه البلدة مرسى على البحر يقال له «روزاس» Rosas وهذه الناحية عمرها اليونان في القديم، وفيها من بقايا آثارهم الشيء الكثير.

ثم من امبوردان إلى جيرندة يمر القطاع في بلدة «فيلامَلاّ» Vilamalls وفيها برج قديم. وبعدها يمر ببلدة كامالبرا Camallera وهناك يقطع الخط نهر تير. ويمر ببلدة «سارَية» Sarria حتى يصل إلى جيرندة. وفي جيرندة كنائس عظيمة كما في سائر مدن أسبانية، والكنيسة الجامعة مبنية في مكان المسجد الجامع الذي كان في الأصل كنيسة. فلما أجلوا العرب عن جيرندة سنة ١٠٣٨ أعادوا الجامع كنيسة ولكنهم لبثوا يبنون، يزيدون ويزينون فيها مدة قرون متطاولة. وعدا هذه الكنيسة يوجد بيعة أخرى قديمة من القرن الرابع عشر يقال لها «سان فليو» Feleu وكنيسة غيرها اسمها «سان بتروه غلَّيكان» Galligans لها دير فيه متحف يشتمل على بقايا فينيقية ويونانية، وبين سان فليو وسان بتروه يوجد دير للكبوشيين فيه مسجد عربي قديم مثمن الشكل. وعلى مسافة ٥٠ كيلومترًا من جيرندة، توجد بلدة يقال لها «أولوت» Olot وبلدة أخرى يقال لها «كثلفوليت» Caslelifullit وهما مركز ناحية كلها براكين نيرانية منطفئة، واقعة بين نهري تر، وفلوفية. والذي يرجحه علماء الجيولوجية أن هذه الأطائم[١] قد انطفأت

من عهد متوغل في القدم، غير أنه لا يزال في تلك الأرض انبعاث روائح بركانية. وفي القرن الخامس عشر حصلت اضطرابات في تلك الأرض كما إنه في ٦ مايو سنة ١٩٠٢ حصلت رجفة قوية في بلدة أولوت، في الوقت الذي حصل مثلها في مدينة مرسية.

ويوجد فوهات يقال لها هناك بوفادورس Bufadors يضطر الأهالي إلى سدها، لأنه في فصل الصيف يخرج منها ريح بارد جاف مستكره جدًّا. ولما جرت زلزلة أولوت سنة ١٩٠٢ وجدت الفوهة التي في «غاريनادا» بقرب أولوت مفتوحة، لأن الحركة الداخلية كانت شديدة بحيث إنها أسقطت تلك السدود. ويقال إنه في مقاطعة جيرندة مساحة الأراضي البركانية ١٩٦٨٦٠ كيلومترًا مربعًا، وهناك عدة فوهات بركانية معروفة بأسمائها، وبعض البراكين، مثل بركان غاريनادا، له وحده ثلاث فوهات، كما أن بركان «بيزاروكاس» Bisarocas له فوهتان، وبركان «ادري» Adri له أربع فوهات.

ومما يذكر من آثار هذه البراكين التي في أرض جيرندة أن رماد بعضها يمتد على مسافة ١٥ كيلومترًا من الفوهة التي قذفت به. وتكثر في تلك الأرض المياه المعدنية، فتجد حمامات كثيرة منها حمام «فارنس» Farnes ومنها «بانيولاس» Banyolas وماؤه بارد، وبالقرب منه بحيرة لطيفة، فتقصد الناس إليه في أيام الصيف. وهذه البحيرة طولها ألفا متر، وعرضها ستمائة، وعمقها قد يبلغ ٥٣ مترًا.

ومن المدن المعروفة في تلك المقاطعة مدينة «فيك» Vich وهي بلدة قديمة، فيها متحف أثري يستحق النظر. ثم مدينة «ريبول» Ripoll وهي بحذاء الجبال في أعلى وادي «تر»، كان فيها قديمًا مراكز رهبانية عظيمة، ولذلك تجد فيها آثار الأديار الكثيرة التي أخنت عليها الحروب.

وأبدع شيء في كتلونية هو الساحل، فإن عليه قرى زاهية، لها محارث وزرائع متقنة، وبعضها مساكن لصيادي السمك، وعلى سيف البحر تكثر الأبراج، التي كانت في القديم محارس يتقون بها غارات أهل أفريقية فمن هذه القرى الساحلية «بادالونة» Badalona وهي بلدة رومانية قديمة. و«أوكاتا» Ocata وفيها برجان قديمان، و«مطارو» Mataro وهي بلدة صناعية فيها ميناء معمور، وكالديتاس Caldetas وفيها حمامات سخنة وآرنيس البحر Arenis، ولها موقع بديع، وكانيت البحر Canet وهي بلدة صغيرة، ذات صناعة، وزراعة، وملاحة، وصيد سمك، وسان فليو Feleu ولها مرسى، وتحيط بها بساتين البرتقال، وفيها كثير من شجر البلوط. وبالاموس Palamos ولها فرضة بحرية لطيفة، إلا أنها مفتوحة كثيرًا للريح الشرقية. وأما روزاس Rosas،

وقد تقدم ذكرها، فهي مرسى عظيم مستدير، ترفأ إليه أكبر السفن، إلا أنه مفتوح للرياح الشرقية والجنوبية وهذه البلدة قد ورثت مرسى أميورياس الذي كان في الأعصر الغابرة أعظم مرسى في شرقي الجزيرة الأيبيرية، ومنه أبحر أنيبال القرطاجني إلى إيطالية غازيًا، وكذلك أبحر سيبيون الروماني قاصدا إلى أفريقية وكانت لأمبورياس أسوار هائلة، تداعت كلها، ولم يبق هناك إلا قرية حقيرة. ثم «سربيره» Cerbera، وبنيولس Banyuls، و«بورفندر» Port-Vendres و«كولبارا»، وكلها محاطة بالزياتين.

هوامش

(١) جمع أطيمة وهي في اللغة موقد النار وبعض الناس يظنون أن البركان الذي في صقلية واسمه «اتنة» Etna هو محرف عن أطيمة أو عن حطمة وهي الشديدة النيران وذلك لأن العرب سكنوا صقلية ثلاثة إلى أربعة قرون وتركوا فيها ألفاظًا كثيرة.

الفصل الثاني والأربعون

تابع للوثائق التاريخية

التي تقدم لنا نقلها في أثناء البحث عن مملكة كتلونية

سبق لنا نشر عدة مراسلات سلطانية من ملوك بني الأحمر أصحاب غرناطة، إلى ملوك أراغون وكتلونية، وقد أخذنا هذه الكتب السلطانية عن مجموعة وثائق تقدمت هدية من بعض الهيئات الرسمية ببرشلونة عام ١٩٢٩، إلى الشهم الهمام، فقيد المغرب الحاج عبد السلام بنونة، تغمده الله برحمته، فلما علم أخوه الفاضل الحاج محمد العربي بنونة، حفظه الله، اشتغالنا بهذا الكتاب في أخبار الأندلس، استنسخ لنا من هذه المجموعة عدة كتب، وأهدانا إياها، وكتب إلينا في هذا الصدد ما يلي:

هذه مجموعة محتوية على تسعين ورقة فوتوغرافية سلبية، بعضها فيه معاهدات وبعضها فيه صور الكتابة التي على ظروفها، وبعضها فيه رسائل دارت بين ملوك بني الأحمر وملوك أراغون، والبعض الآخر بين هؤلاء وبين بني مرين ملوك المغرب[١]

وقد أكلت أصلها الأرَضة، إلى درجة يصعب معها استخراج كل ما فيها من الكتابات، وأنا لما كنت ألقي عليها نظرة سطحية، كان يتراءى لي سهولة نسخها، ولكن عندما جئت أنفذ الفكرة، وجدت الأمر غير ما ظننته، وبالرغم من ذلك فقد أمكننا استنساخ بعضها، وما زلت أقلِّبها علِّي أستطيع استخراج غير الصور الواصلة ولا سيما من القسم الخاص بالأندلس، لما فيه من المعاهدات، وأسماء السفراء، وتسوية الحدود، وغير ذلك مما له فائدة تاريخية.

أما قسم المغرب، وهو أكثر المجموعة، فغالبه رسائل ودادية، لا تخرج عن كونها تنبئنا بأن العلاقات بين ملوك أراغون وملوك بني مرين كانت حسنة (إلى أن قال):

ولم يقدموا المجموعة للمرحوم أخي كاملة، لأن أرقامها غير مرتبة. ولست أدري هل ذلك مقصود منهم، أم من باب المصادفة؟ أقول هذا لأني أذكر أنني رأيت عدة ظهائر موجودة بهذه المجموعة عند المرحوم محمد بن الحسن ساسي، أحد الغواة بجمع الآثار بمدينة سلا، وأذكر أنها كانت واضحة الكتابة أكثر من هذه، وبها تعديد مثالب بعض الأمراء الأسبانيين رأيتها سنة ١٣٤٨، في آخر مرة زرت فيها المتعلقة السلطانية، أي قبل صدور الظهير البربري الذي منع دخولنا إلى تلك المنطقة ثم توفي ساسي إلى رحمة الله، ولست أدري ما صنع الله بمجموعته.» ا.هـ.

كتاب من الأمير عبد الله محمد بن الأحمر، إلى سلطان أراغون، كُند برجلونة:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

ليعلم كل من يقف على هذا الكتاب، أنا الأمير عبد الله بن محمد ابن أمير المسلمين أبي عبد الله بن نصر، سلطان غرناطة، ومالقة، وما إليها، وأمير المسلمين. ننعم[٢] لكم أيها السلطان المعظم، دون جايم، ملك أراغون وبلنسية، ومرسية، وكند[٣] برْجَلُونة، بأن نكون لكم صاحبًا وفيًّا، ويكون بيننا وبينكم صلح ثابت، وصحبة صادقة يكون فيها أصحابكم أصحابنا، وأعداؤكم، أهل قشتالة، أعداءنا، ونرفع الضرر والفساد عن بلادكم وأرضكم، من بلادنا وأرضنا، ولا نجعل سبيلًا لأحد من ناسنا، لا في البر ولا في البحر عليكم، وإن اتفق أن صدر لأحد أو لموضع من ناسكم وبلادكم ضرر من أحد ممن يرجع إلى حكمنا، فنحن ننصف منه بالحق الواجب، على أن تكونوا أنتم لنا كذلك، صاحبًا وفيًّا، كما ذكرتم في كتابكم، وتلتزموا لنا صحبة صادقة، وصلحًا ثابتًا، وتصاحبوا كل صاحب لنا، وتعادوا كل عدو لنا من المسلمين أو من أهل قشتالة، وترفعوا الضرر والفساد عن بلادنا كلها، وعن ناسنا في البر والبحر، وإن اتفق أن يرجع إلى طاعتنا بلد من بلاد العدوة، أو ناس من أهلها فيكون حكمهم في ذلك كحكم سائر بلادنا الأندلسية، ومتى صدر عن أحد من ناسكم أو من أهل بلادكم، ضرر لأحد من ناسنا أو من أهل بلادنا الأندلسية، أو التي تكون من بر العدوة، فعليكم أن تنصفوا منه في الوقت والحين، كما ذكرتم في كتابكم، وكذلك ننعم لكم بأن يصل إلى بلادنا كل

من يريد الوصول برسم التجارة من بلادكم، بما شاءوا من أنواع التجارات، ويسرّح لهم ما أرادوا من ذلك، ويكونوا مؤمّنين في نفسهم وأموالهم، على أن ينصفوا من الحقوق الواجبة على العادة، وينصفوا من حقوقهم الواجبة لهم في الدواوين على العادة، وعلى أن يكون أيضًا كل من يتوجه من بلادنا إلى بلادكم من التجار مؤمّنين في نفوسهم وأموالهم، ويسرّح لهم في بلادكم ما شاءوا من أنواع المتاجر، وينصفوا من الحقوق الواجبة على العادة، من غير إحداث زيادة، وينصفوا من حقوقهم الواجبة، كما ذكرتم في كتابكم، وكذلك ننعّم لكم أن نعينكم على أهل قشتالة في نفاقهم معكم، وإن اتفق أن يجيء لكم إلى مرسية صاحب قشتالة الآن، أو مقدرته (كذا) فنعينكم بما نقدر عليه في ذلك الوقت، ولا نعمل معهم صلحًا ولا مهادنة، إلا برأيكم، وفي منفعتنا ومنفعتكم، وعلى أن تلتزموا أنتم بما نلتزمه نحن من النفاق[٤] عليهم وشنِّ الغارات على أرضهم كلها، ولا تعملوا معهم صلحًا ولا مهادنة إلا برأينا، وفي منفعتكم ومنفعتنا، حتى تكون الحال واحدة في النفاق والاتفاق، وعلى أن تعينونا أنتم عليهم، متى احتجنا إلى إعانتكم بما تقدرون عليه، كما ذكرتم في كتابكم، وكذلك ننعم لكم أنه إن احتجتم إلى إعانتنا في أرض مرسية بفرسان من عندنا أن نعينكم بهم، على أن يُضمّوا في بلادكم (جملة أكلتها الأرضة) يعطوا المأكول والنفقة. من يوم خروجهم من أرضنا إلى يوم رجوعهم إليها، وتأمروا بأن تغرم لهم الدواب التي تموت لهم في خدمتكم، من يوم خروجهم من أرضنا إلى يوم رجوعهم إليها، وكذلك ننعم لكم أنه إن (جملة أكلتها الأرضة) مرسية أن نرده في الحين لكم، وإن كان من غيرها من بلاد قشتالة، لا اعتراض لكم فيه. وكل موضع يرجع لكم أنتم من رئاسة قشتالة، فلا اعتراض لنا نحن فيه، إلا أن يكون من المواضع التي هي لنا وهي طريف (جملة ذهبت بها الأرضة) وقشتال فإن اتفق أن ترجع هذه المواضع أو واحد منها إليكم فعليكم أن تردوها لنا في الحين، من غير تطويل ولا مطلب، وإن اتفق أيضًا أن ترجع هذه المواضع أو واحد منها إلى طاعة السلطان دون الفونش وأخيه الافّنت[٥] دون فِراندَة، أن تقفوا معنا في تكميل الشروط التي بيننا وبينها، بشهادتكم عليها وضمانكم في ردها إلينا في الحين والوقت من غير تطويل ولا مطلب، وعلى أن تمنعوا أهل بلادكم من الدخول

بالتجارة إلى أشبيلية وغيرها من بلاد أعدائنا، في البر والبحر وإن دخل أحد منهم إليها يكون حكمه حكم الأعداء الذين يكون معهم وأن يكون هذا كله ثابتًا، وتكونوا أنتم منه على يقين. أمرنا بكتب هذا الكتاب، وجعلنا عليه خط يدنا، وطابعنا، في آخر ربيع الآخر عام أحد وسبعمائة.

وكتب في التاريخ. ا.هـ.

وقد كتب إلينا الأديب الفاضل الحاج العربي بنونة في ذيل نسخة هذا الكتاب الملاحظات الآتية:

(١) الألفاظ التي نشكلها في هذه الرسالة هي مشكولة في الأصل، فأنا أنقلها لكم من غير تصرف حتى تعلموا كيف كان ينطق بها أهل ذلك العصر.

(٢) سطور هذه الرسالة أفقية تامة الاستواء.

(٣) نوع خطها من الشكل المصطلح على تسميته بالمجوهر، وهو خط مغربي مراكشي.

(٤) ينقط الكاتب الفاء بواحدة من أسفل، والقاف بواحدة من فوق، على القاعدة المغربية الجارية.

(٥) البياض الذي ترونه في هذه النسخة هو المحل الذي أتلفته الأرضة أو محاه قدم العهد وأنا أنقل إليكم الصورة من دون زيادة ولا نقص.

(٦) الكتاب من ناحية فن الخط آية في الإبداع مشكول كله، ونجده في المواضع التي نستعمل فيها نحن الفاصلة (،) أو علامة الانتهاء (.) يخالف قليلا البعد المناسب، وعوضًا عن أن ينزل الكاتب إلى السطر الثاني في ابتداء الكلام، كما هي العادة في هذا العصر، يكتفى بكتب الحرف الأول كبيرًا يتبعه بجرة في السطر طويلة جدًّا تنبيها للقارئ.

(٧) السلطان محمد هذا صاحب هذه المعاهدة هو محمد المخلوع بن محمد الفقيه بلا شك ولا ريب.

كتاب آخر:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى الكريم وعلى آله وسلم تسليمًا.

السلطان المعظم الملك المرفع، الأوفى المكرم المبرور المشكور الأخلص، ذون[٦] جاقمي «ملك أراغون وبَلَنْسِيَةْ وسَرْدّانية، وقُرْسِغَة، وقُمط بُرجْلونة، وصل الله عزته بتقواه، وأسعده بطاعة الله ورضاه، مكرم جانبه، وشاكر مقاصده في الوفاق ومذاهبه وحافظ عهده عملًا بواجبه، الأمير عبد الله إسماعيل بن فرج بن نصر، أما بعد فإنا كتبناه إليكم، كتب الله لكم من هدايته أوضحها، ومن عنايته المرشدة أسعدها وأنجحها من حمراء غرناطة، كلأها الله، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل، واليسر الأشمل، والحمد لله كثيرًا، وجانبكم مبرور، وعهدكم بالوفاء محفوظ، وقصدكم في الصحبة مشكور، ومنصبكم في ملوك النصرانية معلوم مشهور، وقد وصلنا كتابكم المكرم صحبة رسولكم إلينا، شِمُنْ دي طوبينَه، وصحبة راجلنا أبي علي حسن الفرّان، ووصل العقد الذي عقدتم على نفسكم وأرضكم، بالصلح الذي يكون فيه الخير لنا ولكم إن شاء الله، وقفنا على ذلك العقد، وحضر رسولكم به بين يدينا وأمضينا حكم الصلح، وكتبنا نظير ذلك العقد، ووجهناه إليكم، وألقى إلينا الواصلان المذكوران من قِبلكم، ما عندكم من الاغتباط بصحبتنا، والعزم على الوفاء بما عاهدتمونا عليه، والمقاصد الحسنة التي تليق بمثلكم من الملوك الأوفياء، فشكرنا ذلك لكم أكمل الشكر، وإذا اغتبطّتم بصحبتنا، وجريتم على منهاج الوفاء في حفظ عهدنا فعندنا من الاغتباط بصحبتكم والحفظ لعهدكم، ما يقتضيه حسن قصدكم، فثقوا منا بذلك أكمل الثقة، وكونوا منه على يقين، وسبيل مبين، والله يقضي الخير لنا ولكم، وهو سبحانه يصل إعزازكم بتقواه، ويحملكم على ما يحبه ويرضاه، ويوالي لكم أسباب عنايته، ويوضح لكم طريق هدايته، والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا، كتب في يوم السبت السابع عشر لشهر ربيع الثاني عام أحد وعشرين وسبعمائة، عرّف الله خيره وبركته بمنه وفضله.ا.هـ. صح هذا.

كتب إلينا الأخ بنونة في ذيل نسخة هذه الرسالة ما يلي:

(١) هذه الرسالة لم تعتد عليها الأرضة فهي واضحة جدًّا.
(٢) خطها من النوع المسند الظاهر وكلها مشكولة.

(٣) طريقة كتابتها فنية جميلة تبين لنا أسلوب الأندلسيين في تدبيج الرسائل في ذلك العصر، فترى السطر يبدأ مستويًا طويلًا، ثم ينتهي بالتواء طفيف لأعلى ويبدأ السطر الثاني أقصر من الأول، والثالث أقصر من الثاني، وهكذا حتى ينتهي الجميع في زاوية مربع، أو مستطيل الورقة السفلى. وكل سطر ينتهي بذلك الالتواء الجميل. فإذا وصل الكاتب إلى أسفل الورقة، نكّسها وبدأ الكتابة عكسية، من أسفل لأعلى، على الصورة نفسها. فيبدو الكتاب آية في الفن قد احتوى مثلثين متضادين مختلفي الأضلاع، وبسبب ذلك يأتي إمضاء الملك عقب التاريخ في آخر الرسالة، ولكنه في أعلاه بحسب الوضع، وهي طريقة أنسب وأدق ذوقًا من جعل الإمضاء قبل الرسالة، كما ترون في رسائل بعض الملوك.

(٤) رقم هذه الرسالة في المجموعة الأسبانية ١٣، بينما ترى تاريخها مقدمًا على تاريخ الرسالة رقم ١١. وهذا لا شك آت من سوء الترتيب.

(٥) اسم الملك المرسل إليه الكتاب نراه مختلف الصورة، ففي بعض الرسائل جاييم، وفي بعضها جقمي، وفي أخرى جاقمي. وأنتم تكتبونه «جقوم» (يريد أننا كتبتاه كذلك في مختصر تاريخ أسبانية ذيلًا على آخر بني سراج) والمراد بالجميع الملك خايمي Jaime. وكذلك نرى مثل هذا الاختلاف في لفظ كُندِي Conde فنجده في بعض الرسائل قمطا؛ وفي بعضها كندا، ومثل ذلك بعض الأعلام مما سيمر بكم كبرجلونة، وقُرسغة، بالقاف والغين وغيرهما، والكل مشكول، ظاهر الخط، مما يجعلنا نتعرف النطق به تمامًا، خصوصًا وأن هذه الوثائق التي ننتسخها خطية مكتوبة في ذلك العصر، ومشكولة وصادرة عن ديوان هو أحق من يتعرف الأسماء في عصره.

كتاب آخر:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم تسليمًا.

السلطان الأجل، المرفع المكرم المعظم، الأوفى المشكور المبرور، الشهير الأوَدّ ذون جتمى، ملك أرغون وبلنسية، وسردانية، وقرسغة وقمط برجلونة، وصاحب هَنْجَليرة،[٧] أعزه الله بطاعته، ويسّر له أسباب رضاه وكرامته. حافظ عهده، وشاكر مذهبه في الوفاء وقصده، ومكرم جانبه، ثقة بخلوص ودّه، الأمير عبد الله إسماعيل بن فرج بن نصر، كتبناه إليكم من حمراء غرناطة،

حرسها الله، عن الخير الجزيل، والصنع الجميل، والحمد لله كثيرًا، وجانبكم مرفع مبرور، وقصدكم في السلاطين الجِلّة الأوفياء قصد مشكور، وقد وصلتنا كتبكم المبرورة، على يدي النصارى الذين وجهتم، وأنتم تقررون فيها حفظكم لعهدنا، وثباتكم على صلحنا، وتوفيتكم لما عقدنا معكم، وذلك هو الذي يليق بكم، ونحن لكم على مثل ذلك، من الوقوف على العهد، والحفظ للصلح، فكونوا من ذلك على يقين، وعرّفتم بما لكم من الطالب عندنا، فمنها ما طلبتموه منا على وجه الكرامة لجانبكم، وقضاء حاجتكم فنحن قد وفيناه على حسبما أردتم، إكرامًا لكم، وتوفية لقصدكم، على ما يقتضيه اعتقادنا فيكم، وقصدنا في قضاء أغراضكم، وعند وصول كتبكم أمرنا بسراح النصارى، الذين طلبتموهم على هذا الوجه، وهم برتلمين مرتين، الذي كان قديمًا في ملكنا، وهو يصلكم مع هذا الكتاب، والصبي الذي أُخذ في الأَبْركة، التي أقلعت من أشبيلية، مع أن أهل أشبيلية قد كانوا طلبوه، وزعموا أنه أُخذ في صلحهم فما أسعفنا لهم فيه قصدًا، لأجل الشكايات التي لنا قبلهم، ولكن لما وصل كتابكم في شأنه، أنعمنا بسراحه، وهو يصلكم مع هذا الكتاب، وأما جيله التي عرّفتم أنها أُخذت بقرية البسيط، فقد أمرنا أن يبالغ في البحث عنها وعن ولدها، فما وُجد لها خبر، ولكن البحث عنهما متصل، وعسى أن يوجدا ويوجها إليكم، وكذلك كان ولدكم الافانت ألرمون برنفيل، قد طلب أن يسرح له نصراني قديم الأسر عندنا اسمه برنفيل أرنَوه، فأنعمنا به، وسرحناه، وهو يصلكم أيضًا، ووفينا قصدكم في ذلك كله لمكان صحبتكم لنا، وصدق مصادقتكم، وكذلك سَرْكَهْ من الكرمن، لما وصل كتابكم في شأنه أنعمنا به، وأمرنا أن نحمله أرسالكم لكنه كان بحال مرض اشتد عليه فمات، وأما المطالب التي طلبتموها منا على غير هذا الوجه فما أُخذ لكم في الصلح فتعلمون أنتم أيها السلطان أن لنا بأرضكم حقوقًا كثيرة، ومطالب عدة، وقد كتبنا بها إليكم، ووجهنا مرة بعد مرة، ووعدتم بخلاصها، والإنصاف منها، فنحن ننتظر وصول المسلمين، وخلاص الشكايات، فإذا وصلوا، فنحن نسرّح لكم من عندنا في مقابلهم، فما عندنا إلا الحفظ لعهدكم، وتوكيد الصحبة معكم، وعرفتم أن ابن جندي أخذ ناسًا من بلادكم، وباعهم ببجاية وهذا الشخص ليس من أرضنا، ولا خدم بالأندلس قط، فلو أنه كان من أهل

الأندلس لعملنا الواجب في أمره، ولعاقبناه أشد العقاب حفظًا لعهدنا كما هو الواجب والله يصل عزتكم بتقواه ويحملكم على ما فيه رضاه، والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا. كتب في التاسع والعشرين لذي الحجة عام أربعة وعشرين وسبعمائة. صح هذا.

ثم كتب في أسفل الورقة العنوان كما يأتي:

السلطان الأجل، المرفع الأوفى المشكور المبرور، المعظم الشهير الأود الأخلص ملك أرغون، وبلنسية، وسردانية، وقرسغة، وقمط بُرجُلونة، وصاحب هنجلير، ذون جقمي، أعزّه الله بطاعته، وييّسر له أسباب رضاه وكرامته، بمنة.

وفي نفس هذا العنوان يظهر أثر الطابع المستدير الذي لم يبق منه إلا علامة الاستدارة، ثم ذكر لنا الأخ بنونة أن نوع الخط في هذه الرسالة بين المبسوط والمجوهر العادي وأن الأسطر غير مستقيمة، وغير مساوية، ثم قال: ورد في الرسالة لفظ الأبركة، وهي على ما يظهر جمع «بركو» Barco، بمعنى المركب، مما يدلنا على أنهم كانوا يستعملون بعض الألفاظ الأسبانية في لغتهم الكتابية. ومثلها لفظة «الافانت» بمعنى الأمير. وتدل هذه الرسالة وغيرها على أن مسلمي الأندلس كانوا يقرءون القرآن برواية ورش كالمغاربة، بل كانوا يكتبون حسب قواعد المصحف كثيرًا من الألفاظ، مثل النصرى فيحذفون الألف من الخط، ويثبتونها فوق السطر، وكذلك الآخر والأرض، ويحذفون منهما الهمزة، ويشكلّون اللام بالفتحة، وغير ذلك كثير.

رقم الرسالة ٢٣، ولكن يوجد رقم آخر داخل الورقة الأصلية ٧٧، مما يدل على أنها كانت مدرجة في مجموعة أولى ثم أُتلفت هذه المجموعة فرتبت ثانية، فنزل العدد إلى ٢٣، أو كان رقم ٧٧ راسمًا لها في خزانة الملك ذون جقمي. أما ظرف الرسالة فهو منها، إذ يظهر أثر الطي في الصورة وفيها كتب العنوان.

كتاب آخر:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

ليعلم من يقف على هذا الكتاب ويسمعه، أننا الأمير عبد الله إسماعيل بن فرج بن نصر، سلطان غرناطة، ومالقة، والمرية، ورندة، والجزيرة، وأمير

المسلمين لما وصلنا من قبلكم، أيها السلطان المعظم، الملك المرفع، الأوفى المكرم، المبرور المشكور، الأخلص ذون جقيمي، ملك أراغون، وبلنسية، وسردانية، وقرسغة، وقُمط بُرجُلونه، رسولكم إلينا الفارس المكرم، شمون دي طُبنية، بالعقد الذي عليه طابعكم، المعهود عنكم، الذي عقدتموه على نفسكم، بأنكم قد ثبتم معنا صحبة خالصة، ومصادقة صادقة، جددتم بها ما كان بينكم وبين أسلافنا، رضي الله عنهم، وعقدتم معنا صلحًا صحيحًا صريحًا، مبنيًّا على الصفاء والوفاء، أمضيتموه على نفسكم، وعلى جميع أهل أرضكم، من نصف شهر مايُو، الموافق للتاريخ إلى انقضاء خمسة أعوام، وظهر لنا منكم من الاغتباط بصحبتنا، ما أكد عندنا إجابتكم إلى هذا القصد، أنعمنا بموافقتكم ومصالحتكم، وأعطيناكم هذا المكتوب بأننا عقدنا معكم الصلح على نفسنا، وعلى جميع أهل أرض المسلمين، ببلاد الأندلس كلها، لانقضاء خمسة الأعوام المذكورة، صلحًا ثابتًا، محفوظ العهد، مؤكد العقد، وأمضينا معكم هذا الصلح إمضاء صحيحًا، لا يتعقَّب حكمه، ولا يتغير رسمه، تأمن به أرض المسلمين ببلاد الأندلس وأرضكم أمانًا تامًّا عامًّا، وينكفّ عنها الضرر من الجانبين، بطول مدة الصلح، برًّا وبحرًا، فلا يلحق أرضكم ولا ناسكم ولا أجفانكم ضرر من جهتنا بوجه، ولا على حال، كما أنه لا يلحق ناسنا، ولا جميع أرض المسلمين بالأندلس، ولا أجفاننا ضرر من جهتكم، ولا شيء يقدح في الوفاء، وعلى شروط تتفسَّر، فمنها أن يتردد كل من يريد التجارة من أهل بلادنا إلى بلادكم، آمنين في البر والبحر، في النفوس والأموال وجميع الأحوال، وأن يباح لهم بيع ما يريدون بيعه، وشراء ما يريدون شراءه، وإخراج ما يشترونه إلى بلادنا، وذلك على العموم في جميع الأشياء كلها إلا الخيل والسلاح، لا يستثنى غيرها، لا طعام ولا بغال، ولا سائر الدواب، ولا غير ذلك، ولا يزاد على أحد منهم في سوم شيء يشترونه، بل يباع منهم بسومه بذلك الموضع، ولا يزاد عليهم في مغرم مخزني على ما جرت به العوائد ... بينكم وبين أسلافنا، ومثل ذلك يكون العمل مع من يتردد إلى بلادنا من أهل بلادكم. وعلينا وعليكم حفظ هؤلاء المترددين وحراستهم حيث حلّوا، ومنها أن تعادوا من يعادينا من أهل بلاد المسلمين ... أحدًا منهم، ولا تضمُّوه، ولا تعينوا علينا عدوًّا كان من كان، وعلينا أن نعادي من يعاديكم من أهل أرضكم، ولا نضمه،

ولا نقبله، ولا نعين عليكم عدوًّا لكم، كان من كان، ومنها أن تكون أجفاننا آمنة من أجفانكم، وناسكم لا … منهم ضرر، سواء كان فيها أهل بلادنا أو غيرهم، من المسلمين أو النصارى، فلا يتعرض لهم من جهتكم بوجه، وكذلك جميع مراسي بلادنا وسواحلها تكون آمنة من أجفانكم وناسكم سواء كان في مراسينا وسواحلنا عدو لكم أو صديق، لا يتعرض من جهتكم لمرسى من مراسينا، ولا لساحل من سواحلنا، وإن استوليتم على جفن من غير أجفان أهل بلادنا، أو استوليتم في البحر على طائفة من المسلمين، وكان فيهم أحد من أهل أرضنا، فتسرّحون من أخذتم من أهل أرض المسلمين ببلاد الأندلس بأموالهم في الحين، ومثل ذلك يكون العمل معكم من جهتنا. ومنها أن لا تمنعوا من أراد الخروج إلى أرض المسلمين من المدجَّنين الساكنين بأرضكم بأهلهم وأولادهم، وأن يتاح لهم الوصول إلى أرضنا آمنين، مرفوعًا عنهم الاعتراض، من غير شيء يلزمهم، إلا المغرم المعتاد، على ما جرت به العادة، من غير زيادة على ذلك. انتهت الشروط، وعليها أعطيناكم عهدًا صحيحًا ثابتًا، والتزمنا الوفاء به لكم، ولجميع أهل أرضكم، فلا يزال محفوظًا إلى أقصى أمده، ما وفيتم لنا بما ذكر عنكم في هذا المكتوب، ونجعل الله شاهدًا بيننا وبينكم، والله خير الشاهدين. وقد تقيد نظير هذا بالعجمي في المكتوب الذي استقر عندنا، وعليه طابعكم، ولأن يكون هذا ثابتًا، وتكونوا منه على يقين، أمرنا بكتبه، وجعلنا عليه خط يدنا، وعقلنا عليه طابعنا، توثيقًا لحكمه، وذلك في السابع عشر لربيع الآخر عام أحد وعشرين وسبعمائة، وبموافقة السادس عشر من شهر مايو (صح هذا).

وكتب الأخ بنونة تحت هذا الكتاب الملاحظات التالية:

(١) يستعمل الكاتب لفظة مخزني نسبة إلى المخزن، أي الحكومة، مما يدل على أن هذا الاستعمال كان معروفًا بالأندلس، كما هو اليوم بالمغرب.[٨]

(٢) خط المعاهدة من النوع المبسوط الظاهر، وسطورها أفقية تامة الاستواء.

(٣) تأملوا قوله «المدجنين الساكنين بأرضكم» أليس معناه الأهالي المسلمين؟ ثم مما لا شك فيه أنه مترجم عن لفظة «أندخيناس» التي يطلقها اليوم الإسبانيول على الأهالي المغاربة. وأذكر أن الأخ المكي الناصري كتب عنها فصلًا قيمًا في مجلة السلام، أعطى

فيه هذه اللفظة حقها، ولا نستطيع أن نفسّر اللفظة هنا بالمقيمين من دجن بمعنى أقام بالمكان، لأن لفظة «الساكنين» تفيد ذلك المعنى، فلا وجه لتفسيرها بها إلا بتكليف. ا.هـ.

قلنا إن المدجنين هم المسلمون الأندلسيون الذين عندما غلب النصارى على بلادهم لبثوا تحت حكم هؤلاء، ولم يختاروا الرحيل إلى بلاد الإسلام، كما رحل إخوانهم، وقد سمّوا بالمدجنين من دجن بالمكان بمعنى ألف الإقامة به، ومنه الحيوان الداجن، الذي يألف البيوت، ولا ينفر منها، كالحيوانات الأخرى الشاردة، وربما كان الحيوان برّيًّا، فإذا أمسكوه عوّدوه الدجن في البيت وانتهى بأن يستأنس ويألف. ووجه المناسبة ظاهر، وهو أنه عندما كان يتغلب النصارى على بلاد المسلمين من الأندلس كان أكثر أهلها يشردون نافرين، ويهاجرون منها إلى بلاد الإسلام، وقد كان يوجد فيهم من لا يتمكن من المهاجرة، أو من يعزّ عليه فراق وطنه، فيبقى تحت حكم النصارى، ويألف الخضوع لهم، فسمي هذا النوع من المسلمين مدجنين من باب التشبيه. وهكذا قرر المؤرخون والعارفون باشتقاق الألفاظ وجه هذه التسمية.

وكان هؤلاء المدجنون، وإن سكنوا في الأول تحت حكم النصارى يضطرون في الآخر إلى الرحيل منها، نظير الذين سبقوهم من إخوانهم، وذلك بسبب تفاقم الظلم والاضطهاد عليهم. فسلاطين غرناطة كانوا يتوسطون لدى سلاطين الأسبان حتى يسمحوا للمدجنين بالخروج إلى بلاد الإسلام، وبأخذ أموالهم معهم، وسبب هذا التوسط هو أن سلاطين النصارى لم يكونوا يسمحون دائمًا بهجرة المدجنين، وذلك لأن المدجنين كانوا يعملون في أراضي النصارى، وكانوا أهل جد ونشاط، وعلم بأصول الزراعة، وكانوا إذا خرجوا ماتت المزارع من بعدهم، وحرم النصارى خيراتها الدارّة. فطالما منع ملوك النصارى خروج المدجنين بهذا السبب، وكانوا إذا أراد بعضهم الخروج لا يسمحون لهم بأخذ أموالهم معهم، وذلك حتى يبقوا في أرضهم فيعمروها، ولكن بعد سقوط غرناطة، وإكراه النصارى للمدجنين على ترك دينهم صار هؤلاء يثورون في الأحايين، وتقع الوقائع، وكانوا يستصرخون إخوانهم مسلمي المغرب الأقصى والأوسط، وأتراك الجزائر، فكانت ترد إليهم نجدات، ويتسرّب سلاح، ويقاتلون ويستبسلون، فرأى ملوك النصارى أخيرًا أن لا نهاية لثورات هؤلاء.

وفي الآخر أحسّوا بأن المدجنين صاروا يستصرخون سلاطين آل عثمان، وكانت الدولة العثمانية حينئذ في إبّان قوتها فخاف ملوك أسبانية من تعرض الأسطول

العثماني لسواحل أسبانية، وإثارة المدجنين، وإنزال عساكر تقاتل معهم، فأجمعوا طرد جميع المدجنين من جميع أسبانية، وأنفذوا هذا القرار بالرغم من احتجاج الكثيرين من نبلاء الإسبانيول، وأصحاب الأملاك فيهم، ممن كانوا يقولون إن خروج المدجنين من البلاد سيجعلها خرابًا.

وقد كان المدجنون عندما استولى النصارى على شمالي الأندلس وشرقيها ينزح منهم الكثيرون إلى مملكة غرناطة، حتى إن هذه المملكة امتلأت بالسكان، بسبب توارد المدجنين عليها من مرسية، وبلنسية وجيّان، وقرطبة، وأشبيلية، فضلًا عمن كان قد سبق رحيله إلى الجنوب من مسلمي سَرَقسْطة، ولاردة، ووشقة وتطيلة، وقلعة أيوب، وطليطلة، ووادي الحجارة، ومدينة سالم ومجرط، وغيرها. فسلطان غرناطة عبد الله إسماعيل بن فرج، يرجو في هذا الكتاب من الدون جنيمي ملك أراغون، ألا يضيّق على المسلمين الذين في مملكته في منعهم من الهجرة منها.

فهذا ما عندنا في قضية تاريخ المدجنين واشتقاق اسمهم، ولا نرى شيئًا من التعارض بين قول السلطان «المدجنين» وقوله «الساكنين» لأن اسم المدجنين صار أشبه باسم علم يطلق على المسلمين الذين تحت حكم النصارى، وصار يجوز وصفهم بالساكنين، ولا يحتاج ذلك إلى تأويل، فهو صفة لاسم، وسنأتي إن شاء الله في آخر هذا الكتاب على أخبار المدجنين في جزء خاص. وقد كان لهم عند الإفرنج اسم آخر وهو «الموريك»، كما أن الإسبانيول حرفوا لفظة «مدجّن» إلى «مدجَّر» ولما كان الأسبان يقلبون الجيم خاء صاروا يقولون «مدخَّر» وإلى اليوم يطلقون هذا الاسم على طرز البناء العربي فيقولون طرز قوطي، وطرز مدجَّر، كما يعلم كل من له ضراوة بتاريخ الأندلس.

كتاب إلى الدون جيمي ملك أراغون من السيد عثمان بن إدريس بن عبد الله ابن عبد الحق رئيس جند غرناطة:

> بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبيه الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.
>
> الملك المعظم الشهير، الأرفع المشكور، الأوفى الخطير الكبير، الأوَدّ الأخلص، دون جَيْمي، صاحب بلنسية، وأراغون، وسردانية، وقرسغة، وقمط برشلونة، أعزه الله بتقواه، ويسره إلى ما يحبه الرب جل جلاله ويرضاه. شاكر خلوصه

وصفائه، المثني على ثبوت عهده وصدق وفائه، عثمان بن إدريس بن عبد الله بن عبد الحق، وبعد حمد الله رب العالمين، المنزه عن الصاحبة والولد والشريك والمعين، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد سيد الخلق، وخاتم النبيين، وعلى جميع أنبياء الله الكرام والمرسلين، والرضى عن الصحابة الأكرمين، وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، فإني كتبته لك أيها الملك المعظم، من حضرة غرناطة، حرسها الله ولا جديد بيُمن الله إلا ما يجدد إنعامه عز وجل وإحسانه، والحمد الله، وجانبك مبجل على الدوام والاتصال، وواجبك مكمل في كل الأحوال، والثناء على جميل ولاتك، وصدق وفائك، مردد في كل مقام ومقال، وإلى هذا فإن كتابك المرفع وصل إليّ مع رسولك شمون دي طوبينه، في شأن عقد الصلح بين مولانا السلطان، أيده الله ونصره، وبينك، وقد تخلصت العقود على أكل وجوه الاختيار، وحصل المقصود في تأمين البلاد والعباد، وكف الأضرار، وأنا على شكر وُدّك، وحفظ عهدك، حسبما يوجبه الاعتقاد الخالص الإعلان والإسرار، وقد بلغني ما وجهت لي من رسولك شمون، وجددت على ذلك شكر ودادك، وعلمت صحة خلوصك واعتقادك، وظني فيك أيها الملك المعظم، أن تفعل ذلك، وغرضي أتحقق أنه ينقضي ما طالت حياتك هنا لك، فوفاؤك معلوم، وقصدك في المودة مفهوم، وأنت الملك الذي لا يساويه أحد من ملوك النصَارى شرقًا وغربًا، ولك الوفاء الذي شُهر عند جميع الناس بعدًا وقربًا، وقد قلت لشمون في ذلك كلامًا يقرّ به بين يديك، ويلقيه إن شاء الله إليك، فصدّق ما يقوله، فعنده شرح ما عندي وتفصيله، والله يعزك بتقواه، وييسرك إلى ما يحبه الله ويرضاه، والسلام يراجع سلامك كثيرًا أثيرًا، كتب في الثامن عشر لشهر ربيع الآخر عام أحد وعشرين وسبعمائة.ا.هـ.

يقول الحاج محمد العربي بنونة: إن هذا الكتاب، ورقمه في المجموعة ١٤، ظاهر الخط واضحه، وهو من نوع المسند العادي، وإن إمضاء الوزير في وسط الكتاب، وإنه بقلم غير قلم الكاتب، وفيه لفظ عثمان بدون ألف بعد الميم، وكذلك لفظ النصارى بدون ألف بعد الصاد، وهو يخاطب ملك أراغون بكاف الخطاب المفردة، بخلاف سلطان غرناطة فإنه يخاطبه بالجمع. انتهى.

ونحن نقول إن الذي صدر عنه هذا الكتاب هو رئيس الجند المغربي في سلطنة غرناطة، وهو الذي قال عنه لسان الدين بن الخطيب في اللمحة البدرية: الشيخ الهمة،[٩] لباب قومه، وكبير بيته، أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق، كان رئيس الجند في زمن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الأنصاري الخزرجي أمير المسلمين بالأندلس، المكني بأبي الوليد.

وانظر إلى ما سبق لنا من الكتابة في شأن المرابطة بالأندلس، وذلك في خلاصة تاريخ الأندلس التي علقناها على رواية «آخر بني سراج» وهو ما يلي:

الفصل الخامس

في ذكر مشيخة المرابطين والغزاة من الإسلام والنصرانية

كانت الثغور منذ القديم مواطن الأمم المتناظرة، ومواقف الأقران من حماة الأقوام المتبارزة، وكماة الشعوب المتحاجزة، ومقامات صدق المجاهدين، ومظان النخوة الجائشة بالرءوس، للذب عن العرض والدين. ومنذ ظهرت دولة الإسلام، بما شرع فيها من الجهاد، لم تبرح مرابطة الثغور، ومحافظة الدروب، وبعوث الصوائف، من أركان الملة، وقواعد الدولة، وأعمدة سرادق الخلافة، يتنافس في الوفاء بها، والقيام عليها، الأطول يدًا، والأبعد همًّا، والأشد عزمة، والأنأى في المجد غاية، من خلائف الإسلام وسلاطينه، وأمراء التوحيد وأساطينه، ممن رفعوا في تعزيز الملة، وإجابة داعي الجنة، شأن الجهاد، ولم تزل آثار مساعيهم ظاهرة بهذه البقية من البلاد، فإن كان للإسلام لواء خافق فوق رءوس بنيه، فهو بقية ما عُقِدَ بأيدي الغزاة والمجاهدين، وإن كان تحت أقدامهم مواقع للامتناع، فهي نتيجة مواقع السيوف من رقاب المناهدين.

ولما كانت الجزيرة الأندلسية بموقعها من الاتصال ببر العدوة الأوربية والموازاة لبر العدوة المغربية غير منفصلة عنه إلا ببحر الزقاق، الذي يتراءى الساحل من ورائه، تعد ثغر الثغور بين البرين الكبيرين وموطن الرباط، ومعترك الثقاف من العنصرين العظيمين، استمر الجهاد فيها نيفًا وثمانمائة سنة، بين حماة الحنيفية والنصرانية منازعة الأرض بالشبر، فلما كان الإسلام هناك في عنجهيته، والعرب تترامى إلى الأندلس للاعتمار من جميع الأقطار،

قد عصفت ريحهم بأمم الفرنج، وأجفلت هذه بين أيديهم، وانهزمت من أوجههم، وانتظمت في أثناء ذلك دولة بني أمية في ذلك الصقع أعظم ما كان العرب نضارة، وأكمل عزًّا، وأبعد في العدو مغارًا، مضت على الإسلام في الأندلس ثلاثة قرون، كَنَّتْ فيها نفسها مئونة الجهاد، وقامت وحدها في وجه العدو الذي كان قد انضم بعد التخاذل، واستمسك بعد الاسترسال، إلى أن انقرض حبل الخلافة المروانية، وتشعبت الكلمة، وصار الأمر إلى ملوك الطوائف فاستأسد الفرنج، واقتحموا ثغور المسلمين، وأجلوهم عن كثير من القواعد والضواحي، فاستصرخ هؤلاء إخوانهم من وراء البحر، بحسب الانقطاع في تلك الجزيرة، فوافاهم مدد المرابطين من بني لمتونة، واستجاش يوسف بن تاشفين المغرب، فرمى إليه بأفلاذ أكباده من زناتة وضهاجة وغيرها، وأجاز إلى الأندلس بجحافله، فرد عادية النصارى، واسترجع كثيرًا من القواعد، ولم يلبث أن تأذن الله بانقراض أمد تلك الدولة، وقيام دولة الموحدين بني عبد المؤمن، فاقتدوا بسلفهم في الجهاد، وأجازوا إلى الأندلس على ظمأ من أهلها لنجدتهم، فصدموا تقدم العدو، وفلّوا غربه، ولم يسعد الإسلام الحظ بطول انتظامهم، وامتداد التئامهم، فخامر دولتهم الضعف واستولى عليها الانقسام وظهر في عقبها الفشل، وجاءت وقعة العقاب، لعهد الناصر من أمرائهم، الطامة الكبرى على الإسلام، فلم تقم له بعدها قائمة تحمد فيما وراء البحر، وانجلى أهله أمام العدو المتقدم إلى سيف البحر. وحشروا في مملكة ابن نصر الذي ضم شملهم في غرناطة وجوارها. ورأى المسلمون أن الأمر كاد يفلت من أيديهم، وإن منزلهم هناك أصبح قُلْمة،[١٠] وأن زيالهم لتلك الديار أضحى قريب الأجل كما يستدل على ذلك من كلام علمائهم وشعرائهم، كقول أبي البقاء الرندي:

قواعدُكنّ أركان البلادِ فما   عسى البقاء إذا لم تَبق أركان

وكقول غيره من قبله:

حثّوا رواحِلَكم يا أهل أندلس   فما المقامُ بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيـرة منسولًا من الوسط

وقول لسان الدين بن الخطيب وزير غرناطة الكبير، من جملة نصيحته لأولاده:

ومن رزق منكم مالًا بهذا الوطن القلق المهاد، الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضة للذلة والاحتقار، وساعيًا لنفسه، إن تغلب العدو على بلدة، في الافتضاح والاحتقار، ومعوقًا عن الانتقال أمام النوب الثقال.

ولما ضعفت حامية الأندلس بعد ذهاب بني عبد المؤمن، وضاقت مسالك المسلمين في الجزيرة، وتسامع بذلك أهل المغرب، نفروا للجهاد، وسابق إلى ذلك الأمير أبو زكريا بن أبي حفص، صاحب إفريقية (أي مملكة تونس) فأمدّهم بالمال والرجال، وأعطوه بيعتهم. ولما قامت دولة بني مرين، واستفحل أمر يعقوب بن عبد الحق، واستبد بسلطنة المغرب، وكان عظيم الاستعداد في نفسه لإحراز تلك المثوبة وبلوغ هاتيك الرتبة، وأهمه شأن ابن أخيه إدريس بن عبد الحق، لما وقع بينهما من المنافسة، واستأذنه عامر بن إدريس في الجهاد، اغتنم هذه الفرصة، وعقد له على ثلاثة آلاف من مطوعة زناتة، وأجاز معه رحو ابن عمه ابن عبد الله بن عبد الحق. فكان لهم في الأندلس مقام كريم في الجهاد. ثم صارت الإجازة والجهاد شأن ذوي القرابة من ملوك المغرب المنافسين في الملك، والمزاحمين في الدولة، اغتنامًا للأجر والذكر. وتوسلًا إلى قطع أسباب المنافسة بالغربة والانقطاع. وهؤلاء مثل أبناء أعمام الملوك من بني مرين، الملقبين بالأعياص. ومثل عبد الملك يغمراسن ابن زيَان، وعامر بن منديل بن عبد الرحمن، وزيان محمد بن عبد القوي، فامتلأت الأندلس بأقيال زناتة وأعياصهم (إلى أن أقول):

ولما انتزى أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر علي ابن عمه صاحب غرناطة، كان شيخ زناتة بمالقة عثمان بن أبي العلاء إدريس من آل عبد الحق، فانتصر به أبو الوليد على ابن عمه، ولما استتب له الأمر عقد له على

> الغزاة من زناتة، وصرف عن تلك الرئاسة عثمان بن عبد الحق بن عثمان، فلحق بوادي آش مع السلطان أبي الجيوش، وصار حمو بن عبد الحق بن رحو من عملة عثمان بن أبي العلاء إدريس، بعد أن كانت الرئاسة له. وبَعُدَ صيت ابن أبي العلاء، واستفحل أمره، وعلت رايته، وأتاح الله للمسلمين من النصر على يده، ما لم يتوقعوه، ولما مات أبو الوليد سلطان غرناطة، وبويع ابنه صبيًّا، لنظر الوزير بن المحروق، استبد عليه ابن أبي العلاء شيخ الغزاة، فوقعت الفتنة بينه وبين الوزير، ونصب الوزير له كفئًا من ذوي قرباه، يحيى بن عمر بن رحوم، وارتحل عثمان، وبقي إلى أن استبد بالأمر السلطان محمد بن الأحمر، ونكب ابن المحروق، فاسْتُدْعِيَ عثمان ثانية لمشيخة المجاهدين، ومات لسبع وثلاثين سنة من إمارته عليهم وكان مكتوبًا على قبره هكذا: «هذا قبر شيخ الحماة، وصدر الأبطال والكماة، واحد الجلالة، لبث الأقدام والبسالة، علم الأعلام، حامي ذمار الإسلام، صاحب الكتائب المنصورة، والأفعال المشهورة، والمغازي المسطورة، إمام الصفوف، القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف، سيف الجهاد، قاسم الأعادي، وأسد الآساد، العالي الهمم، الثابت القدم، الهمام المجاهد الأرضَى، البطل الباسل الأمضى، المقدس المرحوم، أبي سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل، الهمام الكبير الأصيل، الشهير المقدس المرحوم، أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق. كان عمره ثمانيًا وثمانين سنة، أنفقه ما بين روحة في سبيل الله وغدوة، حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة.» ا.هـ.

فأنت ترى لماذا يخاطب هذا الرجل ملك أراغون بالكاف بينما يكون سلطان غرناطة نفسه مخاطبًا له بالجمع، فإن أبا سعيد عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق هو من بني مرين، ملوك المغرب، وهو شيخ الغزاة بالأندلس، وقد عمَّر ثمانيًا وثمانين سنة، وغزا سبعمائة وثلاثين غزوة، وبهذا كفاية ليخاطب الملوك بكاف المفرد.

كتاب آخر من سلطان غرناطة إلى نائب ملك أراغون بأَريُولة:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

من الأمير عبد الله إسماعيل بن فرج بن نصر، أيد الله أمره، وأعز نصره، إلى النائب عن السلطان ملك أراغون بأَرْيُولَة، الأجل المكرم، المبرور المشكور الأخلص، بيره جيل قَرَإلط، وصل الله عزه بتقواه، ويسّره لما يحبه الله ويرضاه، كتبناه إليكم من حمراء غرناطة، حرسها الله، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل، واليسر الأشمل، والحمد لله كثيرًا، والبر بكم والـ ... والشكر لمقاصدكم، في الوفاء ومذاهبكم، وإلى هذا فإنه بلغنا ... ضرر من جهة المسلمين ... أمر لا تعتقدوه فينا بوجه، فإننا لا نبدأ بنقض ما عاهدنا، ولا بحل ما عقدنا، وكونوا من ذلك على يقين، وما عهد السلطان ذُونْ جَقمِي عندنا إلا أثبت العهود وأحكمها، وقد عرفتم .... أننا لم نطلق الغارة على أرض ولد مَنْوَل إلا عن نكايات كثيرة صدرت لنا منها، وبقينا نطلب منه الإنصاف من أزيد من عام، ووجهنا إليه رسولًا إلى قشْتالة، فما أنصفنا أحد، ولا رأينا خلاصًا، فحينئذ انتصرنا لناسنا، حسبما هو الواجب علينا. وأما السلطان ذون جقمي فما صدر لنا منه إلا الوفاء، ولا يصدر له منا إلا ما صدر لنا منه من الوفاء بعهده والحفظ لبلاده، فلا تشكّوا في ذلك، فاعلموه والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه، وييسركم لما يحبه ويرضاه، والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا. وكتب في يوم الاثنين الرابع عشر لشهر ربيع الآخر من عام أربعة وعشرين وسبعمائة (صح هذا).

وقد كتب إلينا الأخ بنونة تحت نسخة هذا المكتوب ما يلي:

(١) في نفس الصحيفة مكتوبة ترجمة هذا الكتاب بالأسبانية بخط جميل جدًّا والأسطر مستقيمة الأفق أكثر من أسطر الكتاب العربي.

(٢) الترجمة الأسبانية مؤرخة في ١٤ ربيع الثاني عام ٧٢٤ مثل الأصل، ولكن فيها زيادة على الأصل هذه الجملة «الموافق من الشهر العجمي وهو ١٢ مارس ١٣٢٤».

(٣) إمضاء الملك في هذه الرسالة «صح هذا» وهو مكتوب بنفس القلم الذي كتب به الكاتب الرسالة السلطانية، بينما الإمضاء في كتب أخرى غيرها مكتوب بقلم آخر غليظ.

(٤) البياض الذي ترونه في هذه الرسالة هو أثر المحو أو العثّة.

(٥) نوع الخط في هذه الرسالة بين النوع المبسوط والنوع المجوهر، أما نقط الفاء والقاف فهو دائمًا على الطريقة المغربية.

(٦) الخطوط الأفقية التي ترونها تحت بعض الأعلام قد وضعتها بقصد تنبيهكم إلى أنها في الأصل مشكولة كذلك. أما اسم نائب ملك أراغون وهو الذي خوطب بهذه الرسالة فلم أستطع قراءته فصورته كما هو فيها.

(٧) لفظة دون Don التي معناها السيد كتبت في الرسالة رقم ٣ بالدال المهملة وهي في هذه بالذال المعجمة، ولعلهم جعلوا الذال مكان الدال لأن «الدون» في العربي معناه الخسيس، وأما «الذون» فلا يدل في العربي على شيء. ومثل هذا حصل في أيامنا فقد تبدلنا الضاد بالدال المهملة فصرنا نكتب في الرسائل وغيرها «ضون» بدلا من دون، تفاديًا من جرح العواطف.

كتاب آخر:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

السلطان الأجل، المرفع المكرم، المبرور المشكور، الأوفى الأخلص، ذون جَقْمي، سلطان بلنسية، وقُمط بُرجَلُونة، وصاحب قرسغة، وصل الله عزته بتقواه، وأسعده بطاعة الله ورضاه، مكرم مملكته، وشاكر ما أظهر من مودته، المحافظ على عهده، ورعى صحبته، الأمير عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر، أما بعد، فإنا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة، حرسها الله، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل، واليسر الأشمل، والحمد لله كثيرًا، وجانبكم مبرور، وقصدكم في الصحبة معلوم مشكور، ومحلكم في ملوك النصرانية المحل المعروف المشهور، وإلى هذا فقد وصل كتابكم المكرم، على يدي رسولكم إلينا، جوان أنريق، وقد حضر بين يدينا هو ورفيقه جقمى، من قلعة أيوب، وقررَا عندنا من محبتكم في صحبتنا، وقصدكم الجميل في حفظ عهد مولانا الوالد، قدّس الله روحه، ما شكرناه لكم، وعلمنا أنه الذي يليق بمثلكم من الملوك الأوفياء، ووصلنا المكتوب الذي وجهتم بتجديد الصلح الذي كان بين والدنا وبينكم لخمسة أعوام من الآن، وقد جددناه نحن على حسب ما اقتضاه مكتوبكم، والعقد

يصلكم صحبة هذا، ونحن على أولنا في حفظ عهدكم، والاغتباط بصحبتكم، والوفاء بما عقدناه معكم، وقد وجهنا إليكم صحبة رسوليكم أربعة من النصارى من أرضكم، فقصدنا منكم أيها السلطان أن توجهوا إلينا المسلمين الذين أخذتهم أجفانكم في سلوة،[١١] ثم بيعوا بميورقة، وتعملوا في ذلك ما يقتضيه وفاؤكم الصادق، ونحن قد أمرنا أن يبحث عما أُخذ من أرضكم من النصارى في الصلح، ويعمل في ذلك ما هو الواجب، ومما نعرفكم به أنه في هذه الأشهر السالفة أخذ عمر بطرُه أفرد (كذا) من سكان أريوله شَبطيًّا[١٢] في المدور، وأخذ بطرف الغبطة اثنا عشر شخصًا من أهل المرية، فنريد منكم أيها السلطان أن يعز عليكم هذا الحال، وتعملوا فيه ما يعمله سلطان مثلكم، وتوجهوا إلينا هؤلاء المسلمين، وتأمروا رجالكم بكف الضرر عن أرضنا، على المعلوم من وفائكم، وحفظكم للعهد، والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه، وييسركم لما يرضاه. والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا. وكتب في الحادي عشر لجمادى الآخرة عام ستة وعشرين وسبعمائة (صح هذا).

وكتب هنا ما يأتي:
جواب السلطان — ثم كتب في الورقة نفسها ما يأتي:

السلطان الأجل، المرفع المكرم، المبرور المشكور، الأوفى الأخلص، ذون جقمى سلطان بلنسية، وقمط برجلونة، وصاحب قرسغة، وصل الله عزته بتقواه، وأسعده بطاعة الله ورضاه.

(رقم هذا الكتاب في المجموعة ٢٦)

كتاب آخر رقمه في المجموعة ٢٧:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى الكريم وعلى آله وسلم تسليمًا.

ليعلم من يقف على هذا الكتاب ويسمعه أننا الأمير عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر سلطان غرناطة، ومالقة، والمرية، ورندة، والجزيرة الخضراء ووادي آش، وأمير المسلمين، لما وصلنا من قبلكم أيها السلطان المعظم، الملك المبرور، الوفي المشكور، المرفع الأخلص، دون

جقمى، ملك أراغون وبلنسية، وسردانية، وقرسغة، وقمط برجلونة، رسولكم المكرم جوان انريق، الذي وجهتموه إلينا بكتابكم، وبالعقد الذي عقدتموه على نفسكم، وجعلتم عليه طابعكم المعهود عنكم بأنكم قد جددتم معنا الصحبة التي كانت بين والدنا رحمه الله وبينكم، وعقدتم معنا صلحًا مبنيًّا على الصفاء والوفاء لخمسة أعوام أولها نصف شهر مايُه. الموافق للتاريخ أدناه. أن جددنا معكم الصلح والصحبة، على الفصول التي انعقدت بين والدنا وبينكم، وأمضينا حكمه على نفسنا، وجميع أهل بلادنا، إمضاء صحيحًا لا ينقض له حكم، ولا يغير له رسم، إلى انقضاء أمده المحدود، يشمل حكمه البر والبحر على شروط تتفسّر: فمنها أن تتردد أجفاننا إلى سواحكم وأجفانكم إلى سواحلنا، وناسنا إلى أرضكم، وناسكم إلى أرضنا، آمنين برًّا وبحرًا، في نفوسهم وأموالهم، وجميع أحوالهم، محفوظين محروسين حيثما حلّوا، وأينما ساروا، لا يلحقهم ضرر بوجه من الوجوه، في بر ولا بحر، في سر ولا جهر، ويباح لهم البيع والشراء، في جميع الأشياء، بسوقها المعتاد هنالك، وإخراج ما يشترونه من إحدى الجهتين إلى أخرى، من غير شيء يلزمهم في ذلك، إلا ما جرت به العادة، في الحقوق المخزنية، على العادة في الصلح المتقدم، من غير زيادة. ما عدا الأمور التي جرت العادة أن يمنع خروجها من إحدى الجهتين إلى أخرى. ومنها لا تتطرق أجفاننا لأجفانكم، ولا أجفانكم لأجفاننا، في بحر ولا مرسى، كان فيها من كان من عدو أو صديق، وإن استوليتم على جفن من أجفان[١٣] المسلمين أو النصارى من غير أجفاننا، وكان في ذلك الجفن أحد من أهل أرضنا، أو استوليتم على طائفة المسلمين، وكان فيهم أحد من أهل أرضنا، فتسرّحون (كذا) من أخذتم من أهل أرضنا بأموالهم في الحين، ومثل ذلك يكون العمل معكم من جهتنا، ومنها أن تتعرضوا لمرسى من مراسينا كان فيها من كان من عدو أو صديق، ولا تتطرقوا بضرر لما في مراسينا، وسواحل بلادنا، وبحارها من الأجفان، كانت لمن كانت من المسلمين أو النصارى، ومن أي جهة كانت لا سبيل لأجفانكم عليها بوجه، ولا على حال، مدة هذا الصلح إلى انقضائها، وأن لا تعينوا علينا عدوًّا من المسلمين ولا النصارى في بر ولا بحر، بوجه من وجوه الإعانة، ومثل ذلك يكون العمل معكم من جهتنا، ومنها أنه إن هرب من أرضنا أحد خرج عن طاعتنا فلا

تضموه ولا تسرّحوا له قوتًا ولا شيئًا من الأشياء ولا تعينوا علينا أحدًا على خالص الأحوال، ومثل ذلك يكون العمل معكم من جهتنا، ومنها أن لا تمنعوا المسلمين المدجنين الساكنين بأرضكم من الخروج بأموالهم وعيالهم وأولادهم، من غير أن يُتعسف عليهم في شيء ولا أن يُطلب منهم مغرم إلا ما جرت به العوائد في مثله، من غير زيادة. وعلى هذه الشروط أعطيناكم عهدنا ثابتًا صحيحًا، والتزمنا الوفاء به إلى أقصى أمده، ما وفيتم لنا بما اقتضاه هذا المكتوب من الفصول وجعلنا الله شاهدًا بيننا وبينكم، والله خير الشاهدين، ولأن تكونوا منه على صحة ويقين أمرنا بكتب هذا الكتاب، وجعلنا عليه خط يدنا وطابعنا، شاهدًا علينا، في أواسط شهر جمادى الآخرة عام ستة وعشرين وسبعمائة (جملة لم تمكن قراءتها) إلى انقضائها صح في تاريخه المؤرخ به. (صح هذا).

ثم علَّق على هذا الكتاب الأخ بنونة بما يلي:

إن فصول المعاهدة متبادلة بين الملكين إلا الفصل الأخير فإنه لا مقابل له، فهل مملكة الأمير محمد بن الأحمر هذا لم يكن بها أناس من النصارى؟ أو هل كانوا بها ولكنهم كانوا راضين عن حكم المسلمين لا يطلبون السكنى بأرض ملوك ملتهم؟ وهل وقع هذا النقص في المعاهدة عن سهو من الكاتب، أو عن عمد من الملك؟ هذه أسئلة ترد ولكني لم أستطع الجواب عنها فأريد رأيكم، والله يطيل عمركم. ثم لا يعزب عنكم أن هذه المعاهدة على ما يظهر من صدرها، ومن الكتاب المرفق بها، هي ترجمة للعقد الذي أتى به جوان انريق، فهل جقمى نفسه يتبرع بتسريح المسلمين المدجنين من غير أن يحتفظ للنصارى المدجنين بمثل هذا التصريح من قبل محمد بن إسماعيل؟ لعل في الأمر سرًّا لم أفهمه. ا.هـ.

ونحن نجيب على هذا السؤال جوابًا بغاية البساطة وهو:

إن المسلمين المدجنين في ممالك النصارى لم يكونوا خرجوا من بلادهم بعد استيلاء النصارى عليها كما خرج إخوانهم إلا بسبب العجز عن السفر، ولم يلبثوا في تلك الأرض إلا انتظارًا لأول فرصة يتمكنون فيها من الخروج

منها، إلا أن النصارى كانوا يمنعونهم من الخروج استغلالًا لهم، واستفادة من عملهم ونشاطهم، فكانوا معهم في حكم الأرقاء، فلم يكن من مصلحة النصارى أن يخلوا منهم الديار والأراضي. وكان يوجد في أسبانية مثل سائر: حيث لا يوجد مدجنون لا يوجد غلة. فلا عجب بعد ذلك من أن نرى النصارى مانعين للمسلمين الباقين بين أظهرهم من أن يتركوا مزارعهم، ويخرجوا إلى بلاد الإسلام، فكان المسلمون المدجنون يئنون من هذا الضغط الواقع عليهم، ومن حالة الرق التي كانوا فيها، وكانوا يشتكون من وقت إلى آخر إلى ملوك الإسلام، طالبين إليهم أن يتوسطوا لدى ملوك النصارى في تركهم يخرجون إلى بلاد الإسلام، وما سمح فيليب الثاني ملك أسبانية، ولا هنري الرابع ملك فرنسا، بخروج المدجنين من بلدانهم إلا بعد إنذار السلطان أحمد العثماني، فلا عجب إذن في توسط سلطان غرناطة لدى سلطان أراغون في قضية الإذن للمدجنين بالخروج إلى بلاد الإسلام بأموالهم متى أرادوا.

فتقولون لماذا لم يطلب سلطان أراغون إلى سلطان غرناطة الإذن للنصارى بالخروج من بلاده؟ فالجواب على ذلك أن النصارى الذين كانوا في غرناطة وملحقاتها لم يكونوا تحت الضغط، ولا كانوا متعبدين، حتى يطلبوا الخروج منها، بل كانوا يؤثرون بلاد الإسلام على بلاد النصارى، وبالإجمال إذا استقرأ الإنسان التاريخ يجد النصارى مؤثرين العيش في بلاد المسلمين، ولا يحبون تركها، إلا فيما ندر لأسباب خاصة، وإن المسلمين الذين استولى النصارى على بلادهم كانوا يخرجون منها بأجمعهم ولم يكن يبقى فيها إلا من لا يستطيع إلى الخروج سبيلًا. نعم في هذين القرنين الأخيرين عندما استولت أوروبا على كثير من ممالك الإسلام التي أهلوها يحصون بعشرات الملايين، لم يكن لهم سبيل إلى الخروج منها، لأنه لا يوجد بلدان تسعهم فيرحلون إليها. ولأنهم لم يقطعوا الأمل من أن يرحل الأجنبي عنها.

كتاب آخر

من سلطان غرناطة إلى سلطان أراغون

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسول الله المصطفى الكريم وعلى (بياض المحو)

ليعلم من يقف على هذا الكتاب ويسمعه أننا الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر، سلطان غرناطة، ومالقة، والمرية، ووادي آش، وما إليها، وأمير المسلمين، لما وقفنا على عقد الصلح الذي أمضاه علينا محل والدنا السلطان الأوحد المعظم، أبو الحسن أمير المسلمين[١٤] ملك الغرب، أيده الله، مع السلطان المرفع، ملك قشتالة، ذون الهُنشه ومن مضمنه أنكم أيها السلطان المعظم، المرفع المبرور المشكور، الأوفى الأخلص، ذون الهنشُهْ،[١٥] ملك أراغون، وسلطان بلنسية، وسردانّية، وقمط برجلونة، إن أردتم إمضاء ... والدخول فيه، فإنه يمضي حكمه معكم، كما أمضى مع ملك قشتالة، وأردنا نحن أن نثبت هذا الصلح معكم، خصوصًا بما عندنا من الاعتقاد في وفائكم، والقصد الجميل في تجديد الصحبة التي كانت بين أسلافنا وأسلافكم، ودار بيننا وبينكم المكاتبة في ذلك، اقتضى نظرنا أن وجهنا رسولنا الحظي لدينا. القائد الأجل الأعز، الأرفع الأمجد، أبا الحسن بن كماشة. أعزه الله، نائبًا عنا في تثبيت ذلك الصلح معكم. وتوكيد حكمه. على حسب شروطه وربوطه المذكورة. التي انعقد عليها الصلح بحضرة فاس، حرسها الله، في عقده المؤرخ في شهر جمادى الآخرة من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة. المتضمن إمضاء ... لأربعة أعوام، أولها شهر مارس القريب لتاريخه، فوصلنا رسولنا منكم بمكتوب عنكم، عليه طابعكم المعهود منكم، مضمنه أنكم قد رضيتم بالدخول في الصلح المذكور معنا على شروطه المذكورة في عقده، لانقضاء أمده وارتبطتم إليه، والتزمتم حكمه عنكم وعن أولادكم وإخوتكم ورغمائكم، وفرسانكم ورعيتكم، في البر والبحر، بالوفاء الخالص في السر والجهر، وأنكم قد جددتم مع رسولينا (كذا) المذكور ... وبما أعطيناهما (كذا) من المقر أمرنا نحن بكتب هذا المكتوب بأننا قد التزمنا لكم الوفاء بذلك الصلح، على حسب فصوله، وإلى آخر أمده، بنية صادقة، وصفاء طوية في السر والجهر، وأعطيناكم عهد الله وميثاقه، على الوفاء به. إلى أقصى أمده برًّا وبحرًا عن نفسنا وعن قوادنا وخدامنا، وجميع أهل مملكتنا، لا تنقض له حكمًا، ولا نغير له رسمًا، ولأن يكون هذا ثابتًا، وتكونوا منه على صحة ويقين، جعلنا عليه خط يدنا وعلقنا عليه طابعنا، شاهدًا علينا. والله خير الشاهدين، وكتب في أواخر شهر ذي القعدة من عام خمسة وثلاثين وسبعمائة عرّف الله

تعالى خيره وبركته، بمنّه وجوده، وطوله فيه (على بشر[16] التي انعقد عليها الصلح بحضرة فاس حرسها الله صحيح منه وفي تاريخه). (صح هذا).

وقد كتب تحت هذا المكتوب الحاج محمد العربي بنونه ما يلي:

الذي وضعناه بين هلالين لم نفهم معناه تمامًا، وهو بالأصل ظاهر مشكول تام الحروف. ثم يقول لنا: هذه الرسالة من روائع ما كتبته يد خطاط. قد بلغت الغاية في حسن الخط، ونوع خطها هو المسمى عندنا بالمغرب المبسوط، وهو يشبه النسخي عندكم بالمشرق. ثم يقول لنا: الهنشه هذا هو الفونس الحادي عشر Alfonso Xl ملك قشتالة وليون، تولى من سنة ١٣١٢، وقتل بجبل طارق سنة ١٣٥٠، وهو الذي تعاهد مع ملك البرتغال، وحارب معه جيوش الأندلس والمغرب، وهزمهم قرب مدينة طريف، وقد شرحتم ذلك في كتابكم خلاصة تاريخ الأندلس صفحة ١٤٢. وشرحه أيضًا الناصري في كتاب الاستقصاء صفحة ٦٦ من الجزء الثاني. ا.هـ.

قلت: أما الذي كتبته في خلاصة تاريخ الأندلس حسبما قال الفاضل الحاج محمد العربي بنونة فهو هذا: وفي سنة ٧٣١ توفي أبو سعيد المريني، وقام بالأمر بعده ولي عهده الأمير أبو الحسن، وكان من أجل سلاطين الإسلام، فاشتغل مدة بإطفاء فتن مملكته، ولما خلص له المغرب وجه عنايته إلى الجهاد، وسمت نفسه إلى حال جده أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، وكان الإسبانيول، بما طرأ على المغرب من الفرقة والاختلال وشجر بين المسلمين، دون التواني لنصرة بعضهم بعضًا، قد تغلبوا على كثير من حصونهم. ونازلوهم في عقر دارهم غرناطة، وضربوا الجزية على أبي الوليد، فأدّاها عن يد الذل، فاعتزم أبو الحسن الجهاد، وجهز الأساطيل، وسرّح بالجيش ابنه الأمير أبا مالك، فغزا أرض العدو، وأثخن وغنم، وجمع له العدو فأشير عليه بالخروج من دار الحرب اعتصامًا، فأبى إباؤه، وأقام بأرضه، فأدركوا عسكره وهم في مضاجعهم، وقُتل أبو مالك قبل أن يستوي على جواده، وتسلم الإسبانيول أكثر قومه، وغنموا ما معهم. ووصل النعي أبا الحسن والده، ففت في عضده، وتفجع، وأعمل في النفير للجهاد، والأخذ بالثأر، واستدعى الأساطيل من مراسي العدوة، وأنجده الموحدون من تونس بأسطول بجاية، عليه زيد بن فرحون. قائد البحر. ووافاه أسطول طرابلس وقابس وجربة. واجتمعت كلها بسبتة. معقودًا عليها لمحمد ابن العزفي. وزحفت إلى أساطيل الإفرنج. فتحاجزت وتناجزت. وأهبَّ الله ريح النصر من جهة بني مرين، فخالطوا سفن الإفرنج.

واستلحموا مقاتلتها وقتلوا قائدهم الملند، وعادوا بالسفن مجنوبة إلى مرفأ سبتة. وطيف بالرءوس، وجلس السلطان للتهنئة. وكان يومًا مشهودًا.

ثم أخذ يجيز العساكر إلى الأندلس، وأجاز على أثرها ختام سنة ٧٤٠، وخيّم بساحة طريف، ووافاه سلطان غرناطة بغزاة زناتة، وجنود الأندلس وشددوا الحصار على طريف، وجاء الإسبانيول بأسطول عظيم، حالوا به بين العدوتين، وامتنع البلد ففنيت الأقوات، واختلت أحوال المعسكر، وتكاثرت جموع الإسبانيول، وأصرخهم صاحب لشبونة البرتغال، فجاء بقومه ودخلوا البلد ليلًا على حين غفلة، وكمنوا في مكان. وفي الغد تزاحف الجمعان فبرز الجيش الكمين من البلد، وخالفوا إلى معسكر السلطان وعمدوا إلى فسطاطه، فدافعهم الحراس، فقتلوهم، وفتكوا بحظايا السلطان، عائشة بنت عمه، وفاطمة بنت السلطان أبي يحيى صاحب إفريقية، وغيرهما وسلبوا الفسطاط وأحرقوا المعسكر، فلما رأى المسلمون ما حل وراءهم بالمعسكر اختل مصافهم، وأُخذ ابن السلطان أسيرًا لمخالطته العدو في تقدمه، وانحاز أبو الحسن مع فئة من أبطاله فدافع ونجا ووصل الطاغية إلى محلة السلطان، فأنكر على قومه قتل النساء والأولاد. وانهزم ابن الأحمر إلى حمرائه، وخلص أبو الحسن إلى الجزيرة، فجبل طارق، ومنها إلى سبتة، وكانت وقعة مشئومة على المسلمين، عظم فيها البلاء، وفدحت الرزيئة، وجل الخطب.

وقد بالغ بعض مؤرخي الإفرنج في تقدير خسائر المسلمين، فزعم بعضهم أنه قتل منهم مائتا ألف. وأن خسائر الإسبانيول كانت نحوًا من عشرين قتيلًا فقط، وهذا أشبه بقول بعض مؤرخي الإسلام إن خسائر الإفرنج في وقعة الدون بتره بلغت خمسين ألفًا، ولم يستشهد من المسلمين إلا ثلاثة عشر فارسًا، وقيل عشرة فقط مما يدل على تأخر فن النقد في تلك الأعصار، وقبول الأخبار على علاتها بدون عرضها على العقل، ولا سبرها بمعيار الحكمة والنظر، على أن هاتين الوقعتين تتشابهان في قضية أسر نساء الملوك، ففي الأولى أسرت امرأة الطاغية حسب قول العرب، وفي الثانية أسرت بعض نساء السلطان أبي الحسن، عدا من قتل منهن.

وبعد هذه الوقعة اشتدت وطأة الإسبانيول على المسلمين وطمعوا في التهام بقية الأندلس، ونازلوا قلعة بني سعيد، وأخذوها بعد حصار شديد، فأعاد أبو الحسن بن مرين الكرة، وجهّز الأساطيل، وسرَّب البعوث إلى الجزيرة الخضراء، وتلاقت الأساطيل الإسلامية بالأساطيل النصرانية، فقضي بهزيمة المسلمين، وملك أسطول الطاغية بحر

الزقاق، وسمالة شوق إلى استخلاص الأندلس، فبعث النفير، ووافته النجدات وحضرت الأوامر من البابا بوجوب القيام يدًا واحدة لطرد مسلمي الأندلس وانضم إلى الفونس ملك قشتالة كثير من الملوك، ووافاه من أنسباء ملك إنكلترة، الكونت دربي، والكونت سالسبري، وغاسطون، وكونت دفوا، وكونت دو بيارن، وغيرهم، وزحف الجميع، ونازلوا الجزيرة الخضراء. ليلحقوها بطريف، ويستولوا على فرضة مجاز المسلمين، وحشروا إليها الفعلة والصناع، للنقب والحفر، وأطالوا حصارها، واتخذوا المعسكر بيوتًا من الخشب، بقصد المطاولة، كما اتخذوا لمعسكرهم في القرن التالي بيوتًا من الحجر، وهم على غرناطة. وجاء سلطان غرناطة لمدد الجزيرة، فنزل بظاهر جبل طارق. وطال الحصر، وأصاب أهل الجزيرة الجهد، فسألوا الأمان. فبذلوه لهم. وخرجوا إلى المغرب. وذلك سنة ٧٤٣ فأنزلهم أبو الحسن المريني خير نزل. ا.هـ.

استوفينا ذكر هذه الواقعة لأنها كانت من مقدمات سقوط الإسلام في الأندلس فإن الإسبانيول من بعدها أحاطوا بالجزيرة الأندلسية من جهة المغرب. وصارت مملكة غرناطة في حكم المحصور. وآل أمرها إلى التلاشي، بحيث لم تمض مائة وخمسون سنة بعد ذلك، حتى صارت أثرًا بعد عين.

ولننظر ما قاله في شأن هذه الوقائع صاحب كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، العلامة الشيخ أحمد بن خالد الناصري السلاوي رحمة الله، قال:

> لما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه، وعلت على الأيدي يده، وانفسح نطاق ملكه، دعته إلى الجهاد، وكان كلفًا به، فأوعز إلى ابنه الأمير أبي مالك أمير الثغور الأندلسية، سنة ٧٤٠، بالدخول إلى دار الحرب، وجهز إليه العساكر من حضرته، وأنفذ إليه الوزراء، فشخص أبو مالك غازيًا وتوغل في بلاد النصرانية واكتسحها، وخرج بالسبي والغنائم، فاتصل به الخبر أن النصارى قد جمعوا له، وأنهم أغذوا السير في اتِّباعه، فأشار عليه الملأ بالخروج من أرضهم، وعبور الوادي الذي كان تخمًا بين أرض المسلمين ودار الحرب، وأن يتحيز إلى مدن المسلمين فيمتنع بها، فلجَّ في إبايته، وصمم على التعريس، وكان قرمًا ثبتًا، إلا أنه غير بصير بالحرب لصغر سنه، فصبّحتهم عساكر النصرانية في مضاجعهم، قبل أن يركبوا، وخالطوهم في بياتهم، وأدركوا الأمير أبا مالك بالأرض قبل أن يستوي على فرسه، فجدّلوه، واستلحموا الكثير من قومه، وأحنوا على المعسكر بما فيه

من أموال المسلمين وأموالهم ورجعوا على أعقابهم، واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن، فتفجع لهلاك ابنه، واسترحم له، واحتسب عند الله أجره، ثم أنفذ وزراءه إلى سواحل المغرب، لتجهيز الأساطيل، وفتح ديوان العطاء، وعرض الجنود، وأزاح عللهم، واستنفر أهل المغرب كافة، ثم ارتحل إلى سبتة، ليباشر أحوال الجهاد، وتسامعت به أمم النصرانية، فاستعدوا للدفاع، وأخرج الطاغية أسطول إلى الزقاق، ليمنع السلطان من الإجازة، واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسي المغرب، وبعث إلى أصهاره الحفصيين بتجهيز أسطولهم إليه، فعقدوا عليه لزيد بن فرحون، قائد أسطول بجاية، ووافى سبتة في ستة عشر أسطولًا إفريقية، كان فيها من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية، وتوافت أساطيل المغربين بمرسى سبتة، تناهز المائة، وعقد السلطان عليها لمحمد بن علي العزفي، الذي كان صاحب سبتة، يوم فتحها أيام السلطان أبي سعيد، وأمره بمناجزة أسطول النصارى بالزقاق، وقد تكامل عديدهم وعدتهم فاستلأموا وتظاهر في السلاح، وزحفوا إلى أسطول النصارى، وتواقفوا مليًّا، ثم قربوا الأساطيل بعضها من بعض، وقرنوها للمصاف، فلم يمض إلا كلا ولا، حتى هبّت ريح النصر، وأظفر الله المسلمين بعدوهم، وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هبرًا بالسيوف، وطعنًا بالرماح، وقتلوا قائدهم الملند، واستاقوا أساطيلهم مجنوبة إلى مرسى سبتة، فبرز الناس لمشاهدتها، وطيف بكثير من رءوسهم في جوانب البلد، ونظمت أصفاد الأسرى بدار الإنشاء، وعظم الفتح، وجلس السلطان للتهنئة، وأنشد الشعراء بين يديه، وكان ذلك يوم السبت سادس شوال سنة ٧٤٠، فكان من أعز أيام الإسلام.

ثم شرع السلطان أبو الحسن في إجازة العساكر من المتطوعة والمرتزقة، وانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة، من العدوة إلى العدوة، ولما تكاملت العساكر بالعبور، وكانت نحو ستين ألفًا، أجاز هو أسطوله مع خاصته وحشمه، آخر سنة ٧٤٠، ونزل بساحة طريف، وأناخ عليها ثالث محرم من السنة بعدها وشرع في منازلتها، ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن الأحمر، في عسكر الأندلس من غزاة بني مرين، وحامية الثغور، ورجَّالة البدو، فعسكروا حذاء معسكره، وأحاطوا بطريف نطاقًا واحدًا، وأنزلوا بها

أنواع القتال، ونصبوا عليها الآلات، وجهَّز الطاغية أسطولًا آخر، اعترض به الزقاق، لقطع المرافق عن المعسكر، وطال مقام المسملين بمكانهم حول طريف ففنيت أزوادهم، وقلت العلوفات، فوهن الظهر، واختلت أحوالهم، ثم احتشد الطاغية أمم النصرانية، وظاهره البرتقال، صاحب اشبونة، وغرب الأندلس، وزحفوا إلى المسلمين، لستة أشهر من نزولهم على طريف ولما قرب الطاغية من معسكر المسلمين، سرّب إلى طريف جيشًا من النصارى، أكمنة بها إلى وقت الحاجة، فدخلوها ليلًا، على حين غفلة من العسس، الذين أرصدوا لهم، وأحسوا بهم آخر الليل، فثاروا بهم من مراصدهم، وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد، فقتلوا منهم عددًا، وقد نجا أكثرهم، فلبسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم، حذرًا من سطوته، ثم زحف الطاغية من الغد في جموعه إلى المسلمين، وعبَّأ السلطان مواكبه صفوفًا، وتزاحفوا، ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد، وهو الذي دخل ليلًا، وخالفوا المسلمين إلى معسكرهم، وعمدوا إلى فسطاط السلطان، فدافعهم عنه الناشبة الذين كانوا على حراسته، فاستلحموهم لقتلهم، ثم دافعهم النساء عن أنفسهن، فقتلوهن كذلك، وخلصوا إلى حظايا السلطان منهن عائشة بنت عمه أبي بكر بن يعقوب بن عبد الحق، وفاطمة بنت السلطان أبي بكر أبي زكريا الحفصي، وغيرهما من حظاياه، فقتلوهن، واستلبوهن، ومثّلوا بهن، وانتهبوا سائر الفسطاط، وأضرموا المعسكر نارًا، ثم أحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم، فاختتل مصافهم، وارتدوا على أعقابهم، بعد أن كان ناشنين ابن السلطان أبي الحسن صمم في طائفة من قومه وحاشيته، حتى خالطهم في صفوفهم، فأحاطوا به وتقبضوا عليه، وعظم المصاب بأسره، وكان الخطب على الإسلام قلّما فجع بمثله، وذلك ضحوة يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة من سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وولى السلطان أبو الحسن متحيّزًا إلى فئة المسلمين، واستشهد كثير من الغزاة، وتقدم الطاغية حتى انتهى إلى فسطاط السلطان من المحلة، فأنكر قتل النساء والولدان، وكان ذلك منتهى أثره، ثم انكفأ راجعًا إلى بلاده، ولحق ابن الأحمر بغرناطة وخلص السلطان أبو الحسن إلى الجزيرة الخضراء، ثم منها إلى جبل الفتح، ثم ركب الأسطول إلى سبتة ليلة غده ومحّص الله المسلمين وأجزل ثوابهم.

ولما رجع الطاغية من طريف استأسد على المسلمين بالأندلس، وطمع في التهامهم وجمع عساكر النصرانية، ونازل أولا قلعة بني سعيد ثغر غرناطة وعلى مرحلة منها، وجمع الآلات والأيدي على حصارها، وأخذ بمخنقها، فأصابهم الجهد من العطش، فنزلوا على حكمه سنة ٧٤٢، وأدال الله الطيب منها بالخبيث، وانصرف الطاغية إلى بلاده، وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعود إلى الجهاد، لرجع الكرة، فأرسل حاشرين، وأرسل قواده إلى سواحل المغرب، لتجهيز الأساطيل، فتكامل له منها عدد معتبر، ثم ارتحل إلى سبتة لمشارفة ثغور الأندلس، وقدم عساكره إليها مع وزيره عسكر بن تاحضريت، وعقد على الجزيرة الخضراء لمحمد بن العباس بن تاخضريت، من قرابة الوزير، وبعث إليها مددًا من العسكر مع موسى بن إبراهيم اليربناني من المرشحين للوزارة نيابة، وبلغ الطاغية خبره، فجهز أسطوله، وأجراه إلى بحر الزقاق لمدافعته، وتلاقت الأساطيل، ومحّص الله المسلمين، واستشهد منهم أعداد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق فملكه دون المسلمين، وأقبل الطاغية من أشبيلية في عساكر النصرانية، حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء، مرفأ أساطيل المسلمين، وفرضة المجاز، ورجا أن ينظمها في مملكته مع جارتها طريف، وحشر الفعلة والصناع للآلات، وجمع الأيدي عليها وطاولها الحصار، واتخذ أهل المعسكر بيوتًا من الخشب للمطاولة، وجاء السلطان أبو الحجاج ابن الاحمر بعساكر الأندلس، فنزل قبالة الطاغية، بظاهر جبل الفتح، في سبيل الممانعة وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة يسرب إلى أهل الجزيرة المدد من الفرسان والمال والقوت، في أوقات النفلة من أساطيل العدو، وتحت جناح الليل وأصيب كثير من المسلمين في ذلك، ولم يغن عن أهل الجزيرة ذلك المدد شيئًا، واشتد عليهم الحصار، وأصابهم الجهد، وأجاز السلطان أبو الحجاج إلى السلطان أبي الحسن يفاوضه في شأن السلم مع الطاغية بعد أن أذن الطاغية له في الإجازة مكرًا به، وأرصد له بعض الأساطيل في طريقه فصدقهم المسلمون القتال، وخلصوا إلى الساحل بعد غص الريق، وضاقت أحوال أهل الجزيرة ومن كان بها من عسكر السلطان، فسألوا الطاغية الأمان، على أن ينزلوا له عن البلد، فبذله لهم، وخرجوا فوفى لهم وأجازوا إلى المغرب سنة ٧٤٣، فأنزلهم

السلطان ببلاده على خير نزل، ولقّاهم من المبرَّة والكرامة ما عوضهم بما فاتهم، وخلع عليهم، وحملهم، ووصلهم بما تحدث الناس به، وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت، عقوبة له على تقصيره في المدافعة، مع تمكنه منها، وانكفأ السلطان أبو الحسن راجعًا إلى حضرته موقنا بظهور أمر الله، وإنجاز وعده، والله متمم نوره ولو كره الكافرون. ا.هـ.

وهذا كتاب آخر وجد تحت رقم ٢٨ من المجموعة البرشلونية:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليمًا.

السلطان الأجل المرفع، المكرم المبرور، الأوفى المشكور، الأخلص دون الفنشُه، سلطان أراغون وبلنسية وقرسغة وقمط برجلونة وصاحب سردانية، وصل الله كرامته بتقواه، وأسعده بطاعته ورضاه، حافظ عهده، وشاكر مذهبه في المصادقة وقصده، مكرم مملكته، وشاكر قصده، في خلوص مودته، الحافظ لعهده وصحبته الأمير عبد الله محمد ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر، أيده الله ونصره، أما بعد، فإنا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة، حرسها الله، عن الخير الأكمل واليسر الأشمل، والحمد لله كثيرًا، وجانبكم مبرور، وقصدكم في الصحبة مشكور، ومحلكم في سلاطين النصرانية معروف مشهور، وإلى هذا فإنه توجه في هذه الأيام خمسة أشخاص من التجار من أهل بلادنا ثقة بعهدكم، وركونًا إلى صحبتنا معكم، فتعرفنا أن النائب عنكم في قربليان ثقفهم، وثقف أموالهم، فخاطبناكم في شأنهم، وقصدنا منكم تسريحهم وتسريح أموالهم، وأن تنفذوا أمركم بذلك لمن ينوب عنكم تحفظوا بذلك عهدنا، وتقضوا لنا في ذلك ... نشكركم عليها وهذا قصدنا منكم فعسى أن تعملوا فيه ما هو المعلوم منكم، والمضمون عنكم، والله يصل كرامتكم بتقواه ويسعدكم بطاعته ورضاه، والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا، كتب في الموفى ثلاثين لجمادى الأولى من عام ثمانية وعشرين وسبعمائة. (صح هذا).

هذا الملك المكتوب إليه هنا هو الفونس الرابع الأراغوني، تولى أراغون وملحقاتها بعد جقمى الثاني من سنة ١٣٢٧ إلى سنة ١٣٣٦.

وتحت رقم ٣٢ من هذه المجموعة كتاب من أبي النعيم رضوان وزير ابن الأحمر إلى هذا الملك نفسه وهو ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

مولاي السلطان الأجل الأكرم، الأوفى المعظم، المشكور الأخلص، ذون الفنشُة، ملك أراغون، وبلنسية، وسردانية، وقرسغة، وقمط برجلونه. وصل الله عزته بتقواه، وأسعده بطاعة الله ورضاه، خديمه موفي واجب البر بجانبه، ومكمل الثناء على مقاصده في الوفاء ومذاهبه، رضوان بن عبد الله، وزير السلطان، ملك غرناطة ومالقة، والمرية، ووادي آش، وما إلى ذلك. كتبه إليكم من باب مولاه، أيده الله ونصره، بحمراء غرناطة حرسها الله، وليس بفضل الله سبحانه، ثم بنعمة مولاي أبقى الله إحسانه، إلا الخير الأكمل، واليسر الأشمل، والحمد لله كثيرًا، وعن العلم بمحلكم في السلاطين الأوفياء، والشكر لما لكم في الوفاء من المقاصد والأنحاء، وإلى هذا فموجبه إليكم، هو أن الزعيم المكرم، جقمى شارقة، قريبكم، اجتمع في محلة جبل الفتح ببعض ناس هذه الدار النصرية، وعرفهم بما عندكم من القصد الجميل في الصلح معها، وأنه لو خاطبكم مولاي في ذلك لعلمتم فيه ما يعود بتجديد الصحبة والمدة، وتوكيد العهد، وقد كتب إليكم في ذلك مولاي الكتاب الذي يصلكم، ووجَّهه مع خديمه التاجر المكرم بَشْقَلِين سريجة، وهو يصلكم بكتابه، وإن كان لكم غرض في هذه الحال فعرفوني، وأعمل فيها ما يكون فيه الخير للفريقين إن شاء الله، والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه، ويسعدكم بطاعته ورضاه، والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا، وكتب في اليوم الثامن عشر لشهر المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة. ا.هـ.

وهذا كتاب آخر تحت رقم ٣٣ من المجموعة البرشلونية من الوزير أبي النعيم رضوان نفسه إلى الملك الفونس نفسه:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

مولاي السلطان الأجل، المعظم المرفع الموقر، المبرور المشكور الشهير الأوفى، ذون الهنشة، ملك أراغون، وبلنسية وسردانية، وقمط برجلونة، وصل الله عزته بتقواه، وأسعده بطاعة الله ورضاه، معظم سلطانه، وموقر مكانه، وزير السلطان أيده الله ونصره، رضوان بن عبد الله، كتبه إليكم من باب مولاه بحمراء غرناطة، حرسها الله، ولا زائد بفضل الله، ثم ببركة أيام مولانا أدام الله إحسانه، إلا الخير الأكمل واليسر الأشمل، والحمد لله، وعن التعظيم لسلطانكم، والتوقير لملكتكم ومكانتكم، وإلى هذا فقد وصلني كتابكم المعظم صحبة رسول مولانا أيده الله إليكم القائد الأجل، أبي الحسن بن كُماشة، أعزه الله تقررون معتقدكم الجميل، وقد شكرت ذلك أبلغ الشكر، وعرفت ما عندكم من القبول والعناية والكرامة، وقابلت ذلك بما يجب من الثناء عليكم، واعلموا أنني لا أزال أؤكد العهد بين مولاي وبينكم وأثبت الود وأعمل في ذلك ما أوفى به حق خدمته وكرامتكم حسب الواجب علي، وقد ألقى إلي القائد أبو الحسن أعزه الله في ذلك ما وافق مقتضى كتابكم ووصل صحبته رسولكم الحظي لديكم، المكرم المبرور المشكور رَمُون بيل، وحضر بين يدي مولاي، أيده الله، وأوصل هديتكم إلى مولاي، ووقف عليها واستحسنها، ووقعت عنده أحسن موقع، وشكر قصدكم في ذلك، وكذلك وصل ما تفضلتم إلى معظم مجدكم، فقابلت سلطانكم بالشكر الجزيل، والثناء الجميل، وسرني عنايتكم، وحسن اعتقادكم وما مُعَظمكم إلا على ما يرضيكم، من الاعتقاد فيكم، فكونوا من ذلك على يقين، وقد ألقيت في ذلك إلى رسولكم المذكور، ما يلقيه إليكم في هذا المعنى، والله تعالى يصل عزتكم بتقواه، ويسعد سلطانكم بطاعته، والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا، كتب في السابع والعشرين لذي قعدة من عام خمسة وثلاثين وسبعمائة عرفنا الله بركته اختتامه بمنه وكرمه.ا.هـ.

وتحت رقم المجموعة ٣٤ الكتاب الآتي:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله.

مولاي الأَفَنْت الكبير، الأعز المرفع، المبرور المشكور، ذُنْ بِذْرُه، أدام الله لنا أيامكم، ووصل هدايتكم وإكرامكم، يسلم عليكم مقبل يديكم وخديكم، علي بن كماشة، من باب مولانا، أيده الله ونصره، وليس بفضل الله سبحانه، ثم

ببركة أيام مولانا، أدامها الله، إلا الخير واليسر، والحمد لله كثيرًا. والذي وجب به تعريفكم إنه وصل خديمكم رَمُون بُويل، وقضى رسالته كما يجب، وعمل أعمال الفرنسان الجياد، وأدخلني في محبتكم وخدمتكم، وأنا يا مولاي عملت في خدمتكم ما يعرفكم به خديمكم رمون بويل وتكلم أيضًا رمون بويل مع مولانا، نصره الله، وفي حق إن تلك الدار، وهذه الدار واحدة، فترى يصلكم كتاب مولانا السلطان، وهو كتاب محبة وصحبة، وترى يصلكم يا مولاي قوس إفرنجي، وكذلك يا مولاي نقبِّل بيد مولاي الأَفَنت أخيكم، ذن جيميه، وكذلك يصل له قوس إفرنجي، وذلك يا مولاي في حقكم. ومعاد السلام عليكم ورحمة الله وهدايته، وكتب بتاريخ الخامس عشر لشهر ذي حجة من عام خمسة وثلاثين وسبعمائة. ا.هـ.

وأردف ذلك الحاج محمد بنونة بقوله: ابن كُماشة[١٧] هذا أظن أني رأيت الكلام عليه في أحد كتب ابن الخطيب، إما في اللمحة البدرية، وإما في الإحاطة. اما بِذْرُه (أو بتُره كما ترى اسمه مكتوبًا في رسائل أخرى ستصلكم بعده) فهو الذي توج ملكًا على أراغون باسم بتُره الرابع من سنة ١٣٣٦ إلى سنة ١٣٨٧.

كتاب آخر من سلطان غرناطة إلى ملك أراغون تحت رقم ٣٣ في المجموعة:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

السلطان الأجل الأكرم، الأوفى المعظم، المبرور المشكور، الأخلص دون الفُنشُه، ملك أراغون وبلنسية وسردانية وقرسغة، وقمط برجلونة، وصل الله عزته بتقواه، وأسعده بطاعة الله ورضاه، شاكر البر بجانبه، المثني على مقاصده في الوفاء ومذاهبه، الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر أما بعد، فإنّا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة، حرسها الله، عن الخير الأكمل، واليسر الأشمل، والحمد لله كثيرًا، وجانبكم مبرور، وقصدكم في الصحبة مشكور، ومنصبكم في بيت المملكة معلوم مشهور، وإلى هذا فموجبه إليكم، هو أنه ما زالت الصحبة من دار غرناطة تتجدد بين أسلافنا، وإنّا وقفنا الآن في العقد الذي كان قد أُخذ مع

ملك قَشتلَّة على إشارة إلى صلحكم، فرأينا أن وجهنا كتابنا هذا إليكم، في شأن هذه القضية، فإن كان لكم في الصحبة والمصادقة غرض، فنحن نغتبط بذلك، وعندنا من المساعدة لكم عليه كل ما يرضيكم، فعرفونا بما عندكم في ذلك، ويصلكم بكتابنا هذا التاجر المكرم بُشْقَلِين شِريجه خديمنا أكرمه الله بتقواه، وقد ألقينا إليه في توكيد المودة ما يلقيه إليكم، وينصه عليكم، فاعلموا ذلك والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه، ويسعدكم بطاعته ورضاه، والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا، وكتب في يوم الأربعاء الثامن عشر لشهر المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، عرف الله تعالى خيره وبركته. (صح هذا).

لا بأس بأن نترجم هنا سلاطين غرناطة الذين صدرت عنهم هذه المكاتيب إلى ملوك أراغون، وقد اخترنا لهذه التراجم لسان الدين بن الخطيب، أعلم الناس بهم، وأقربهم إليهم، قال في اللمحة البدرية:

إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن قصر بن قيس الأنصاري الخزرجي، أمير المسلمين بالأندلس، يكنى أبا الوليد.

كان رحمه الله كريم الخلق، حسن الرواء، رجل جد، سليم الصدر، كثير الحياء صحيح العقد، ثبتًا في المواقف، عفيف الإزار، ناشئًا في حجر الطهارة، بعيدًا من الصبوة، بريئًا من المعاقرة، نشأ مشتغلًا بشأنه، متبنكًا بنعمة أبيه، مختصًّا بإيثار السلطان، جده أبي أمه، وابن عم والده، منقطعًا إلى الصيد، مصروف اللذة إلى استجادة سلاحه، وانتقاء مراكبه، واستفراه جوارحه، إلى أن قضى إليه الأمر وساعدته الأيام، وخدمه الجد، وانتقل به إلى بيت الملك، وثوى في عقبه الذكر، فبذل العدل في رعيته، واقتصد في جبايته، واجتهد في مدافعة عدو الله وعدوه، وسد ثلم ثغره، وكان غرة في قومه، ودرة في بيته، وحسنة من حسنات ذهره.

تخلف من الولد أربعة: أكبرهم محمد ولي عهده، والأمير من بعده. وفرج شقيقه التالي له، المنصرف عن الأندلس بعد مهلك أخيه، المتقلب أخيرًا في الإيالات المتوفي معتقلًا بالمرية، عام أحد وخمسين وسبعمائة، مظنونًا به الاغتيال. ثم أمير المسلمين أخوه أبو الحجاج، تغمده الله برحمته، أقعد القوم في الملك، وأبعدهم أمدًا في السعادة ثم إسماعيل أصغرهم، المبتلى زمن شبيبته بالاعتقال المخيف مدة أخيه المستقر بالمغرب.

وزراؤه: وزيره أول أمره القائد أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح، نُصير بن إبراهيم بن محمد بن نصير بن أبي الفتح الفهري، وبيت هؤلاء القواد شهير، ومكانتهم من الملوك النصريين مكينة، ثم أشرك معه في الوزارة الوزير أبا الحسن علي بن مسعود بن علي بن مسعود المحاربي، من أعيان الحضرة، وذوي النباهة، فجاذب رفيقه حبل الخطة ونازعه لباس الحظوة، حتى ذهب باسمها ومسماها، وهلك القائد أبو عبد الله بن أبي الفتح فخلص إليه شربها.

كتَّابه: كتب عنه لأول أمره بمالقة، ثم بطريقه إلى غرناطة، وأيامًا يسيرة بها، الفقيه الكاتب أبو جعفر بن صفوان المالقي. ثم ألقى المقادة إلى كاتب الدولة قبل شيخنا أبي الحسن بن جيَّاب فاضل الخطة، وباري القوس، واقتصر عليه إلى آخر أيامه.

قضاته: استقضى أخا وزيره الشيخ الفقيه أبا بكر يحيى بن مسعود بن علي، رجل الجزالة وفيصل الحكم، فاشتد في إقامة الحق، وغلظ بالشرع، واستعان بالجاه، فخيفت سطوته، واستمر قاضيًا إلى آخر أيامه.

رئيس جنده المغربي: ومن أول هذه الدولة نبهت هذه الرتبة، واستحقت إفرادنا إياها. الشيخ البهمة، لباب قومه، وكبير بيته، أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق، مشاركًا له في النعمة، ضاربًا بسهم في المنحة كثير التجني والدالة، إلى أن هلك المخلوع، وخلا الجو، فكان منه بعض الأنصار.

الملوك على عهده: أولًا بالمغرب ثم بفاس: السلطان الشهير، جواد الملوك، الرحب الجانب، الكثير الأمل، خِدن العافية، ومخالف الترفيه، ومتبجبح النعيم، السعيد على خاصته وعامته أبو سعيد عثمان ابن السلطان الكبير، المجاهد الصالح، المرابط أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق. وجرت بينهما المراسلات، واتصلت أيامه بالمغرب بعد مهلكه وصدرًا من أيام ولده الأمير أبي عبد الله، حسب ما يمر عند ذكره.

وبتلمسان: الأمير أبو حمو موسى بن عثمان بن يغمر اسن بن زيان. ثم توفي قتيلًا بأمر ولده على عهده سادس عشر جمادى الثانية من عام ثمانية عشر وسبعمائة ووليّ الأمر مغتاله ولده المذكور أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى، واستمرت أيامه بعد مهلك السلطان المذكور، واستغرقت أيام ولده الوالي بعده، إلى أن هلك في صدر أيام السلطان أبي الحجاج، وجرت بينه وبين السلطان أبي الوليد مراسلات ومهاداة.

وبمدينة تونس: الشيخ الملقب بإمرة المؤمنين، أبو يحيى زكريا بن أبي العباس بن أبي حفص، المدعو باللحياني، المتوثب بها على الأمير أبي البقاء خالد بن أبي

زكريا بن أبي إسحاق بن أبي حفص، وهو كبير آل حفص سنًّا وقدرًا. تملك تونس تاسع جمادى الآخرة من عام أحد عشر وسبعمائة وتم له الأمر واعتقل أبا البقاء بعد خلعه، ثم اغتاله، في شهر شوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة. ثم رحل عن تونس لما ظهر له من اضطراب أمره بها، وتوجه إلى أطرابلس في وسط عام خمسة عشر وسبعمائة، واستناب صهره الشيخ أبا عبد الله بن أبي عمران، ولم يعد إليها بعد ذلك ثم اضطرب أمر أفريقية، وتناوبه عدة من الملوك الحفصيين، منهم الأمير أبو عبد الله بن أبي عمران المذكور، وأبو عبد الله اللحياني، والسلطان أبو بكر بن الأمير أبي زكريا بن الأمير أبي إسحاق، لَبِنَة تمامهم، وآخر رجالهم. واستمرّت أيامه إلى مدة ولده الأمير بالأندلس، ثم معظم أيام ولديه. رحم الله الجميع.

ومن ملوك الروم: أولا بقشتالة: كان كل عهده، وبالزمن القريب من ولايته وفاة الطاغية هرانده بن شانجه بن الفونش بن هرانده (المجتمع له ملك ليون وقشتاله وهو المتغلب على قرطبة وأشبيلية ومرسية وجيان) ابن الهونش (الجارية له وعليه وقمتا الأرك والعقاب) ابن شانجه (المسمى انبرذور وهو الذي أفرد صهره زوج بنته بملك برتقال) إلى أجداد يخرجنا تقصِّي ذكرهم عن الغرض.

ومن ملوك رغون بشرق الأندلس: الطاغية جايمش ابن بيطرُه بن جايمش (الذي تغلب على بلنسية) ابن بيطره بن الهونش، إلى أجداد عدة كذلك. ثم هلك في آخر أيامه، فولى ملك رغون بعده الهونش بن جايمش إلى آخر أيامه.

وببرتقال: الهونش بن ذونيش بن الهونش بن شانجه بن الهونش بن شانجه بن الهونش، وتسمى أولًا دوقا.

بعض الأحداث وبداية أمره: ولما تصير الأمر إلى السلطان نصر، مدبّر الوثوب بأخيه، تنازعت بطانته، وساءت سيرة ملكه، فأغرى بالرئيس الكبير صاحب مالقة، وبيده الجزيرة وسبتة ويعقِّب عليه كثير من التصرف فيما بيده، ثم لما وصل إلى الحضرة مبايعًا، داخله بعضهم محذرًا ومشيرًا بالامتناع، فاستعجل الانصراف، وأظهر الاستبداد في رمضان سابع عشر منه. وأقام رسم الملك بولده السلطان أبي الوليد هذا، وتحرك فنازل الحصون المجاورة لمالقة واستولى عليها.

وفي أول شهر محرم من عام اثني عشر وسبعمائة تحرك فنزل بقرية العطشاء من مرجها. وبرز السطان نصر إليه، في جيش اخشن، مستجاد العدة وافر الرَّجْل فكان اللقاء ثالث عشر الشهر، فأظهر الله أقل الطائفتين، وانجرت على الجيش

الغرناطي الهزيمة. وكبا بالسلطان نصر فرسه في مجرى سقي لبعض الفدن، فنجا بعد لأي ودخل البلد مغلولًا، وانصرف الجيش المالقي ظاهرًا إلى بلده ثم وقعت المهادنة في ربيع الأول من هذا العام، وعادت الفتنة جذعة[١٨] في العام بعده.

وكانت في رمضان منه ثورة الأشياخ بغرناطة، ودعاؤهم بخلعان السلطان، ودعوة مخلوعه المعتقل، طالبين منه إسلام وزيره خِدن الروم، المتهم على الإسلام، محمد بن الحاج، ثم لحق الأشياخ المذكورون فارين بمالقة، عند اختلال ما أبرموه.

وكانت الحركة الثانية إلى غرناطة، بعد أمور اختصرتها من استبداد السلطان أبي الوليد بنفسه، والانحطاط في القبض على أبيه إلى هوى جنده، والتصميم في طلب حقه، فاتصل سيره، واحتل ببلدنا لوشة سرار شوال فتملكها. ثم قصد غرناطة، وبرز إليه جيشها، وأبلى في الدفاع فكادت تقع به الدبرة، لولا ثبوت السلطان وأسلفهم الحملة، فولوا منهزمين، وتبعهم إلى سور المدينة. وقد خف اللفيف والغوغاء، والناعقون بالخلصان، الشرهون إلى تبديل الدعوات، إلى تسنم المآذن والمنارة والربى. وبرز أهل ربض البيازين الهافون إلى مثل هذه البوارق، إلى شُرُف بيوتهم كل يشير مستدعيًا مستقدمًا، إعلانًا بسوء الجوار، وملال الأيالات، والانحطاط في وهد التقلب والتلوُّن، وسآمة العافية: شنشنة معروفة، وخليقة في الخليقة مألوفة. وبودر غلق باب البيرة فنقض قفله، ودُخلت المدينة، ولجأ السلطان إلى معقل الحمراء، ودخله بأهله وذخيرته وخاصته، ونزل الدائل بالقصبة القُدمى تجاهها، ينفذ الصكوك، ويتألف الشارد، ويذيع العفو، وضعفت بصائر المحصورين وفشلوا — على وجود العاصمة، وتمكن المنعة، ووفور المال — فالتمسوا لأنفسهم ولسلطانهم عهدًا ونزلوا منتقلين إلى مدينة وادي آش، في سبيل العوض بمال معروف، وذخيرة، فتم ذلك، وخرج السلطان نابيًا به قرار جده وأبيه، جانبًا على ملكه الأخابثُ الأغمار، ليلة الثامن والعشرين لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة، إلى أن هلك حسب ما تقدم ذكره، وخلا للسلطان أبي الوليد الجوّ، وضربت إليه المقادة، وأطاعه القاصي والداني، ولم يختلف عليه اثنان.

مناقبه: اشتد على أهل البدع، وقصر الخوض على ما تضطر إليه الملّة. ولقد تذوكر يومًا بين يديه أصول الدين فقال: أصول الدين عندي: (قل هو الله أحد) (السورة) وهذا (وأشار إلى سيفه).

واعتنى بأهل بيت رسول الله ﷺ، فبذل في فداء بعض أعلامهم ما يعز بذله، ونقل منهم بعضًا من حرف خبيثة، فزعموا أنه رأى رسول الله ﷺ يشكر له ذلك.

واشتد في إقامة الحدود، وإراقة المسكرات.

وأخذ يهود الذمة بالتزام سِمة تشهرهم، وشارة تميزهم، ليوفوا حقهم، من المعاملة التي أمر بها الشارع في الطرق والخطاب.

جهاده وبعض الأحداث في مدته: التاثت أموره لأول مدته، فجرت عليه الهزيمة الشنيعة بوادي فرتونة. أوقع بجيشه الطاغية بمظاهرة السلطان المخلوع، ففشا في الأعلام يومئذ القتل في صفر عام ستة عشر وسبعمائة، وظهر العدو بعدها على حصن قنبل، وحصن متمانس، وحصن نجيح وحصن تشكر، وحصن رُوط، ثم صرفت المطامع عزمه إلى الحضرة، فقصد مرجها وكف الله عاديته، وقمعه، ونصر الإسلام عليه، ودالت للدين الهزيمة العظمى بالمرج على بريد منها. واستولى على محلاته النهب، وعلى فرسانه ورجاله القتل والإسار، وعظم الفتح، وبهر الصنع، وطار الذكر، وثاب السعد، واستقامت الأيام. وهلك المخلوع، فصفا الجو، واتحدت الكلمة، وأمكن الجهاد، فتحرك في رجب من عام أربعة وعشرين وسبعمائة، وأعمل الحركة إلى بلاد العدو، ونازل اشكر الشجَي المتعرض في حلق مدينة بسطة، فأخذ بمخنقها، ونشر الحرب عليها ورمى بالآلة العظمى، المتخذة بالنفط، كرة محماة طاقة البرج المنيع من معقله، فعاثت عياث الصواعق السماوية، فنزل أهلها قسرًا على حكمه للرابع والعشرين من الشهر، وفي ذلك يقول شيخنا الحكيم أبو زكريا بن هذيل رحمه الله من قصيدة أولها:

بحيث البنود الحمرُ والأسد الوردُ   كتائب سكان السماء لها جندُ

وفي وصف آلة النفط:

وظنوا بأن الرعدَ والصعقَ في السما   فحاق بهم من دونها الصعقُ والرعدُ
غرائبُ أشكال سَما هُرمِس بها   مُهنْدَمَةٌ تأتي الجبالَ فتنهدُّ
ألا إنها الدنيا تريك عجائبا   وما في القُوَى منها فلا بد أن يبدو

وأقام رحمه الله بظاهرها فصيرها دار جهاده، وعمل في خندقها بيده، وفي ذلك يقول شيخنا كاتب سره، نسيج وحده أبو الحسن بن الجياب، رحمه الله من قصيدة أولها:

أمَّا مَداكَ فغايةُ لم تُسبق ... أعيت على غُرّ الجياد السبقِ
فاشرح بسعدك كلَّ معنًى مشكلٍ ... وافتح بسيفك كلَّ باب مغلق

في وصف عمله في خندق الحصن:

لله منك مشاهِدُ مشكورة ... عند الإله بمثلها لم تُسبقِ
مثل الحفير بها الذي باشرته ... فِعلَ الرسول وصحبِهِ في الخندق

وفي العاشر لرجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة تحرك إلى الغزو، وأخذ الأهبة، واستكثر من الآلة، واحتشاد المطوعة، وقصد مدينة مُرْتُش العظيمة الساحة الطيبة البقعة، فأضرب بها المحلات، وكان قصده إجمام الناس إلى الغد، فصرفت الحشود وجوهها إلى ما بها من شجر الكروم الملتفات، وأدواح الأشجار، فأمعنوا في إفسادها، وبرز حاميتها، فناشبت الناس القتال فحميت النفوس، وأريد منع الناس فأعيا أمرهم، وسال منهم البحر، فتعلقوا بالأسوار، وقيل للسلطان: بادر الركوب، فقد دُخِل البلد، فركب ووقف بإزائه، فدخل الحصن عنوة، واعتصم أهله بالقصبة فدُخلت أيضًا عنوة، وانطلقت أيدي الغوغاء على من بها من ذكر وأنثى، صغير أو كبير، فساءت القتلة، وقبحت الأحدوثة، ورفعت من الغد آكام من الجثث، صعدت ذراها المؤذنون، وقفل إلى غرناطة بنصر لا كفاء له. وكان دخوله من هذه الغزاة في الرابع والعشرين لرجب المذكور.

وفاته: ولما فصل من مَرتُش، نقم على أحد الرؤساء من قرابته، وهو ابن عمه محمد بن إسماعيل المعروف بصاحب الجزيرة، أمرًا فقرّعه عليه، وبالغ في تأنيبه، وتوّعده بما أثار حفيظته، فأقدم عليه بالفتكة الشنعاء، التي ارتكبها منه بباب قصره، بين عبيده آمَنَ ما كان سِرْبًا، وأعز نفرًا، وأمكن امتناعًا، غدوة يوم الاثنين الثالث من يوم دخوله، بعد أن عاهد في الأمر جملة من القرابة والخدام، ووثب به وهو مجتاز بين السماطين من ناسه، إلى مجلس العقود الخاص، فاعتنقه، وسل خنجرًا ملصقًا

بذراعه فأصابه بجراحات ثلاث: إحداهن بأعلى ترقوته، فَرَت وَدَجَه، فخر صريعًا وصاح فكر الوزير، فعمّمته سيوف الحاضرين من أصحاب الفاتك، ووقعت الرجة، وسُلت السيوف، وتشاغل كلٌّ بمن يليه، واستُخلص السلطان من بين يديه، وحِيلَ بينه وبينه، فرُفع وظنت نجاته، فوقع البهت، وبادر الفرار، وقد سدّت المذاهب فقُتلوا حيث وجدوا.

وأخذت الظِنَّة قوما من أبريائهم، فاستُحلفوا ونهبت الغوغاء دورهم وعلقت بالجدران أشلاؤهم، واحتمل السلطان إلى بعض دوره وبه رمق، للزوق العمامة بفوهة وَدَجه المبتور، ففاض لحينه رحمه الله. ودفن غلس ليلة يوم الثلاثاء ثاني يوم وفاته، بروضة الجنان من قصر إلى جانب جده، وتنوهيَ في احتفال قبره نقشًا وتنجيدًا وإحكاما وحليًا وتمويهًا، بما يشذ عن الوصف، وكتب على قبره نقشًا من الرخام:

هذا قبر السلطان الشهيد، فتّاح الأمصار، وناصر ملة المصطفى المختار، ومحيي سبيل آبائه الأنصار، الإمام العادل، الهمام الباسل، صاحب الحرب والمحراب، الطاهر الأنساب والأثواب، أسعد الملوك دولة وأمضاهم في ذات الله صولة، سيف الجهاد، ونور البلاد الحسام المسلول في نصرة الإيمان، والفؤاد المعمور بخشية الرحمن، المجاهد في سبيل الله، المنصور بفضل الله، أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن الهمام الأعلى، الطاهر الذات والنجار الكريم المآثر والآثار، كبير الإمامة النصرية، وعماد الدولة الغالبية، المقدس المرحوم أبي سعيد، فرج بن علم الأعلام، وحامي حمى الإسلام، صنو الإمام الغالب، ظهيره العلي المرابت، المقدس المرحوم أبي الوليد إسماعيل بن نصر، قدس الله روحه الطيب، أفاض عليه غيث رحمته الصيّب، ونفعه بالجهاد والشهادة، وحباه بالحسنى والزيادة، وصنع له في فتح البلاد، وقتل كبار ملوك الأعادي، ما يجده مذخورًا يوم التناد، إلى أن قضى الله بحضور أجله، فخُتِم عمره بخير عمله، وقبضه إلى ما أعد له من كرامته وثوابه، وغبار الجهاد غطى أثوابه، استُشِهد رحمه الله غدرة أثبتت له في الشهداء من الملوك قدمًا، ورفعت له في أعلام السعادة علمًا، ولد رضي الله عنه في الساعة المباركة بين يدي الصبح من يوم الجمعة، سابع عشر شهر شوال عام سبعة وسبعين وستمائة، وبويع يوم الخميس السابع وعشرين لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة، واستُشهِد

في يوم الاثنين السادس والعشرين لشهر رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة. فسبحان الملك الحق، الباقي بعد فناء الخلق.»

وبعده من جهة أخرى:

تخصُّ قبركَ يا خِيرَ السلاطين ... تحية كالصَّبا مرَّت بدارِين
قبر به من بني نصرٍ إمامُ هدًى ... عالي المراتب في الدنيا وفي الدينِ
أبو الوليد! وما أَدراكَ من ملكٍ! ... مستنصرٍ واثقٍ بالله مأمونِ
سلطانِ عدلٍ وبأس غالبٍ وندى ... وفضلِ تقوَى وأخلاقٍ ميامينِ
لله ما قد طواهُ الموتُ من شَرفٍ ... وسِرِّ مجدٍ بهذا اللحدِ مدفونِ
ومن لسانٍ بذكر الله منطلقٍ ... ومن فؤادٍ بحبِّ الله مَسْكون
أمّا الجهادُ فقد أحيا معالِمّهُ ... وقام منه بمفروضٍ ومَسْنون
فكم فتوحٍ له تُزهَى المنابُر من ... عُجْبٍ بهنَّ وأوراقُ الدواوين
مجاهد نالَ من فضلِ الشهادة ما ... يُجبّى عليه بأجْر غيرِ ممنون
قضى كعثمانَ في الشهر الحرام ضُحى ... وفاةَ مستشهِد في الدار مطعون
في عارضَيهِ غبارُ الغَزْو تمسَحُهُ ... في جنةِ الخلدِ أيدي حُورِها العِين
يُسْقى بها عينَ تَنْسِمِ وقاتلهُ ... مُرَدَّد بينَ زَقّوم وغِسْلِين
تبكي البلادُ عليه والعبادُ معًا ... فالخلقُ ما بين إخوانٍ أفانين
لكنه حكُم ربٍ لا مردَّ له ... فأمُره الجزمُ بينَ الكاف والنون
فرحمة الله ربِ العالمين على ... سلطانِ عدلٍ بهذا القبر مدفون

وعظمت فيه فجيعة المسلمين، لما ثكلوا من جهاده وعزمه، وبلَوْه من سعده وعزة نصره، فكثرت فيه المراثي، وتراهقت في شجوه القرائح، وبكاه الغادي والرائح، فمن المراثي التي أنشدت على قبره قول كاتبه شيخنا أبي الحسن ابن الجياب:

أيا عَبرةَ العين امزجي الدمعَ بالدم ... ويا زفرةَ الحُزْن احكمي وتحكْمي
ويا قلبُ ذب وجدًا وغما ولَوْعةَ ... فإن الأسى فرضٌ على كل مسلم

وقول كاتبه الوزير الأديب أبي عبد الله بن اللوشيّ:

برّد بنار الشوق منك غليلًا   فالمجد أضحى شاكيًا وعليلا

منها — وهو غرض حسن —:

قلدتُ سيف الوجد فارس لوعتي   أسفًا وأجريتُ الدموع خيولًا
وبنيتُ أبيات الرثاءِ وقد رأت   عيني بيوتَ المَكْرُمات طلولا

وقول كاتبه الفقيه القاضي أبي بكرين شيرين:

عزّ العزاء فما الذي نبديه   في الحزن إلا بعض ما نخفيه
يا أيها الفادي يَحُثّ فأوصه   إبهٍ عن الخَبَر المرَجَّم إبه
أودى أميرُ المسلمين فكيف لا   نأسى عليه، وكيف لا نبكيه؟!
قد كان للإسلام عينَ بصيرةٍ   فأصابت الإسلامَ عينٌ فيه

هوامش

(١) لا عجب من وجود هذه الكتب الصادرة من سلاطين غرناطة إلى ملوك أراغون أقماط برشلونة، وذلك في مجموعة وجدت في إحدى خزائن الكتب في برشلونة، كما أنه لا عجب أيضًا من اشتمال هذه المجموعة على كتب صادرة عن سلاطين أراغون إلى سلاطين المغرب، فقد كان بين الفريقين من علاقات الجوار ما يقتضي استمرار المراسلات.

(٢) نعم له: قال له: نعم

(٣) في الكتب التي تواريخها بعد تواريخ هذا يستعمل سلاطين غرناطة لفظة «القمط» لا «الكند» وكلتاهما ترجمة Comte.

(٤) يستعمل النفاق بمعنى الخلاف.

(٥) L'infante وهو عند الأسبان الولد الثاني من أولاد الملوك.

(٦) الأصل في الإسبانيولي هو «دون» بالدال المهملة Don وربما وضعوا لها النقطة فرارا من لفظة دون التي هي في العربي غير جائزة هنا واليوم نجد العرب في المغرب يكتبونها بالضاد فيقولون «ضون» فرارًا من المحذور نفسه.

(٧) كذا ولم نعرف المراد بهذا الاسم حتى الآن.

(٨) لنا في مجلة «المغرب الجديد» الصادرة في تطاون بحث في أن هذا الاصطلاح كان معروفًا في الأندلس.

(٩) الفارس الذي لا يُدْرَى من أين يُؤْتَى له من شدة بأسه.

(١٠) منزل قلعة بضم أوله أي لا بد من الرحيل عنه.

(١١) هنا كلمة غير مفهومة.

(١٢) الشبطي: يرجح أنها تعريب لفظة sabotar وهو رئيس العصابة، أو الغازي على رأس جماعة من الشجعان، كما علمنا ذلك ممن يحسنون اللغة الكتلونية، وكما هو رأي اللغوي العلامة الأب النسطاس الكرملي، الذي له التدقيق الفائق ما يقر له به كل منصف. وهو يظن أن هذه اللفظة مشتقة من فعل sabo باللهجة البروفنسية، ومعناها « سي» ويرجح أنها مأخوذة في الأصل من العربية. ولا يخفى أن اللغتين البروفنسية والكتلونية متداخلتان جدًّا، كما قد رأيت في كلامنا على بلاد الكاتالان فلا مراء في أن هذه اللفظة أخذها عرب الأندلس عن جيرانهم هؤلاء. والسين في كلام الأسبان تصير شيئا عند العرب إلا ما ندر.

(١٣) الجفن غطاء العين، والجمع أجفان، ويأتي بمعنى غمد السيف. ولم نجده في اللغة بمعنى السفينة كما يراد به هنا، وإنما استعمله العامة بهذا المعنى على تشبيه السفينة بجفن العين في شكلها، أو لأن الجفن يتضمن معنى الوعاء والله أعلم.

(١٤) السلطان أبو الحسن المريني المجاهد الشهير.

(١٥) المغاربة والأندلسيون يقولون لالفونس «اذفنش» وأحيانا «الفنش» وأحيانا يجعلون الفاء هاء فيقولون «لالفونسه» و«الهنشه» ولفردينانده «هرانده».

(١٦) لم نفهم المراد بهذه الكلمة هنا ولعلها تحريف ولكن الحاج محمد بنونة يقول إنها تامة الحروف واضحة الخط.

(١٧) نعم ورد في كتابنا هذا ذكر ابن كماشة وذكر آل كماشة وقد كان وزير السلطان أبي عبد الله بن الأحمر آخر ملوك الإسلام بالأندلس من هذا البيت.

(١٨) أي تجددت.

الفصل الثالث والأربعون

السلطان

محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي أمير المسلمين بالأندلس بعد أبيه، يكنى أبا عبد الله.

حاله: كان معدودًا من نبلاء الملوك وأبناء الملوك صرامة، وعزة، وشهامة، وجمالا، وخَصلًا، عذب الشمائل، حلوًا، لبقًا، لوذعيًّا هشًّا، سخيًّا. المثل المضروب في الشجاعة المقتحمة حدَّ التهوُّر، حِلسَ ظهور الخيل، أفرس من جال على صهوة، لا تقع العين — وإن غصت الميادين — على أدرب بركض الجياد منه، مغرمًا بالصيد، عارفًا بسمات الشفار، وشيات الخيل، يحب الأدب، ويرتاح إلى الشعر، وينبَّه على العيون، ويلمّ بالنادرة الحارة.

أُخذت له البيعة يوم مهلك أبيه، يوم الثلاثاء السابع والعشرين لرجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة، وناله الحَجْبُ، واشتملت عليه الكفالة إلى أن شدا وظهر، وشب عن الطوق، وفتك بوزيره المتغلب على ملكه وهو غلام، لم يُبقل خده، فهيب شباه، ورهبت سطوته، وبرز لمباشرة الميادين، وارتياد المطارد، واجتلاء الوجوه، فكان ملء العيون والصدور.

ذكاؤه: حدثني ابن وزير جده، القائم أبو القاسم بن محمد بن عيسى قال: تذكروا يومًا بحضرته تباين قول المتنبي:

أيا خدَّدَ الله وردَ الخُدود وقَدّ قدودَ الحسان القدود

وقول امرئ القيس:

وإن كنت قد ساءتك مني خليقة　　فسُلي ثيابي من ثيابك تنسل

وقول إبراهيم بن سهل:

إني له عن دمي المسفوك معتذر　　أقول حمّلتُه من سفكه تعبا

فقال رحمه الله بديهًا، على حداثته: «بينهم ما بين نفس ملك عربي، وشاعر عربي، ونفس يهودي تحت الذمة، وإنما تتنفس النفوس بقدر هممها.»، أو ما معناه هذا.

همته: لما نازل مدينة قبره، ودخلها عنوة وهي ما هي عند المسلمين والنصارى من الشهرة والجلالة، بادرنا نهنئه بما تسنّى له، فزوى عنا وجهه قائلًا: «وماذا تهنوني به كأنكم رأيتم تلك الخرقة الكذا — يعني العلم الكبير — في منار أشبيلية!» فعجبنا من بعد همته، ومرمى أمله.

الشجاعة: أقسم أن يغير على باب مدينة بيانه في عدة يسيرة من الفرسان. عينتها اليمين فوقع البهت، وتُوقعت الفاقرة، لقرب الصريخ ومنعة الحوزة، وكثرة الحامية، ووفور الفرسان، وتنخل أهل الحفاظ، وهجم عليها فانتهى إلى بابها وحمل على أضعافه من الحامية فألجأهم إلى المدينة، ورمى يومئذ أحد النصارى بمزراق محلي السنان، رفيع القيمة فأثبته، وتحامل الطعين يريد الباب، فمنع من الإجهاز عليه، وانتزاع الرمح الذي كان يجره خلفه وقال: «اتركوه يعالج به جرحه، إن أخطأته المنية.» فكان كما قال الشاعر في مثله — أنشدناه أبو عبد الله بن الكاتب:

ومن جوِده يرمي العداةَ بأسهمٍ　　من الذهب الإبريز صيغت نصولُها
يداوي بها المجروحُ منها جراحَه　　ويتخذ الأكفانَ منها قتيلُها

جهاده ومناقبه: نازل حصن قشرة لأول أمره، وهد سوره، وكاد يتغلب عليه، لولا مدد دخله فارتحل وقد دوّخ الصَّقع.

ونازل قبره وافتتحها، وهزم جيش العدو الذي بيت محلته بظاهرها. وتخلص جبل الفتح، وهي أعظم مناقبه، وقد نازله الطاغية، وأناخ عليه بكلكله، وهَدَّ بالمجانيق

أسواره، فدارى الطاغية، واستنزل عزمه، وتاحفه، إلى أن صرفه عنه، ففازت به قداح الإسلام.

بعض الأحداث: وفي شهر محرم من عام سبعة وعشرين وسبعمائة نشأت الوحشة بين وزيره المتغلّب على أمره محمد بن أحمد المحروق، وبين شيخ الغزاة عثمان بن أبي العُلي، فصبّت على المسلمين شؤبوب فتنة، عظم فيهم أثرها، فخرج مغاضبًا، وهمّ للانصراف عن الأندلس، ولحق بساحل المرية، ثم داخل أهل حصن الدرش، فدخل في طاعته، واستضاف إليه ما يجاوره، فأعضل الداء، وغامت سماء المحنة، واستلحق المذكور عم السلطان من تلمسان محمد بن فرج بن إسماعيل، فلحق به وقام بدعوته في أخريات صفر من عام سبعة وعشرين وسبعمائة، وكانت بينهم وبين جيش الحضرة وقعات تناصفوا فيها الظفر. واغتنم الطاغية فتنة المسلمين، فخرج غرة شعبان من العام ونازل ثغر وبرة ركاب الجهاد، فتغلب عليه، واستولى على جملة من الحصون التي تجاوره فاتسع نطاق الضّر، وأعيا داء الشر، وصرفت إلى نظر السلطان ملك الغرب في أخريات العام رُندة، ومربلّة، وما إليهما، وأجلت الحال عن مهادنة عثمان بن أبي العُلى. وصرف المستدعي لدعوته إلى العدوة، وعبر هذا الأمير رحمه الله البحر بنفسه مستصرخًا ومستدعيًا للجهاد، في الرابع والعشرين من شهر ذي حجة عام اثنين وثلاثين وسبعمائة ووفد على ملكه السلطان الشهير أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق مستصرخًا إياه، فأعظم وفادته، وأكرم نزله، وأصحبهُ إلى الأندلس ولده، وحباه بما لم يحب به ملك تقدّمه، من مقربات الخيل، وخطير الذخيرة، ومستجاد العدة، ونازل على أثره جبل الفتح، وهيأ الله فتحه، ثم استنقاذه بلحاق السلطان، ومحاولة أمره، فتم ذلك يوم الثلاثاء الثاني عشر من شهر ذي حجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة.

وزراء دولته: وزر له وزير أبيه أبو الحسن بن مسعود، وأخذ له البيعة، وهو مثخن بما أصابه من الجراحات يوم الفتك بأبيه. ولم ينشب أن أجهزت عليه عدواها.

وتولى له الوزارة بعده وكيل أبيه محمد بن أحمد بن محمد بن المحروق. من أهل غرناطة. يوم الاثنين غرة شهر رمضان عام خمسة وعشرين وسبعمائة. ثم قتل بأمره ثاني يوم من محرم فاتح عام تسعة وعشرين وسبعمائة.

ثم وزر له القائد محمد بن أبي بكر بن يحيى بن مول، المعروف بالقيجاطي، من وجوه الدولة، إلى سابع عشر من شهر رجب من العام. ثم صُرف إلى العدوة.

وأقام رسم الوزارة والحجابة والنيابة مولى أبيه القائد أبو النعيم رضوان الشهير الديانة والسعادة إلى آخر مدته بعد أن التاث أمره لديه. وزاحمه بأحد المماليك يسمى عضامًا أيامًا يسيرة بين يدي وفاته.

كتّابه: كتب عنه كاتب أبيه وأخيه شيخنا الإمام العلامة الصالح أبو الحسن بن الجيّاب رحمه الله إلى آخر مدته.

قضاته: استمرت الأحكام لقاضي أبيه وأخي وزيره الشيخ الفقيه أبي بكر يحيى بن مسعود المحاربي، رحمه الله، إلى عام سبعة وعشرين وسبعمائة، فتوجه رسولًا إلى ملك المغرب، وأدركته الوفاة بمدينة سلا، فدفن بها بمقبرة شالْة.

وتخلّف ولده أبا يحيى مسعودًا، نائبًا عنه، فاستمرت له الأحكام، واستقل بعده إلى أن صُرفِ عن القضاء يوم عاشوراء من عام أحد وثلاثين وسبعمائة.

وتولى الأحكام الشرعية شيخنا الإمام العَلَم الأوحد، خاتمة الفقهاء، وصدر القضاة العلماء، أبو عبد الله محمد بن يحيى بن بكر الأشعري المالقي، فاستمر له الحكم إلى تمام مدته، وصدرًا من أيام أخيه بعده.

من كان على عهده من الملوك: أولا بالمغرب: السلطان الشهير الكبير الجواد، ولي العافية، وحليف السعادة أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق إلى أن توفي يوم الجمعة الخامس والعشرين، من شهر ذي قعدة عام أحد وثلاثين وسبعمائة، ثم صار الأمر إلى ولده السلطان المقتفي سنته في المجد والفضل وضخامة السلطان مبرًّا عليه بالبأس المرهوب، والعزم الغالب، والجد لا يشوبه هذل، والاجتهاد الذي لا تتخلّله راحة أبو الحسن، إلى آخر مدته، ثم مدة أيام أخيه بعده.

وبتلمسان: الأمير عبد الرحمن بن موسى أبو تاشفين، مشيّد القصور، ومروّض الفروس، ومتبنّك الترف، إلى تمام مدته، وصدرًا من مدة أخيه بعده

وبتونس: الأمير أبو يحيى أبو بكر ابن الأمير أبي زكريا ابن الأمير أبي إسحاق، لبنة تمام القوم، وصقر جوارح متأخريهم، إلى تمام مدته، وصدرًا كبيرًا من دولة أخيه.

ومن ملوك النصارى: أولا بقشتالة: الفونش بن هرانده بن شانجة بن الفونش بن هرانده، الذي ملك على عهده الجفرتين القنيطيّة والتاكرونية واتصلت أيامه إلى أخريات أيام أخيه.

وبرغون: الفونش بن جايمش بن الفونش بن بيطره بن الفونش بن بيطره بن جايمش، المستولي على بلنسية إلى آخر مدته، وصدرًا من مدة أخيه.

وفاته: وتوغَّرت عليه صدور رؤساء جنده المغاربة، إذ كان شرِهًا، لسانه غير جزوع ولا هيابة، فربما تكلم بملء فيه من الوعيد الذي لا يخفى عن المعتمد به. وفي ثاني يوم من إقلاع الطاغية عن جبل الفتح بسعيه وحسن محاولته — وهو يوم الأربعاء ثالث عشر من شهر ذي الحجة، وقد عزم على ركوب البحر من ساحل منزله، بموقع وادي السقايين — تماروا في ظاهر الجبل تخفيًا للمؤنة، واستعجالًا للصدر، وقد أُخذت على حركته المراصد، فلما توسطَ كمينَ القوم ثاروا إليه وهو راكب بغلًا، أثابه به ملك الروم، فشرعوا في عتبه بكلام غليظ، وتأنيب قبيح، وبدءوا بوكيله فقتلوه، وعجل بعضهم فطعنه، وترامى عليه مملوك من مماليك أبيه زنمة من أخابث المعلوجاء[١] اسمه زيان، صونع على مباشرة الإجهاز عليه، فقضى لحينه، في سفح الربوة المائلة، يسرة العابر للوادي، ممن يقصد الجبل، وتركوه بالعراء مسلوب الساتر، سيئ المصرع، قد عَادَت عليه نعمه، وأوبقه سلاحه، وأسلمه أنصاره وحماته.

ولما فرغ القوم من مبايعة أخيه السلطان يوسف، صُرفت الوجوه إلى دار الملك ونقل القتيل إلى مالقة، فدفن على حاله تلك، برياض تجاور منية السيد، فكانت وفاته ضحوة يوم الأربعاء الثالث عشر من ذي حجة عام ثلاثة وسبعمائة. وأُقيمت عليه بُعيد زمان قبّة، نوِّه بقبره، وهو الآن ماثل بها رهن وحدة، ومستدعى عبرة، وعليه مكتوب:

> هذا قبر السلطان الأجل، الملك الهمام، الأمضى الباسل، الجواد، ذي المجد الأثيل، والملك الأصيل، المقدس المرحوم، أبي عبد الله، محمد ابن السلطان الجليل الكبير الرفيع، الأوحد المجاهد الهمام، صاحب الفتوح المستورة، والمغازي المشهورة، سلالة أنصار النبي ﷺ، أمير المسلمين، وناصر الدين الشهيد المقدس، المرحوم أبي الوليد بن فرج بن نصر، قدس الله روحه، وبرّد ضريحه. كان مولده في الثامن لمحرم عام خمسة عشر وسبعمائة، وبويع في اليوم الذي استشهد فيه والده، رضي الله عنه السادس والعشرين لرجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة، وتوفي في الثالث عشر لذي حجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة، فسبحان من لا يموت.

يا قبرَ سلطانِ الشجاعة والنَّدَى فرع الملوكِ الصيدِ أعلام الهُدَى
وسُلالة السَّلَفِ الذي آثارُه وضّاحةٌ لمن اقتَدَى ومَن اهتَدَى
سلف الأنصار النّبيِّ نجارُه قد حلّ منه في المكارمِ مَحْتِدا
متوسط البيت الذي قد أسسته سادة الأملاك أوحدَ أوحدا
بيت بنوه محمَّدون ثلاثة من آل نصر أورثوه محمَّدا
أودعتَ وجهًا قد تهلّل حسنهُ بدرًا بآفاق الجلالة قد بدا
وندَى يسحّ على العفاة مواهبا مثنى الأيادي السابغات وموحدا
يبكيك مذعورٌ، بك استعدَى على أعدائه فسقيتهم كأس الرَّدى
يبكيك محتاج أتاك مؤملًا فغدا وقد شفعت يداك له اليدا
أمَّا سماحك فهو أهمَى دِيمة أما جلالك فهو أسمى مصعدا
جادت ثراك من الإله سحائب لرضاه عنك تجود هذا المعهدا

وتبعت هذا السلطان نفوس أولي الحرية، ممن له طبع رقيق، وحس لطيف ووفاء كريم، فصدر فيه من التأبين أقاويل للشجون مهيجة، فمن ذلك ما نظمه الشيخ القاضي أبو بكر بن شيرين، وكان على ظرفه وحسن روائه غراب ندبة، ونائحة مأتم، يرثيه، ويتعرَّض ببعض من حمل عليه من خدّامه:

استقلاّ ودَعاني طائفًا بين المغاني
وانعما بالصبر إني لا أرى ما تَريانِ
قُضي الأمر الذي في شأنه تستفتيان
ومضى حكمُ إله ما له في الملك ثان
مات يوم السلم قعصًا مِدْرَهُ الحرب العوان
واستُبيح المَلِكُ ابن الملكِ الحرِّ الهِجان
يا خليليّ أعينا ني على شجو عناني
واذكر سابغة النعمة فيما تذكران
وإذا صلّيتما يومًا عليه آذِنان
ما علمنا غير خيرٍ فاقضيا ما تقضيان
لا نبالي ما سمعنا من فلان وفلان

غيرَ ما قالوا اعتقدنا   وعلينا شاهدان
وغدًا يجمعنا المو   قف من قاص ودان
ورِضَى الله هو المطلوب   في كل أوان
وأخو الصدق لَعَمْري   ذو مقاماتٍ حِسان
وهوى النفس عناء   حائل دون المعاني
وعلى البغضاء يُطْوَى   وُدّ إخوان الخوان
بأبي واللهِ أشلاء   على الرمل حَوان
بفتى ما كان بالوا   ني ولا بالمتواني
يمزج الماء نجيعًا   وينادي: علّلاني!
ليس بالهيَابة النكس   ولا الغَمْر الهدان
أبيض الوجه تراه   والرَّدَى أحمرُ قان
أيُّ سيف لِضراب   أي رمح لطعان
ذو نِجار خزرجيّ المنت   مى سامي المكان
ذكره قد شاع في الأرض   إلى أقصى عُمان
لا تراه الدهرَ إلا   حِلف سَرج أو عنان
عن صهيل الخيل لا يُلهيه   تعزاف القيِان
إن ألمت هيعةُ طارَ   إليها غير وان
يصدعُ الليلَ بقلبٍ   ليس بالقلب الجبان
يا لها من نصبة لولا   نحوس في القران
وشباب عاجلوه   بالردى في العنفوان
لم يجاوز من سنيه   العشرَ إلا بثمان
دوّخ الأقطار غزوًا   من هضاب ومحان
حكّموا فيه الظبي   أسرع من لمح العيان
إن يكونوا غادروه   في الثرى ملقى الجران
تشرب الأرض دمًا منه   تهاداه الغواني
وتحيّيه بتسليم   ثغور الأقحوان
فالمعالي أودعته   بين سَحر ولَبان
وغوادي المزن   يرضعن ثراه بلبان

ضاع سرح الثغر لما — أغمد السيف اليماني
وأُعير الأسَدُ الوَرْدُ — القميصَ الأرجواني
عاطياني أكؤس الحزن — عليه عاطياني
حمله دون صلاة — للثرى مما شجاني
أوَما كانوا يدْ — عُون أعقابَ الأذان
لا تهينوه فما كان — بأهل للهوان
عجبي والله من إب — طان هذا الشنآن
أنا مذ غاب فبالسالي — فؤادًا ما أُراني
وبحسبي دعوات — أنا فيها ذو افتتان
بتَّ أهديها إليه — بعد ترتيل المثاني
ذاك جُهدي، إنَّ إحسان — أبيه قد غذاني
فأنا الشيعة حقًّا — بفؤادي ولساني
أفأنسى ذلك العهدَ — وليسد الغدرُ شاني
ويقال الرشح موجود — قديمًا في الأواني
وعهود الناس شتى — من عجاف وسمان
وهي النعمة حقًّا — شكرها في كل آن
اتئد يا فارس الخيل — فغيرُ الله فان
والمعالي تطلب الثأر — وتأتي بالأماني
وهي الأرحام لا تنسى — ولو بعد زمان
أنت من رحمة غفّار — الخطايا في ضمان
وهو يوفي الخصم إن شاء — وزانًا بوزان
والذي أفشى قبيحًا — حظه عضُّ البنان
سلّم الله على من — فيه ذو جهل لحاني
وجزاه بجهاد — جاء منه ببيان
ربنا أنت خبير — بخفيات الجنان
ويداك الدهرَ فينا — بالندى مبسوطتان
ومَجال العفو رحْب — والرضى غضُّ المجاني

فـتـغـمـدنـا بـرحـمـى وقـــبـــول وأمـــان
واجمع الشمل على أفضل حـــال فـــي الـــجِـــنـــان

واقتضت آراء القوم القائلة استرعاء عقد يتضمن ألفاظًا كانت تصدر عن السلطان قادحة في العقد جاءوا بها إفكًا وزورًا، ستُكتب شهادتهم ويُسألون.
ومن المعاني البديعة في عكس الأغراض قوله:

عينُ بَكِّي لميّت غادروه في ثراه ملقًى وقد غدروه
دفـنـوه ولـم يـصـلّ عـلـيـه أحـد مـنـهـم ولا غـلـسـوه
إنما مات حين مات شهيدًا فأقاموا رسمًا ولم يقصدوه

وسنترجم إن شاء الله هؤلاء الملوك ووزراءهم بأوسع من هذا عند الوصول إلى الكلام على غرناطة.

هوامش

(١) العلج بكسر فسكون القوي الضخم من العجم وجمعه علوج وأعلاج وعلجة واسم الجمع معلوجاء.